

جهاد النفس

بَصِيرةُ العَقلِ واستِقامةُ السُلوكِ

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج السيد محمد تقي المدرسي

جهاد النفس

بصيرة العقل واستقامة السلوك

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج السيد محمد تقي المدرسي



جهاد النفس

بصيرة العقل واستقامة السلوك



الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م

هوية الكتاب

* **الكتاب:** جهاد النفس.. بصيرة العقل واستقامة السلوك.
* **المؤلف:** المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.
* **الطبعة:** الثانية، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م. (٤٨٨ صفحة).
* **تحقيق:** مركز العصر للثقافة والنشر - بيروت.
* **الناشر:** دار المحجة البيضاء.





الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

الفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠ م

مقدمة



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد وآله الهداة الميامين.

إن النفس الإنسانية شفافة وإنما تحجبها الرغبات والهموم، فالنفس شاعرة تحب الجمال، وتعشق النور، وتنجذب إلى روعة النظام ودقة التناغم.. ولكن الذين يشتغلون أبداً بلذات البطن وما دونه، وتلعب بعقولهم خمرة التفاخر والتكاثر أنَّى لهم الاستماع إلى همسات روحهم، والاهتمام بلذات عقلهم.

من هنا يحتاجون إلى من يُذكِّرهم بها، ويستثير في نفوسهم الإحساس بجمال الطبيعة وروعتها وتناسقها ونظامها الدقيق، حيث يجعلهم ينظرون إلى الشمس وضحاها ببراءة الطفل، وإحساس الشاعر، وشفافية الواله، وكلما أشرقت الشمس على البسيطة ونشرت ضحاها فوق الروابي والسهول، وبثَّت أشعتها عبر النوافذ والمداخل.. استلهموا منها درساً جديداً، بل روحاً جديدة.

عن هذه النفس قال ربنا عز وجل: **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾**[1].

---

(١) سورة الشمس، آية: ٧-١٠.

في أعماق هذه النفس آيات لا يتسنى لغير صاحبها بلوغ أغوارها.

وأعظم ما في النفس العقل الذي هداها الله به إلى تقواها وفجورها، ما يصلح لها وعليها أن تأتي به، وما يفسدها وعليها أن تتركه.

عظيمة جدًّا نعمة العقل، وما أعظم نعمة المشيئة التي بها يبلغ أرفع درجات الكمال المتمثلة في الفلاح. أَوَلَيس الفلاح بلوغ المنى، وتحقيق أبعد الأهداف والغايات؟

بلى؛ ولكن كيف؟ أَوَلَيست الفطرة النقية حجر كريم مخبوء تحت ركام التراب والأحجار؟ أَوَلَيست التزكية هي نقب في الركام ليشع نور الحجر الكريم ويتعاظم بالمزيد من التطهير.

وما أشقَّه من كدح متواصل يستحق بكل جدارة وصف (**الجهاد الأكبر**)، وأن يكون أحد ثنائي مهام الأنبياء (**التزكية، والتعليم**).

إذن بصائر الوحي المشرقة في الروايات الشريفة تهدينا سواء السبيل، وتأخذ بأيدينا نحو معارج الكمال.

والكتاب الذي بين يديك -عزيزي القارئ- هو تأملات في الروايات الشريفة. وهو في الأصل جملة محاضرات ألقاها سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله)، على الأفاضل من طلبة العلوم الدينية في طهران، وذلك ضمن دروس بحث الخارج، وهي أعلى مرحلة دراسية في الحوزات العلمية. وقد اعتمد سماحته كتاب الوسائل للمحدث الحر العاملي رحمه الله في تنظيمه للروايات في أبواب (**جهاد النفس**).

وهو مقسم على أربعة أبواب:

الباب الأول: رسالة الحقوق.

وهي كلمات خالدة للإمام زين العابدين عليه السلام عرفت بهذا الاسم. وهذه

الرسالة تكشف للإنسان ما عليه من حقوق بشكل مُفصَّل في جميع الاتجاهات وبكل الآفاق. وهي على الرغم من أنها تُبيِّن بشكل ساطع الجانب الحقوقي للإنسان، إلا أنها في الوقت ذاته هي بيان لقيمة الإنسان، وكشف عن منزلته وكرامته.

الباب الثاني: خصال الإيمان

ثمة سؤال يشغل المؤمنين وهو هاجسهم أبداً، عن المنهج السليم لمعرفة الإيمان؟.

لأن الكلمات وحدها قد تحجبنا عن حقيقة الإيمان، وتجعلنا نتخيَّل مفاهيمه، ثم نزعم أنها تلك الحقيقة. لكنها أبداً تكون سراباً مفهوميًّا، بينما الروايات تفتح أفقاً مختلفاً للبحث. فتجد شفاء الغليل في معرفته بعلاماته وبآثاره في الواقع.

فإذا عرفنا آثار الإيمان ثم تتبَّعنا تلك الآثار على أرض الواقع، وراجعنا الأمثلة الواقعية للإيمان، ورجعنا إلى أنفسنا وما يختلج في صدورنا من حقائق الإيمان؛ وهكذا إذا فعلنا ذلك المرة بعد الأخرى، فإننا نبلغ معاني الايمان وبعض حقائقه.

فالإيمان هو روح في القلب يبعث الإنسان نحو التسليم للحق، وهو وقر في القلب يتجلّى في العمل الصالح، كما أنه كلمة التقوى تتجلى في التقيُّد والالتزام بحدود الله سبحانه، وهو أيضاً الرسوخ في العلم عندما يتجلّى في التسليم النفسي للحق والإذعان به.

ومن هنا كان علينا أن نتدبر مليًّا في آثار الإيمان، وفي آياته وعلاماته، ونتَّخذ منها سبيلاً إلى حقيقته التي قد نجدها في أنفسنا، ونتحسس ببردها على أفئدتنا، وسكينتها في قلوبنا، وعزيمتها في الانبعاث إلى عمل الخير والاشتمال على المكارم.

الباب الثالث: لنكون من التائبين.

الإنسان معرَّض للخطأ، ويقترف الذنوب ويرتكب المعاصي.. غير أنّ هذا لا يعني أبداً نهاية المطاف. بل إن رب العزّة جعل باب رحمته مفتوحاً على مصراعيه بوجه التائبين والمستغفرين.

من هنا يفتح الله أمام المذنبين باب التوبة، ولكن يشترط عليهم ألَّا تكون

توبتهم لفظية، بل توبة نصوحاً تتجلى في إصلاح الفساد الذي عملوه.

ويُخطئ من يُسوِّف توبته، ويُؤجِّلها من يوم لآخر، لأنه لا يضمن حياته حتى يتوب قبل موته بأيام أو ساعات. كلّا؛ بل لا يُصدِّق بالموت إلّا حين ينزل به فعلاً، وعندها لا تنفعه التوبة.

من هنا ينبغي المبادرة والمسارعة إلى التوبة قبل فوات الأوان. فهو إذن حديث عن حقيقة التوبة وشروطها وآدابها.

الباب الرابع: تزكية النفس سبيل المؤمنين

وهو حديث الكتاب. وواضح أنّ مجرد الممارسات العبادية (**مثل الصلاة**) لا يكفي في تحقيق هذه الغاية. بل إن الصفات الرذيلة ستُلقي بثقلها المقيت على مثل هذه الصلاة الخاوية. إن المصلي الذي ضربت جذور الحرص والطمع والحقد في أعماق نفسه لا يكون في مأمنٍ من شرورها حتى أثناء أدائه الصلاة.

إن الخطوط الأولى للتزكية هو تطهير الذات من الرغبات والأهواء النفسية. وبدونها فإن عملية بناء الذات عبر الممارسات العبادية، سواء الواجبة منها أو المستحبة، ستكون غير ذات فائدة تذكر.

ولكيلا نُطيل عليك عزيزي القارئ، ندعك مع الكتاب، لتسلك على هدىً من قبسات أهل البيت عليهم السلام في عوالم (**جهاد النفس**).

وقبل الختام تجدر الإشارة إلى أن هذه المحاضرات كانت في الأصل باللغة الفارسية، لذا قمنا بترجمتها وتحريرها، رجاءً لتعميم الفائدة، سائلين الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل بقبول حسن، إنه ولي التوفيق.

مكتب المرجع الديني

آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي

1

الباب الأول

تأملات في رسالة الحقوق

1



حق الله عز وجل.. وحق النفس

أشار المرحوم المحدث الكبير الشيخ العاملي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه **(وسائل الشيعة)** في الباب الثالث من أبواب جهاد النفس، أشار بشكل مختصر إلى رسالة الحقوق المروية عن الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي هذه الرسالة الشريفة توضيح لواجبات ومسؤوليات الإنسان تجاه ربه ونفسه والآخرين.

فكما أن الإنسان يلقي بظله على الآخرين ويدفعهم إلى تحمله، وكما يدعي لنفسه حقوقاً عليهم؛ كذلك عليه أن يعلم في الوقت ذاته بأن هناك حقوقاً للآخرين عليه، فيتحمل مسؤوليته، ويتقبل الناس ويستوعب حقوقهم، وهذا بعد من أبعاد الإيمان.

فالاعتراف والإيمان بوجود أشياء أخرى في الحياة، يعني الاعتراف بأن لتلك الأشياء حقوقاً عليّ؛ فمثلاً حين نقول: أن النار حق، والموت حق، ومساءلة منكر ونكير حق.. وغير ذلك مما نؤمن به؛ فليس المقصود هو سرد الحقائق في قائمة مطوَّلة، بل معنى كون النار حقاً هو أن نخافها ونحذرها، وكون الجنة حقاً هو أن نرجو امتلاكها وورودها.. وهكذا بالنسبة لسائر الحقائق.

فإذا صدق المرء بهذه الحقائق وآمن بها، فعليه بعد ذلك أن يشمّر عن ساعديه بصورة جدية للعمل وفق متطلباتها، لأن قبول الحق لا يعني مجرد لجوئنا إلى الدعاء

في بعض الأحيان بأن نقسم على الله سبحانه وتعالى ببعض تلك الحقوق، أو أن نقسم عليه أي بحق كل ذي حق عليه، ثم لا نقوم بعمل شيءٍ سوى ذلك..

حق الله.. قبل كل شيء

في مطلع رسالة الحقوق يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «**حَقُّ اللَّـهِ الْأَكْبَرُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْبُدَهُ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ بِإِخْلَاصٍ جَعَلَ لَكَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَكْفِيَكَ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**»(١).

إن حق الله على عبده هو أن يعبده ولا يشرك به شيئاً، وإن العبادة ليست إلا التسليم لله عز وجل. فإذا نمت هذه القناعة والحالة الروحية في الإنسان، فإنه وإن أذنب وأخطأ بين الحين والآخر، فإن الأمل في صلاحه وإصلاحه سيبقى قائماً، شريطة ألا يكون الأصل في نيته وسلوكه هو تعمد ارتكاب الذنب ووجود الرغبة العارمة فيه؛ بل يجب عليه أن يخلص ويصفي نيته أيضاً فلا يخلط بين الله وغيره، فلا يلفق أو يخلط مثلاً بين الزيارة للمسجد النبوي مثلاً والسياحة، أو الحج والتجارة، فيؤديهما بنية واحدة في نفس الوقت، لأنه والحال هذه سيصطدم بمشكلة كبيرة، هي الرياء والنفاق، ولذلك كان عليه القيام بكل واحد من العملين الأخروي والدنيوي منفصلاً عما سواه في الباعث لخصوص العمل الأخروي.

حق الله الأكبر

إذن، ينبغي أن يصل المؤمن عبر العبادة والتسليم لله إلى مرتبة يتيقن فيها أن الله جل جلاله هو مسبِّب الأسباب. فحينما يتوجه المريض إلى الطبيب، عليه أن يعتقد أن الشفاء بيد الله، وهذا التعبير له مصداقية واسعة في العرف، حيث يخاطب الطبيب بالقول: أنت أملي بعد الله، وهو تعبير مقبول ولا إشكال فيه.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١ كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس، الباب ٢، ص١٣٢. (وهكذا ننقل كل نصوص رسالة الحقوق في هذا الكتاب من المصدر المشار إليه، وهناك نصوص أخرى لهذه الرسالة تختلف مع هذا النص في بعض العبارات مذكورة في بحار الأنوار، ج٧١، وتحف العقول).

ثم إن المؤمن إذا ما زلّ في خطابه فيما يخص ربط الظواهر المختلفة بأسباب وعلل ثانوية غير الله عز وجل فليس بعيداً أن يسقط في فخ الشرك الخفي.

فالفرد يجب أن يتوخى الحذر الشديد، وأن يكون دقيقاً للغاية في أمر عبادته لله سبحانه وتعالى، وأن لا يخلط في حوافزه أو حبه أو بغضه بين الله وبين غيره من المخلوقات. فالأب، ورب العمل،والحاكم، والأجداد وسائر العناصر الحقيقية والاعتبارية يجب أن لا تغنيه عن الله جل اسمه، فإذا بلغ الإنسان هذه الدرجة الصالحة كان لله أن يكفيه ما أهمّه، لأنه قد توكل عليه دون غيره.

فحينما يقول الإمام السجاد عليه السلام: «**حَقُّ اللَّـهِ الْأَكْبَرُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْبُدَهُ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ بِإِخْلَاصٍ جَعَلَ لَكَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَكْفِيَكَ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**»[١].

فإن يعني أن على الإنسان أن يصل إلى مستوى درك الحقيقة القائلة بأنه لن ينال منفعة إذا سار في طريقٍ غير طريق الله. فهو ملزم بأن يسعى ويسعى على أمل الوصول إلى الينبوع الأصيل لخزائن الله الأزلية، فيترك في هذا المسير التوافه، ويهجر الزوائد التي ينالها من هنا وهناك.. وعند ذاك فقط سيلبي الله له حاجاته ويسهل عليه المسيرة ويدلّه على الطريق.

فحتى في أبسط المسائل والقضايا المعاشية اليومية، يجب أن يعتقد الإنسان بأن الله هو الذي يسد جوعه، وإن كان يستلم اللحم من يد القصاب مثلاً.

الخضوع لله وحده

فإذا ما أعطاك رئيسك في العمل قرضاً، فلا يستلزم ذلك أن تشعر بالمديونية تجاهه أكثر مما يستحق الأمر.. فتخضع أو تتخضع له، وإن كنت تشعر أو تعلم قطعاً برغبته في أن تتخضع له، فعليك أن تغض الطرف عن مثل هذا القرض، وإن كلفك ما كلفك. فالله تبارك وتعالى هو الذي سيسد احتياجك.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٢.

وطبعاً فإن الله ينفّذ إرادته بواسطة ما وضع من وسائل.. ولا إشكال أن نتوسل نحن بهذه الوسائل، ولكن يجدر بنا ألا نعتبر الوسائل أكثر من كونها وسائل.. فلا يصح أن نتخذها هدفاً أو سبباً أصلياً.

فالله جل جلاله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وهو الرزاق والشافي والكافي..

حقّ النفس

تشبه طبيعة النفس الإنسانية وإلى حدٍ كبير طبيعة السيارة، كما يشبه الإنسان قائد هذه السيارة، فلا ينبغي أن تقاد السيارة إلى أي اتجاه، بل يجدر أن تقاد سيارة النفس في المسير الإلهي، وأن تستهلك عجلاتها وأجهزتها من أجل الله عز وجل دون سواه.

وهذا الأمر المطلوب تحققه منوط بأن يتحكم الإنسان بنفسه، فلا يكلها لغير الله. وعليه؛ فاللازم إخضاع جميع أعضاء البدن لسيادة العقل، وألا يعزف جزء من تلك الأعضاء معزوفة الاعتراض والرغبة في الانفصال عن هذه السيادة.

يقول الإمام السجاد عليه السلام: «**وَحَقُّ نَفْسِكَ عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَعْمِلَهَا بِطَاعَةِ اللّـهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[١].

حق اللسان

ثم يبيّن الإمام السجاد عليه السلام حق اللسان؛ باعتباره من أهم أعضاء الإنسان، فهو أقرب الأعضاء إلى القلب، حيث تتجلى وتتجسد فيه مختلف الحالات والمشاعر والانفعالات؛ فلا يصح أن يتلفظ اللسان ببذيء الكلام، أو يغتاب أحداً.. وليعلم أن اللسان من الأعضاء التي قد تشتكي صاحبها في يوم القيامة.

يقول الإمام عليه السلام: «**وَحَقُّ اللِّسَانِ إِكْرَامُهُ عَنِ الْخَنَا وَتَعْوِيدُهُ الْخَيْرَ وَتَرْكُ الْفُضُولِ الَّتِي لَا فَائِدَةَ لَهَا وَالْبِرَّ بِالنَّاسِ وَحُسْنَ الْقَوْلِ فِيهِمْ**»[٢].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٢.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٢-١٣٣.

فالبعض من الناس متعودون على التشكي والتأوه بألسنتهم بمجرد دخولهم البيت، وهناك من يرى النقاط الإيجابية في الآخرين، فتلهج ألسنتهم بالثناء على فضائل الناس ومحاسنهم، فحينما يدخل البيت يبدأ بالسلام ويعلن احترامه، ثم يقول بكل لطف ولين: ما أنظف هذا البيت وما أروع ترتيبه.. وإذا وضعتم لوحة خط بكلمة «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» مثلاً على الجدار المقابل كان ذلك جيداً، وإذا وضعتم المرآة في الجانب الفلاني للبيت تضاعف جمال البيت.

لاحظوا؛ إنه من الممكن لنا أن نخلق الأمل في الحياة لدى الآخرين، وأن نكرس المحبة والألفة في قلوبهم، وأن نقلع جذور الخصام والحقد من بينهم. كل ذلك من الممكن إنجازه وبيسر بالغ بواسطة اللسان؛ هذا العضو الصغير الكائن في فضاء الفم.

فالإنسان بمستطاعه أن يكون سبباً للخير في دقائق معدودة يمكث خلالها في سيارته، ويبدأ بتحريك لسانه بهذا الاتجاه.. فينصح صديقه الجالس إلى جانبه بالزواج وتشييد صرح الأسرة أو انتخاب العمل المناسب وأمثال ذلك، فيجر صديقه المستمع إليه إلى واقع أفضل.

فالأشخاص الدقيقون لا يضيعون الفرصة على أنفسهم في كيفية توجيه النصح للآخرين، فحتى لو كانوا مستلقين على فراشهم في حلكة الليل، فهم يفكرون فيما ينبغي أن يؤدوه من النصح للآخرين غداً، فيكون ذلك النصح مفيداً لهم في الدنيا والآخرة.

وقد كان أحد مراجع التقليد الكرام ينقل لنا؛ إن أفراداً كانوا يقصدونني، وأثناء حديثي معهم أقترح عليهم اقتراحاً معيناً، ثم أودّعهم ويودعونني، فيغيبون عني، وأنساهم، ثم بعد عدة سنوات التقي شخصاً، فيذكرني بأنه أحد الأشخاص الذين تحدثت إليهم واقترحت عليهم ما اقترحت في زمن سالف. ثم يؤكد لي أنه قد عمل باقتراحي ووصل إلى حيث وصل، مبدياً سعادته ورضاه إزاء ما بلغ وحقق.. فمثلاً كنت قد نصحته بأن يكتب كتاباً.. فسارع في التأليف وواصل نشاطه وكرس ثقافته حتى صار ذا باعٍ في هذا المجال، أو كنت قلت له بأن يبني مسجداً أو حسينية، فقام بذلك.

وإنه لمن المفرح جداً أن يقترح المرء على الآخرين بلسانه اقتراحات عملية يطبقونها فيما بعد، فيكون له سهم وحصة فيما يحصلون عليه من الأجر والثواب.

إن الخبراء باتوا يعتقدون اليوم بأن ساعة من التحدث تعادل ثمان ساعات من العمل، وأن لهما تأثيراً متساوياً على الأعصاب.. وأنا بدوري حينما ارتقي المنبر وأمارس عملية الخطابة، أشعر بالتعب والإرهاق المفرط، بحيث يؤثر تأثيراً سلبياً على استراحتي، مما يدل على أن عملية تحريك اللسان والتركيز تستنفذ طاقة كثيرة من المتحدث، ولذلك كان من المؤسف بمكان أن تصرف هذه الطاقة بصورة سلبية عشوائية، بل لابد أن تؤخذ الحكمة المعروفة لكل مقام مقال بعين الاعتبار، وأن يراعي الإنسان الحذر من التكلم بما لا ضرورة فيه.

فالإنسان لابد أن يكون على يقين بأن الكلمات الصادرة عنه تكتب من قبل الملائكة الكرام الكاتبين وفقاً لصريح القرآن ثم يحاسب عليها في يومٍ من الأيام.

ومن الطريف أننا نجد في بعض البلدان طريقة للاتصالات التلفونية العامة، حيث تسقط القطع النقدية المعدنية التي يضعها المتحدث في الجهاز، تسقط في وعاء زجاجي، فكلما استغرق المتحدث بالاتصال، كلما طلب منه، أو وجد نفسه ملزماً لأن يضع قطعة نقدية جديدة في الوعاء، فيكون بمقدوره أن يرى مقدار النقد الذي وضعه ليكون ثمناً لحديثه واتصاله.

لقد اعتدنا إطالة الأحاديث غير اللازمة، دون علم منّا كم تكلفنا أحاديثنا، وكم ستسبب لنا من المشاكل والإحراجات عند الجواز على الصراط في يوم القيامة!.

إن واحدة من الوظائف الأساسية المتعلقة باللسان هي خدمة الناس عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير والإصلاح، والترحيب الطيب، وإرشاد الجاهلين، وغير ذلك.

وقد يتسبب اللسان في إثارة حالة الخجل والاستحياء لدى أحد الأشخاص جراء عدم رعاية أصول الأدب الصحيح، في حين إن الكلمة الطيبة وبث روح

السعادة والارتياح في الآخرين من الموارد التي يمكن أن يؤدي اللسان فيها وظيفته المطلوبة. وقد ورد في القرآن الكريم أن هناك من يتصدق ثم يُتبع صدقته بالمن وإيذاء الفقراء والمساكين، بينما القول المعروف باللسان الطيب المقترن باللطف والرحمة أفضل وأنفع من الصدقة التي يتبعها الأذى للمساكين والفقراء. قال الله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾[١].

إن من وظائفنا أن نفتح ملفاً بفضائل الآخرين وأعمالهم الطيبة، ثم نقوم بنشرها هنا وهناك، لأن مثل هذه العملية تضاعف جاذبيتنا.. ولكن نشر المساوئ بالإضافة إلى أنها تبعث على الكسل والخمول ستنتهي إلى ابتعاد الآخرين عنّا.

حقوق عامة

إذا رغب إنسان في تناول فاكهة كالبرتقال، فهو في واقع الأمر لا يحب هذه الفاكهة لذاتها، بقدر ما يرغب في اللذة التي يشعر بها وتتوفر لديه أثناء تناوله البرتقال، فإذا قال الإنسان: إنه يحب البرتقال فهو يعني أنه يحب ذاته ولذته.

بينما الحب الواقعي ليس لأن الطرف الآخر (المحبوب) يفيد الإنسان، بل إن الحب الواقعي قد يستلزم في كثير من الأحيان أن يضحي الإنسان بملذاته الشخصية، بل وبأعز الأشياء إليه من أجل المحبوب. فالحب الحقيقي هو الذي يحطم سجن الأنانيات الضيقة، ويبدد ظلمات الذاتيات وهذه المسألة مهمة جداً، فإذا ما حلت؛ حلت معها سائر مشاكل الإنسان.

فإذا كان الإنسان محباً حقيقياً للمحبوب الحقيقي، وهو الله، فإنه سيهتم بسائر الموجودات في العالم، ولن يكون الأمر حكراً على توطيد علاقته بالأنبياء والأئمة عليهم السلام، والقيم الدينية كالجنة والنار والملائكة والجن والإنس فحسب، وإنما سيتعامل على أساس المحبة مع سائر الملل والأقوام والأشخاص، بل إن علاقته حتى بالحيوانات والجمادات ستتأكد وستسمو.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٣.

إن المؤمن يعتبر أن للأرض حقاً عليه أيضاً، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«اتَّقُوا اللَّهَ؛ عِبَادَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ..»**[١]. وأنا اعتقد أن الأرض التي لا أزرعها ولا أحييها، وأنا قادر على ذلك، ستتقدم بالشكوى ضدي في يوم القيامة.

وللفقهاء في كتاب النكاح باب خاص بالنفقات، وكان هذا الباب صغير الحجم بادئ الأمر، لكنهم أخذوا بتوسيعه شيئاً فشيئاً، فأضافوا إليه بحث نفقة الأولاد والأقارب والعبيد والخدم وغير ذلك، ثم توسعوا أكثر من ذلك حتى بحثوا موضوع النفقة على الحيوانات ورصد حقوقها، فيما تحدث فقهاء آخرون بخصوص نفقة الأشجار والنباتات المملوكة للإنسان.

وعموماً؛ هناك مباحث مطولة فيما يتعلق بالحقوق الملقاة على عاتق الإنسان، حتى أنه جاء في الروايات أن للمساجد حقوقاً خاصة، وإذا لم ترع هذه الحقوق أو تؤدّى جاءت يوم القيامة تشكو الناس إلى الله تعالى، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **«ثَلَاثَةٌ يَشْكُونَ إِلَى اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ مَسْجِدٌ خَرَابٌ لَا يُصَلِّي فِيهِ أَهْلُهُ وَعَالِمٌ بَيْنَ جُهَّالٍ وَمُصْحَفٌ مُعَلَّقٌ قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِ الْغُبَارُ لَا يُقْرَأُ فِيهِ.»**[٢].

التسليم والرضى شرط الإيمان

وهنا أريد أن أربط بين هذا الموضوع وبين مسألة الإيمان فأطرح هذا التساؤل:

ما هو السبب في أن يحكم على الإنسان بجهنم إذا لم يصدق بواحد من الأنبياء أو الأئمة المعصومين عليهم السلام، أو لم يؤمن بحقيقة جزئية؟!.

يبدو أن سبب ذلك هو أنه لا معنى لأن يؤمن الفرد بحقيقة معينة ثم يطرد ما يشبهها من دائرة إيمانه، فلا مبرر أبداً لأن يؤمن الإنسان بالإمام الحسن عليه السلام دون

---

(١) بحار الأنوار، ج٣٢، ص٧.

(٢) وسائل الشيعة، ج٣، ص٤٨٣.

الإمام الحسين عليه السلام. فالقيم والمقدسات هي عبارة عن حلقات متصلة ولا يمكن تفكيكها بحال من الأحوال.. وعليه، فإن الإيمان بالإمام الحسين عليه السلام لابد له من أن يختزل بين طياته الإيمان بالإمامين الصادق والهادي عليهما السلام مثلاً.

أما الحالات التي يعمد فيها المرء إلى التفكيك وتجزئة إيمانه، فيمكن أن يكون للمنافع والمصالح الفردية والأنانية علاقة بالأمر، فتراه يقبل ما يتطابق مع ميوله الشخصية، ويسميه إيماناً بالله وصيانةً للقيم الدينية، في حين أنه إذا أجرينا عملية تشريح لهذا النوع من الإيمان، علمنا أنه يريد حيازة ونيل الدنيا عن طريق الدين، ولذا لن تبقى قيمة تذكر لمثل هذه الحالة التي يسميها صاحبها إيماناً، لأنه سوف يكفر بكل القيم والحقائق إذا وجدها لا تحقق آماله وطموحاته الشخصية، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[1].

فما هو حق في ذمة الإنسان يجب أن يكون مقبولاً من جانبه على الأقل، ولهذا؛ كان التسليم لله شرط الإيمان الأساسي.

حق الأُذُن

وفيما يخص حق الأُذُن؛ يقول الإمام السجاد عليه السلام: «**وَحَقُّ السَّمْعِ تَنْزِيهُهُ عَنْ سَمَاعِ الْغِيبَةِ وَسَمَاعِ مَا لَا يَحِلُّ سَمَاعُهُ**»[2].

في هذه الفقرة تطرق الإمام زين العابدين عليه السلام إلى الجانب السلبي من بحث الاستماع وحق الأُذُن.

وليعلم أننا قلما نجد من بين جميع جوارح الإنسان جارحة لا تمتاز بحالات من الانقباض والانبساط. فالعين لها غشاء متحرك يستطيع أن يمنع النظر، والشفاه من شأنها التغطية وإغلاق الفم، وكذلك الأعضاء البدنية الأخرى لها مثل هذه الحالة.

---

(١) سورة الحجر، آية: ٩١-٩٢.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٣.

ومن بين الأعضاء تبقى الأذن مجردة عن قابلية الانقباض والانبساط بشكل تلقائي. وعلى هذا؛ يجب على الفرد نفسه أن يحافظ على أذنه، فإذا حضر في مجلس تمارس فيه موبقة الغيبة، فإن عدم السماع في مثل هذه الحالة يكون أمراً صعباً جداً.. فإذا شخص أمامه ما يحرم عليه النظر إليه، فإن من اليسير عليه إطباق أجفانه حياله، ولكن الأذن ليس لها مثل هذه القابلية، باعتبارها مفتوحة دائماً.

فمثل ما نحافظ على سلامة الأذن وصحتها، كذلك ينبغي أن نحول فيما يخصها من الوجهة المعنوية دون تعرضها للتلوث ودخول الآفات التي تتعرض لها الأذن.

حق العين

ثم يقول الإمام السجاد عليه السلام عن العين: «**وَحَقُّ الْبَصَرِ أَنْ تَغُضَّهُ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ وَتَعْتَبِرَ بِالنَّظَرِ بِهِ**»[١].

علينا أولاً؛ أن نؤدي حق العين عن طريق الإغماض عن المحرمات، ثم ثانياً؛ عن طريق الاعتبار بما نظر إليه.

مثلاً؛ حينما ننظر بها إلى الشجرة المقابلة لنا، علينا ان نعتبر ونقول: الله الذي هو أرحم الراحمين قد أعطى هذه الشجرة كل ما يلزمها. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**﴾[٢].

فحينما ننظر إلى شجرة التفاح سنشاهد خصائص لا تحصى قد أعطاها الله، كاللون الجميل، والأغصان المرتبة، والرائحة العطرة، وأمثال ذلك.

فإذا كان الله تبارك وتعالى قد أعطى للفاكهة مثل هذا اللطف والتفضل، فكم من النعم قد أعطى الإنسان الذي هو أشرف وأحسن المخلوقات؟.

إن الإنسان حينما يسير هنا وهناك، ويقع نظره على المناظر الخلابة والمتنوعة، فإن بعض

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٣.
(٢) سورة السجدة، آية: ٧.

خواصها سيجذبه إلى حد قد لا يتمالك فيه نفسه ولا يسع لسانه إلا أن يلهج بالتكبير والتسبيح. وهذه الحالة لوحدها حالة قيّمة، وهذه هي نظرة الاعتبار التي أشير إليها في أكثر من نص ديني. فإذا رأى الإنسان شخصاً معاقاً أو عاجزاً، وقاسه إلى نفسه، وشكر ربه على ما أنعم عليه من أعضاء سالمة، فإنه سيصل بهذه النظرة وهذا الشكر إلى منزلة الشاكرين الحامدين لربهم.

ولا شك أن كل واحد منكم صادفه أن دخل إحدى المستشفيات لإنجاز بعض المهمات، وكنتم تصادفون مواقف فيها عبرة كبيرة بالنسبة لكم حتى تتنبهوا لنعم الله التي تغطي كل حياة الإنسان،وبالمجان.

وذات مرة كنت قصدت أحد المراكز الصحية، فقيل لي بأن أكثر المراجعين مصابون بداء الكآبة والملل جراء الضغوط التي يتعرضون لها في حياتهم، وهذا المرض النفسي وأمثاله لا يقل خطراً أو ضرراً من الأمراض الجسمانية.

ومن الطبيعي أننا إذا التقينا هؤلاء الأفراد شكرنا الله سبحانه وتعالى على سلامتنا من هذا المرض، وهذا الشكر هو نتيجة نظرة الاعتبار التي نبحثها، ولعل مصاديق هذه النظرة عديدة للغاية، وإذا تسلح الفرد بهذه النظرة استطاع الحصول على الإيمان في كل خطوة يخطوها في حياته.

حق البطن

وفيما يخص حق البطن، يقول الإمام السجاد عليه السلام: «**وَحَقُّ بَطْنِكَ أَنْ لَا تَجْعَلَهُ وِعَاءً لِلْحَرَامِ وَلَا تَزِيدَ عَلَى الشِّبَعِ**»[١].

إن وظيفتنا تجاه البطن هي ألا نتصرف بطريقة تؤدي إلى إمتلائه من نار جهنم يوم الجزاء، فهذا البطن لا ينبغي أن يُملأ من أي شيءٍ. فالحقيقة تشير إلى أن البطن إذا كان بحاجة إلى وجبة غذائية تزن كيلو غراماً واحداً، وأسرف صاحبه في تناول الغذاء بداعي الحرص والولع فأضاف إلى ما يحتاج مائة غرام فقط. فهو يكون قد

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٣.

أسرف ما مقداره كيلو ومائة غرام، لأن كل الطعام الذي دخل جوفه سيكون وبالاً عليه بدلاً من أن يعود عليه بالفائدة.

وقد ورد في الحديث عدم صحة تناول طعام ما إذا كانت المعدة مليئة، ولعل سبب أكثر الأمراض التي يبتلى بها الإنسان، هو عدم وجود منهجية غذائية صحيحة.

وقد قرأت في إحدى سفراتي إلى سوريا تحقيقاً طبياً قام به أحد الأطباء على أنواع الأمراض المنتشرة في أميركا، حيث أكد التحقيق أن سبب أكثر الأمراض شيوعاً هو الإسراف في تناول الطعام.

وقد أشارت نتائج التحقيق والإحصاء إلى أن الأميركيين يبتلعون حوالي خمسة وعشرين مليون من أقراص الدواء سنوياً، لخفض أوزانهم فقط، وهم يضطرون من أجل ذلك إلى صرف ملايين الدولارات.

كما أكد أحد الكتاب الأميركيين في هذا المجال أن الطريقة الوحيدة لمعالجة أمراض الأميركيين هو الصوم، إذ أشار إلى أن صوم يومين في الأسبوع، وصوم شهر واحد في السنة كفيل بتوفير الراحة لنظام وجهاز الهضم لدى الإنسان وتخليصه مما يصاب به من أمراض وحالات غير صحيحة.

حق النفس قبل حقوق الآخرين

إن واحداً من مصاديق وتجليات الإيمان، هو الاعتراف بحق الآخرين واحترامه، ولا يمكن أن نحترم حقوق الآخرين وحرمتهم إلا عن طريق الاعتراف بأن لهم حقوقهم، كخطوة أولى، ثم استيعاب هذه الحقوق والمحافظة عليها.

فالإنسان يجب أن يسلم بأن الحق الأول المتعلق بذمته، هو حق الله سبحانه وتعالى عليه، ثم يتوجه إلى حقوق نفسه عليه. ومن هنا أكد الإمام زين العابدين عليه السلام في رسالة الحقوق أن على الإنسان أن يهتم أولاً بحق الله عليه، ثم بحق نفسه عليه.

الحقيقة هي أن الفرد إن لم يحترم حق نفسه، فلن يتمكن من احترام حق غيره.

ترى ما هو حق الإنسان تجاه نفسه؟!.

هناك حق كليٌّ عام، وهو ضرورة الاستفادة من حق الجسم وسائر الإمكانات التي أنعم الله بها على الإنسان؛ بل وحتى اقتناص الفرص المتاحة أمامه باعتبارها رأسماله الذي لا يحق له أن يضيعه.

فكل واحد من أعضاء البدن يجب أن يكون تحت رقابة الفرد، وهو الطرف الملزم بالمحافظة عليها.

فعلى الفرد أن يعرف ما هو حق اللسان، وماذا يتوقع منه.. هذا العضو الصغير الحجم؛ العظيم الخطر.

إن حق اللسان على الإنسان احترامه، وعدم استخدامه في تافه الكلام ولغو الحديث، فضلاً عن الامتناع عن السبّ والفحشاء. فهذا العضو من الممكن أن يسير ضمن طريق الحق والخير، وأن يعوّد على الاقتصاد في الكلام إلا المفيد منه. وقد ورد في الحديث وجوب ترك الفضول، مما يعني وجوب تحريك اللسان بقدر الحاجة اللازمة.

وعضو الإنسان الآخر هو الأذن التي لابد أن تنزه وتصان عن الآفات، وأن تمنع عن سماع الغيبة، وتعمد سماع الكلام الحرام.

ومن المؤسف أننا نرى في الحال الحاضر بعض المؤمنين يعمدون إلى بث نوع من الموسيقى لدى انتظار الآخرين لهم على خط الهاتف.. ولكن أليس من الممكن أن يستعاض بقراءة القرآن عن الموسيقى لهذا الغرض؟!.

ولكن المؤسف هو أن هناك مساعٍ تهدف إلى بث الموسيقى بأي شكل من الأشكال ودفع آذان الناس إلى سماعها قسراً.

أما العضو المهم الآخر للإنسان هي العين، فهي لها حقوق خاصة أيضاً. فالله حينما زَوَّد العين بالأجفان، فمعنى ذلك أن العين ستشتكي الإنسان في يوم القيامة إذا لم يستخدم الأجفان للحيلولة دون النظر الحرام.

الحصن في القرآن الكريم

تعلمون أن الناس لكي يتمكنوا من الدفاع عن أموالهم وممتلكاتهم، يتحصنون ويضعون الموانع والعقبات على الحدود ليصدوا عدوهم عن النفود إلى داخل بلدهم أو مدينتهم.. ولكن الفرد إذا كان عاجزاً عن مواجهة عدوه بشكل مباشر، كان حرياً بأن يسد الطريق على عدوه مِن بُعد، وأن يضع في مواجهته الموانع.

وعلى صعيد الجانب المعنوي يكون الوضع على المنوال نفسه، فيجب أن نحصن أنفسنا ونعبئها حتى نمنع الشيطان من دخول بيوتنا، فإنه إن دخلها أصبح من الصعب إخراجه منها أو مواجهته فيها على الأقل.

وطالما استفاد القرآن الكريم من مصطلح (الحصن) فيما يتعلق بالسيطرة على الشهوة الجنسية، ومثال ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[1].

ولهذا النوع من الاستفادة القرآنية سرٌّ خاصٌّ، بمعنى ضرورة أن يحيط الفرد المؤمن قلبه بحصن منيع، فإذا أراد التميّع وعدم الاحتياط، وأن يتمنى مجرد أمنية الفوز على الشيطان الرجيم، فإنه سوف يفتح عينيه ذات يوم فلا يرى إلا عجزه تجاه السيطرة على نفسه الأمارة.. في حين يتوجب عليه أن يبدأ من الخطوة الأولى، فيغض بصره عن النظر الحرام، فلا يرى المناظر والصور المثيرة المهيجة، ولا يسمح لها بالدخول إلى حريم النفس.

ولتعلم أيها الأخ المؤمن أنه لم يُقل عبثاً: إن النظر الحرام شعبة من شعب الزنا[2].

---

(١) سورة النساء، آية: ٢٤.

(٢) عَنْ أَبِي جَمِيلَةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع قَالاَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَهُوَ يُصِيبُ حَظّاً مِنَ الزِّنَا. فَزِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا الْفَمِ الْقُبْلَةُ، وَزِنَا الْيَدَيْنِ اللَّمْسُ، صَدَّقَ الْفَرْجُ ذَلِكَ أَوْ كَذَّبَ». وسائل الشيعة، ج٢٠، ص١٩١.

2

حقوق العبادات

حق الصلاة علينا

يقول الإمام السجاد عليه السلام حول حق الصلاة على الإنسان: «**وَحَقُّ الصَّلَاةِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهَا وِفَادَةٌ إِلَى اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْتَ فِيهَا قَائِمٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّـهِ فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ قُمْتَ مَقَامَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ الْحَقِيرِ الرَّاغِبِ الرَّاهِبِ الرَّاجِي الْخَائِفِ الْمُسْتَكِينِ الْمُتَضَرِّعِ الْمُعَظِّمِ لِمَنْ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالسُّكُونِ وَالْوَقَارِ وَتُقْبِلَ عَلَيْهَا بِقَلْبِكَ وَتُقِيمَهَا بِحُدُودِهَا وَحُقُوقِهَا**»[1].

وقد ورد في الحديث الشريف ضرورة الاهتمام بالوضوء وإسباغه إذا ما أراد المرء الحصول على حالة الخضوع والخشوع في صلاته. ولا ريب في أن الإنسان إذا قصد الله سبحانه وتعالى في وضوئه،فستلازمه حالة الإخلاص والعبودية في الصلاة، فإن الوضوء الكامل هو مقدمة لازمة للصلاة الكاملة.

كما إن الخضوع في الصلاة وحضور القلب والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى هو شرط أساسي لكمال الصلاة.

أما إذا كان المصلي منشغلاً في صلاته أو في لحظة دخولها بالقضايا المادية واليومية، فإنه سيصاب بالعجز عن تركيز وضبط ذهنه وحواسه في إطار التوجه إلى الله تعالى.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٣.

إن المهم في الأمر هو إيجاد حالة من الاستعداد النفسي والروحي قبل الصلاة وأثناء الدخول فيها.

فإذا نال الإنسان هذه الرتبة، وإذا امتلأ قناعةً بأنه العبد الذليل العاجز والطامع برحمة الله والخائف والمتضرع إليه، وأنه قد مدَّ يد الحاجة والفقر إلى الله الفياض بالكرم والعطاء، فسيرى يقيناً تجلي قدرة الله وأسمائه العظمى في مرآة وجوده ووجدانه. كما ستحدث في داخله حالة من التحوّل الذاتي والحقيقي. فهو من جانب سيستشعر الخوف والخشية من احتمال عدم قبوله، ومن جانب آخر سيرجو رجاء الواثق بالله وأنه سينقذه ويأخذ بيده.

وقد استفيد في الرواية من تعبير (الاستكانة) وهي حالة مختلفة عن حالة (المسكنة). إذ الأولى تعني تعرف الفرد على نفسه وإحساسه بالعجز، وإذ ذاك ستشارك جميع أعضاء بدنه بالصلاة، دون أن يعترض أو يخالف عضو واحد من أعضاء البدن هذه المسيرة الروحية.

كما روي أن النبي ﷺ نظر إلى رجل يصلي ويعبث بلحيته، فقال ﷺ: «**لوْ خَشَعَ قَلْبُهُ خَشَعَتْ جَوَارِحُهُ**»[1].

شروط الصلاة الصحيحة

في كتاب (العروة الوثقى) الذي يعتبر من ذخائرنا الفقهية والعلمية، هناك بحث (في ما ينبغي للمصلي) الفصل (١٩) من كتاب الصلاة، حيث يقول المؤلف رضوان الله تعالى عليه في معرض حديثه عن لزوم السعي في تحصيل شرائط قبول الصلاة: «وعمدة شرائط القبول إقبال القلب على العمل، فإنه روحه، وهو بمنزلة الجسد، فإن كان حاصلاً في جميعه فتمامه مقبول، وإلاّ فبمقداره».

واستناداً إلى الآية القرآنية الكريمة القائلة: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾[2]،

---

(١) عوالي اللآلي، ج٢، ص٢٣.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٧.

يمكن استنتاج ما يجب على الفرد المؤمن من تطهير نفسه من كل معصية، حتى يتقبل الله منه كل صلاة يصليها.. فكل ذنب؛ صغيره وكبيره من شأنه التقليل من نسبة الإخلاص في الصلاة.

وقد وردت روايات كثيرة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام فيما يخص الشروط اللازمة للصلاة، سواء المادية منها أو المعنوية، ونلاحظ في تلك الروايات أن تطهير البدن من النجاسات والخباثات الظاهرية، ليس سوى خطوة واحدة على طريق أداء الفريضة بصورة واقعية وصحيحة.

وقد أشرت في كتاب كنت ألّفته، ومر على نشره حوالي خمس وعشرين سنة، وحققت فيه الموضوع الخاص بأن الصلاة عمود الدين، تحت عنوان (الصلاة؛ منهج متكامل)، أشرت فيه إلى أن الفرد إذا استطاع أن يؤدي الصلاة بشكل صحيح ومتكامل، فإن كل دينه سيتجه إلى الصلاح.

وهنا لا نجد بأساً في أن نمثل لما نذهب إليه ونقول: تعلمون أن الدول والبلدان تنقسم إلى قسمين: الأول هو الدول المتقدمة، والثاني هو الدول النامية، وهو تعبير مؤدب عن حالة التأخر والتراجع لديها.

والسؤال المهم هنا هو: ما هو الحد الفاصل بين القسمين؟ وبكلمة أخرى؛ ما هو المقياس الذي تقوم عليه هاتان التسميتان، وما هو مقياس التقدم؟ وكيف نعرف الدول المتقدمة عن الدول المتأخرة؟.

وللإجابة يقال: إن صناعة السيارات هي الفيصل والمقياس في هذا المجال.. فإذا استطاعت دولة من الدول أن تصنّع سيارة بجميع قطعها، فآنذاك يمكن تسميتها بالدولة المتطورة والمتقدمة صناعياً،ولكنها إذا عجزت عن إتمام هذه المهمة، فإنها ستنضمّ إلى دائرة الدول المتأخرة، أو ما يدعى بالنامية.

وكذلك الأمر بالنسبة للصلاة؛ فإذا أردت أن تتعرف على المستوى الذي وصلته من الكمال، فانظر إلى نفسك حينما تدخل في صلاتك، فإن كان ذهنك

بمجرد الإتيان بتكبيرة الصلاة يتشتت باتجاه الأمور الدنيوية المادية، فاعلم أنك لازلت في أول الطريق.

فالمقصود من لفظة (اللـه أكبر) هو أن الله أكبر من أن يوصف وأكبر من كل شيء، ولكنك إذا انحدرت وانخفضت بخواطرك نحو الأمور المالية مثلاً، فهذه علامة تؤكد أنك لم تكن صادقاً حينما افتتحت صلاتك بالتكبير، بل عليك أن تعلم بأن التكبيرة لم تكن سوى لقلقة لسان.

إنك يجب أن تتدرج في ممارسة الرياضة الروحية وبناء الذات، لطرد مفردات الارتباط بالدنيا واحدةً واحدةً، ومن أجل تكريس الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، واعتباره السبب والفاعل الأول في الوجود برمته..

وفي هذه الحالة، فإن الأدعية والأذكار التي تتلوها في الصلاة، تعطي كل واحدة منها معنى خاصاً يأخذ بيد المصلي إلى مرحلة من مراحل اليقين. فإذا بلغها الإنسان المصلي، كان بإمكانه أن يحلق في عالم الملكوت بأدائه ركعتين من الصلاة، حيث تغمره رغبة عارمة في الاستمرار فيهما، لأنه يلتقي ربه عبرهما، ولذلك فقد تستغرق الركعتان منه وقتاً طويلاً دون أن يشعر بذلك.

وقد روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **«أَنَّهُ صَلَّى بِالْكُوفَةِ صَلَاةَ الْكُسُوفِ فَقَرَأَ فِيهَا بِالْكَهْفِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَرَدَّدَهَا خَمْسَ مَرَّاتٍ وَأَطَالَ فِي رُكُوعِهَا حَتَّى سَالَ الْعَرَقُ عَلَى أَقْدَامِ مَنْ كَانَ مَعَهُ وَغُشِيَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ»**[١].

واستناداً إلى هذا المستوى الإيماني ينبغي أن نضع منهجاً دقيقاً لكيفية أداء صلواتنا، وأن نسعى إلى أداء الصلاة على النحو الأكمل شيئاً فشيئاً.. وأن نتفاءل ونأمل بأن الله سبحانه وتعالى سيوفقنا إلى أداء أكمل ما يمكن من الصلاة في آخر لحظة من لحظات حياتنا.

---

(١) وسائل الشيعة، ج٥، ص١٥٤.

فعلينا أن نلقن أنفسنا أن بالمقدور إنجاز هذا الأمر، وأننا قادرون فعلاً على القيام به، وأنا بدوري أعرف الكثير من الأشخاص الذين وفقهم الله تعالى وتوفاهم وهم في حين الصلاة.

فمن كان مدمناً على الحضور في دور العرض السينمائي، فإن من الطبيعي أو المرجح أن تكون وفاته في هذه الأماكن وأمثالها.. ولكن من كان محباً للصلاة، فإن الله سبحانه سيهيء له الأرضية ويتوفاه وهو على ما يحب.

ولقد كان لي أستاذ وهو الحاج الشيخ محمد حسين المازندراني قد صلى صلاة الليل ونافلة الصبح، ثم إنه بعد إقامته لأذان الصبح وأداء الإقامة، أخذ يردّد هذا الدعاء: «**يَا مُحْسِنُ قَدْ أَتَاكَ الْمُسِيءُ...**»[1]، ثلاث مرات، ثم هوى إلى الأرض وذهب إلى لقاء ربه عز اسمه.

وكم هو باعث على الفخر أن يلقى الإنسان ملك الموت متوجهاً إلى القبلة، متوضئاً قائماً متعبداً بهذه الصورة المثلى.

حق الحج

يقول الإمام السجاد عليه السلام حول الحج: «**وَحَقُّ الْحَجِّ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ وِفَادَةٌ إِلَى رَبِّكَ وَفِرَارٌ إِلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِكَ وَفِيهِ قَبُولُ تَوْبَتِكَ وَقَضَاءُ الْفَرْضِ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ.**»[2].

قبل أن يقوم الفرد بعمل ما، يجب عليه كخطوة أولى أن يحدد هدفه من هذا العمل.

---

(١) ورد هذا الدعاء عن الإمام علي عليه السلام، أنه كان يقول «لأَصْحَابِهِ مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَقَالَ -قَبْلَ أَنْ يُحْرِمَ وَيُكَبِّرَ- **يَا مُحْسِنُ قَدْ أَتَاكَ الْمُسِيءُ وَقَدْ أَمَرْتَ الْمُحْسِنَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنِ الْمُسِيءِ وَأَنْتَ الْمُحْسِنُ وَأَنَا الْمُسِيءُ فَبِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَتَجَاوَزْ عَنْ قَبِيحِ مَا تَعْلَمُ مِنِّي**. فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مَلَائِكَتِي اشْهَدُوا أَنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ وَأَرْضَيْتُ عَنْهُ أَهْلَ تَبِعَاتِهِ..». مستدرك الوسائل، ج٤، ص١٢٣.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٣.

فالحج مثلاً من جملة الفرائض الإلهية التي ينبغي للإنسان المسلم أن يدرك حقيقتها، وأن ينطلق من دافع إلهي للقيام بها.

وقد كنت ذات مرة في موسم الحج مع مجموعة من الإخوة المؤمنين، وحينما وصلنا إلى عرفات، سألنا أحدهم عن ماهية هذا المكان ولماذا نحن هنا؟! وكأنه كان جاهلاً بفلسفة عرفات.

ويشير الإمام زين العابدين عليه السلام، في رسالة الحقوق إلى أن الفرد المؤمن لابد أن يعرف أن حقيقة الحج وحكمته، هي أنه دعوة إلهية، وأن الحاج ضيف على مائدة الرحمن المباركة، وأن الحج خير فرصة ومنطلق للفرار إلى الله من الذنوب؛ الفرار الذي يشير إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾[1].

فإذا كان في نية ابن آدم أن يفر، فليفر إلى حيث الله سبحانه وتعالى، إذ أن من الخصائص المميزة لفريضة الحج هي قبول التوبة من العبد التائب. ولنا أن نذكر بأنه قد جاء في بعض الروايات أن الله عز وجل جعل من موقف عرفات أرضاً لغفران ذنوب عبيده، وأن أي شخص يحضر الموقف عصر يوم التاسع من ذي الحجة الحرام، وبأيّة هيئة حضر سيتمتع بغفران الله تبارك وتعالى.

وهنا ينبغي أن يقال: إن من أكبر الذنوب أن يذهب الحاج إلى عرفات ويقف موقفها وهو يعتقد بأن الله لم يغفر له.

ثم يشير الإمام زين العابدين عليه السلام إلى أن الحج فريضة قد أوجبها الله على الإنسان.

حق الصيام

وفيما يخص الصيام، يقول الإمام السجاد عليه السلام: «**وَحَقُّ الصَّوْمِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ حِجَابٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى لِسَانِكَ وَسَمْعِكَ وَبَصَرِكَ وَبَطْنِكَ وَفَرْجِكَ يَسْتُرُكَ**

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٠.

بِهِ مِنَ النَّارِ فَإِنْ تَرَكْتَ الصَّوْمَ خَرَقْتَ سِتْرَ اللَّهِ عَلَيْكَ»[١].

وقد قال رسول الله ﷺ: «**الصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ**»[٢].

لقد ارتكبنا ذنوباً كثيرة منذ أن بلغنا سن التكليف، وكل واحد من تلك الذنوب من شأنه أن يزيد جهنم اشتعالاً بالنسبة لنا. ولذا كان من الجدير بنا أن نهتم باستدراك ما فات منا، وأن نضع الموانع حتى نحول دون وصول النار إلينا على الأقل. ولعل واحداً من تلكم الموانع هو الصيام في شهر رمضان المبارك.

حقّ الصدقة

يقول الإمام السجاد عليه السلام: «**وَحَقُّ الصَّدَقَةِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهَا ذُخْرُكَ عِنْدَ رَبِّكَ وَوَدِيعَتُكَ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى الْإِشْهَادِ عَلَيْهَا وَكُنْتَ بِمَا تَسْتَوْدِعُهُ سِرّاً أَوْثَقَ مِنْكَ بِمَا تَسْتَوْدِعُهُ عَلَانِيَةً وَتَعْلَمَ أَنَّهَا تَدْفَعُ عَنْكَ الْبَلَايَا وَالْأَسْقَامَ فِي الدُّنْيَا وَتَدْفَعُ عَنْكَ النَّارَ فِي الْآخِرَةِ**»[٣].

على الإنسان أن يعرف بأن كل ما ينفقه في سبيل الله، وديعة عند الله الغني.

فيجب أن يبلغ ابن آدم مرحلةً يعرف فيها أن ما يدفعه من الصدقة يضمن له سلامته من الأمراض والأسقام، ولكم أن تتصوروا الأخطار التي قد يواجهها الإنسان في هذه الدنيا الفانية وفي الآخرة.

وقد كان يقال إن هناك ثلاثة آلاف نوع من الأمراض التي تهدد الناس، وقد تم تحديد ألف نوع منها مع طرق علاجها، وألف آخر قد شخص ولم يحدد لها دواء بعد، والألف الأخير لم تشخص أعراضه أساساً.

ويقول المتخصصون: إن مرض السرطان لوحده يتنوع إلى مائة وعشرين

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٣.

(٢) الكافي، ج٢، ص١٨.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٣.

نوعاً. والأمر العجيب هو أن بعض أنواع هذا المرض له من الدواء ما هو يخالف أدوية الأنواع الأخرى.

وفي الوقت الحاضر، يعتبر تشخيص المرض نصف المعالجة.. ولعل المشكلة الكبرى التي تقف في طريق الأطباء وعلم الطب عموماً هو تشخيص المرض.

فالصدقة، قد تكون الوسيلة الجيدة لدفع الأمراض والأسقام البدنية عن الإنسان.

وفيما يتعلق بالقضايا المعنوية، فهي على هذا المنوال والاتجاه. فالإنسان يجدر به أن يتخذ التدابير الخاصة واللازمة، وأن يطرد الآفات والأزمات الروحية والمشاكل النفسية.. والصدقة التي يقدمها للفقير من طبيعتها أن تجنبه النار في يوم القيامة، كما تساهم في إشعاره بأن له دوراً اجتماعياً إيجابياً، مما يدفعه إلى الإحساس بأنه كائن اجتماعي حي غير معزول.

وفي إطار تشبيه هذه المسألة، لنا أن نتصور أن الصدقة وعملية الإنفاق في سبيل الله عموماً تشبه إلى حدٍّ كبير ما يقوم به بعض الأفراد في بعض الدول المفتقرة للأمن، حيث يستأجرون الرجال لحراسة ممتلكاتهم والمحافظة على حياتهم. فالصدقة التي تدفع لليتيم والمحتاج والمستضعف لها الخاصية نفسها التي يتمتع بها ذلك الحارس، حيث تدفع الصدقة المخاطر التي تهدد الإنسان على صعيد الدنيا والآخرة.

ثم يذكر الإمام السجاد عليه السلام من بين الصدقات صدقة الهدي والأضحية، ويمكن أن يقال بأن المقصود من الأضحية هو أوسع مما يقدم في موسم الحج، وينبغي أن لا يكون الحافز على الأضحية هو التظاهر والرياء أمام الآخرين.

فهناك بعض الأفراد يحبون أن يراهم الناس ويروا ما يقدمونه من أضاحي ذات نوعية جيدة، في حين أن الأضحية يجب أن تكون سبباً لاستنزال الرحمة الإلهية، وللمساهمة في إنقاذ الشخص المنفق في يوم الحساب.

يقول الإمام السجاد عليه السلام: «وَحَقُّ الْهَدْيِ أَنْ تُرِيدَ بِهِ اللَّـهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا تُرِيدَ خَلْقَهُ وَلَا تُرِيدَ بِهِ إِلَّا التَّعَرُّضَ لِرَحْمَتِهِ وَنَجَاةَ رُوحِكَ يَوْمَ تَلْقَاهُ»(١).

فائدتان للصدقة

للصدقة فائدتان أو هدفان:

الأولى: تأمين حاجة الفقراء والمساكين والمحتاجين.

الثانية: تخليص الإنسان المنفق وروحه من شر الآفات الروحية والنفسية، مثل البخل والخسّة.

التاجر وأخذ الحقوق الشرعية

ذات مرة؛ ذهب تاجر إلى أحد علماء الدين في إحدى البلدان، وقال له: في ذمتي حقوق شرعية (كالزكاة، والخمس) ويجب أن أقدمها لكم، ولكنني استثقل هذا الأمر ولا أتحمله.

فسأله العالم: إذاً فلماذا قصدتني؟!.

فأجاب التاجر: لقد جئتك لأعطيك شيئاً قليلاً من المال حتى تستأجر به أشخاصاً أقوياء من أفرادك أو أتباعك فيأتوا إلى منزلي غداً ويكبلوا يدي ورجلي ويأخذوا المبلغ الذي تستغرقه الحقوق الشرعية المتعلقة بذمتي من الصندوق ويسلموه لكم!!.

وحينما وجد العالم إصراراً شديداً من قبل هذا التاجر، وافق مضطراً على طلبه.

وتمت العملية؛ وفي غد تسليم المال جاء التاجر شاكراً لعالم المدينة على ما بدأ يحس به من راحة ضمير!!.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٣.

إن الانعتاق من ضغط المال أمرٌ ليس بالسهل، إذ أن من خاصية الدنيا أنها كلما أقبلت على الفرد كلما زاد بها تعلقاً وعليها حرصاً، ولذلك كانت تشبه العلم إلى حد كبير في هذا المجال، حيث كلما تقدم الفرد في ميدان العلوم، زاد حرصاً عليه وولعاً به.

الروايات .. حِكمٌ ودقائق

إذا لاحظنا الروايات المنقولة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام بشكل دقيق، اكتشفنا وجود نقاط دقيقة وحكم عديدة بين طياتها.

ففي الرواية المنقولة عن الإمام السجاد عليه السلام حينما كان الحديث خاصاً بالأعضاء والجوارح كان الإمام عليه السلام يشير إلى واجبات عملية على الإنسان أن يقوم بها. أما هنا؛ حيث الحديث عن الفرائض، نجد أن مصطلح العلم هو الذي تم استخدامه، ولعل الحكمة في تغيير دفة الحديث هو ضرورة التأكيد على المعرفة والتفكير في بعض الموارد، فإذا افتقر الفرد للمعرفة والتفكير، كان من الممكن أن يؤدي فريضة الحج مثلاً ولكنه بلا محتوى وجوهر.

دع الصلاة وابحث عن حقيبتك!

نقل أحد الإخوة ذات مرة: كان الوقت وقت صلاة الصبح حينما عدنا إلى بلدنا من سفر العمرة، ولكن الكثير من العائدين من هذه السفرة قد فاتهم وقت الصلاة حتى صارت قضاءً، إلاّ أن أشخاصاً معدودين كان يهمهم أن يقيموا الصلاة في وقتها، رغم عدم وجود مكان خاص بالصلاة في قاعة المطار.

قلت لأحد العائدين من الديار المقدسة: أيها السيد! لقد حان وقت صلاة الصبح!.

فأجاب: دعِ الصلاة وابحث عن حقيبتك!!.

إن عدم الاهتمام بالصلاة يشير إلى أن هذا الشخص وأمثاله ورغم ذهابهم

للديار المقدسة وأدائهم العمرة لم يعرفوا حقيقة تكاليفهم. ومن هنا يجب على العلماء والمرشدين المرافقين لقوافل الحجاج أن يهتموا بهذا الأمر، وأن يعرّفوا الحجاج على وظائفهم.

أين أجهزة التلفاز الأرخص ثمناً؟!

من المؤسف جداً أن الفرد الذي طالما كان ينتظر دوره لأداء فريضة الحج، وعندما تحين له هذه الفرصة الإلهية القيّمة، تراه ينهمك في التنافس على شراء زخارف الدنيا، نقل أحد الإخوة أنه بينما كان يتهيأ لصلاة الجماعة ذات مرة في المشاعر المقدسة فسمع في الصف الخلفي همهمة ملفتة للانتباه، وكان الحديث حول جهاز تلفاز ملون وأين يمكن شراؤه بسعر أرخص.. وقد طال الحديث حول هذه التوافه بين الواقفين للصلاة،حتى نفذ صبره فقال: أيها السادة! هل تعلمون إلى أين جئتم؟ فالوقت وقت السحر، وهنا بيت الله، وإن الظروف مهيأة لاستلهام وتكريس المعنويات، وهذا الحديث عن الماديات يمثل الحضيض في انعدام الذوق تماماً.

فأجابه أحدهم: أيها السيد أنت أدِّ صلاتك، فنحن قد صلينا ما فيه الكفاية!!.

فقال: هداكم الله وهداني معكم!!.

أهمية نصب المنبهات

والآن حيث صار من المألوف نصب أجهزة الإنذار ضد اللصوص في السيارات والبيوت والمحلات، يجدر بنا تجهيز أنفسنا بمثل هذه الأجهزة، حتى تعلن تعرضنا للخطر؛ فحينما نجلس لمشاهدة فيلم عديم الفائدة مما ينخرط تحت عنوان اللهو واللغو، يجب أن تمارس تلك الأجهزة مهمتها، فتمنعنا من الانغماس في مشاهدة مثل تلك الأفلام، فنعرف كم نبذر من الوقت الذي هو رأسمالنا بازاء فائدة رخيصة.

وطبقاً لرواية الإمام زين العابدين عليه السلام؛ فإن من الواجب أن نقرن العمل

بالبحث عن المعرفة، فإذا أخذت المعرفة دورها الصحيح، كان عمل الإنسان وكلامه من نوع واحد.

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «**أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى عليه السلام يَا مُوسَى؛ اشْكُرْنِي حَقَّ شُكْرِي. فَقَالَ عليه السلام: يَارَبِّ؛ كَيْفَ أَشْكُرُكَ حَقَّ شُكْرِكَ، وَلَيْسَ مِنْ شُكْرٍ أَشْكُرُكَ بِهِ إِلَّا وَأَنْتَ أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ؟!. فَقَالَ [عَزَّ وَجَلَّ]: يَا مُوسَى شَكَرْتَنِي حَقَّ شُكْرِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ مِنِّي**»[١].

ولكم أن تجروا مقارنة بين هذا الكلام المفعم بالمعرفة، وذاك الكلام الفاقد للفكر الذي نلهج به نحن الناس عادة، وننسى أننا لابد ماثلون في القيامة لنحاسب على ما تلفظنا به.

وهذا في واقع الأمر ثمرة الفكر المقرون بالمعرفة، وهذا هو التخفيف الذي أنعم الله به على العارفين. وعلى الصعيد التربوي، يمكن القول بأن العلم والفكر لهما دورهما الخاص في حياة الإنسان، وأنه لا يمكن اختزال كل شيءٍ بالعمل.

وظيفة الحاكم

ويضيف الإمام السجاد عليه السلام في حديثه: «**وَحَقُّ السُّلْطَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ جُعِلْتَ لَهُ فِتْنَةً وَأَنَّهُ مُبْتَلًى فِيكَ بِمَا جَعَلَ اللَّـهُ لَهُ عَلَيْكَ مِنَ السُّلْطَانِ وَأَنَّ عَلَيْكَ أَنْ لَا تَتَعَرَّضَ لِسَخَطِهِ فَتُلْقِيَ بِيَدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَتَكُونَ شَرِيكاً لَهُ فِيمَا يَأْتِي إِلَيْكَ مِنْ سُوءٍ**»[٢].

فحق السلطان هو انتباهه إلى أن القوة التي يتمتع بها ليست إلا وسيلة فتنته وامتحانه، وعليه فإن خضوع الجميع له وطاعتهم إياه بمثابة الفتنة والامتحان له. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿**رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[٣].

---

(١) بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٥١.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٣-١٣٤.

(٣) سورة يونس، آية: ٨٥.

وهذا يشير إلى أهمية أن يتنبه الإنسان ويطلب إلى ربه أنه إذا قضي عليه بأن يكون وسيلة امتحان لشخص قوي، فلا يجعله وسيلة امتحان وفتنة للظالم، بقدر ما يجعله وسيلة امتحان للإنسان العادل.

ومن هذا كله يمكن أن يفهم بأن العامل تحت إمرة السلطان الظالم ملزم بأن لا يتسبب في إثارة غضب الظالم فيدفعه إلى اعتقاله وإيذائه، وفي هذه الحالة يكون الظالم قد خسر في الامتحان الإلهي بسبب من هو بخدمته.

وهذا الأمر له مصاديق ونماذج عديدة.

فإذا كانت الفتاة جميلة إلى حد كبير، فعليها أن تعلم أنها بمثابة الفتنة للآخرين، وأن الشباب يُمتحنون بواسطتها، فمثل هذه الفتاة لابد أن تلتزم العفة والحياء، فلا تعرض محاسنها للآخرين، وأن تسعى جاهدة لئلا تكون فتنة وامتحاناً لهم.

ويمكن الاستشهاد بشاهد تاريخي بهذا الصدد: فقد كان المعلّى بن خنيس حاجباً للإمام الصادق عليه السلام وكان شخصاً نشطاً، ويبدو أنه كان يناقش ويبحث جملة من الموضوعات بمحضر من الأعداء المعاندين والناصبين العداء لأهل البيت عليهم السلام،بصورة غير مدروسة، حتى أنه كان يثير حفيظة الأعداء وأحقادهم عليه، ورغم أنه طالما قد حذّر من اعتماد مثل هذا الأسلوب، إلا أنه لم يعبأ بكل التحذيرات، الأمر الذي انتهى به إلى الموت على يد أعدائه.

3

حقوق المعلم والمتعلم

يقول الإمام السجاد عليه السلام: «وَحَقُّ سَائِسِكَ بِالْعِلْمِ التَّعْظِيمُ لَهُ وَالتَّوْقِيرُ لِمَجْلِسِهِ وَحُسْنُ الاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ وَأَنْ لا تَرْفَعَ عَلَيْهِ صَوْتَكَ وَلَا تُجِيبَ أَحَداً يَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُجِيبُ وَلَا تُحَدِّثَ فِي مَجْلِسِهِ أَحَداً وَلَا تَغْتَابَ عِنْدَهُ أَحَداً وَأَنْ تَدْفَعَ عَنْهُ إِذَا ذُكِرَ عِنْدَكَ بِسُوءٍ وَأَنْ تَسْتُرَ عُيُوبَهُ وَتُظْهِرَ مَنَاقِبَهُ وَلَا تُجَالِسَ لَهُ عَدُوّاً وَلَا تُعَادِيَ لَهُ وَلِيّاً فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ شَهِدَ لَكَ مَلَائِكَةُ اللَّـهِ بِأَنَّكَ قَصَدْتَهُ وَتَعَلَّمْتَ عِلْمَهُ لِلَّـهِ جَلَّ اسْمُهُ لَا لِلنَّاسِ»(١).

العلم من أهم القيم الإنسانية، وما لم يستعد الإنسان إلى تلقي العلم ويهيئ في نفسه الأرضية لهذا الغرض فإنه من المستحيل، أو على الأقل، من الصعب الحصول عليه.

وقد قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد رضي الله عنه، وقد أخذ بيده ليرشده ويعظه بشكل خاص وجدّي: «يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ النَّاسُ ثَلَاثَةٌ فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ وَلَمْ

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٣.

يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ»[1].

ويبدو أن معنى كلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا إشارة إلى الآية القرآنية القائلة: ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا**﴾[2].

فكل وادٍ له قابليته الخاصة لاستيعاب وجذب ما يسيل فيه من ماء المطر، والله قد أنزل من السماء ماءً مجاناً، دون تقسيم خاص، ولكن قابلية كل مكان هي التي تقسم مقادير المياه.

ولا يفهم من كلامنا أن من كانت قابليته أكبر كان أكبر أو أكثر عرضة للمتاعب والآلام، بل إن ما نقصده ونذهب إليه هو أن صاحب القابلية الأكبر سيأخذ الحظ الأعظم والفائدة الكبرى من النعم الإلهية.

وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿**وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾[3].

إن الحقوق المشار إليها في رسالة الإمام زين العابدين عليه السلام لا تؤخذ بعين الاعتبار أو تراعى إلا من أهل الإخلاص والصفاء والوفاء وأصحاب الصدور المنشرحة، وبالتالي فإن هذه المعارف تنتهي إلى الله سبحانه وتعالى.

مفهوم (السائس)

استفاد الإمام السجاد عليه السلام من كلمة (السائس) للتعبير عن المعلّم.. ومن أجل فهم معنى هذا الاصطلاح نضرب مثالاً بهذا الشأن:

فقديماً؛ كان الناس يذهبون إلى الصحراء لاصطياد الخيول والإتيان بها إلى المدن، ثم يقومون بتأهيل هذه الخيول وتربيتها، وبالطبع كانت هذه العملية بحاجة إلى مهارة خاصة، ومن كان ينفذ هذه المهمة كان يسمّى (سائس الخيل).

---

(١) نهج البلاغة، من كلام له عليه السلام لكميل بن زياد رضي الله عنه. رقم: ١٤٧.

(٢) سورة الرعد، آية: ١٧.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٣.

وهذه الرواية التي استفادت من كلمة السائس للتعبير بها عن المعلّم، إنما تعني أن المعلم ليس من يُعلّم تلميذه كلمة مجردة، بل هو الذي يتتبع التلميذ ويتعرف على ظروفه وحالته، ليتأكد من الطريقة أو الطرق المثلى التي تمكّن التلميذ من التعلم والاستيعاب.

فالمعلم الذي يكتفي بالقول والتحدث، ولا يكلّف نفسه عناء متابعة حياة التلميذ ووضعه، لا يصح أن يطلق عليه اسم (السائس).

ثم إن من واجب المتعلم احترام معلمه وإجلاله، لأن هذا المعلم المشار إليه قد عبّد لتلميذه طريق الهداية والصلاح.

فالمتعلّم يجب أن يكبر مجلس العلم، وألا تكون الدنيا شاغلاً لذهنه ما أمكنه، كما ينبغي أن يركّز ذهنه فيما يقرر له أستاذه من مسير، فيضع عينه بعين المعلّم، لأن للعين في هذا المجال حقاً ونصيباً. فقد يكون الأستاذ في بعض الأحيان يرفق حديثه بقرائن حالية لابد من إدراكها والانتباه إليها، حتى أن رواة الأخبار والأحاديث كانوا لا يغفلون عن الإشارة في نقلهم إلى ما فعله الإمام لدى حديثه أو بعده، كأن قام أو قعد، إذ قد يكون الإمام يقصد معنىً خاصاً وهدفاً معيناً من فعله.. أو أن يكون الإمام المعصوم قد تفوه بحديثه غاضباً، أو كانت يده قد أخذت حالة خاصة.. فجميع هذه الأوصاف الجزئية قد توصلنا بصورة دقيقة إلى مقصود الإمام المعصوم عليه السلام ونيته.

واجبات التلميذ

أما واجبات التلميذ تجاه المعلم فهي كما نستفيدها من كلام الإمام السجاد عليه السلام: أن يلتزم التلميذ بخفض صوته أمام أستاذه، وليعلم أنه من الخطأ أن يقفز الطالب بأسئلته في حديث معلّمه، أو أن يتشاغل التلاميذ بالتحدث فيما بينهم عن درس الأستاذ وحديثه، وكذلك عليهم ألا يحرجوا معلّمهم بأن يدعوه إلى مجلس يغتاب الآخرون فيه، لأنه سيكون محرجاً ومضطراً إلى مواجهة الغيبة أو أن

يغادر هذا المجلس، وكلا الحالتين صعبتان عليه.

كما ينبغي للطلاب أن يدافعوا عن أستاذهم إذا ما تعرض للغيبة من أحدهم أو أمامهم من قبل الآخرين. وإذا اطلعوا على عيب لأستاذهم، فعليهم أن يكتموه. فتبعاً لمستوى العلاقة الحميمة والقريبة لبعض التلاميذ مع أستاذهم، فإنهم قد يكتشفون فيه نقاط ضعف لا يرغب الأستاذ في الإعلان عنها، ولكنهم يجب أن يبذلوا ما بوسعهم لئلا تكشف هذه العيوب أمام الآخرين، وبدلاً من ذلك؛ عليهم أن يعلنوا ما لديه من نقاط قوة وأن يتذكروها دائماً.

يجب أن تكون علاقة التلاميذ بأستاذهم علاقة الودّ والمحبة، وأن يتخذوا أعداءه أعداءً لهم. فإذا تم الالتزام بهذه الوصايا، شهدت الملائكة في يوم القيامة للتلاميذ بأنهم كانوا يتعلمون العلم في سبيل الله سبحانه وتعالى حقاً.

حقيقة العلم

من الجدير أن نعرف بأن حقيقة العلم ليست مجرد العلوم والمعارف التي نتعلمها أو نعلمها للآخرين، فهذه العلوم من الممكن إيداعها في جهاز الحاسوب أو الكتاب أو أشرطة الكاسيت.

إنما العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء، ولا يهبه لأي كان.

ومن خصائص العلم الحقيقي أنه إذا حلَّ في الإنسان دفعه إلى التكامل والتسامي، وطهر باطنه وجوهره، وخلق فيه البصيرة.. هذه البصيرة التي تمكّنه من التعرف على نقاط ضعفه، كما تحمله على الخضوع والتواضع.

4

حق وليّ الأمر

يقول الإمام السجاد عليه السلام: **«وَأَمَّا حَقُّ سَائِسِكَ بِالْمِلْكِ فَأَنْ تُطِيعَهُ وَلَا تَعْصِيَهُ إِلَّا فِيمَا يُسْخِطُ اللَّـهَ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ وَأَمَّا حَقُّ رَعِيَّتِكَ بِالسُّلْطَانِ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُمْ صَارُوا رَعِيَّتَكَ لِضَعْفِهِمْ وَقُوَّتِكَ فَيَجِبُ أَنْ تَعْدِلَ فِيهِمْ وَتَكُونَ لَهُمْ كَالْوَالِدِ الرَّحِيمِ وَتَغْفِرَ لَهُمْ جَهْلَهُمْ وَلَاتُعَاجِلَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ وَتَشْكُرَ اللَّـهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا آتَاكَ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَيْهِمْ»**(١).

الأمر المتعارف عليه في الحياة الدنيا هو أن يتخذ كل فردٍ قائداً له، وأن تكون لكل بلد حكومة أو حاكم عليه، إذ لا معنى لأن يكون الجميع في مستوىً واحد، دون أن يكون هناك حاكم ومحكوم.

وكل مواطن يتحمل مسؤولية ما، تجاه حاكمه وولي أمره، يجب عليه أن ينجزها.

فإذا كانت راية الحكم والحكومة في قبضة شخص من الأشخاص، كان من واجب الجميع إطاعته والتحرك تحت رايته عندما تكون حركته حركةً صحيحة.

أما إذا سار الحاكم في الطرق الخاطئة المنحرفة، فلا يجوز اتباعه طبعاً،

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٤.

انطلاقاً من الحكمة السامية التي قالها النبي ﷺ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»[١].

والحاكم من جهته أيضاً يجب أن يهتم ويرعى لمن تحت سلطته حقوقهم.

إن للحكومة والقيادة تعريفاً عاماً وشاملاً. فمن الممكن أن يكون الفرد قائداً لأسرته فقط، وفي هذه الحالة ينبغي أن يلتزم أصول العدالة في دائرة قيادته.

فالعدالة قيمة سامية ولابد أن نكون بصدد توفيرها والمحافظة عليها دائماً وأبداً. فلا يجوز أن نوجه سهام الظلم لمن هو تحت سلطتنا لمجرد كوننا قادرين على قهره، فنتوقع منه ما فوق طاقته.

إن الحاكم أو ولي الأمر يجب عليه أن يستفيد من الإمكانات والطاقات التي وضعها الله تبارك وتعالى تحت تصرفه في مسيرة تحقيق الأهداف الصحيحة. فليس عليه أن لا يظلم فحسب، وإنما عليه أيضاً أن يسعى لإحقاق الحق وإحراز العدل والإحسان.

فالله سبحانه وتعالى قد أقرّ في القرآن الكريم قيادة الرجل في حدود بيته، إذ قال: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾[٢].

ولكن هذا لا يعني أن يسلك الرجل من أجل هذا، سلوكاً ظالماً ديكتاتورياً؛ بل عليه -وبسبب ميزة القدرة التي يتمتع بها- أن يكون بصدد الاستفادة من هذه القدرة في إطار تربية العائلة وتعليمها وتكاملها.

وما يتوقع من الحاكم المقتدر هو تجاوزه عن أخطاء رعيته، وغض النظر عنها، وأن يحدث نفسه بأن من الطبيعي جداً صدور الأخطاء والزلات من أتباعه

(١) من لايحضره الفقيه، ج٤، ص٣٨١.

(٢) سورة النساء، آية: ٣٤.

ومن هم تحت سلطته، بل ولا ينبغي توقع النزاهة الكاملة التامة والعمل المتقن منهم، لأنهم إن لم يخطئوا أو يزلّوا، كانوا جديرين بأن يُتَّبعوا لا أن يَتَّبعوا. وعليه؛ فإن القائد لا تصح منه المبادرة إلى العقوبة إلا ما شذ أو ندر.

قصة المهاراجا والميرزا الشيرازي!

كانت الهند في زمن الميرزا الشيرازي رحمه الله محكومة من قبل حوالي ثلاثمائة ملك، يسمى الواحد منهم بالمهاراجا، وكان واحد من هؤلاء مريداً ومقلداً للميرزا الشيرازي، المرجع الشيعي الكبير في عصره. وفي سنة من السنين قصد هذا الوجيه الهندي مدينة سامراء في العراق، وكان يحمل مقداراً كبيراً من المال ليقدمه لمرجعه الكبير الشيرازي. فوصل إلى المدينة ليلاً، فقرر أن يزور السيد في صباح الغد، ولكنه ما أن استلقى ليأخذ قسطاً من الراحة والنوم، حتى طرق عليه باب غرفته التي كان قد استأجرها، وحينما فتحه وجد فقيراً يطلب منه شيئاً من المال، فأعطاه ما أراد، ورجع لينام، فسمع طرقات أخرى، فقام ليفتح الباب مرة أخرى، فرأى فقيراً آخر يطلب الطلب نفسه، فأعطاه المهاراجا شيئاً قليلاً من المال، ثم تكررت المسألة من فقراء آخرين حتى طلع الصبح على الرجل ولم يذق طعماً للنوم، فكان من المعلوم أن فقراء سامراء قد تنادوا فيما بينهم بأن رجلاً ثرياً قد دخل المدينة، وأنه من الممكن طلب المساعدة والصدقة منه![1].

ولما ذهب المهاراجا للقاء الميرزا الشيرازي، كان يغالب النعاس بشكل واضح، فسأله الميرزا قائلاً: كأنك تعب وغير مرتاح؟!.

فأجابه: لقد سلب فقراء مدينتك النوم والراحة مني!.

---

(١) كنت في سفرة إلى الهند، فاطلعت على أن فقراءها إذا ما حصل أحدهم على مال، فإنه يكون ملزماً بإخبار بقية أصحابه، حتى أن الشخص المتصدق يندم على ما قدمه من مساعدة.. فقد يكون هناك مجلس خاص بالفقراء والمساكين، وهم مكلفون بتسليم ما حصلوا عليه وجمعوه من مال ليقتسموه فيما بينهم، ولذلك فهم مطالبون بإخبار بعضهم إذا رأوا من لديه مال وفير. ويبدو أن الوضع في سامراء في العهد المشار إليه كان مشابهاً لما هو عليه الآن في بلاد الهند.

فقال له الميرزا: إذن؛ عليك أن تشكر الله الذي جعلك مهاراجا، فهجم عليك الفقراء، ولم يجعلك فقيراً تضطر إلى الذهاب لبيت مهاراجا آخر!!.

قصة الكويتي والبنغلادشي!

نقل لي أحد المواطنين الكويتيين هذه القصة، قائلاً:

كنت في مجلس حسيني في ليلة الثامن من شهر محرم الحرام، وكان الخطيب يعظ الناس من على المنبر، حيث قال: لماذا تظلمون -أيها الكويتيون- من تحت أيديكم من الخدم الأجانب في بيوتكم؟ولماذا تضربونهم؟ أليس من المحتمل أن يأتي أحدكم يومٌ فيخضع فيه لأسر أحد البنغلادشيين في بنغلادش -على سبيل المثال- فيظلمه كما كان يظلم غيره.. فهل سيكون ذلك مناسباً لكم؟ فالآن حيث أنعم الله المنان عليكم بالثروة، فاستخدمتم العامل البنغلادشي، فحاولوا أن تسلكوا معه سلوكاً عادلاً.

يقول هذا المواطن الكويتي: حينما كان الخطيب ينصحنا، قلت لنفسي: إن بنغلادش دولة متأخرة، وإن من المستحيل أن يخدم كويتي بنغلادشياً.

وكان من التقدير أن هجم جيش الطاغية صدام على الكويت بصورة مفاجئة بعد هذه الحادثة، واحتلها وفعل ما فعل فيها، وفي ذلك الحين خاطبني أحد الأشخاص الأجانب ممن كان يعمل لديّ منذ سنين مديدة وبلحن اللائم قائلاً: لا زال وطني على حاله، ولكنك أصبحت الآن بلا وطن!!.

إن هذه القصة المعبرة توضح ضرورة طرد الغرور والتكبر والعصبية من بين ظهرانينا، لأن الإنسان لا يعلم ما سيحل به غداً.

وأنا كلي اعتقاد بأن صفاتٍ رذيلة مثل الغرور والأنانية لو لم تكن فينا لأنزل الله علينا نعماً أكثر، ولكنه يعلم سرائرنا، ويعلم أيضاً أنه لو فتح علينا كل أبواب نعمائه لطغينا وتكبرنا بلا حدود.. والعياذ بالله!.

وللأسف؛ فإن للإنسان من الطبع الرديء ما يدفعه إلى قطع جذور العاطفة تجاه أقرب المقربين إليه من أجل منافعه المادية والدنيوية البحتة.

وشخصياً، أعرف أحدهم في بلد غني كان له أولاد قد غمرهم الفرح لدى تشييع جنازته، لأنهم قد تخلصوا من شره. فالنعمة التي تسلب من الفرد عاطفته ورحمته، إنما هي نقمة تتحول ضده.

وعلى هذا؛ فمن الأفضل ألا يطلب المرء من ربه نعمة أكثر من التي أعطاه، لأن ذلك ليس من صالحه وصلاحه، إذ نجد في بعض الأحيان قليلاً من المكنة المالية والثراء البسيط يحطم ابن آدم، ولعل أفضل دعاء يدعوه الإنسان هو أن يطلب من ربه الكريم أن يتعهد بتدبير أموره، وأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين أبداً.

بنو إسرائيل والطلب غير المناسب!

جاء بنو إسرائيل ذات مرة إلى نبيهم يطلبون منه أن يدعو لهم الله سبحانه وتعالى لكي يوكّلهم بأمر نزول المطر!!.

وحينما نقل النبي طلب قومه إلى الله، أتاه الوحي بأن ذلك ليس من مصلحتهم.

ولكن القوم أصروا على رغبتهم الجاهلة وطلبهم الغريب وغير اللائق هنا، حتى استجاب الله لهم.

ولما أصبح أمر نزول المطر تحت تصرفهم، أخذوا بإنزاله بكميات كبيرة وغير مدروسة، لمضاعفة المحصولات الزراعية، فامتلأت الأراضي والصحاري بمزارع الحنطة التي بلغ طول سنابلها ما يعادل قامة الإنسان.

ولكن القوم فوجئوا حينما جاؤوا لحصاد الحنطة حيث وجدوا سنابلها الطويلة خالية من الحبوب، وإذ أصبح معلوماً لديهم أن السنابل قد نمت بلا حبوب لفرط ما سقيت من الماء.

فذهبوا يشكون أمرهم إلى نبيهم، فنقل النبي ﷺ شكواهم إلى الله سبحانه وتعالى، فجاءه الجواب بهذا المعنى:

لقد ظن قومك بأنني حينما أُنزل المطر بقدر، فإنما أنزله بداعي الخسة وضيق النظر، ولكنهم يجهلون أن مصلحتهم ومصلحة الأراضي الزراعية في هذا القدر دون غيره، والآن حيث أمسكوا بزمام الأمور فقد عرفوا الحكمة من أن تكون المقادير بأيدينا نحن، حتى ننزل كل شيءٍ بقدرٍ معلوم.

ولذلك؛ فإن من الحكمة أن نضم إلى أدعيتنا التي نذكر فيها حوائجنا ومطالبنا المشروعة إلى الله تعالى، هذا الطلب: اللهم آتنا ما تعلم فيه صلاحنا ومصلحتنا، ولا توسع علينا في دنيانا ما يفسد علينا ديننا.

5

حقوق الأسرة

حق الزوجة

في رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام التي هي محور بحثنا، كان الحديث عن الحقوق التي تقع على عاتق الإنسان تجاه غيره، وقد رتّبت هذه الحقوق بشكل لائق جداً، إذ تم الحديث بدءاً عن حقوق الله سبحانه وتعالى، ثم عن حقوق أعضاء بدن الإنسان، وتلاها حق العلم، وحق السلطان، والرعية.

ثم يتحدث الإمام علي بن الحسين عليه السلام عن الأسرة وحقوق الزوجين تجاه بعضهما البعض، فيقول: «**وَأَمَّا حَقُّ الزَّوْجَةِ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّـهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَهَا لَكَ سَكَناً وَأُنْساً فَتَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ فَتُكْرِمَهَا وَتَرْفُقَ بِهَا وَإِنْ كَانَ حَقُّكَ عَلَيْهَا أَوْجَبَ فَإِنَّ لَهَا عَلَيْكَ أَنْ تَرْحَمَهَا لِأَنَّهَا أَسِيرُكَ وَتُطْعِمَهَا وَتَكْسُوَهَا وَإِذَا جَهِلَتْ عَفَوْتَ عَنْهَا**»[1].

لقد وصف الله سبحانه في كتابه مصطلح (الزوج) بصفة (الكريم) فقال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾[2].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٤.

(٢) سورة الشعراء، آية: ٧.

وهذا ما يشير إلى أن الزوجية ذات كرامة خاصة. فالإنسان قد يكون بحاجة إلى الحذاء مثلاً، إلا أن هذه الحاجة وهذه الوسيلة لا كرامة لها.

إن احترام الزوج لزوجته لا يتحقق فقط من خلال إنفاق الزوج عليها من ماله، بل إن تكريم المرأة له أساليبه وطرقه الخاصة به، وهو بطبيعة الحال بحاجة إلى مزيد من إمعان النظر والدقة، تبعاً إلى أن بعض متطلبات الحياة بحاجة إلى الدقة والتركيز في العمل والإنجاز، ومن دون هذه الدقة سيعود العمل بالضرر حتماً.

فمثلاً؛ حينما يريد شخص ما فتح باب الدار بواسطة المفتاح، فإنه لا يلزمه استخدام القوة، لأن ذلك من شأنه أن يكسر المفتاح والقفل معاً، ولكي يتم فتح الباب لابد من التحلي بالصبر والأناة. وكذلك الأمر بالنسبة للقضايا العائلية والعاطفية، إذ هو بحاجة إلى سلوك لائق ومناسب.

وللأسف؛ فإن المتعارف في بعض البلاد أن الرجل حينما يأتي بسيرة امرأته، أو قضية تخصها أمام بعض رفاقه، فإنه يقدم لذلك عبارات الاعتذار أولاً ثم يشرع في التحدث. وكأنه يتحدث عن شيءٍ مُخجل أو يصف أمراً معيباً بالأصل. وهذا مالا ينبغي أن يكون، بينما في مقابل ذلك؛ هناك من الأشخاص من يخاطب زوجته بعبارات التعظيم والتمج ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ يد والاحترام، وهو المطلوب.

ثم يضيف الإمام في حديثه أن المرأة قد جعلت نفسها في البيت كالأسيرة من أجل الرجل، ولهذا وجب على الرجل إكرامها ما استطاع، فلا يجوز مواجهتها بالتوبيخ والتقريع بسبب ارتكابها خطأً ما في عملية الطبخ مثلاً..

فإذا قام صرح الأسرة على أساس الانتقاد لصغائر الأمور والبحث عن الأخطاء، فإن هذا الصرح سيتحول إلى كتلة من الحقد والضغينة والنفور، ولكنه إذا حلّ الصبر والتفهّم والمداراة مكان تتبع الأخطاء، كان بالإمكان صناعة جنة من الحب والرحمة والألفة.. وبأقل الإمكانات.

وقد كنت ذات يوم في ضيافة أحد الأشخاص في بيته، وكانت زوجته تتألم من مشكلة خاصة، وحينما أراد زوجها منها أن تأتينا بالشاي، أكثرت من الرواح والمجيء لتأتي بالأقداح مرة،وبإبريق الشاي أخرى، وبالسكر تارة ثالثة، وهكذا بدلاً من أن تأتي بها خلال مرة واحدة.

فقال لي الرجل متهكماً (ودون أن يقدّر وضعها الصحّي): إنني أعيش مع زوجتي منذ ثلاثين سنة، وقد رزقنا الله بواسطتها بكثير من الأولاد ولكنها لم تتعلم بعد طريقة الإتيان بالشاي!!.

جذور الأخلاق السيئة لبعض الأمهات

أعتقد أن العديد من جذور الأخلاق الرذيلة لدى الأمهات تعود إلى سوء أخلاق أزواجهن.

وطريقتي الخاصة لدى إجرائي لعقد الزواج بين الشباب والفتيات هي أنني أتحدث إليهما لمدة نصف ساعة على الأقل، وأنصحهما وأبين لهما أهم قضايا الزواج ومسائل العلاقات الزوجية.

وفي إحدى المرات كنت أتحدث إلى زوجين حديثين، وحينما أتممت حديثي، بادرني أحد المرافقين لهما قائلاً: لقد تزوجت منذ أربعين عاماً، ولكنني لم أكن أعرف حتى اليوم أسلوب وأصول العلاقة والحياة الزوجية السليمة.

وواحدة من المسائل التي أتحدث بها إلى الزوج خاصة؛ هي: أن لا يزج قضايا عمله ومشاكل كسبه بقضايا البيت والأسرة الخاصة، وأن يجنب الجو العائلي العاطفي الخوض في أحاديث وقضايا قد تشنجه أو تلوِّثه.

إن التخلف الأخلاقي هو الذي يدفع مجتمعنا باتجاه السلوك السيئ والرذيل. فالفطرة الإلهية لا تتفق أبداً وهذا النوع من سلوكيات الصراع، والاتهام والشجار والتعامل اللاأخلاقي.

نعم؛ إذا كانت المرأة ذات طبيعة عدوانية -بسبب نوع التربية التي شبّت عليها- فإن القضية ستختلف، ومع ذلك لا يحق للرجل الاستفادة من أساليب عدوانية مشابهة، لأن ذلك سيبعث على تأزيم الوضع أكثر فأكثر. فقد تكون المرأة معقدة نفسياً، وتعاني من نوع من الانحراف النفسي والروحي، الأمر الذي يوجب على الرجل البحث عن أصل المشكلة، ووضع العلاج العاطفي والمنطقي المناسب.

جدير ذكره، أن المرأة بفطرتها الأولى تحب الخضوع للرجل والدخول تحت قيادته، ولكن بسبب تعسُّف الرجال في التعامل مع الزوجات واستغلال سلطتهم في الأسرة بشكل سلبي وظالم، فإن النساء أخذن بالتنكّر لهذه الفطرة والسعي للتخلص من ظلم الرجل وجبروته.

وقد ظهرت في المجتمعات الحديثة نساءٌ يتصفن بصفات الرجل، كما يروّجن بصور شتى لهذه الحالة، فتراهن يوصين بناتهن أن لا يخضعن لسلطة الرجل ولا يطعن له أو لأبيه أو لأمه أمراً، ولا يسمعن لهم نصيحة وتوجيهاً. وجراء هذا الحشد والتأليب تضطر الفتاة إلى أن تجد نفسها مكبلة وسط جو مفعم بالأزمات والمشاكل والعُقد، وتنسى ضرورة مداراتها وحفظها للجو العائلي الهادئ.

فهذه الحالة تشير إلى انقلاب القيم والموازين في مجتمعاتنا، وإلى تلوث الثقافة السائدة.

المناهج الدراسية ومصير الشباب

إن المناهج الدراسية في مدارسنا غير مناسبة أبداً للطالبات واحتياجاتهن الحقيقية، فالبنت حينما تبلغ السنة الخامسة عشرة مثلاً من عمرها، وبدلاً من أن تتعلم الثقافة الإنسانية الخاصة بالزواج ورعاية أمور البيت وحضانة وتربية الأطفال، تكتفي -أو هكذا أجبرت على الاكتفاء- بدراسة مناهج الفيزياء والرياضيات والكيمياء والتاريخ فقط.

منذ سنوات بعيدة، كنت كثير الزيارة لبيت أحد أصدقائي، وفي إحدى المرات، علمت أن ولداً صغيراً لبعض أهله قد مات فجأة.. وحينما سألت عن السبب قيل لي بأن الأب والأم -اللذين كانا يعملان خارج البيت- كانا يلقمانه حبوب الأسبرين المهدئة لإسكاته عن البكاء مما انتهى به إلى الموت المفاجئ.

في حين أن مثل هذه الأخطاء نابعة من جهل الآباء والأمهات بقضايا واحتياجات الأطفال، ويجب أن يتعلم الأولاد والبنات خلال أيامهم الدراسية كيفية التعامل معها، لئلا تتكرر مثل هذه الأخطاء.

أما فيما يتعلق بالآباء والأمهات الموظفين أو العاملين الذين لا يجدون الفرصة لإدارة شؤون أولادهم، فينبغي القول إن خطر الإصابة بالعقد النفسية يكمن لأولادهم الذين يكونون في بداية مرحلة الطفولة بأمسّ الحاجة للعاطفة والمحبة. فالطفل الذي ينمو بواسطة الحليب المجفف، ثم لا يأخذ نصيبه من عاطفة الأم وحنانها، لا يمكن تصوره ذا مستقبل محمود.

وما يبعث على الأسى في هذا المجال، أننا نلاحظ في بعض المدارس سلوكاً رديئاً من قبل المعلمين تجاه التلاميذ. فالمعلمون يعانون مشاكل مشابهة لما يعانيه أولياء الأمور ضمن نطاق الأسرة المضطربة، فلا يواجهون تلاميذهم بغير الأخلاق الرذيلة في المدرسة، ومن شأن هذه الطريقة أن توجه للتلاميذ وأرواحهم اللطيفة الضربة القاضية التي تهدد مصيرهم ومستقبلهم بالفشل.

وهكذا يتدرج الطفل نحو الحضيض بسبب أصدقاء السوء ومشاهدة أفلام العنف والشذوذ عبر السينما والتلفزيون، وكذلك بسبب الغفلة عن الدين والعقيدة، مما يتسبب بصورة مباشرة في اعوجاج شجرة شخصية الطفل حتى يكاد يكون من الصعب التفاؤل بإمكانية إصلاحها وتعديلها.

ولذلك؛ كان الاهتمام بهذا الأمر مطلباً ملحاً للغاية، وكذلك العمل على توطيد شخصية الطفل منذ البداية على أساس القضايا العقيدية والروحية والمعنوية.

فالمؤمنون الملتزمون الذين ينظرون إلى عواقب الأمور، ملتزمون بتعليم أطفالهم الثقافة الدينية وأحكام الشريعة والأخلاق الفاضلة منذ البداية.

الطفولة؛ المرحلة المناسبة للتربية الإسلامية

ينبغي اعتماد طرق وأساليب متعددة ومناسبة لتكريس وتقوية روح التدين في قلوب الناس وضمائرهم، إذ لا يمكن الاعتماد على الأساليب العفوية في مواجهة ومقاومة الهجوم الثقافي الشرس الذي تتعرض له الأمة الإسلامية من كل صوب وحدب، فمن العوامل المؤثرة في صد هذا الهجوم هو الاهتمام بتربية الشباب منذ صغرهم ونعومة أظفارهم.

فالفتن الثقافية والانحرافات الأخلاقية مستمرة في التوسع والتمدد. وتأييداً لهذا ينقل أن الإصابة بمرض الإيدز قد ارتفعت بنسبة ثلاثين بالمائة في أميركا في السنوات الأخيرة، أما في بعض الدول الأفريقية ومن جملتها جنوب أوغندا فقد وصلت نسبة الإصابة إلى مائة بالمائة!!.

إن الله عز وجل استن في الكون سنناً، ولم يستثنِ شخصاً من الأشخاص أو مجتمع من المجتمعات!!.

فإذا انتشرت ظاهرة الارتشاء والغلاء والكذب والإجحاف وهضم الحقوق.. فإن تبعات كل ذلك ستتعلق بنا دون غيرنا، ولعل أقل وأبسط آثار عدم الاعتناء بالمعنويات حرماننا من الماديات نفسها!.

إن الظواهر الطبيعية السيئة والأوضاع الجوية الرديئة كالجفاف والتصحر، تضرب بجذورها كلما ابتعدنا عن ربنا ولم نعتن بأوامره، وقد وردت عبارات ونصوص تهز ضمير الإنسان في الروايات والأدعية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، ومنها نصوص دعاء كميل فيما يخص الوجهة السلبية للذنوب، حيث نقرأ هذه الفقرات: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ النِّقَم، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُغَيِّرُ**

النِّعَم، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تَحْبِسُ الدُّعَاء، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ الْبَلَاءَ»[١].

تعلّمن من زوجة عمران!

على الأمهات المسلمات أن يتخذن من امرأة عمران قدوة حسنة، فالقرآن المجيد يروي لنا أن هذه المرأة الجليلة خاطبت ربها قبل أن تلد وليدها بالقول: **﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾**[٢].

فقد نذرت أن تجعل جنينها وقفاً لله عز وجل.

ولكم أن تقارنوا بين النية الطيبة والمقدسة لهذه المرأة حيال جنينها، وبين بعض النساء الحوامل اللاتي يمارسن التدخين مثلاً، فيتسببن لأطفالهن في الإصابة بأنواع مختلفة من الأمراض.. أو تلك المرأة المدمنة على المخدرات أو الخمر، أو تلك التي تتعمد الاستماع إلى الموسيقى المحرمة دوماً، فيكون محور تصرفاتها هو الممنوعات والمحرمات. فيا ترى أين سيكون طفلها، قياساً بطفل تلك المرأة الحامل التي لا يكلّ لسانها عن ذكر الله، وتأنس روحها إلى صوت القرآن الكريم؟!.

العاهات البدنية وسلوك الوالدين

إن الإعاقة البدنية التي تظهر على بعض الأطفال إنما هي في كثير من الحالات ناجمة عن الممارسات الخاطئة التي ترتكبها الأمهات، وقد قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: **«الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ!»**[٣].

فمنذ اليوم الأول يكون الوالد والوالدة مسؤولين تمام المسؤولية عن سعادة أو تعاسة أولادهما.

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء كميل.
(٢) سورة آل عمران، آية: ٣٥.
(٣) بحار الأنوار، ج٥، ص١٥٧.

وقد كان متعارفاً في سالف الأيام أن تكون هناك سهرات ليلية عائلية يشارك فيها الصبية، تكون فيها برامج مبهجة بدنياً إلى جانب بعض البرامج التربوية المعنوية، حيث كان الكبار في العائلة يتلون على مسامع الصغار صفحات من كتب التاريخ أو الحديث أو الأخلاق، إلى جانب تناولهم الحلويات والأطعمة المختلفة، فكانت هذه وسيلة جيدة في ربط الصغار بالقيم والثقافة الدينية السليمة.

مسؤولية رب الأسرة

لقد كنا نشاهد في قديم الزمان أن العالم الديني حينما يمرّ في الأزقة يلتف الناس حوله، ليسألوه عما يهمهم من القضايا الدينية والمسائل الشرعية عموماً.. ولكن هذه الحالة قد انحسرت إلى حد كبير جداً في زمننا هذا.

ولذلك؛ فإن من اللائق أن يهتم رب الأسرة، بأن يدعو أحد العلماء العارفين بالأمور الدينية إلى بيته من أجل تثقيف أولاده في كل أسبوع مثلاً، ليعرفهم على وظائفهم الدينية.

6

حقوق الفئات المستضعفة

حق العبيد

مواصلة للرواية الكريمة، يتحدث الإمام السجاد عليه السلام عن طبيعة العلاقة بين الإنسان وبين من هم تحت سيطرته ورعايته، وأبرز مثل لذلك في تلك الحقبة الزمنية هم العبيد، يقول الإمام عليه السلام: **«وَأَمَّا حَقُّ مَمْلُوكِكَ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ خَلْقُ رَبِّكَ وَابْنُ أَبِيكَ وَأُمِّكَ وَلَحْمُكَ وَدَمُكَ لَمْ تَمْلِكْهُ لِأَنَّكَ صَنَعْتَهُ دُونَ اللَّـهِ وَلَا خَلَقْتَ شَيْئاً مِنْ جَوَارِحِهِ وَلَا أَخْرَجْتَ لَهُ رِزْقاً وَلَكِنَّ اللَّـهَ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاكَ ذَلِكَ ثُمَّ سَخَّرَهُ لَكَ وَائْتَمَنَكَ عَلَيْهِ وَاسْتَوْدَعَكَ إِيَّاهُ لِيَحْفَظَ لَكَ مَا تَأْتِيهِ مِنْ خَيْرٍ إِلَيْهِ فَأَحْسِنْ إِلَيْهِ كَمَا أَحْسَنَ اللَّـهُ إِلَيْكَ وَإِنْ كَرِهْتَهُ اسْتَبْدَلْتَ بِهِ وَلَمْ تُعَذِّبْ خَلْقَ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»**[١].

إن العبد وإن كان خاضعاً لمولاه من وجهة النظر القانونية، إلا أنه يتمتع بحقوق خاصة ينبغي أن ينالها. فهو مهما يكن، يبقى إنساناً ذا حرمة كسائر الناس، وليس هو من جهة الحرمة الإنسانية بأقل مرتبة من الآخرين. وعلى المولى أن يعرف بأنه ليس الخالق للعبد، ولا هو الرازق له.

إن العبد يخضع لأوامر سيده في الفترة التي يكون فيها تحت سلطته، حيث

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٥-١٣٤.

يكون موظفاً بإطاعة مولاه، ولكن المولى نفسه مسؤول تجاهه، ولا يمكنه بحال من الأحوال تخطي هذه المسؤولية. وفي واقع الأمر يمكن أن يقال بأن العبد أمانة بيد سيده، وعلى هذا السيد أن يرعى ويحفظ هذه الأمانة الإنسانية على أحسن وجه.

فكما أن الفرد يتحمل المسؤولية قبال أولاده، كذلك هو مسؤول عمن تحت سلطته.

وفي الحقيقة إذا أمعن الإنسان النظر جيداً في حكمة وجود الفئات الاجتماعية المختلفة التي أقرها الله سبحانه لإدارة شؤون المجتمع، فإنه لن يفخر بانتمائه الطبقي، بل يعتبر ذلك وسيلة لمد يد العون والمساعدة للآخرين الذين ينتمون لفئات اجتماعية أضعف.

ولو لاحظتم بدقة، تنوّع الحرف والأعمال في المجتمع، لوجدتموها مليئة بالعبرة والحكمة، فهناك من يحب حرفة الخبازة، وآخر يرغب في البقالة، وأحدهم يملك أرضاً، والثاني يزرعها.. وهكذا فكل واحد من أفراد المجتمع يشبه إلى حد كبير عضواً من أعضاء بدن الإنسان.

فهذا البدن بحاجة إلى الأجفان كما هو بحاجة إلى الأظفار، ولا يصح أن يستحقر عضو عضواً آخر أو يستخف به، وإن كان يبدو أنه أعلى منه مرتبة أو أكبر أهمية، كما لا يحق له أن يدعي أن قوام الحياة متوقف عليه، وأن الأعضاء الأخرى لا أهمية لها دونه.

فالسيارة فيها عجلاتها وهيكلها وكراسيها وصندوقها الخلفي.. وكل هذه الأعضاء إذا انضمت إلى بعضها اكتملت وصح أن يطلق عليها اسم السيارة.

إن العبيد في المجتمعات السابقة كانوا يُعدّون من الطبقات الاجتماعية الأدنى، ولكن وجودهم كان يساعد على تكامل المجتمع الإنساني، فالذين كانوا يعانون نقصاً ما من الناحية العلمية والثقافية، كانوا يخضعون لإدارة وسلطة من لهم المكنة المالية والوسع الاقتصادي، كان على هؤلاء أن يرعوهم كما يرعون الأمانة

والوديعة.

فالعبيد - كما جاء في الفقرة السابقة من الرواية - هم بمثابة أمناء على ودائع السادة، فكل رعاية يقدمها السادة لهم تكون كما المال الذي يوضع في صندوق ويحفظ ليعاد إليهم في الدار الآخرة.

وقد ورد في الأحاديث أن الإنسان حينما يمد يد المساعدة للمسكين، فإن هذا المسكين سيتحول تلقائياً إلى أمين وحافظ لتلك اليد الكريمة، حيث يعيده له في يوم القيامة، حينما يكون في أمسّ الحاجة إليه.

ومهما يكن؛ فإن قضية الرقيق قد مسخت في الوقت الحاضر وقد قضى عليها الإسلام بشكل تدريجي عن طريق التحريض على تحريرهم في مختلف المناسبات، ولكن التقسيمات الطبقية الاجتماعية لا تزال قائمة في كل المجتمعات بأشكال مختلفة، وكل ما يقال عن حقوق العبيد، يصدق بالنسبة للفئات الاجتماعية الأدنى مرتبة والأضعف قدرة بالقياس إلى الطبقات الأخرى.

إن الدول المتقدمة إذا ما قيست بالدول المتأخرة فإنه ينطبق عليها نفس الحالة، ولذلك كان عليها أن تستغل وتستفيد من تطورها وذخائرها الاقتصادية لمد يد المساعدة للدول الضعيفة والفقيرة بشكل يعود عليها بالفلاح في يوم الجزاء.

وكذلك الأمر بالنسبة للرجل في نطاق الأسرة الواحدة الصغيرة يجب أن يستفيد من قوته واقتداره ومشروعية قيموميته بصورة شرعية صحيحة، فلا تنتهي به إلى حالة من التفرعن والتكبر.

7

حقوق الوالدين

حق الأم

يقول الإمام السجاد عليه السلام: **«وَأَمَّا حَقُّ أُمِّكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهَا حَمَلَتْكَ حَيْثُ لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ أَحَداً وَأَعْطَتْكَ مِنْ ثَمَرَةِ قَلْبِهَا مَا لَا يُعْطِي أَحَدٌ أَحَداً وَوَقَتْكَ بِجَمِيعِ جَوَارِحِهَا وَلَمْ تُبَالِ أَنْ تَجُوعَ وَتُطْعِمَكَ وَتَعْطَشَ وَتَسْقِيَكَ وَتَعْرَى وَتَكْسُوكَ وَتَضْحَى وَتُظِلَّكَ وَتَهْجُرَ النَّوْمَ لِأَجْلِكَ وَوَقَتْكَ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ لِتَكُونَ لَهَا وَأَنَّكَ لَا تُطِيقُ شُكْرَهَا إِلَّا بِعَوْنِ اللَّـهِ وَتَوْفِيقِهِ»**[1].

إن كل واحد منا كان في بطن أمه مدة معينة، صباحاً ومساءً، وفي فترة النوم واليقظة، تحملتنا أمهاتنا وهناً على وهن.. كما كنا نتغذى من خلاصة قوتهن.

ومن جملة المسائل الخاصة بحمل الطفل كونه غير معلوم في بدايته أبداً، حتى أن الأمهات لا ينتبهن إلى حقيقة كونهن حوامل، مما يضطرهن إلى الاستعانة بالكشوف والتحاليل الطبية. ثم إن الحمل تتضاعف مشقته على الأم شيئاً فشيئاً، حتى تصل الأم إلى قمة الألم والإرهاق والمشقة لدى عملية الولادة وخروج الجنين إلى النور.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٥.

إن الأمهات يهبن من الحنان والعاطفة لأولادهن الشيء العظيم الذي لا يوصف، حتى أن الواحدة منهن قد تؤثر بحياتها من أجل ضمان سلامة ولدها؛ فهي -مثلاً- تبذل كل جهدها لئلا تقع على بطنها، لكي لا يتعرض الجنين للخطر، ولا يهمها أن تبقى جائعة بقدر ما تهتم بإشباعه.

الأمهات ومشكلة انخفاض نسبة الكالسيوم

حينما تبلغ الأم الأربعين أو الخمسين سنة من عمرها ستتعرض لاحتمال إصابتها بأمراض العظام والتهاب المفاصل وآلام الظهر وخواء الأسنان، وقد تكون العلة لذلك في أكثر الأحيان أن الأم قد أعطت جنينها في فترة الحمل معظم ما لديها من مادة الكالسيوم لنموه وتكامل بدنه.

فالكالسيوم مادة لا يستطيع بدن الإنسان تصنيعها بكميات كبيرة، ثم إنه لا يمكن تزريقه بهذه المادة من الخارج، لأن ذلك يعود بالضرر الفادح على الكلية ووظيفتها.

نعم؛ إن من الطبيعي والمتوقع إصابة الرجل والمرأة بآلام المفاصل وترقق العظام في سن الستين أو السبعين، ولكن المرأة إذا أصيبت بهذه العوارض في الأربعين من عمرها، فإن لذلك جذوراً تعود إلى فترة الحمل.

ووصيتي للأمهات أن يراقبن أنفسهن جيداً، وأن يجهدن ما استطعن في تناول المقويات اللازمة حتى لا يبتلين بالأمراض ذات العلاقة المباشرة بالحمل فيما بعد.

حنان الأمومة والولد العاق

إن حنان الأم يشمل حتى الأولاد العاقين، وقد نقل قبل سنوات أن ولداً عاقاً كان عزم على قتل أمه، وحينما تأكدت الأم من قصد ولدها العاق هذا، قالت له: إن حياتي ليست مهمة بالنسبة لي،ولكن ما يثير هلعي هو أن العدالة ستنالك وتقتص منك!

وبناءً على هذا الحنان الذي لا يقف عند حدٍ؛ يشير الإمام السجاد عليه السلام إلى

أن حق الأم على ولدها أن يعي ما تحملته الأم من أجله في فترة الحمل، وهو أمر لا يمكن أن يتحمله غير الأم. وأن يعي أيضاً كل ما واجهته الأم من مصاعب وآلام أثناء الولادة وبعدها من أجل الحفاظ على سلامته. ثم يشير الإمام عليه السلام إلى أن الإنسان ليس باستطاعته أن يشكر الأم على متاعبها إلا بتوفيق الله سبحانه.

تضحية أم هندية!

كتبت الصحافة ذات مرة أن سيلاً داهم إحدى القرى في الهند، مما اضطر الناس إلى البحث عن شيءٍ ينقذهم من هذا البلاء، فصعد العديد منهم فوق الأشجار، وكانت إحدى العوائل قد تسلقت غصناً ضخماً لشجرة عملاقة، ولكن ثقل وزن أفراد هذه العائلة كاد أن يكسره، وفجأة نزعت الأم في هذه العائلة أسوارها الذهبية عن معصمها وسلمتها إلى زوجها ثم رمت بنفسها إلى الماء الجارف لتخفف من مجموع الوزن وتنقذ أفراد عائلتها.

وبالوالدين إحساناً

حاولوا -أيها الإخوة والأخوات- أن تعتبروا الآيات القرآنية الكريمة والروايات والأحاديث الشريفة دستوراً يجب تنفيذه بإقبال ودقة، دون الاكتفاء بمجرد سماعها أو قراءتها أو نقلها.

فإذا كان آباؤكم أو أمهاتكم لا يزالون يتمتعون بنعمة الحياة، فاسعوا كل السعي إلى إجلالهما واحترامهما، فقد قال القرآن المجيد بهذا الصدد: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾[1].

فعادةً ما تتحول روح الأب والأم إلى روح حساسة حينما يبلغان من العمر مبلغاً، حتى أنهما يعودان إلى ما يشبه مرحلة الطفولة، ولكن هذا التحول لا يكون

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٣-٢٤.

داعياً لأن يصرخ الفرد بوجههما أويحملهما ما لا يطيقان.

الأب والبنت العاقة!

نقل لي أحد الأصدقاء أن بيته كان ضمن عمارة سكنية من عدة طوابق، وفي أحد الأيام سمع صوت بكاءٍ من بيت جيرانٍ له، وحينما أصغى جيداً تأكد أن رجلاً كبير السن هو الذي يبكي، فذهب وطرق باب جاره، وحينما فتح له الباب سأل: هل حدثت مشكلة لكم؟.

فقيل له: إنه صوت أبي!.

فسأل: أبوكِ؟!.

فقالت له جارته: إنني أضربه!!.

فتساءل صاحبي متعجباً: ولماذا؟!.

قالت: لقد ضقت ذرعاً به، فقد تورطت به منذ سنين عديدة، وهو الآن رجل مسن، ويسبب لي مشاكل وإحراجات لدى ذهابه إلى المرافق الصحية، بل إنه يلوث فراشه بالنجاسة في بعض المرات.. ولذلك؛ فإنني أفقد أعصابي وينفذ صبري في بعض الأوقات، وأجدني مضطرة إلى ضربه! لأنني مشغولة بالاهتمام بأطفالي وزوجي.

فاقترحت عليها قائلاً: سأساعدك من الآن، وسأزورك بانتظام لأرعى لك أطفالك، حتى تجدي فرصة أكبر للاهتمام بوالديك!!.

مثل باكستاني!

حينما يراد توجيه النقد لمن يلوم المسنين من الرجال والنساء في الباكستان، تتم الاستفادة من هذا المثل الذي يأخذ طابع القصة، فيقال له:

قالت الأم لبنتها: إن أمي التي هي جدتك قد بلغت من العمر عتياً، وكلما أردت

أن أقدم إليها طعامها بطبقنا الخزفي، ارتعشت يداها حتى ألقت بالطبق إلى الأرض فكسرته، وها أنا ذا أعطيك مالاً لتشتري لها طبقاً خشبياً لتلافي هذه المشكلة.

فأجابتها البنت بعد أن عادت من السوق: لقد اشتريت طبقين: أحدهما لجدتي، والآخر لك يا أماه لأنك ستكونين بحاجة إليه في المستقبل القريب!!

حق الأب على الأولاد

ويشير الإمام علي بن الحسين عليه السلام في تتمة حديثه إلى حقوق الأب على أولاده فيقول: «**وَأَمَّا حَقُّ أَبِيكَ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ أَصْلُكَ فَإِنَّهُ لَوْلَاهُ لَمْ تَكُنْ فَمَهْمَا رَأَيْتَ مِنْ نَفْسِكَ مَا يُعْجِبُكَ فَاعْلَمْ أَنَّ أَبَاكَ أَصْلُ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ فِيهِ فَاحْمَدِ اللَّهَ وَاشْكُرْهُ عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»[1].

إن الأب هو أصل الإنسان، وبالرغم من كل ما تتحمله الأم من مصاعب الحمل، وآلام الولادة، ومشاكل الرضاعة والتربية، إلا أن الأب يبقى هو الأصل في ولادة الطفل، فلو كان الأب عقيماً لما حملت الأم بالولد. فكلما يملك الإنسان من مقومات حياتية من العلم، والمال، والشخصية الاجتماعية.. فإنه فرع وجوده في الحياة، ووجوده يعود إلى الأب، لذلك كان على الإنسان أن يشكر أباه أيضاً، ويحسن إليه، ولا ينسى فضله عليه.

دور المعرفة في احترام حقوق الآخرين

من أجل حفظ واحترام الحقوق التي أحصيناها حتى الآن، من اللازم على الفرد أن يكون عارفاً معرفة كافية بهذه الحقوق، فالتأكيد المتكرر من قبل الإمام زين العابدين عليه السلام على جزئيات الأمور وطلبه من المستمع أن يمعن النظر -مثلاً- في دور الأب والأم في وجود ونمو واستمرار الولد في الحياة، يشير إلى أن لوعي هذه الحقائق دوراً مباشراً في التزام الفرد بهذه الحقوق.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٥ .

ففي بعض الأحيان ترى الإنسان يؤدي صلاته بداعي الجبر أو العادة أو التقوى على الصعيد الفردي، ولكنه قد لا يعي الهدف من الصلاة، في حين أنه إذا سبقت منه المعرفة بالصلاة وبفوائدها وآثارها الايجابية في حياته، فإنه -لا شك- سيطرد عنه روح الكسل والخمول، ويؤدي صلاته بكل رغبة وحضور قلب.

فأداء الحقوق ورعايتها قائم على مستوى المعرفة بالشخص ذي العلاقة والاستحقاق، وقد وردت الأحاديث والروايات عن النبي وأهل بيته عليهم السلام، لتزيدنا وعياً ومعرفة بمسؤولياتنا وواجباتنا تجاهالآخرين.

وفيما يرتبط بحقوق الوالدين قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**وَالنَّظَرُ إِلَى الْوَالِدَيْنِ بِرَأْفَةٍ وَرَحْمَةٍ عِبَادَةٌ**»[1].

حتى وإن كان الأب منحرفاً أو كافراً، فإن من مسؤولية الولد الصالح أداء حقه تجاهه.

فقد قيل للإمام الرضا عليه السلام: «أَدْعُو لِوَالِدَيَّ إِذَا كَانَا لَايَعْرِفَانِ الْحَقَّ؟!. قَالَ عليه السلام: **ادْعُ لَهُمَا وَتَصَدَّقْ عَنْهُمَا، وَإِنْ كَانَا حَيَّيْنِ لَايَعْرِفَانِ الْحَقَّ فَدَارِهِمَا، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ** صلى الله عليه وآله **قَالَ: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بِالرَّحْمَةِ لَا بِالْعُقُوقِ**»[2].

إصلاح القاعدة الاجتماعية

إن ما جاء من وصايا الإمام زين العابدين عليه السلام في مجال حقوق الأسرة، تضمن إصلاح اللبنة الأولى في البناء الاجتماعي، وهي الأسرة؛ فحينما تصلح العلاقة بين الأب والأم والأولاد، والزوج والزوجة، تصلح تبعاً لها العلاقة بين ومع الأقارب والأصدقاء، بحيث تصل هذه العلاقة إلى قمة التطور والتسامي، وبالتالي سيصلح المجتمع برمته، ويقترب من السعادة خطوةً فخطوة، لأن الجميع بمثابة حبات العقد المتصلة مع بعض.

(١) بحار الأنوار، ج٧١، ص٧٣.

(٢) بحار الأنوار، ج٧١، ص٤٧.

8

حقوق الأولاد والإخوان

يشير الإمام عليه السلام إلى حق الأولاد على الوالدين فيقول: «**وَأَمَّا حَقُّ وَلَدِكَ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ مِنْكَ وَمُضَافٌ إِلَيْكَ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا بِخَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1].

فالأب -بادئ بدء- يجب أن يعلم بأن الولد جزءٌ منه.

وقد أوصى أمير المؤمنين عليه السلام ولده الإمام الحسن المجتبى عليه السلام قائلاً: «**وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي**»[2].

وهاهو علم النفس يؤكد بهذا الصدد أن صفة الحسد خصلة دفينة في أعماق روح الإنسان، شاء أم أبى. فهو وإن لم يمارس هذه الرذيلة، إلا أنها تبقى دفينة فيه، فإذا ذُكر أحد زملائه في المدرسة بالخير والثناء، قال في داخله: وماذا عنّي أنا؟!.

وقد أصبح متعارفاً بين بعض الشعوب لدى ذكر أحدٍ بخير في محضر شخص آخر أن يُقال: إن فلاناً -وليس أفضل منك- إنسان صالح!.

ويُراد في واقع الأمر من خلال الاستفادة من هذه الطريقة وهذا الاستثناء تحاشي استفزاز وإثارة رذيلة الحسد في المستمع.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٥.

(٢) نهج البلاغة، رسالة رقم٣١.

وقد تكون الحالة الوحيدة التي لا تثير الحسد في الإنسان هي أن يذكر المرء شخصاً ما بالصلاح أو التفوق أمام أبيه، حتى وإن كان هذا الأب غير متصف بالصفة الخيرة التي ذكرت لابنه، حيث سيقول في سريرته: إن ما يملكه ابني ويمتاز به إنما جاءه مني، ومهما يكن فإن السبب في ذلك يعود لي في نهاية الأمر.

ثم يخاطب الإمام علي بن الحسين عليه السلام الأب بقوله: «**وَأَنَّكَ مَسْؤُولٌ عَمَّا وُلِّيتَهُ مِنْ حُسْنِ الْأَدَبِ وَالدَّلَالَةِ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْمَعُونَةِ عَلَى طَاعَتِهِ فَاعْمَلْ فِي أَمْرِهِ عَمَلَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُثَابٌ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ مُعَاقَبٌ عَلَى الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِ**»[١].

وهنا نلاحظ أن الإمام عليه السلام يشير إلى مسؤولية التأديب الحسن قبل مسؤولية الدلالة على الله سبحانه، ولعل الوجه في ذلك، أن حسن الأدب والتربية الصالحة مقدمة على الدلالة على الله سبحانه وتعالى. فالطفل يعرفه أبواه في المرحلة الأولى على الآداب الحسنة والأخلاق الإسلامية وكيفية التعايش الصحيح مع الآخرين، ثم يعلمانه في المرحلة الثانية علم التعرف على الله ربه عز وجل.

إن حقيقة الدين هي معرفة الله، وجميع أبعاد الدين تبدأ أو تقوم على أساس هذه المعرفة، أما معرفة النبي والإمام والمعاد وغير ذلك فهي تابعة لمعرفة الله سبحانه وتعالى.

تكريس محورية معرفة الله

هنا ينبغي توضيح قضية مهمة وضرورية، وهي تعود إلى أهمية معرفة الله سبحانه وتعالى فيما بيننا، حيث انتشرت في أوساطنا مقولات غير صحيحة، مثل أن نقول: إن الصلاة نوع من الرياضة البدنية، وإن الوضوء لصلاة الصبح يبعث على النشاط، وإنه مفيد لأجسامنا حيث نستنشق نسيم الصباح..

لكن هذا الاستخفاف اللاواعي للأعمال العبادية غير صحيح بالمرة، إذ لا علاقة للصلاة برياضة البدن ومرونته ونشاطه أبداً، فحق الله على الإنسان أن

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٥.

يتعبده عبر الصلاة ويشكر نعماءه من خلالها،ولا يصح الترويج لهذا النوع من الخلط بين الدين والدنيا.

ولا يشرك بعبادة ربه أحداً

طلب أحد طلاب الحوزة العلمية مني ذات مرة أن أنصحه نصيحة مهمة، فقلت له: حاول أن تبتعد دائماً عن خلط الدين بالدنيا، فإذا قصدت المسجد، فاقصد الله سبحانه وتعالى فقط.

وقد روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «**كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَوَضَّأَ لَمْ يَدَعْ أَحَداً يَصُبُّ عَلَيْهِ الْمَاءَ فَقِيلَ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَ لَا تَدَعُهُمْ يَصُبُّونَ عَلَيْكَ الْمَاءَ فَقَالَ لَا أُحِبُّ أَنْ أُشْرِكَ فِي صَلَاتِي أَحَداً وَقَالَ اللَّـهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾**»[1].

وقد يخطر في أذهان بعض الخطباء أنه حينما يرتقي المنبر للخطابة سيفيد الآخرين بنصائحه من جهة، وسيكسب شيئاً من المال والربح المادي من جهة ثانية، فتستمر عجلة حياته المعاشية، ثم سيرضى الرب عز وجل عنه!

إنني لا أدعي أن نمتنع أو نعطّل ارتقاء المنبر بهذه الطريقة، ولكنني أقول بضرورة ووجوب الإخلاص للّـه سبحانه وتعالى حينما نصعد المنبر.

وأعود مؤكداً بأن الأب -في إطار تربية الأولاد- يجب أن يبدأ منذ اليوم الأول فيوضح لهم ويرشدهم إلى أن الصلاة والعبادة أمر خاص بالله وحده، وهكذا يجب أن تؤدّى. وهكذا حال الصيام،حيث يجب أن يمتثل به أمر الله، وليس لتحقيق وإحراز الفوائد الصحية والبدنية منه.

ينبغي أن تكون النية في أداء المستحبات، بل وحتى مزاولة المباحات في الحياة مصطبغة بصبغة الله تعالى. فلا شيء أفضل من هذه النية، بل حتى عملية

(١) وسائل الشيعة، ج١، ص٤٧٧.

تنظيف البيت مثلاً ينبغي أن يقصد بها وجه الله تعالى، انطلاقاً من قول رسول الله ﷺ: «.. **وَالنَّظَافَةُ مِنَ الْإِيمَانِ**»[١].

كيفية تعليم الدين للأولاد؟

ينبغي أن نولي أسلوب توضيح وتعريف الدين للأولاد أهمية خاصة، ذلك لأن تعليم الدين للأولاد يختلف عن أساليب تعليمه للآخرين.

فالواعظ حينما يخطب على المنبر، فإنه يكتفي بالموعظة الشفهية والنظرية، ولا يستفيد من أمواله لأداء هذه المهمة، فتراه يصب كل جهده اللفظي على الأمر بطاعة الله سبحانه وتعالى وتبيين العقاب على معصيته، وعلى التهديد بأليم العذاب لتارك الصلاة والصيام مثلاً. ولكن هذا الواعظ نفسه حينما يريد ترغيب أولاده بالالتزام بالمسائل الدينية، فإنه يخصص لهم جوائز وهدايا قيمة، كأن يهدي لأحدهم ساعة -مثلاً- إذا وجده مهتماً بصلاته، أو يمنح ابنته ثمن العباءة إذا ما أراد لها ارتداء الحجاب، أو أن يهدي لولده هدية ثمينة إذا ما صام سنته الأولى بعد البلوغ.

فإذا كان الوالدان يبذلان الغالي والنفيس لمداواة ولدهما المريض جسدياً، فلماذا لا يمهدان الأرضية المناسبة، ويصرفان الأموال اللازمة لتقريب الدين لذهن وروح أولادهما؟!

إن هناك توقعاً لدى الكثير من الرجال في أن يتعلم أولادهم مسائل الدين والشريعة مجاناً، في نفس الوقت الذي يكون فيه أحدهم مستعداً لأن يبذل المبلغ الطائل لشراء جهاز التلفاز وباقي الأجهزة والاحتياجات وحتى الكماليات المنزلية، بل ويبدو له من غير المعقول أن يخصص لأحد المعلمين أو علماء الدين مبلغاً شهرياً -مثلاً- ليعلم أولاده مسائل الفقه وأحكامه، أو يحفظه الآيات القرآنية والروايات الشريفة. إن هذا التوقع توقع غير صحيح بالمرة، حيث ننتظر أن يتعلم أولادنا معالم دينهم بالمجان!.

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٩، ص٢٩١.

إن البعض من الآباء يبذلون كل سعيهم ليتمكن أولادهم من السفر إلى الدول الأوروبية، ولكنهم لا يبدون نفس الإصرار لتمكين أولادهم من السفر إلى الحج.

وفي الفقرة الثالثة من حديث الإمام السجاد عليه السلام حول حقوق الأولاد، يقول: «**فَاعْمَلْ فِي أَمْرِهِ عَمَلَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُثَابٌ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ مُعَاقَبٌ عَلَى الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِ**»[1].

فرغم أن تربية الأولاد وتعليمهم الآداب والعقائد من واجبات ومسؤوليات الوالدين، إلا أن الله سبحانه وتعالى يثيبهم على ذلك أيضاً.

وعندما يكون الدافع الحقيقي لتحرك الإنسان في الدنيا هو نيل الثواب والتخلص والفرار من العقاب، فعليه أن يعلم بأنه يواجه أمرين:

الأول: أنه يستحق الثواب لما قام به من عمل إيجابي.

الثاني: أنه أثبت بهذه الطريقة إيمانه بيوم القيامة.

ونحن كأفراد عاديين ينبغي أن نعرف أننا نعجز أن نكون في أمر العبادة كالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو كان يعبد ربه العلي الكبير لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من ناره، وإنما كان يعبده لأنه كان يعرفه أهلاً للعبادة.

أنظروا إلى هذا المقطع من (دعاء كميل) المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام وما فيه من أفق تربوي وحكمة سامية، حيث يقول الإمام مخاطباً ربه عز وجل: «**وَهَبْنِي [يَا إِلَهِي] صَبَرْتُ عَلَى حَرِّ نَارِكَ، فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى كَرَامَتِكَ..**»[2].

وبالطبع؛ ليس مقصود أمير المؤمنين عليه السلام أن أحداً ما قادر على تحمل نار جهنم والصبر على أليم عذابها، إذ لا أحد له هذه القدرة، ولكن المقصود أنه لو استطاع مقاومة نار جهنم الحارقة، فهو لا يستطيع مقاومة الحرمان من النظر إلى كرامة الله والانسلاخ منها أو الافتقار إلى رحمة الرب العظيم.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٥.

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

وقد روي أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان جالساً، فعرض له عارض من الهم، فتساءل: من أين أتاه ذلك؟.

ثم إن الإمام راجع مسؤولياته وأعماله اليومية المعتادة ليرى ما هو السبب في ظهور هذا الهم.

وهذه الرواية تعلمنا أن كل همٍّ وغمٍّ أو مصيبة أو فرح يطرأ على الإنسان له سبب معين وعلة خاصة؛ بل إنه إذا تعرض إلى جرح صغير في طريقه، فليعلم أن جذره وسببه في ذاته هو، وعليه التعرف عليه خلال عملية محاسبة النفس.

وحتى إذا أصابه نفع ما، فعليه أن ينسبه إلى أحد أعمال الخير التي كان قد قام بها. ولذلك؛ يكون من الجدير به أن يكرر أعمال الخير في سلوكه اليومي، ويكرسها في حياته، ليضاعف عليها النفع في الدنيا والثواب في الآخرة.

إن ما يميّزنا عن الناس البدائيين هو أننا نستطيع اكتشاف العلاقة المنطقية بين الوقائع والأحداث التي تقع في الحياة؛ فالإنسان البدائي كان إذا فقد ابنه -مثلاً- في حادثة طارئة، زعم بأن سبب ذلك هو أن القمر كان في برج العقرب، أو أن الأفعى كانت جاثمة على الشجرة الفلانية ثم انتقلت إلى الشجرة المحاذية لها.. وما أشبه ذلك!!

ولكن تعاليم الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام، دفعت بني آدم شيئاً فشيئاً إلى تحكيم العقل لدى النظر إلى الأحداث والتحولات الفردية والاجتماعية، ولا تنافي بين النظرتين والصورة أعمق من ظاهر ما يبدو للعيان الحسي كما هو دأب العقلانية المادية، إلا إذا كانت العقلانية المادية (الظاهرية) حاجباً عن النظرة الأعمق النافذة إلى حكمة التدبير الإلهي للكون. فكان من تعاليم القرآن الكريم للإنسان قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾[١].

بمعنى أن كل مصيبة تواجهكم لها جذورها التي تعود لسوء تصرفاتكم أنتم.

(١) سورة الشورى، آية: ٣٠.

فالعذاب والعقاب يصيب الفرد في حالة غفلته عن ربه، في حين أن من يتذكر الله سبحانه وتعالى دائماً مصون عن سوء البلاء لا أصل الابتلاء.

فإذا بلغ الإنسان مرتبة يكون فيها ذاكراً للَّه في ساعات ولحظات يومه كلها، كان محصناً بحصن الله العزيز الحكيم.

وما أروع أن ينوي الإنسان التقرب إلى الله زلفى حتى حينما يمنح أولاده شيئاً من المال لدى ذهابهم إلى مدرستهم فيقول في نفسه: إنني أنفق هذا المال لوجه الله تعالى بهدف أن يتعلم أولادي، العلم الصالح والبصيرة الإلهية.

حق الأخ

ثم يشير الإمام السجاد عليه السلام إلى حق الأخ -والظاهر أن المقصود بالأخ هنا هو الأخ النسبي- فيقول: «**وَأَمَّا حَقُّ أَخِيكَ فَإِنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ يَدُكَ وَعِزُّكَ وَقُوَّتُكَ فَلَا تَتَّخِذْهُ سِلَاحاً عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّـهِ وَلَا عُدَّةً لِلظُّلْمِ لِخَلْقِ اللَّـهِ وَلَا تَدَعْ نُصْرَتَهُ عَلَى عَدُوِّهِ وَالنَّصِيحَةَ لَهُ فَإِنْ أَطَاعَ اللَّـهَ وَإِلَّا فَلْيَكُنِ اللَّـهُ أَكْرَمَ عَلَيْكَ مِنْهُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»(١).

فالإمام عليه السلام يحذر الفرد من الطغيان والظلم وارتكاب المعصية في حالة استشعاره القوة جراء كثرة الإخوان.

إن من الجدير بالإخوان أن يتفقوا ويضعوا يداً بيد في إطار إنجاز الأعمال الصالحة والمشاريع الخيرية، كأن يقوموا بتأليف مشترك لكتاب نافع، أو أن يساهموا في بناء مسجد ومدرسة..فقد تكون النتائج باهرة جداً إذا بذل الإخوة مجتمعين جهودهم في مسيرة خيِّرة واحدة.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٥.

9

حقوق ذوي الفضل عليك

مرحلتان في عملية التشريع

رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام تمهد الأرضية المناسبة لعملية التشريع في مختلف الشؤون الاجتماعية، حيث يطوي المشرّع في هذا المجال مرحلتين أساسيتين في مهمته:

المرحلة الأولى: هي مرحلة تحديد القيم التي ترسم الأهداف المقدسة للقانون.

المرحلة الثانية: تلك التي تخص التقنين والتشريع بتفاصيله.

ورسالة الحقوق هذه تختص أكثر ما تختص بتبيين القيم التي ينبغي أن يستفيد منها المشرّع في عملية التقنين، فتلك القيم تتصف بالثبات والاستمرارية على طول المدى، رغم التفاوت الحاصل في عملية التطبيق.

إن الدين الإسلامي دين يمتاز بتبيين الموضوعات الكلية التي لا يؤثر فيها الزمن أبداً.

ففي مجال الطهارة -مثلاً- وطبقاً لفتاوى الفقهاء والمجتهدين، يعتبر الماء أهم وسائل التطهير، وفي هذا المجال وردت آية قرآنية كريمة تقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾[1].

أما الروايات والأحاديث؛ فقد استخدمت لفظة (غسل) مؤكدة أن عملية التطهير والغسل لابد أن تتم بالماء، وبالطبع فإن ماء الورد ليس فيه خاصية التطهير، باعتباره عصارة للورد، فيما يدخله تحت عنوان الماء المضاف.

ولكن القرآن الكريم لم يشر إلى الغسل بلفظه الصريح، وإنما استفاد من لفظة التطهير والتطهر، حيث قال: **﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾**[2]. وهذا التعبير يتفق ويتناسب والتطور العلمي الحاصل اليوم واختراع المواد المنظِّفة والمطهِّرة. فإذا واجهتنا شحة في الماء في يوم من الأيام كان بإمكاننا الاستعانة بالتراب أو بعض المواد والسوائل الكيميائية الأخرى التي من شأنها الإيفاء بالغرض، وكذلك الأمر بالنسبة للحرارة والبخار، إذ القرآن الكريم لم يسد الباب بوجه الفقيه في هذا الإطار، بل إنه قد أيّد ذلك بشكل غير مباشر.

وقد أكدتُ في (كتاب الطهارة) إمكانية التطهير بأية وسيلة تؤدي الغرض المطلوب وتزيل عين النجاسة بشكل كامل، من دون الحاجة إلى الماء.

ثم إن الكتب الفقهية قد أشارت إلى بعض المطهرات -غير الماء- كالأرض والشمس، علماً أن الروايات والأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام قد ذكرت أربعة وعشرين نوعاً من المطهرات.

وعموماً؛ فإننا لا نقف أمام تعبير (الغسل) موقفاً جامداً، وإنما نؤكد على كلمة (التطهير) العامّة الشاملة.

إذن، فإن الرواية المنقولة عن الإمام زين العابدين عليه السلام حول الحقوق تهتم بتوضيح وتبيين القيم العامة التي تشكل أساس التشريع في كل العصور، وهذه القيم هي التي تساعد الفقيه وتلهمه خلال عملية التقنين التفصيلية.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٤٨.

(٢) سورة المدثر، آية: ٤.

لا شك أن المسائل الاجتماعية والآداب والتقاليد لدى الشعوب والأمم المختلفة تتفاوت نسبياً، فقد نجد في بعض البلاد -مثلاً- أن الولد يمتنع عن الجلوس ويستمر واقفاً احتراماً لأبيه الجالس، ولكن أئمتنا المعصومين عليهم السلام لم يقفوا عند حالة أو نوع واحد من أنواع وأشكال الاحترام المفروض، فهم قد شرعوا موضوع احترام الأب من قبل الأولاد بصورة كلية، وأوكلوا التطبيق للأفراد، كلاً حسب عرفه وتقليده وما يرتئيه من مصداق مناسب يحفظ للوالد حقه وحرمته في التقدير والاحترام والإكبار.

بين الفقه والأخلاق

إن الفصل بين الفقه والأخلاق الذي يعتبر أمراً متعارفاً في الوقت الحاضر يمثل حالة خاطئة جداً، فالفقه إنما هو برنامج تفصيلي لتطبيق الأخلاق الحسنة وتحقيق العدالة التي أشار الله سبحانه وتعالى إليها في كتابه المجيد: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى**﴾[1].

فالأئمة المعصومون عليهم السلام حينما يتحدثون في الأمور الفقهية فإنهم لا يفصلونها أبداً عن الأخلاق، ولا بأس بالإشارة إلى شاهد في هذا المجال.

تعرفون أن من مبطلات الوضوء خروج أحد الأخبثين من الإنسان، ولكن الأئمة عليهم السلام حينما يريدون توضيح هذه المسألة الفقهية والإشارة إلى مخرجي البول والغائط اللذين قد يكره المرء ذكرهما أو يخجل من التطرق إليهما، يقولون: المخرجان اللذان أنعم الله سبحانه وتعالى بهما عليك.

فالأئمة -في واقع الأمر- يريدون من خلال التذكير بنعم الله على الإنسان المزج بين الفقه والأخلاق، وهذا الأسلوب له فائدته الكبرى وتأثيره العظيم.

وحق المنعم بالولاء

ثم يشير الإمام السجاد عليه السلام إلى الحقوق المتبادلة بين بعض الفئات الاجتماعية

---

(١) النحل، ٩٠.

التي تربطها علاقات خاصة معينة كعلاقة العبيد المحررين بمن قام بتحريرهم.

ويبدو أن مصداق العلاقة المشار إليها في الفقرة القادمة،لا وجود له في الوقت الحاضر في ظاهر الأمر، إذ كان قديماً، حيث كانت ظاهرة الرق والرقيق والعبودية ظاهرة اجتماعية طبيعية، فكان بعض الأفراد الخيرين يبذلون أموالهم لتحرير العبيد، وكان الإمام السجاد عليه السلام على رأس قائمة هؤلاء الخيرين، كما جاء في الروايات، إذ أخذ على عاتقه شراء وتعليم وتهذيب وتحرير ألف عبدٍ في كل سنة، فيقول الإمام عليه السلام: «**وَأَمَّا حَقُّ مَوْلَاكَ الْمُنْعِمِ عَلَيْكَ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ أَنْفَقَ فِيكَ مَالَهُ وَأَخْرَجَكَ مِنْ ذُلِّ الرِّقِّ وَوَحْشَتِهِ إِلَى عِزِّ الْحُرِّيَّةِ وَأُنْسِهَا فَأَطْلَقَكَ مِنْ أَسْرِ الْمَلَكَةِ وَفَكَّ عَنْكَ قَيْدَ الْعُبُودِيَّةِ وَأَخْرَجَكَ مِنَ السِّجْنِ وَمَلَّكَكَ نَفْسَكَ وَفَرَّغَكَ لِعِبَادَةِ رَبِّكَ وَتَعْلَمَ أَنَّهُ أَوْلَى الْخَلْقِ بِكَ فِي حَيَاتِكَ وَمَوْتِكَ وَأَنَّ نُصْرَتَهُ عَلَيْكَ وَاجِبَةٌ بِنَفْسِكَ وَمَا احْتَاجَ إِلَيْهِ مِنْكَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»[١].

فهناك البعض من العبيد من هو على مستوى عالٍ من الذكاء والحيوية والفاعلية، وهم ما أن ينالوا حريتهم حتى تكون فيهم الفائدة الكبرى لأنفسهم وللمجتمع، فلا يُستبعد أن يدخلوا مضمار الصناعة أو التجارة بعد تحررهم، فيحققوا نجاحاً مالياً كبيراً. وهنا يجب عليهم أن يكونوا أوفياء لمن حرروهم إذا ما ضاقت بهم الأمور.

وقد يصدق العكس لهذه الحالة؛ فإذا ساهمتَ في تحرير أحد العبيد، فعليك أن تعرف أن هذا العبد كان وسيلة لتقربك إلى الله تعالى ولنيل الثواب في الآخرة. يقول الإمام السجاد عليه السلام: «**وَأَمَّا حَقُّ مَوْلَاكَ الَّذِي أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ عِتْقَكَ لَهُ وَسِيلَةً إِلَيْهِ وَحِجَاباً لَكَ مِنَ النَّارِ وَأَنَّ ثَوَابَكَ فِي الْعَاجِلِ مِيرَاثُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ رَحِمٌ مُكَافَأَةً لِمَا أَنْفَقْتَ مِنْ مَالِكَ وَفِي الْآجِلِ الْجَنَّةُ**»[٢].

جدير بالذكر أن العبيد الذين يؤتى بهم من غير البلاد الإسلامية إذا حررهم

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٥.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٥.

مسلم من المسلمين، ثم إنهم توفّاهم الله عز وجل، ولم يكن لهم وارث بالنسب والقرابة، كان الذي حررهم أولى الناس وأحقهم بميراثه.

التحرير في العصر الراهن

يبدو أنه بالإمكان الاستفادة من هذا المقطع من الحديث في العصر الراهن أيضاً، وذلك في حالات مشابهة. ففي كل يوم نرى أفراداً في المجتمع يتعرضون للانتكاسات الاقتصادية والعجز المالي جراء ما يترتب عليهم من صكوك مصرفية لا رصيد لها، أو ما يتوجب عليهم من ديون ثقيلة يعجزون عن تسديدها، الأمر الذي ينتهي بهم إلى المحاكم والسجون، ولذلك فإن الخيرين من أبناء المجتمع بمستطاعهم إنقاذ هؤلاء من الفضيحة أو الحبس ومواجهة المشاكل النفسية، فيسددون عنهم ما تعلق بذممهم، حيث يُعتبر هذا العمل أشبه شيء بالعتق والتحرير.

ذم المنّ

وهنا ينبغي الانتباه إلى أن من الخطأ تحميل من ساعدناه في حياته المنّ أو الأذى. هذا من جانب، ومن جانب آخر؛ ترانا نفر ممن أسدى إلينا خدمة معينة، لأننا قد نحس بأن ما قام به لم يكن إلا واجباً عليه، في حين أن شكر المخلوق بمثابة المقدمة لتقديم الشكر إلى الخالق، وقد قال الإمام الرضا عليه السلام: **«مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْمُنْعِمَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»**[1].

الامتنان من الخلق

يقول الإمام السجاد عليه السلام: **«وَأَمَّا حَقُّ ذِي الْمَعْرُوفِ عَلَيْكَ فَأَنْ تَشْكُرَهُ وَتَذْكُرَ مَعْرُوفَهُ وَتَكْسِبَهُ الْمَقَالَةَ الْحَسَنَةَ وَتُخْلِصَ لَهُ الدُّعَاءَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ كُنْتَ قَدْ شَكَرْتَهُ سِرّاً وَعَلَانِيَةً ثُمَّ إِنْ قَدَرْتَ عَلَى مُكَافَأَتِهِ يَوْماً كَافَأْتَهُ»**[2].

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، ص٤٤.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٦.

إن من المناسب جداً أن تشكر من أسدى إليك خدمة أو قدّم لك معروفاً، وأن تشعر في قرارة نفسك بأهمية الخدمة التي قدمها لك، وأن تذكره بكلمة حسنة، وتدعو له بالخير، كأن تقوم -مثلاً- في منتصف إحدى الليالي فتصلي ركعتين لوجه الله وتهديه ثوابهما.

فالطبيب الذي كان له دور مهم في علاجك، والعالم الذي قام بنصحك وإرشادك إلى ما فيه كبير منفعتك، والتاجر الذي أقرضك من المال وأنقذك في الموقف الحرج.. وغير هؤلاء ممن يشبهونهم، لهم الحق عليك، ويجب أن تهتم برد جميلهم عليك ما أمكنك، سراً أو علانية، فإذا عادت دورة الزمان واحتاجوا إلى مساعدتك، فعليك أن تحسن لهم ولا تردّهم لأن الإحسان هو جزاء الإحسان.

لا تغفل عن العقاب

نقل والدي رحمه الله فقال: سافر فيما مضى من الزمان رجلان بقالان من مدينة قم إلى مدينة كاشان في إيران، وفي منتصف الطريق نفذ ما كان عندهما من الماء، فغلب عليهما العطش، وأغمي على أحدهما حتى سقط أرضاً، ولكن الرجل الثاني تمكن من إيصال نفسه إلى إحدى القلاع القديمة التي كانت تتخذ مقراً لاستراحة القوافل في تلك الأطراف، فرأى رجلاً رحالةً قرب الماء وأمامه قدح فيه عصير فواكه مثلج، فهجم البقال بما بقي لديه من رمق وقوة على قدح العصير، ولكن الرجل الرحالة أخذ القدح ومنعه من تناوله قائلاً: «إن القدح كله لك، ولكن لا يصح أن تشرب منه وأنت بهذه الحالة من الهلاك والإعياء، لما فيه من الخطر على سلامتك والضرر على صحتك»[1].

---

(١) أقول: كنت أمشي ذات مرة في طريق صحراوي فغلب عليّ العطش، فأوصلت نفسي إلى خيام كانت لجماعة من البدو الذين صادف وجودهم مروري، فطلبت منهم ماءً، فقالوا لي: لا نعطيك الماء لأن فيه ضرراً عليك. ثم أجلسوني مدة ربع ساعة حتى جاؤوا بالشاي وقالوا: اشرب هذا الشاي أولاً، ثم اشرب الماء، لأن الإنسان إذا هجم على الماء بغتة وهو في مثل حالتك أصيب بالعمى الكلي، أو بضعف النظر على أقل تقدير..

ثم إنه سقاه الماء شيئاً فشيئاً وغسل له وجهه، فنطق لسان البقال الذي قال: إن لي صديقاً قد سقط على مقربة منا من شدة الإعياء، فاذهب إليه وأنقذه.

فسارع الرجل الرحالة إلى البقال المغشيّ عليه حيث عثر عليه وروحه تكاد تفارقه، فرشّ على وجهه قطرات من الماء حتى عاد إلى وعيه ورجعت فيه الحياة.

وبعد مرور ثلاثين عاماً على وقوع هذه الحادثة، كان ذلك الرجل الرحالة قد حوصر بالثلج والجليد في منطقة نيشابور شمال شرق إيران وكانت القافلة التي سافر ضمنها قد تعرضت للحالة نفسها،فقال رئيس القافلة لمن تحت قيادته: كل من أراد النجاة فلينجُ بنفسه وليختفِ في مكان، ومن لم يستطع ذلك فالموت خيرٌ له.

ثم إن الرجل الرحالة أوصل نفسه بعد الكثير من المشاكل والمعاناة إلى مكان استراحة القوافل، فعلم عمال وخدمة هذا المكان بوصوله، فقادوه إلى إحدى الغرف التي كانت بمثابة مجلس دافئ معدٍ لفصل الشتاء، وكانت فيها طاولة وضع عليها الغذاء الحار، فجلس الرجل وتناول من الغذاء الذي قدم له، بعد أن اطمأنت نفسه، وبعد أن كان عاجزاً عن التعرف على الأشخاص. وما أن عادت إليه الحياة خاطبه بعض الذين كانوا على مقربة منه: هل عرفتنا؟ فأجاب بالنفي. فقالا له: نحن اللذان أنقذتنا في صحراء كاشان وسقيتنا من الماء بعد أن كادت أرواحنا تزهق، وقد دارت عجلة الزمن لنقوم نحن بإنقاذك كما أنقذتنا.

ومن هذه القصة نستطيع أن نعرف بأن الدنيا يمكن أن تكون داراً للجزاء، وأن ما نعطيه بيد نستلمه باليد الأخرى.

ومن ناحية أخرى؛ فإن الإنسان الذي تقدم له الخدمات يجب أن يضع في حسبانه ضرورة ردّ هذه الخدمات على أفضل وجه في يوم من الأيام.

10

حقوق اجتماعية

حق المؤذّن

ثم يبين الإمام علي بن الحسين عليه السلام حقوق الأفراد الذين يؤدون الخدمات الاجتماعية العامة.

إن أسلوب كلام أهل البيت عليهم السلام الذي ينبع من الوحي، ينبغي أن يكون لنا درساً ناصحاً، فرغم أن كلام الإمام السجاد عليه السلام يدور حول الخدمات الاجتماعية، إلا أن الإمام لا يعتبر الخدمات الاجتماعية بعيدة عن الخدمات والفرائض الدينية، فهي في مطلع قائمة الخدمات الاجتماعية .

فبعد البحث فيما يخص قضية الرق والتحرير، يقول الإمام عليه السلام حول حق المؤذّن: «**وَأَمَّا حَقُّ الْمُؤَذِّنِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ مُذَكِّرٌ لَكَ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ**»[1] .

فالمؤذّن بندائه الخالد: «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ» له المنزلة الكبيرة والقيمة الخاصة، حيث يلفت انتباه الإنسان ويذكره بدخول وقت الصلاة ولزوم التوجه إلى المسجد.

ثم يقول الإمام السجاد عليه السلام : «**وَدَاعٍ لَكَ إِلَى حَظِّكَ**»[2].

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ١٣٦ .

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٦ .

فالمؤذّن هو من يوجهك نحو الله عز وجل، ويذكرك بنصيبك وفائدتك من الصلاة.

ثم يقول عليه السلام: «**وَعَوْنُكَ عَلَى قَضَاءِ فَرْضِ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ**»[١].

وهو المعين على أداء الواجبات.

ثم يقول عليه السلام: «**فَاشْكُرْهُ عَلَى ذَلِكَ شُكْرَ الْمُحْسِنِ إِلَيْكَ**»[٢].

فالجدير هو إبداء الشكر للمؤذّن، فإذا كان المؤذن موضع شكر وتقدير واحترام من قبل المجتمع، رغب الجميع في القيام بعملية الأذان.

ولكن اليوم مع وجود أشرطة الكاسيت أو جهاز الراديو، فإن خدمة المساجد يكادون يكتفون بها ويستغنون عن الصوت المباشر للمؤذنين.. ولعل الأسوأ من ذلك أنهم -بعد تشغيل جهاز الراديو لبث الأذان- قد ينشغلون بعمل آخر، مما قد يؤدي إلى تعالي أصوات الموسيقى -مثلاً- بعد انتهاء الإذاعة من بث الأذان المسجَّل وغفلة مسؤولي المسجد.

وهناك دول إسلامية يمنع فيها بث الأذان المسجل على الأشرطة، كما يؤمر خدمة المساجد بإفساح المجال للمؤذنين بالقيام بواجبهم بصورة مباشرة، وفي مساجد تلك الدول يؤمر المؤذن وخادم المسجد وإمام الجماعة بالتواجد في المسجد وقت الأذان، وهذا الأمر أقرب إلى الحالة الإسلامية والإيمانية.

وقد ورد في الحديث الشريف عن أبي عبد الله الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «**الْمُؤَذِّنُ يُغْفَرُ لَهُ مَدَى صَوْتِهِ وَيَشْهَدُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ سَمِعَهُ**»[٣].

بل إن إحدى الروايات الكريمة صرحت بالقول بأن أول من يدخل الجنة المؤذن.

ولعل وجه الحكمة في ذلك؛ أن أول من يدخل الجنة هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ١٣٦.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ١٣٦.

(٣) الكافي، ج ٣، ص٣٠٧.

إذ أن باب الجنة لن يفتح لأحدٍ قبل نبي الإسلام الأكرم، حيث يركب رسول الله ناقة يمسك بزمامها بلال الحبشي، وهو مؤذنه الخاص، ومن الطبيعي أن الماسك بزمام الناقة يتقدم -من حيث الخطى- على راكبها، فهو -والحال هذه- سيسبق النبي بدخول الجنة من الوجهة المادية.

حق إمام الجماعة

يقول الإمام السجاد عليه السلام بعد ذلك: «**وَأَمَّا حَقُّ إِمَامِكَ فِي صَلَاتِكَ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ تَقَلَّدَ السِّفَارَةَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ**»[1].

فإمام الجماعة هو في الواقع سفير المصلين ووكيلهم، وحينما يدعو الإمام في القنوت قائلاً: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً**﴾[2]. فهو يعني ويقصد جميع الأفراد المؤتمين به. إن إمام الجماعة في الحقيقة ناطق باسم الجميع أمام الله سبحانه وتعالى.

وحينما يجهر في صلاتي المغرب والعشاء والفجر -وهي المعروفة بالصلوات الجهرية- بصوته المرتفع ويقول: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾[3]، فهو يتحدث بالنيابة عن المصلين، وقد قال الإمام السجاد عليه السلام: «**وَتَكَلَّمَ عَنْكَ وَلَمْ تَتَكَلَّمْ عَنْهُ**». أي أنه الناطق باسمك والمتحدث بدلاً منك، لا أنك المتحدث بالنيابة عنه. ثم إنه عليه السلام قال: «**وَدَعَا لَكَ وَلَمْ تَدْعُ لَهُ وَكَفَاكَ هَوْلَ الْمَقَامِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**». فإمام الجماعة هو الذي يقف قبل كل أحد في موقف العظمة الإلهية، ثم يشرع بالصلاة. ثم أضاف عليه السلام: «**فَإِنْ كَانَ نَقْصٌ كَانَ بِهِ دُونَكَ**». فإذا حصل نقص وكان النقص متعلقاً بصلاة الإمام وحده، ولم يعلم من قبل الآخرين، فإن النقص يخص صلاته هو دون صلاة المؤتمين. ثم قال عليه السلام: «**وَإِنْ كَانَ تَمَاماً كُنْتَ شَرِيكَهُ وَلَمْ يَكُنْ**

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص١٣٦.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٠١.
(٣) سورة الفاتحة، آية: ٢-٣.

لَهُ عَلَيْكَ فَضْلٌ فَوَقَى نَفْسَكَ بِنَفْسِهِ وَصَلَاتَكَ بِصَلَاتِهِ فَتَشْكُرَ لَهُ عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ»[١].

ومن هذه التعابير يفهم أن الأئمة المعصومين عليهم السلام أرادوا للعلاقة بين الأفراد الذين يصلون معاً في مسجدٍ واحدٍ أن تكون علاقة وثيقة وإيجابية، لأن المأمومين يرتبطون بإمامهم بعلاقة إيمانية فريدة، وهم فيما بينهم تربطهم العلاقة الطيبة أيضاً.

حق الجليس

ثم ينتقل الإمام زين العابدين عليه السلام ليبين حق الجليس.

وقبل ذلك أقول: قد يصادف أن تسأل شخصاً ما عن طبيعة علاقته بفرد من الأفراد، فيجيب مثلاً: كنا في خندق واحد نقوم بخدمة اجتماعية معينة.

وقد رأيت أحدهم فسألته: ما هي علاقتك أو قرابتك بفلان؟.

فأجابني من فوره: إنه جليسنا في المسجد، ونحن نصلي تحت سقف واحد.

فسعدت كثيراً جداً لهذه الإجابة الإيمانية الواعية.

يقول الإمام السجاد عليه السلام عن حق الجليس: «**وَأَمَّا حَقُّ جَلِيسِكَ فَأَنْ تُلِينَ لَهُ جَانِبَكَ وَتُنْصِفَهُ فِي مُجَارَاةِ اللَّفْظِ**»[٢].

فكل من يجلس إليك، له حق عليك، فينبغي أن تستقبله استقبالاً طيباً في بادىء الأمر، وأن تعطيه حق التحدث، فلا تكون كذلك الشخص الذي يحتكر حق الكلام من أول المجلس إلى آخره، فلا يسمح لغيره حتى بمجرد النطق وإبداء الرأي. وهذا من الخطأ الكبير بمكان، فحتى المكانة العلمية، أو القدرة الخطابية، لا تعد دليلاً كافياً لمصادرة حق الآخرين في التكلم.

والمقصود من مصطلح (مجاراة اللفظ) في كلام الإمام السجاد عليه السلام، هو

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٦.
(٢) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٧.

الأخذ والرد وتبادل الدور في عملية الحوار، والاستماع والصمت والتحدث.

ثم أضاف عليه السلام القول: «**وَلَا تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَمَنْ يَجْلِسُ إِلَيْكَ يَجُوزُ لَهُ الْقِيَامُ عَنْكَ بِغَيْرِ إِذْنِكَ**». فالإمام يرفض الطريقة غير اللائقة التي يتعمدها البعض، حيث تراهم لا يعبؤون بجلسائهم، فيقومون من مجلسهم بمجرد حصول طارئ أو عارض لهم، دونما استئذان أو رخصة أخلاقية ممن كان يجالسهم، في حين أن اللياقة الأدبية وقواعد الذوق السليم تفرض عليهم الاستئذان، كعلاقة احترام وودّ. ثم قال عليه السلام: «**وَتَنْسَى زَلَّاتِهِ وَتَحْفَظَ خَيْرَاتِهِ وَلَا تُسْمِعَهُ إِلَّا خَيْراً**»[1].

فتسعى إلى نسيان ما يبدر من جليسك من زلاّت أو يقع فيه من الأخطاء. وفي مقابل ذلك اذكر لجليسك صلاحه وأعماله وأقواله الطيبة.. وإذا قصدت محادثته فلا تتحدث معه إلا بأطيب الكلام وأفضله.

حق الجار

ينبغي أن يعلم بأن حقيقة التقوى قد تختلف أحياناً عمّا يدور في خلدنا، وما نتوهمه ونتخيله. فالتقوى لا تعني مجرد المحافظة على أداء الصلوات لأول وقتها فحسب، وإنما ينبغي تجسيد التقوى في جميع الحركات والسكنات والآداب والأخلاق وتطبيق أحكام الدين، حتى في طريقة النوم والأكل والذهاب والإياب وسائر شؤون الحياة.

إن احترام حقوق الناس تبدأ بالاهتمام بالأمور الصغيرة، وإذا أمعنتم النظر جيداً في طبيعة المسائل الفقهية، ستتأكدون من مستوى اهتمام الدين حتى بصغائر الأمور.

فمكان الصلاة يلزم أن يكون مباحاً غير مغصوب، وحتى إذا حجز أحدهم مكاناً بعينه في الأماكن العامة كالمساجد ليؤدي الصلاة فيه دون غيره، كان من المشكل أن يعمد شخص آخر إلى تجاهل هذه الرغبة وأداء الصلاة في المكان ذاته، ذلك لأن الشخص

(١) وسائل الشيعة،ج١١، ص١٣٦.

المذكور يتمتع بحق الاختصاص والأولوية، فكان من الجدير احترام هذا الحق.

إن حق الناس يبدأ من عود الثقاب، بل وأصغر من ذلك.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام فيما يخص حق الجار: «**وَأَمَّا حَقُّ جَارِكَ فَحِفْظُهُ غَائِباً**». ففي غيبة الجار يلزم حفظ مصالحه واحترام زوجته وأولاده، وعدم التعرض لهم بسوء، بل وينبغي أن يعاملوا وكأن ولي أمرهم حاضر بينهم.

أما إذا كان بين المرء وجاره نوع من الاختلاف على قطعة أرض -مثلاً- فلا يجوز لهذا الفرد أن يستغل غياب الجار ويضع يده على قطعة الأرض المختلف عليها فيصادرها، بل عليه أن يتصور جاره حاضراً وماثلاً أمامه، فلا تسول له نفسه انتهاك حق الجار في هذا المجال. ثم يقول عليه السلام: «**وَإِكْرَامُهُ شَاهِداً**». فحق الجار يحفظ له احترامه شاهداً، كما حفظه له غائباً. ثم يقول عليه السلام: «**وَنُصْرَتُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُوماً**»[1].

فينبغي الدفاع عنه إذا وقع تحت وطأة الاضطهاد والظلم، سواء في حالة الشهود أو الغياب.

ثم يقول عليه السلام: «**وَلَا تَتَبَّعَ لَهُ عَوْرَةً فَإِنْ عَلِمْتَ عَلَيْهِ سُوءاً سَتَرْتَهُ عَلَيْهِ وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ يَقْبَلُ نَصِيحَتَكَ نَصَحْتَهُ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ**». ولو صادف وعرفت زلةً وخطأً لجارك، فلا يصح إفشاؤه من جانبك، وإذا كان لك جارٌ ينصاع لك، فعليك بتوجيه النصح له إذا وقعت على موقع ضعف فيه، وهذا النصح ينبغي أن يكون في الخفاء دون العلن، لتجنب فضيحة الجار من جانب، ولضمان قبوله النصح من جانب آخر. ثم يقول عليه السلام: «**وَلَا تُسْلِمُهُ عِنْدَ شَدِيدَةٍ وَتُقِيلُ عَثْرَتَهُ وَتَغْفِرُ ذَنْبَهُ وَتُعَاشِرُهُ مُعَاشَرَةً كَرِيمَةً وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»[2].

لتثبت أمام الله عز وجل والناس والضمير أنك جدير بالجيرة.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٦.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٦.

حقوق الصديق

في الإنسان حالتان: حالة العطاء، وحالة الأخذ. وكلا الحالتين فطريتان. أما الحيوانات؛ فيمكن القول بأنها تسعى وراء تحقيق ما ينفعها، ولكن المسألة تختلف فيما يخص الإنسان، ولا ينبغي تصور حصول اللذة من الأخذ لدى الإنسان أكثر من لذة الإحسان والعطاء.

إن من الطبيعي أن يعيش المرء اللذة ويشعر بها حينما يأخذ مالاً من آخر، ولكنه بنفس المقدار أو أكثر يمتلك الإحساس باللذة المعنوية حينما ينقذ غريقاً من الموت، أو يقوم بإطفاء حريق، أو يساهم في علاج أحد المرضى.. ولعل الإحساس بهذه اللذة يبقى ملازماً له إلى آخر عمره.

ولا بأس أن نعي أن الإنسان يهتم بأولاده أكثر من اهتمامه بأبيه أو جده، علماً بأنه يقوم بدور المعطي للأولاد، في حين أنه قد أخذ الشيء الكثير من أبيه وجده، والسبب في ذلك هو أن شعوره بلذة العطاء لأولاده والإيثار من أجلهم يجعله يهتم بهم أكثر فأكثر. والإمام السجاد عليه السلام يوصي في قسم من هذه الرواية بضرورة الالتزام بالإنصاف والتفضل بالنسبة إلى الصديق. وقد قال الإمام علي عليه السلام: **«الْإِحْسَانُ التَّفَضُّلُ»**[١].

ولابد أن نعرف بأن التفضل يختص بالمسائل المادية، بينما الإنصاف يأخذ صبغة معنوية.

وينبغي على الإنسان إيصال نفسه إلى مرحلة من الكمال، بحيث يقضي على صفة العناد واللجاجة، أو يحد من نسبتها في داخله إلى أقل ما يمكن. فإذا لم يستطع إثبات رأيه بالدليل، فلا ينبغي أن تأخذه العزة بالإثم والتكبر، بل عليه الإقرار بخطئه والاعتراف بالحق للآخرين.

---

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٢٣١.

ولعل هناك من الأشخاص من يبقى مصراً على رأيه، فلا يتنازل وإن مرّغ أنفه في التراب.

وبهذا الصدد ينقل: أن مسافراً أراد أن يهرب مقداراً من الفوسفور عبر الحدود، ولكنه فوجئ عند نقطة العبور بالضابط يكشف عما خبأه من هذه المادة التي يريد تهريبها، وحينما وضع الضابط شيئاً من الفوسفور على كفه، وقال له: إلى أين تذهب بها؟.

فأجابه المهرب دون أن تبدو عليه علامات الاضطراب والحرج: إنه حبة البركة (أو الحبة السوداء) وليس فوسفوراً.

ولكن الضابط أخذ يعدد له مواصفات كلا المادتين ليؤكد له عدم وجود فرصة في مراوغته. ولكن المهرب ظل مصراً على رأيه قائلاً للضابط: إنها حبة البركة وليست فوسفوراً!.

فوضع ضابط الحدود الفوسفور في وعاء وقرّبه تحت لحية المسافر، ثم قام بإشعاله حتى التهبت وحرقت لحيته.

فقال المهرب المحترقة لحيته صائحاً بكل غبطة وفرح وشعور بالنصر: ألم أقل إنها حبة البركة!!.

أما عن حق الصاحب (أو الصديق) يقول الإمام السجاد عليه السلام: «**وَأَمَّا حَقُّ الصَّاحِبِ فَأَنْ تَصْحَبَهُ بِالتَّفَضُّلِ وَالْإِنْصَافِ وَتُكْرِمَهُ كَمَا يُكْرِمُكَ**».

فالإنسان المسلم يجب أن يتفضل على صديقه وصاحبه ورفيق دربه في الحياة، وأن يتعامل معه بالإنصاف، وأن يحترمه ويجلّه ويحفظ له حقوقه، فلعل إنساناً ولفرط علاقته برفيقه تراه يهضم عليه حقوقه، وهذا خطأ كبير، إذ على الإنسان أن يحترم حقوق الآخرين في كل الأحوال. والصداقة الحميمة لا تبرر عدم الاهتمام بحقوق الطرف الآخر. ثم يضيف الإمام عليه السلام: «**وَلَا تَدَعهُ يَسْبِقُ إِلَى**

مَكْرُمَةٍ فَإِنْ سَبَقَ كَافَأْتَهُ». فحينما تحضر مكاناً ما، وترى فيه شخصاً ضريراً بحاجة إلى المساعدة، فاسع إلى بذل العون له قبل أن يسبقك إليه صديقك.

أما إذا سبقك أحدهم وأخذ بيد الضرير، فحاول -على الأقل- أن تساعده في حمل متاعه ووسائله، فتكون له شريكاً في العون والمساعدة.

إن واحدة من القضايا التي طالما كان أهل البيت عليهم السلام يؤكدونها ويوصون الناس بها هي المبادرة إلى الخيرات، والتنافس في العمل الصالح مع الآخرين، وأن لا يتصور الإنسان أن الآخرين هم أولى منه بالسعي والحركة في مجالات الخير والعمل الصالح.

ثم يقول الإمام السجاد عليه السلام: **«وَ تَوَدَّهُ كَمَا يَوَدُّكَ وَتَزْجُرَهُ عَمَّا يَهُمُّ بِهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ»**[1]. فينبغي أن تكون العلاقة الودية متبادلة بين الصديقين، وليس من طرف واحد. فعلينا أن نحب ونودّ أصدقاءنا كما هم يحبوننا، كما ينبغي علينا إبعاد إخواننا وأصدقائنا عن معاصي الله.

ثم يوصي الإمام علي بن الحسين عليه السلام بضرورة التعامل مع المصاحب بالرأفة والرحمة والابتعاد عن الخشونة والعنف، فيقول: **«وَكُنْ عَلَيْهِ رَحْمَةً وَلَا تَكُنْ عَلَيْهِ عَذَاباً وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»**[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن النصائح والإرشادات التي بيّنها الأئمة المعصومون عليهم السلام -ولو على شكل أدعية ومناجاة- تشير إلى حقائق الحياة. وما نحن بصدده من آداب المصاحبة واحترام ورعاية حقوق الصديق والمصاحب ورفيق الدرب، لم يعمد الأئمة عليهم السلام فيها إلى أسلوب الإطلاق، بل كانوا بصدد تبيين الحقائق وحل المشاكل الحقيقية.

إن نظامنا الاجتماعي قد يجعل الإنسان مضطراً أحياناً إلى مرافقة ومصاحبة

---

(١) وسائل الشيعة،ج١١، ص١٣٦.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١،ص١٣٦.

ومجالسة من يزاملونه في الدائرة أو المدرسة أو المكتب وغير ذلك، فربما يكون الفرد ضابطاً عسكرياً يقود مجموعة من القوات العسكرية أو يكون مسؤولاً عن إدارة قافلة من الحجاج، وفي كلتا الحالتين ينبغي على الرجلين أن يعرفا الأسلوب المفضّل للتعامل مع من يخضعون تحت إشرافهما.

وفي هذه الحالة قد يختار القائد أو المدير أسلوب الاحترام الظاهري للعناصر الخاضعة تحت إشرافه، دون أن يكنّ لهم الحب والود حقيقة، بل يسعى لإبداء المجاملات العرفية، ويعمل على أداء واجبه ومسؤوليته تجاههم، وفي المقابل يسعى أولئك للتعامل معه بطريقة مماثلة في إطار أداء الواجب وعدم تجاوز الحدود.

إن هذا الخيار -وإن كان مفيداً- ولكنه ليس الخيار الأفضل، حيث يرشدنا الإسلام إلى اتخاذ أسلوب أرقى وأصلح من ذلك.

إن علينا أن نطلب من الله سبحانه وتعالى أن يصلح بواطننا، لكي نستطيع أن نحب الأفراد الذين هم تحت قيادتنا وإشرافنا من صميم قلوبنا، فيبادلوننا بدورهم المحبة نفسها.

وكذلك الأمر بالنسبة لمن قد نرافقهم بالصدفة، فإنك قد تقضي في القطار أو الحافلة ساعات وساعات، فتسنح لك الفرصة الطيبة لكسب صداقة من تجالسهم في هذه الفترة، وتكسب ودَّهم، فتكون بداية لعلاقة وثيقة وطويلة الأمد، فإن كثيراً من الصداقات الحميمة تبدأ من مصادفة يسيرة وبسيطة.

ففي بعض الأحيان يصادفك سائق بحاجة إلى من يساعده في إصلاح عجلة سيارته، ثم بعد أن تقوم أنت بمد يد المساعدة له تقوم بينكما علاقة حميمة قد تستمر لسنوات طويلة.

11

حقوق العمل المشترك وحق المال

حق الشريك

إن من الحري بنا أن نحول العلاقات المادية المشتركة التي قد نُضطّر إلى بنائها في الحياة إلى علاقات وثيقة قائمة على أساس القيم. ورغم أنه من الطبيعي أن يكون للمصالح المادية دورها الفاعل في العمل المشترك والشراكة، بحيث يفكر كل من الطرفين الشريكين بفائدته وربحه، ولكن الإسلام -وضمن إقراره هذا النوع من الشراكة- له توصياته الخاصة وطريقته المعروفة في تزريق الحالة المعنوية.

يقول الإمام السجاد عليه السلام فيما يخص حق الشريك: **«وَأَمَّا حَقُّ الشَّرِيكِ فَإِنْ غَابَ كَافَيْتَهُ وَإِنْ حَضَرَ رَعَيْتَهُ وَلَا تَحْكُمُ دُونَ حُكْمِهِ وَلَا تَعْمَلُ بِرَأْيِكَ دُونَ مُنَاظَرَتِهِ وَتَحْفَظُ عَلَيْهِ مَالَهُ وَلَا تَخُنْهُ فِيمَا عَزَّ أَوْ هَانَ مِنْ أَمْرِهِ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَتَخَاوَنَا وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»**[1].

فإذا غاب الشريك، فعلى صاحبه أن يحافظ على حقه ويرعاه.

وإنكم تعلمون أن بعض الشركاء يمارس ما يعود عليه شخصياً بالنفع في حال غياب شريكه، حتى وإن علم حصول الضرر من عمله هذا لشريكه، ولكن وصية

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٦.

الإسلام هي لزوم مراعاة مصلحة الشريك حتى في غيابه.

ففي أثناء غيبة الشريك لابد من احترام حق الشراكة، وأن لا يخون الشريك شريكه، بل ولا يجوز إبرام أي عقد أو صفقة دون الأخذ بعين الاعتبار رأي الشريك وأخذ مشورته.

إن على الشركاء أن يطمئنوا اطمئناناً تاماً بأن يد الله سبحانه وتعالى معهم شريطة أن لا يخون بعضهم بعضاً.

عندما تقوم الشراكة على الإخلاص

كان أحد أثرياء الكويت، قبل أن يكسب ثروته الطائلة يمتلك محلاً صغيراً متواضعاً يبيع فيه المواد الإنشائية.

وفي إحدى المرات جيء له بحمل طابوق، فقال لجاره: إن قيمة هذا الحمل عشرة دنانير، وأنا اقترح عليك بأن تشاركني في شرائه وتدفع خمسة دنانير على أن يكون الربح بيننا مناصفة.

فقال له جاره في المحل إنه لا يملك الخمسة دنانير.

فقال له مقترحاً: لا إشكال في ذلك؛ أنا أقرضك المبلغ.

فوافق الجار هذا على الاقتراح. ثم إنهما اشتريا حمل الطابوق، وباعاه في اليوم الثاني بعشرين ديناراً، فأراد الجار أن يعيد المبلغ، فأبى الرجل عن قبوله قائلاً: احفظه عندك، ولنشترك في صفقة جديدة.

واستمرت شراكة هذين الجارين أربعين عاماً بكل صدق وإخلاص وتفاهم وأمانة. ورغم أن الرجلين قد توفاهما الله سبحانه وتعالى، إلا أن أسرتيهما حافظتا على هذه الشراكة على أحسن وجه،وهما في الحال الحاضر يديران شركة تجارية دولية.

إن عالم اليوم يتجه نحو دمج الشركات والمصانع الكبيرة، وذلك بهدف ضمان تقدم أكبر. وقد نقل مؤخراً أن شركتين يابانيتين، تبلغ ميزانية كل واحدة منهما حوالي عشرين

مليار دولار، قد اتحدتا تحت عنوان شركة واحدة، حتى صارت من أكبر الشركات العالمية.

وقد سمعنا في الأخبار الاقتصادية أن شركة توتال الفرنسية قد اتحدت مع شركة بلجيكية وصارت من أكبر الشركات العالمية في مجال عملها.

ولكن ما يؤسف له؛ أن روح الشراكة وأخلاقية الاتحاد تندر في بلداننا، بل إن الأفراد والجماعات عادةً تفسخ شراكتها وتنفصل عن بعضها، الأمر الذي يعجزها عن إنجاز المشاريع الضخمة والمهمة، فتراها تتعرض للفشل والهزيمة والخسارة.

ومن هنا؛ تتضح الحكمة من كلام الإمام السجاد عليه السلام الذي أكد فيه أن: «**يَدَ اللَّـهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَتَخَاوَنَا**».

إن الشراكة التي تحترم الأصول الأخلاقية والموازين الشرعية تتمتع برضى الله سبحانه وتعالى، والله يبارك هذه الشراكة، ويغمرها برحمته.

الصدق في التعامل

توفي أحد الأشخاص في الكويت، فجاء رجل إلى عائلة المتوفى قائلاً: إنني أطلب أباكم مبلغ خمسين ألف دينار، وأنا -من جهة أخرى- مديون له بمبلغ مليون دينار! فطلب أفراد أسرة المتوفى مزيداً من التوضيح.

فأجابهم: منذ مدة كنت جالساً مع فقيدكم، فأظهر لي رغبته في شراء بيت كان لي، ولما لم يكن معه ثمن البيت، قال لي: سأسدد لك المبلغ فيما بعد، وعلى هذا الأساس تم الاتفاق بيني وبين أبيكم، ومنذ تلك اللحظة أصبح البيت ملكاً له، ثم إن قيمة البيت قد ارتفعت للغاية بسبب موقعه الجيد حتى أصبحت قيمته الآن تبلغ حوالي مليون دينار، ولأن الصفقة قد تمت بيننا، فقد أتيتكم لأتسلّم الخمسين ألف دينار منكم، واسلّمكم البيت ذي المليون دينار!

إن مثل هذا الإيثار والإنصاف والصدق في المعاملة هو الذي يخلق التطور

المعنوي في النفوس، بل ويبعث على التقدم المادي أيضاً.

ولكن الناس إذا أصروا على الكذب والتحايل في العلاقات التجارية والاقتصادية، وذلك انطلاقاً من النظرة المادية البحتة للحياة، تراجع المجتمع وتأخر أيما تأخر..

وفي السنوات الأخيرة طالعتنا الصحافة ووسائل الإعلام في بعض البلاد الإسلامية ببحث الأسباب الداعية إلى الجفاف وعدم نزول المطر بشكل كافٍ. إن الأحوال الجوية المتردية إنما تسيطر بسبب الإجحاف الذي يمارسه بعض الأفراد تجاه البعض الآخر، وحتى إذا هطلت الأمطار، فإنها لن تكون ذات تأثير مفيد على نوع المحاصيل الزراعية.

وللأسف؛ نجد كثيراً من الناس في بعض المجتمعات لا يصدقون بعضهم البعض، فهم منهمكون في استغلال بعضهم، حتى قيل إن بعض المزارعين في بعض المناطق يسرقون مياه أقرانهم. وعلى ذلك؛ فإنه من الطبيعي أن الفواكه وسائر المحاصيل الزراعية ستكون ذات كيفية رديئة، وذلك بسبب سقيها بالمياه المسروقة.

وكونوا على يقين بأن عدم شمول الحرمان والفقر جميع أصعدة المجتمع يعود إلى وجود بعض الأفراد الخيرين ممن يولون المعنويات والأصول والقيم الإسلامية والإنسانية أهميتها اللازمة والكافية.

حق المال

يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام فيما يخصّ حق مال الإنسان: «**وَأَمَّا حَقُّ مَالِكَ فَأَنْ لَا تَأْخُذَهُ إِلَّا مِنْ حِلِّهِ وَلَا تُنْفِقَهُ إِلَّا فِي وَجْهِهِ**»[1].

فالمال الذي يصلك، سواء كان بالإرث مثلاً، أو عن طريق الجهد الشخصي، له حق عليك، وأحد مصاديق هذا الحق أن تقدم الشكر للمصدر الذي أخذت منه هذا المال.

فالله المتعال قد قدّر طرقاً وأساليب ووسائل خاصة للاستثمار الحلال في هذه

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٧.

الدنيا، فلا يصح ولا يجدر انتخاب طريق حرام، مادام طريق الحلال متاحاً ومفتوحاً، وقد قال الله في كتابه المجيد: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾[1].

إن الورع والزهد يؤدي بك إلى أن تنال رزقك من النوع الثاني الذي لا يحتاج إلى أن تجهد كثيراً في الحصول عليه، بل هو الذي يأتيك إلى حيث أنت.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**الرِّزْقَ رِزْقَانِ رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ**»[2].

وعلى الإنسان أن يتحرى طرق الحلال ويتجنب الحرام في كل شؤون حياته، وقد ورد في الدعاء المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله، والذي يختزل في مفرداته روحاً تربوية سامية: «**اللَّهُمَّ أَغْنِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَبِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ**»[3].

فهناك من بعض الحلال وبعض الحرام ما لا يفصلهما -في الظاهر- إلا القليل جداً.

إن الفاصلة بين الزواج المؤقت الحلال، وبين الزنا الحرام، من هذا النوع من الفواصل الدقيقة جداً. فمن خواص الحرام أنه سرعان ما يعرض نفسه على الإنسان، في حين أن الفرد الذي يتمتع بملكة التقوى ويلتزم بقول الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ...**﴾ يستطيع بقليل من الصبر والتحمل أن يقنع نفسه بالطريق الحلال ويرضيها. وهذا هو مصداق قوله سبحانه: ﴿**يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا**﴾[4].

الإنفاق الحلال

القضية الأخرى التي أشير إليها في الحديث، هي: أن الإنسان مطالب بالبحث عن الطرق الحلال لإنفاق أمواله، إذ لا يسمح للفرد بصرف أمواله بأية طريقة يرتئيها

(١) سورة الطلاق، آية: ٢-٣.
(٢) نهج البلاغة، رسالة رقم: ٣١.
(٣) بحار الأنوار، ج٩٢، ص٣٠١.
(٤) سورة الطلاق، آية: ٢-٣.

ويبرر ذلك بأنه يتصرف فيما يملك،بل عليه أن يراعي الأولويات في ذلك.

جاء في القرآن المجيد: ﴿**إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا**﴾(١).

ويفهم من هذه الآية الكريمة أن من صفات الشيطان أنه يكفر بنعمة الرب، وأن المبذر أخٌ للشيطان، فهو -إذن- يكفر بنعمة الله ويضيع الحقوق.

إن بعض الناس يمتلكون من المال الكثير، ولكنهم يبذرونه ويسرفون في صرفه، بينما لا يصلون أقرباءهم ومعارفهم، أو يقصرون في تسديد الحقوق الشرعية الواجبة عليهم.

وفي بعض الحالات؛ نجد الإنسان الثري يضع أمواله في غير مواضعها، حيث يمنحها للأشخاص غير المستحقين، أو غير الصالحين، الذين يتوسلون بالحيلة والدهاء؛ لتفريغ جيوب الأثرياء بأساليب شيطانية؛ والعجيب في الأمر، أنهم لا يمتنعون عن لعن أصحاب الأموال الذين جردوهم بدون حياء أو وازع ضمير.

ويؤكد الإمام السجاد عليه السلام في جملة كلماته ونصائحه القيمة على أن نحسن لمن لا يطعننا بخنجره من الخلف، وأن لا نكرم من لا يعرف الكرامة، حيث قال: «**وَلَا تُؤْثِرَ عَلَى نَفْسِكَ مَنْ لَا يَحْمَدُكَ**»(٢).

***

قال لي أحد التجار: جاءني أحد الأشخاص، وطلب مني شيئاً من المال، ولكنني رغم معرفتي به قلت له: لا أعطيك شيئاً!.

فقال: هل لأنك لا تملك شيئاً فلا تعطيني؟.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٧.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٧.

فأجبت: بل عندي ولا أعطيك.

ثم إنه قصد تاجراً آخر وأخذ منه مالاً، وبعد مدة جاءني الشخص نفسه قائلاً: إن فلاناً -وقد سبّه بالكلمات النابية- لديه الملايين، ولكنه لم يعطني إلا عشرة آلاف.

فسألته: هل تعلم الفرق بيني وبين هذا الذي تسبه ولا تعرف له جميلاً؟.

فأجاب: كلا!.

قلت: إنك تسبنا نحن الاثنين، مع الفرق في أن العشرة آلاف التي هي لهذا الرجل استقرت في جيبك أنت، بينما العشرة آلاف التي لي هي في جيبي أنا!!.

ويضيف الإمام السجاد عليه السلام قائلاً: «**فَاعْمَلْ بِهِ بِطَاعَةِ رَبِّكَ وَلَا تَبْخَلْ بِهِ فَتَبُوءَ بِالْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ مَعَ التَّبِعَةِ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللـهِ**»(١).

فانظر إلى أوامر الله سبحانه وتعالى فيما يتعلق بطرق صرف المال، ولكن احذر في الوقت نفسه من أن تسقط في فخ البخل والخسّة، فالبخل قد يمنعك من الاستفادة السليمة من أموالك، فتتركها لمن خلفك، حيث يتمتعون بها بعد موتك، بينما أنت الذي تتحمل وزرها.

الاعتدال في الإنفاق

وصفوة القول هي أن الإنسان يجب عليه اتخاذ الطريق الوسط، فلا يسرف في الإنفاق ولا يغل يده ويبخل، وهو إذا لم يتمسك بهذه الطريقة، ضاعت أمواله وتبعثرت، فلا تبقى لها فائدة أبداً.

ذات مرة كنت راكباً في سيارة أجرة، وحينما أراد مرافقي الترجل من السيارة، أعطى السائق عشرين ديناراً بدلاً من دينار واحد، وهو المبلغ الذي كان يستحقه.

فقلت له: ما الذي دفعك لهذا العمل؟.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٧.

قال: أحببت أن أنعم وأتفضل على السائق.

فقلت: ياليتك أعطيت فقيراً أو مسكيناً هذا المبلغ الكبير!.

إن واحدة من السلبيات في المجتمعات المسلمة هي أن الناس عادة لا يتصدقون بأموالهم إلا على أولئك المساكين والفقراء الذين يطرقون أبوابهم بإلحاح وعناد.. في حين أن القرآن الكريم يذكر المساكين بقوله: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾[1].

فهناك من الفقراء من يبقون في منازلهم، ولا يجدون في أنفسهم الجرأة على إعلان حاجاتهم للناس.

أما المحسنون؛ فلا ينبغي حصر إنفاقهم على المعلنين من الفقراء؛ أو الاكتفاء بإلقاء صدقاتهم في صناديق الصدقة، المتوفرة هنا وهناك، بل عليهم أن يشمروا عن ساعد الهمة، ويبحثوا عن المحتاجين الواقعيين ممن يحافظون على عزتهم وكرامتهم، وقد كان أئمتنا عليهم السلام يسلكون هذه الطريقة، حيث كانوا يفتشون باستمرار عن المستحقين الواقعيين.

فقد كان يحدث أن يدعو الأئمة المعصومون عليهم السلام الفقراء والمساكين في المدينة أو الكوفة للحضور في مكان معين وذلك لتوزيع الأموال عليهم، وحيث أن الفقراء الحقيقيين كانوا يستحيون من الحضور في مثل هذه التجمعات والاستجابة لهذه الدعوات، لذا كان الأئمة يذهبون بأنفسهم للكشف عن هؤلاء الفقراء، فيصلونهم ويساعدونهم.

وعلى أيّة حال؛ فإن القيام بهذا النوع من الإنفاق والعمل الصالح الذي يضع الأمور في مواضعها، له قيمته النفيسة.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

12

حق الدائن والمدّعي

حق الدائن

استمراراً للحديث عن الحقوق المتبادلة بين الناس، يتحدث الإمام زين العابدين عليه السلام عن حق الدائن فيقول: «**وَأَمَّا حَقُّ غَرِيمِكَ**[1] **الَّذِي يُطَالِبُكَ فَإِنْ كُنْتَ مُوسِراً أَعْطَيْتَهُ وَإِنْ كُنْتَ مُعْسِراً أَرْضَيْتَهُ بِحُسْنِ الْقَوْلِ وَرَدَدْتَهُ عَنْ نَفْسِكَ رَدّاً لَطِيفاً**»[2].

فعليك أن ترد دينك في أول فرصة تسنح لك، ولا تبحث عن طرق أخرى لصرف المال أو بعثرته، فإن لم يتوفر لديك المبلغ الكافي لسداد الدين، فاكسب رضى الطرف الدائن على الأقل.

ثم يشير الحديث الشريف إلى حقوق الأفراد المخالطين للإنسان في أمر من الأمور الحياتية، وإن لم تربطهم رابطة الشراكة، فيقول: «**وَحَقُّ الْخَلِيطِ**[3] **أَنْ لا تَغُرَّهُ وَلا تَغُشَّهُ وَلا تَخْدَعَهُ وَتَتَّقِيَ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ**»[4].

---

(١) الغريم، الدائن، ويطلق أيضاً على المديون.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٧.

(٣) الخليط: المخالط كالنديم والشريك والجليس و..

(٤) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٧.

فلا يصح أن تخدع زميلك في العمل أو رفيقك في الدرب أو جليسك في المجلس.

وأتذكر أنني كنت ذات مرة راكباً في سيارة ناوياً الذهاب إلى عنوان معين لم أكن أعرفه بالضبط، وكان أحدهم واقفاً في الشارع فتوقفت قربه وسألته عن المكان الذي كنت أقصده فقال: أنا أعرف العنوان، بل وأقصد الذهاب إلى هناك أيضاً..

فاصطحبته، وكان يدلني على الطريق، حتى وصلنا إلى أحد الأماكن فقال: أوقف السيارة فقد وصلنا المكان المطلوب..

ولكن يبدو أنه هو الذي كان قد وصل إلى غايته دوني!.

لا شك أن هذا العمل يعد نوعاً من الإغواء والاستغفال، ويستوجب الضمان.

إن الإمام عليه السلام يحذرنا من ممارسة الخداع والكذب والغش مع الخلطاء.

فتارة يقيم الفرد علاقة ودية مع زميل له، أو أي شخص كان، ولكنه يبطن أهدافاً شيطانية، فهو لعله يريد كسب صاحبه إلى عصابته ليستخدمه كوسيلة لتحقيق أهدافه الخاصة.

ولكن العلاقة والصداقة لا ينبغي أن تقام على أساس الكذب والحيلة بأي وجه من الوجوه.

وقد ورد النهي في كلام الإمام السجاد عليه السلام عن الغش، وأوسع مجال يتحقق فيه الغش هو مجال المعاملات التجارية؛ كأن يستخدم البائع الكلام المعسول، فيخدع المشتري، حيث يصف له البضاعة على أنها خالية من العيوب، بينما هي معيبة.

كما ينهى الإمام عليه السلام عن الخديعة أيضاً، وهي تعني الإضرار بالطرف المقابل بطريقة ماكرة لا يشعر بها إلا بعد فوات الأوان.

ثم يذكّر الإمام زين العابدين عليه السلام بحقيقة أن الله سبحانه وتعالى يشرف على جميع الأعمال والحركات والممارسات، ولذلك كان على الإنسان أن يتقيه دائماً.

حق صاحب الدعوى

ثم ينتقل الحديث بنا إلى عرض الحقوق المتبادلة بين الخصمين المتنازعين في أمر من الأمور. يقول الإمام السجاد عليه السلام: «**وَأَمَّا حَقُّ الْخَصْمِ الْمُدَّعِي عَلَيْكَ**»[١].

فينبغي عليك أن تلاحظ فيه النقاط التالية:

- قال الإمام عليه السلام: «**فَإِنْ كَانَ مَا يَدَّعِيهِ عَلَيْكَ حَقًّا كُنْتَ شَاهِدَهُ عَلَى نَفْسِكَ وَلَمْ تَظْلِمْهُ وَأَوْفَيْتَهُ حَقَّهُ**»[٢].

أي أن تقر وتعترف وتشهد على نفسك بأنها مدانة له، فلا تهضم عليه حقه بوجه من الوجوه.

- ثم قال الإمام عليه السلام: «**وَإِنْ كَانَ مَا يَدَّعِي بَاطِلًا رَفَقْتَ بِهِ وَلَمْ تَأْتِ فِي أَمْرِهِ غَيْرَ الرِّفْقِ وَلَمْ تُسْخِطْ رَبَّكَ فِي أَمْرِهِ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»[٣].

ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار أن الإنسان قد يكون مظلوماً في قضية معينة، ولكنه يتصرف مع خصمه بطريقة تحوّله إلى ظالم، وهناك بعض المظلومين يرون لأنفسهم الحق في أن يمارسوا ما شاؤوا من التصرفات الجائرة تجاه من ظلمهم، حتى ولو أدى ذلك إلى تصنيفهم في خانة الظالم.

فليس من الصحيح أنك إذا تعرضت لظلم بسيط من أحدهم أن يتعالى صراخك وتتظلم، وتقوم بفضحه أينما ذهبت بشكل يصبح فيه الطرف المقابل عاجزاً عن مجرد رفع رأسه بين الناس.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٧.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٧.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٧.

كان أحد الأشخاص مديناً لي بمبلغ من المال، كان قد وُضِعَ أمانةً عنده ليسلمه لي، ولكنه امتنع عن القيام بذلك.

فطلبت منه المال، ولكنه لم يستجب لي، فامتنعت عن مشاجرته أو فضحه بين معارفه، وقد كنت اعتقد أنني إذا قمت بهذا العمل قد يقوم الآخرون بلصق تهم أكبر به، في حين أنه قد لا يستحق هذه العقوبة.. ولذلك فقد أخفيت الأمر، وقد تعلمت هذه الطريقة من العالم الكبير المرحوم الميرزا الشيرازي ﭭ.

الميرزا الشيرازي وحفظ حق المختلس!

كان أحد طلاب العلوم الدينية في عصر المرحوم الميرزا الشيرازي يعيش كشخص محترم، وكان المجتمع ينظر إليه بنظر الإكبار والإجلال.. وكان الناس يطلبون إلى الميرزا الشيرازي أن ينصبه وكيلاً عنه، ولكن الميرزا كان يمتنع عن منحه وكالة خطية لما كان يعرف فيه من عدم الصلاحية.

وظل الناس يصرون على المرحوم الميرزا الشيرازي ليستجيب لطلبهم، حتى اضطر أخيراً إلى الموافقة رغم رفضه الباطني.

وحينما تسلم الشخص مقاليد الوكالة، ووصلته موافقة المرحوم الشيرازي الخطية، طغى وبدأ باختلاس الأموال التي ترده من هنا وهناك.

وفي نهاية المطاف، عاد الناس الذين كانوا يضغطون على الميرزا الشيرازي في أمر توكيله إلى الإصرار ثانية على عزله.

ولكن المرحوم الشيرازي رفض عزله في هذه المرة، وحينما كان يسأل عن السبب، كان يقول: إذا فعلت ما تطلبونه مني، فإن بعض الناس سيصل بهم الأمر إلى تكفيره، في حين أنه لما يصل أمره إلى هذه الدرجة بعد، وينبغي أن تحفظ له حرمته المناسبة له.

إذن؛ فإن الإسلام يعترف ويقر للأفراد بكرامتهم وحرمتهم، وبضرورة احترام

حقوقهم في كل الحالات، حيث لا يسمح بكيل الاتهامات للأشخاص بكل بساطة ودون مبرر.

ونقرأ في الفقه مسألة شرعية توضح لنا مدى اهتمام الإسلام بحفظ حرمة الإنسان، جاء في الفقه:

إذا كان أحدهم يملك ماءً مخصصاً للشرب، ويفتقر في نفس الوقت إلى ماءٍ للوضوء، فإنه -والحال هذي- لا يجوز له التوضؤ بذلك الماء، ويجب عليه الانتقال إلى خيار التيمم، والاحتفاظ بالماء للشرب.

وكذلك إذا كان لا يملك ماءً إلا لسقي دابته، أو لتبريد محرك سيارته مثلاً، فإنه يكون ملزماً بالتيمم دون شك وعدم استخدام ذلك الماء للوضوء.

والمسألة المثيرة هنا، هي أنه لو كان لديه قليلٌ من الماء ويريد استعماله للوضوء، وكان إلى جانبه إنسان كافر حربي، أو شخص محكوم عليه بالإعدام، يخاف عليهما الهلاك عطشاً، فإنه -وفقاً لفتاوى بعض الفقهاء- مسؤول عن درء العطش عنهما، ويجب عليه التيمم، ذلك لأن الإسلام يحكم بضرورة رفع العطش عن كل إنسان؛ بما في ذلك الكافر الحربي والمحكوم عليه بالإعدام.

وهكذا نلاحظ إن الإسلام يهتم بتفاصيل الحياة الإنسانية بصورة دقيقة؛ وفي إطار أحكام هذا الدين الإنساني النزيه، لا يمكن السماح بفضح الرفيق أو الزميل أو الشريك لمجرد بروز نوع من الاختلاف معه، حتى وإن كنتَ مظلوماً من قبله، فلا يجوز أن تقوم بإخزائه، بحيث لا تُبقي له كرامة أو احتراماً.

فرد العدوان -الذي هو حق مشروع- يمكن أن ينفذ ضمن ضوابط ومعايير وقواعد عقلية وشرعية.

ونلاحظ في نهاية كل مقطع من هذا الحديث الشريف -رسالة الحقوق- تأكيد الإمام السجاد عليه السلام على عبارة: «**وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**».

وهذا التعبير له حكمته السامية طبعاً، إذ أن الالتزام بالأخلاق الحميدة بحاجة إلى كسب القوة من الله رب العالمين، ومن دون هذه القوة يتسلط علينا الضعف بكل أشكاله.

هل رأيتم كيف ينفلت القياد من السيارة وسط الشوارع، فيتعرض سائقها والناس المحاذون للطريق إلى الخطر الكبير؟ فالويل كل الويل للإنسان إذا انفلت قياد نفسه بسبب الضعف في يوم من الأيام.

13

حقوق التشاور والتناصح

حق المستشير

المستشير هو من يطلب المشورة من الآخرين.

فتارة يأتيك أحدهم قائلاً: أريد الزواج من بنت فلان، أو: ابتياع البيت الكذائي، فما رأيك؟ فما هو حق المستشير؟.

يقول الإمام السجاد عليه السلام بهذا الصدد: «**وَحَقُّ الْمُسْتَشِيرِ إِنْ عَلِمْتَ أَنَّ لَهُ رَأْياً حَسَناً أَشَرْتَ عَلَيْهِ وَإِنْ لَمْ تَعْلَمْ لَهُ أَرْشَدْتَهُ إِلَى مَنْ يَعْلَمُ**»[1].

وينقل أن المأمون العباسي استدعى أحد مقربيه وقال له: من هو الشخص المناسب برأيك لتقلّد منصب القضاء في المنطقة الكذائية؟.

فرشح هذا الشخص أحد الأفراد.

فسكت المأمون هنيئةً ثم قال: حسب علمي، هناك اختلاف بينك وبين هذا الشخص الذي رشحته، فلماذا ذكرته الآن بخير؟!.

(١) وسائل الشيعة،ج١١، ص١٣٧.

فأجابه: بلى؛ أنا وإياه على خلاف، وإن ظفرت به نازعته، ولكنك قد طلبت المشورة مني، وكان عليّ الرجوع في الإشارة إلى عقلي دون عاطفتي!.

إن من أهم صفات الفرد المؤمن، الإنصاف، ويتجلى الإنصاف في شخصية الإنسان حين يستطيع التغلب على هواه وعاطفته لدى تقييمه لشخص قد يكون على خلاف معه. إن هذا السلوك لا يوجد إلا عند من يتمتع بقوة معنوية وإيمان راسخ.

حق المستشار

ثم يضيف الإمام عليه السلام: **«وَحَقُّ الْمُشِيرِ عَلَيْكَ أَنْ لَا تَتَّهِمَهُ فِيمَا لَا يُوَافِقُكَ مِنْ رَأْيِهِ وَإِنْ وَافَقَكَ حَمِدْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»**[1].

أما حق الذي استشرته؛ فهو الاستماع إلى رأيه بسعة صدر كافية، وإن كنت لا تنوي الالتزام والعمل بما أشار.

فهناك بعض الأشخاص يتمنون على مخاطبهم أن يبدي رأيه تجاه ما استشاروهم فيه، ولكنهم بعد التعرف على رأي المستشار، يشرعون بتخطئته، بعد أن قدم لهم ما يعرف وما يرى على طبق من الإخلاص، الأمر الذي ينتهي به إلى الندم على ما أخلص وقدم، بل إن المشير سرعان ما يقول للمستشير مستاءً: إذا كنت قد توصلت لهذه الحقيقة من قبل، فلماذا -إذن- طلبت مني المشورة؟!.

أسلوبان للأئمة عليهم السلام في تبيين المسائل

قبل مواصلة الحديث عن بنود (رسالة الحقوق) للإمام زين العابدين عليه السلام، يجدر بنا أن نشير إلى أن هذه الرسالة الشريفة قد عالجت الموضوعات المطروحة فيها بشكل دقيق، بحيث لو لم تتوفر لدى الإنسان أية مصادر سوى هذه الرسالة لاستغنى بها، ولاستطاع أن يحيى حياة طيبة من خلال التمسك بالتعاليم الواردة فيها.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٧.

كما أود الإشارة هنا إلى أن المعصومين عليهم السلام قد اعتمدوا أسلوبين في بيان وعرض الموضوعات المختلفة.

الأسلوب الأول: هو الخطاب بصورة الفتوى وبيان الأحكام الفرعية. وذلك حينما كان الأئمة يُسألون عن حكم الشريعة حول بعض الأمور الفرعية، فكانوا يعطون الفتوى الشرعية بخصوص مورد السؤال.

أما **الأسلوب الثاني**؛ فهو أن يبتدىء الأئمة عليهم السلام الخطاب لبيان بعض المسائل والحقائق الأخلاقية والاجتماعية التي تشكل إطارات عامة للعمل وفق سنن الله في مختلف المجالات.

ومن هذا القبيل، الرسالة التي خاطب فيها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ابنه محمد ابن الحنفية، وكذلك رسالته إلى محمد بن أبي بكر وقد ذُكرتا ضمن رسائل (نهج البلاغة). وكذلك وصايا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم للإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أو ابن مسعود أو أبي ذر رضي الله عنهما، أو الرسالة المفصلة المروية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في معائش العباد ووجوه الحلال والحرام في الحقول الاقتصادية.. فكل هذه الروايات وأمثالها وكذلك رسالة الحقوق التي نحن بصددها تُعتبر في الحقيقة دروساً تعليمية عظيمة على مختلف الصُّعد.

وللاطلاع على النوع الثاني من خطابات المعصومين عليهم السلام ينبغي الرجوع إلى أحاديثهم ورسائلهم التي تتطرق لبيان الأصول العامة للأحكام الشرعية من الواجبات والمحرمات، والمستحبات والمكروهات.

حق المستنصح

يقول الإمام السجاد عليه السلام في هذا القسم من الرسالة بخصوص المستنصح: **«وَحَقُّ الْمُسْتَنْصِحِ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَيْهِ النَّصِيحَةَ وَلْيَكُنْ مَذْهَبُكَ الرَّحْمَةَ لَهُ وَالرِّفْقَ»**[1].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٧.

فإذا سألك أحد الأشخاص عن شيء أو كان بحاجة إلى التوجيه والإرشاد، فلا ينبغي أن تجابهه بالخشونة والعنف، بل لابد من ممارسة الرأفة والرحمة لدى مخاطبته.

أما إذا كنت أنت المستنصح، فإن للناصح حقوقاً عليك أيضا. يقول الإمام السجاد عليه السلام به ذا الخصوص: «**وَحَقُّ النَّاصِحِ أَنْ تُلِينَ لَهُ جَنَاحَكَ وَتُصْغِيَ إِلَيْهِ بِسَمْعِكَ فَإِنْ أَتَى بِالصَّوَابِ حَمِدْتَ اللَّـهَ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنْ لَمْ يُوَافِقْ (الصواب) رَحِمْتَهُ وَلَمْ تَتَّهِمْهُ وَعَلِمْتَ أَنَّهُ أَخْطَأَ وَلَمْ تُؤَاخِذْهُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُسْتَحِقّاً لِلتُّهَمَةِ فَلَا تَعْبَأْ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى حَالٍ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»[١].

عندما تكون أنت المستنصح، ينبغي أن تسعى لأن تكون متواضعاً، وأن تستمع إلى ناصحك بكل تواضع ودقة، فإن شعرت بأن كلماته تنطبق والموازين العقلية والقيم الشرعية، فاشكر الله سبحانه وتعالى على أن أرسل لك مثل هذا الشخص ليشجعك على العمل طبق الحق، والورع عن الباطل.

ولكنك إذا لاحظت في كلماته عدم التطابق مع الموازين العقلية والشرعية، فلك أن لا تلتزم بما يدفعك إليه من جهة، وعليك أن لا تواجهه باللوم والتقريع من جهة ثانية؛ فلا توبخه أو تعنِّفه من أجل ما اقترح عليك من الخطأ، فلعله كان ذلك منه بسبب سوء الفهم غير المقصود، ولعله أيضاً سيتنبه سريعاً إلى بطلان ما يرى.

ولكن إذا كان الناصح يتعمد ذلك بهدف التوصل إلى أغراض شيطانية، مثل إيجاد الفرقة بينك وبين الآخرين، فعليك أن تواجهه بطريقة أخرى. فلو أوصاك بضرب أخيك، مثلاً، وكان قد حرض أخاك وعبّأه ضدك من الجانب الآخر، فإن الأسلوب الصحيح لمواجهة هذا الذي يدعي النصح، طرده وعدم الاعتناء به.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٧.

14

حقوق الكبار والصغار

حق كبار السن

ثم يشير الإمام زين العابدين عليه السلام إلى حقوق كبار السن فيقول: «**وَحَقُّ الْكَبِيرِ تَوْقِيرُهُ لِسِنِّهِ وَإِجْلَالُهُ لِتَقَدُّمِهِ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَكَ وَتَرْكُ مُقَابَلَتِهِ عِنْدَ الْخِصَامِ وَلَا تَسْبِقَهُ إِلَى طَرِيقٍ وَلَا تَتَقَدَّمَهُ وَلَا تَسْتَجْهِلَهُ وَإِنْ جَهِلَ عَلَيْكَ احْتَمَلْتَهُ وَأَكْرَمْتَهُ لِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحُرْمَتِهِ**»[1].

فإذا صادفت وقابلت شيخاً هرماً كبير السن، كان له الحق عليك لأن تجعله موضع احترامك الخاص، لأن للعمر الذي قضاه هذا الفرد حرمة يجب حفظها.

وكذلك ينبغي إجلاله بسبب تقدمه عليك في اعتناق الإسلام وذلك بسبب تقدمه في السن عليك؛ فقبلك صام وصلى، وقبلك أدى فريضة الحج، وقبلك أصبح من أهل الإيمان، وهذه الأمور كلها مميزات عظيمة ومهمة يجب أن يجل المسن ويحترم من أجلها.

ومن جانب آخر؛ إن للأفراد المسنين حالة خاصة ووضعاً مميزاً، تبعاً لضعف

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٧.

أعصابهم، فلعل كلمة جارحة واحدة تتسبب في انهيار أعصابهم وإثارتهم، ولما كنت أنت شاباً قوي الأعصاب كان عليك أن تتعامل معهم بكثير من الصبر والأناة والتحمل، وأن تختار الهدوء والسكوت في كثير من حالات الحوار معهم.

فإذا كنت رفيق دربه ووصلتما إلى معبر ضيق، فقدّمه على نفسك.

في بعض الأحيان يلاحظ في أحد الشوارع رجلٌ مسنٌ يجلس خلف مقود السيارة، وهو يسير ضمن طريقه بكل هدوء ووقار، فيصادف أن يخطف من جانبه شباب يقودون سياراتهم بكل سرعة ووقاحة، فتراهم يزعقون ويتسببون في اضطراب السير كله، بل ولا يرون لكبير السن حق التقدم، أو تراهم يسخرون من طريقة قيادته المتأنية، في حين أن الأدب يقتضي سلوكاً وأسلوباً غير هذا الذي يبدر منهم.

ثم يؤكد الحديث على أنه إذا ارتكب الفرد المسن تجاهك خطأً لفظياً، فلا تنسبه إلى الجهل أو الهذيان، وإنما عليك أن تضع كل ذلك في حساب تقدمه عليك في السن، ولتعلم أن هذه الحالة ستكون مصيرك أنت أيضاً في يوم من الأيام.

يقال إن رجلاً طاعناً في السن، كان يسير محني الظهر في أحد الأزقة، فمر إلى جانبه شابٌ فخاطبه مستهزئاً: أيها العجوز عمَّ تبحث؟!.

فأجابه الرجل المعمّر يهمزه: أبحث عن الشباب.

فندم الشاب على ما بدر منه وتجرأ به من الكلام غير الرصين، وتوارى عنه مسرعاً!!.

حق الصغير

أما حق الصغار؛ فقد أشار الإمام السجاد عليه السلام إليه بقوله: «**وَحَقُّ الصَّغِيرِ رَحْمَتُهُ مَنْ نَوَى تَعْلِيمَهُ وَالْعَفْوُ عَنْهُ وَالسَّتْرُ عَلَيْهِ وَالرِّفْقُ بِهِ وَالْمَعُونَةُ لَهُ**»[1].

فمن أراد تعليم الطفل، فعليه أن ينظر إليه أولاً بعين الرحمة والشفقة، وذلك

---

(١) وسائل الشيعة،ج١١، ص١٣٨-١٣٧.

لأن الإنسان الجاهل يصعب عليه الاعتراف بجهله، وهو يريد أن يتعلم دون أن يُشعره الآخرون بجهله.

وإذا أراد الأستاذ تعليم تلميذه من منطلق التكبر والعنف فإنه سيدفعه إلى التهرب.

النبي عيسى عليه السلام يغسل أقدام الحواريين!

وفيما يتعلق بالتواضع أثناء التعليم، يُروى أن النبي عيسى عليه السلام خاطب الحواريين في يوم من الأيام قائلاً: «**يَا مَعْشَرَ الْحَوَارِيِّينَ لِي إِلَيْكُمْ حَاجَةٌ اقْضُوهَا لِي.** قَالُوا: قُضِيَتْ حَاجَتُكَ يَا رُوحَ اللَّهِ. فَقَامَ فَغَسَلَ أَقْدَامَهُمْ فَقَالُوا كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا يَا رُوحَ اللَّهِ. فَقَالَ عليه السلام: **إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْخِدْمَةِ الْعَالِمُ إِنَّمَا تَوَاضَعْتُ هَكَذَا لِكَيْمَا تَتَوَاضَعُوا بَعْدِي فِي النَّاسِ كَتَوَاضُعِي لَكُمْ.** ثُمَّ قَالَ عِيسَى عليه السلام: **بِالتَّوَاضُعِ تُعْمَرُ الْحِكْمَةُ لَا بِالتَّكَبُّرِ وَ كَذَلِكَ فِي السَّهْلِ يَنْبُتُ الزَّرْعُ لَا فِي الْجَبَلِ**»[١].

ومن جملة المسؤوليات التي يتوجب على المعلم الالتزام بها تجاه تلميذه الصغير إذا ما بدر منه نوع من الكسل والفتور خلال الدرس أو أداء واجباته، هي مسامحته ما أمكنه، كمرحلة من مراحل التربية والتعليم . أما إذا أعلن عن عدم فهمه لموضوع الدرس، فعلى الأستاذ إعادته عليه مرة بعد مرة.

ثم إن الأستاذ ملزم بحفظ أسرار تلميذه إذا ما انتقل إلى معلم آخر، فلا يكشف أخطاءه ونقاط ضعفه في الأيام التي كان يتتلمذ فيها عليه.

كما يجب على الأستاذ أن لا يمنع عن التلاميذ مساعدته لهم في أي مجال يحتاجون إلى عونه.

نقل أحد العلماء: لقد كانت المشاكل المادية في عهد ملك إيران الأسبق، وانعدام الأمن لمواصلة الدراسة تضغط عليَّ إلى حدٍّ ألجأتني إلى اتخاذ قرار ترك

(١) بحار الأنوار، ج١٤، ص٢٧٨.

الدراسة الحوزوية والعودة إلى منطقتي النائية عن مدينة قم المقدسة.

وحيث كنت أعدّ العدة للانفصال عن الحوزة وهجر الدراسة الدينية، قرع عليّ باب غرفتي ذات ليلة، وحينما فتحته، كان الوجه النوراني لأستاذي المرحوم الميرزا مهدي الأصفهاني يطلّ عليَّ.. كان منزعجاً من قرار الانفصال الذي اتخذته، فقال لي: نحن جميعاً ضيوف على مائدة الإمام المهدي عجل الله فرجه، فإذا تركنا خندق الدراسة الحوزوية خالياً فسينتصر العدو علينا، وأنا على استعداد من أجل أن تنثني عن قرارك لأن اقتسم معك ما يرزقني الله مهما كان قليلاً!.

وقد قام بذلك بالفعل، وأعانني بعمله هذا على مواصلة مسيرتي في الدراسة الحوزوية.

15

حقوق أُخرى..

حق السائل

أما بخصوص حق السائل الذي يطلب منك شيئاً، ويستجدي منك معونة؛ فقد قال الإمام السجاد عليه السلام: «**وَحَقُّ السَّائِلِ إِعْطَاؤُهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ**»[١].

أي إعطاء السائل الفقير ومساعدته على قدر حاجته إن كنت قادراً على ذلك، ولكن القضية تختلف -بالطبع- حين لا يكون لديك ما تتصدق به.

حق المسؤول

ومن جانب آخر؛ فإن المطلوب من السائل رعاية الآداب اللازمة والخاصة بالمسألة. فحينما يطرق السائل باباً من الأبواب ويعطى شيئاً من المساعدة، ينبغي عليه أن يغضّ عين الطمع، ويكتفي بما أعطي، لكي لا يدفع بالكريم إلى الندم. أما إذا أعرب صاحب البيت أو المسؤول عن عدم وجود ما يتصدق به لديه، فلا يتهمه بالكذب أو البخل.

يقول الإمام السجاد عليه السلام: «**وَحَقُّ الْمَسْئُولِ إِنْ أَعْطَى فَاقْبَلْ مِنْهُ بِالشُّكْرِ**

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ١٣٨.

وَالْمَعْرِفَةِ بِفَضْلِهِ وَإِنْ مَنَعَ فَاقْبَلْ عُذْرَهُ»[١].

حق المسرّ

ثم يشير الإمام علي بن الحسين عليه السلام إلى حق من أدخل السرور والبهجة عليك، فيقول: «**وَحَقُّ مَنْ سَرَّكَ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ تَحْمَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوَّلًا ثُمَّ تَشْكُرَهُ**»[٢].

فإذا قدم لك شخص من الأشخاص خدمة معينة، وكانت سبباً في راحتك وبهجتك، فإنك ستكون ملزماً -في المرحلة الأولى- أن تحمد الله المنان، ثم تتوجه بالشكر لذلك الشخص، لما أدخل عليك من السرور.

فتارة يمكن غمر الشخص بالرضى والسرور عبر هدية معينة، وأخرى بالكلمة الطيبة، أو عبر إرائه الطريق وتسهيل المهمة، وقد يكون ذلك بأن تزور إماماً من الأئمة عليهم السلام بالنيابة عن شخص من الأشخاص.

إننا لم نخلق في هذه الدنيا لنتعذب، وإنما قد خلقنا الله سبحانه وتعالى لتتجلى فينا رحمته دون غضبه. ولذلك؛ كان على الإنسان أن يسعى دائماً لفتح الأبواب التي توفر له وللآخرين البهجة والسعادة،ولذلك فإن الملاحظ أن جميع الواجبات المذكورة في مصادر الوحي إنما هي من أجل ضمان مصالح الإنسان، وسبل سعادته.

ضيق النظر أمر مرفوض

وهنا تجدر بنا الإشارة إلى أن نظرة الإنسان إلى الحياة ينبغي أن تكون نظرة إيجابية، إذ أن النظرة السلبية هي نوع من أنواع الوسوسة الشيطانية النابعة من الثقافة الخاطئة التي تجر الإنسان إلى الانحراف والضياع.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٨.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٨.

ولقد اختصت سورة الأنعام بمعرفة الله سبحانه وتعالى ورحمته، وقد أكدت الروايات والأحاديث الشريفة على أهمية قراءة هذه السورة للاهتداء ببصائرها في حل مشاكل الحياة، ولدى التدبر في آيات هذه السورة نجد أن رسالتها للإنسان هي: أن على الإنسان أن لا يصطدم مع الأمور والأشياء، وأن لا يتعامل معها من منطلق الحرمة والممنوعية، بل إن الأصل هو الحلية والجواز.

فلا ينبغي أن يخلق تصور خاطىء تجاه الشريعة الإسلامية في الأذهان، سيما أذهان الشباب، بأن الشريعة مجرد قوانين جامدة أو خشنة عنيفة تفتقر إلى المرونة.

فهناك من الأشخاص من قضوا عمرهم والتذوا بلذائذ الحياة، ولكنهم الآن عاكفون على تصوير الدين بأنه سلسلة من القوانين التي تقيّد حركة الإنسان وتعوقه عن التطور أو التطلع.. فتراهم يروجون لثقافة الانعزال، مما يبعد ويفصل الجيل الشاب الصاعد عن الدين وتطلعاته وأهدافه.

ولكن مذهب أهل البيت عليهم السلام يؤكد دائماً وأبداً على الأبعاد الإيجابية للدين، ويرفض الرؤية السلبية والضيّقة والتشاؤمية للحياة.

الدنيا ليست داراً للكآبة

هنا يطرح بحث نظرة الدين إلى الفرح والسرور نفسه. فما يفهم من هذا القسم من رواية الإمام السجاد عليه السلام هو أن الإنسان لا ينبغي له أن يكون كئيباً حزيناً، بل عليه أن ينظر -أكثر ما ينظر- إلى النواحي الإيجابية للحياة، حتى لا يكون حزين القلب بلا داعٍ أو مبررٍ.

طبعاً؛ هناك من يمتاز بوضع سلبي خاص، وظرف كئيب معين.. مما يجعله حزيناً ومهموماً، ولكن الحالة العامة يجب أن تصطبغ بالصبغة الواقعية. فلا ننظر إلى الدنيا باعتبارها داراً للنفور والكآبة والسلبية والتشاؤم، فنندم على الإقامة فيها، ونواجه الأمور بروح سلبية ووجه عابس.

ولذلك؛ فإن واحدة من الخصائص الإيجابية للإنسان هي أنه يميل بطبعه إلى النشاط والسعي وبذل الجهد، فهو ينفر -ذاتاً- من السكون والجمود، ولهذا يكره السجن والاعتقال والتقييد.

ولو كانت طبيعة الإنسان تميل إلى الهدوء العاري من السعي والكدح، فإن السجن قد يكون أحب شيءٍ بالنسبة له. ولكن مع ذلك؛ لا نجد أحداً يرغب باختيار السجن مأوى.

إن مشكلة السجن هي أنها تحد من الحرية والفعالية والنشاط الذي فطر الإنسان عليه.

لابد أنك شعرت في يوم من أيام العطلة الرسمية، حيث تقيم في بيتك أنك غير مرتاح قياساً بأيام نشاطك وفعاليتك، إذ تشعر بالحركة والانطلاق.

حق المسيء إليك

وفي الفقرة التالية من حديث الإمام السجاد عليه السلام، نلاحظ قمة السمو الأخلاقي للتعاليم الإسلامية، حيث يشير الإمام إلى حق من أساء إليك أيضاً، فيقول: «**وَحَقُّ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُ وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّ الْعَفْوَ يَضُرُّ انْتَصَرْتَ قَالَ اللَّـهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾**»[١].

فحق مثل هذا الإنسان أن تعفو عنه وتصفح عن إساءته.

ولكنك إذا شعرت بأن العفو سيدفع الفرد المسيء إلى مزيد من الاعتداء والإساءة إلى الآخرين، فلك أن لا تعفو، وقد أباح الله سبحانه وتعالى للمظلوم أن ينتصر لحقه. والملاحظ أن الآية الكريمة استخدمت كلمة (الانتصار) وهي تعني السعي لاستعادة الحق المهضوم، وهذا المفهوم يختلف جذرياً عن مفهوم (الانتقام).

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٨.

حق المجتمع

ثم يشرع الإمام زين العابدين عليه السلام في بيان حق المجتمع الديني على الإنسان فيقول: «وَحَقُّ أَهْلِ مِلَّتِكَ إِضْمَارُ السَّلَامَةِ وَالرَّحْمَةِ لَهُمْ وَالرِّفْقُ بِمُسِيئِهِمْ وَتَأَلُّفُهُمْ وَاسْتِصْلَاحُهُمْ وَشُكْرُ مُحْسِنِهِمْ وَكَفُّ الْأَذَى عَنْ مُسِيئِهِمْ وَتُحِبَّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَتَكْرَهَ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ وَأَنْ تَكُونَ شُيُوخُهُمْ بِمَنْزِلَةِ أَبِيكَ وَشَبَابُهُمْ بِمَنْزِلَةِ إِخْوَتِكَ وَعَجَائِزُهُمْ بِمَنْزِلِ أُمِّكَ وَالصِّغَارُ مِنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ أَوْلَادِكَ»[١].

فعلى الإنسان أن ينظر للآخرين بمنظار ايجابي حسن، وأن يعتبرهم أفراداً صالحين أساساً، وأن يتعامل معهم جميعاً من منطلق الرأفة والرحمة.

وإن بدرت منهم أخطاء وممارسات مغلوطة، كان مكلفاً بأن يواجههم بالروح الرحيمة بالقدر الممكن، وأن يحملهم على محامل الخير والصلاح، مهما أمكن.

أما إذا تأكد من تعارض تصرفاتهم لأحكام الشرع والعقل السليم، كان عليه أن يرشدهم إلى السلوك الصحيح بلغة أخلاقية مفعمة بالاحترام والرأفة، ليمكن إقناع الفرد الخاطئ بخطئه. فطبقاً للروايات المنقولة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، على الفرد المؤمن أن يوفّر في نفسه القدرة على التآلف والتفاهم مع الناس.

فهناك بعض الأفراد ذوي الوجوه المقطبة والقلوب الغليظة ممن لا يمكن تحملهم، حتى لو كنت تتحلى بأسمى درجات الأخلاق الفاضلة.

ولكن هناك من الأشخاص من يقيمون أحسن وأروع وأمتن العلاقات بمجرد تبادل التحية والسلام معهم.

ذات مرة كنت مع المرحوم والدي في سفرة من مدينة مشهد إلى العاصمة الإيرانية طهران، وحينما اقتربنا من طهران، طرأ على سيارتنا عطل أوقفنا عن الحركة، فاضطررنا إلى اقتيادها إلى ورشة التصليح، ثم إن المرحوم والدي ترجل

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٨.

من السيارة لفرط ما تعرض له من حرٍ وتعب، حيث كانت الساعة الثانية بعد الظهر، وإذ كنت منهمكاً بشؤون السيارة مع الميكانيكي، فقد غفلت عن والدي، وبعد دقائق تنبهت إلى غيبته الغريبة، فاضطربت لذلك وأخذت أبحث عنه هنا وهناك، حتى وجدته غارقاً في الحديث مع بعض السائقين ومساعديهم بصورة حميمة، فطلبت إليه أن نذهب إلى مكان للاستراحة، وكان مما أثار دهشتي هو عدم وجود أي وجه شبه بينه وبين الذين كان يتحدث إليهم ويتحدثون إليه بتلك الحرارة وذلك التفاعل.

إن الإنسان المؤمن -في حقيقة الأمر- يجب أن يتمتع بمثل هذه الروحية التي تؤهله لإقامة علاقة المحبة مع جميع الشرائح الاجتماعية... العلاقة الطيبة الهادفة إلى الخير والإصلاح.

فيجب توجيه الشكر والامتنان لمن أحسن إليك، والتغافل عمن أساءك، وأن تحب لغيرك ما تحب لنفسك، وأن تكره له ما تكره لها.

فإذا كنت في حالة عبور شارع من الشوارع ورأيت رجلاً طاعناً في السن فعليك أن تتصوره أباك فتساعده على العبور بسلام، وإذا رأيت شاباً فلك أن تعتبره أخاك. وهكذا بالنسبة إلى النساء الكبيرات في السن، حيث ينبغي أن تتعامل معهن كما تتعامل مع أمك، واعتبار الصغار من أبناء المجتمع وكأنهم أولادك.

وهكذا نجد أن المجتمع الذي يتمتع بمثل هذه النظرة والروح الإيجابية البناءة، يتحول بالفعل إلى جنة.

حق أهل الذمة

ويختم الإمام السجاد عليه السلام حديثه عن الحقوق بالإشارة إلى حق أهل الذمة، وهم أهل الكتاب الذين يعيشون في المجتمعات الإسلامية.

يقول الإمام عليه السلام: «**وَحَقُّ الذِّمَّةِ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا قَبِلَ اللَّـهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُمْ وَلَا**

تَظْلِمَهُمْ مَا وَفَوْا لِلَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ بِعَهْدِهِ»[١].

فإذا سمح الله تعالى لهم بالتعايش السلمي في المجتمعات الإسلامية حسب الشروط المذكورة في الشريعة الإسلامية، فعلينا نحن أن نقبل بذلك أيضاً، وأن لا نظلمهم ما داموا هم ملتزمين بواجباتهم ومسؤولياتهم.

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ١٣٨.

16

كلمة الختام

بعد إلقاء نظرة خاطفة على رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام نستلهم منها نقطتين أساسيتين ينبغي أن تشكلا الخط العام لحياتنا:

الأولى: عرفان الحقوق، إذ يلزم الفرد أن يتعرف على حق الله تعالى، وحق نفسه وأعضائه وجوارحه، وحقوق العبادات، ثم حقوق المرأة والرجل، والكبير والصغير، والمعلم والحاكم، وسائر طبقات وفئات المجتمع.

الثانية: إن على الإنسان أن يكون -من الناحية الروحية- تابعاً للحق والحقيقة، دون الهوى والأنانية والمصالح الشخصية.

2

الباب الثاني

خصال الإيمان

١- الإيمان فريضة.

٢- دعائم الإيمان.

٣- دعامتا العدل والجهاد.

٤- المؤمن.. والخصال الثمانية.

٥- نماذج المؤمنين.

٦- من خصائص المؤمن.

٧- كمال الإيمان.

٨- خيار العباد

٩- من أخلاق المؤمن.

١٠- أشبه الناس بالنبي ﷺ.

١١- المؤمن حقاً..

١٢- هدية الرب جل جلاله.

1

الإيمان فريضة

في كتاب جهاد النفس من كتاب (وسائل الشيعة) للشيخ الحر العاملي هناك رواية منقولة، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قسمت شعب الإيمان على الجوارح المختلفة للإنسان، وقد فرضت على كل جارحة وظيفة معينة لتحصيل الإيمان، جاء فيها: «**إِنَّ الله فَرَضَ الإيمان عَلَى جَوَارِحِ ابْنِ آدَمَ وَقَسَمَهُ عَلَيْهَا وَفَرَّقَهُ فِيهَا فَلَيْسَ مِنْ جَوَارِحِهِ جَارِحَةٌ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَتْ مِنَ الإيمان بِغَيْرِ مَا وُكِّلَتْ بِهِ أُخْتُهَا**»[1].

ومن ثم بدأ عليه السلام ببيان ما فرض على القلب من الإيمان، قائلاً: «**فَأَمَّا مَا فُرِضَ عَلَى الْقَلْبِ مِنَ الإيمان فَالْإِقْرَارُ وَالْمَعْرِفَةُ وَالْعَقْدُ وَالرِّضَا وَالتَّسْلِيمُ بِأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِلَهاً وَاحِداً لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ** صلى الله عليه وآله وسلم **وَالْإِقْرَارُ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ الله مِنْ نَبِيٍّ أَوْ كِتَابٍ فَذَلِكَ مَا فَرَضَ الله عَلَى الْقَلْبِ مِنَ الْإِقْرَارِ وَالْمَعْرِفَةِ وَهُوَ عَمَلُهُ**»[2].

المرحلة الأولى: الإقرار والاعتراف بالإيمان

وهذه المرحلة هي أول وأبسط مراحل الإسلام والإيمان؛ أي أن الفرد

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٤.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص ١٢٤.

بتلفظه باللسان يدخل سلك الإيمان والإسلام، وقد فرض الشرع المقدس ألفاظاً مخصوصة لهذا الغرض (غرض الانتماء للدين)، وهي: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ».

المرحلة الثانية: المعرفة الحقيقية للإيمان

وتبعاً لإقرار اللسان، يتوجب على الفرد المؤمن أن يكون بصدد المعرفة الأكمل والأكثر تفصيلاً بما أقرّ به، فيعطف إقراره على معرفته، لأن هذه المعرفة ستدفعه إلى الالتزام الأعمق بما أقرّ به.

المرحلة الثالثة: الالتزام مقابل الإيمان

وبعد مرحلة التعرف على الإيمان، يأتي دور التعهد والالتزام وقبول المسؤولية. فحينما يعرف الفرد -بتتبعه العميق- أن الإيمان بالله هو الحق، وهو الذي يفترض به أن يكون واقعاً.. سيشعر أنه ملزم بتحمل المسؤولية الإيمانية. فما دام الشيء لم يخرج عن حالة الغموض، يبقى الإنسان حياله في حالة من الشك والتردد المتواصل، أما إذا اتضحت له حقانيته، فهو لايستطيع إلا أن يسلّم له ويهتم به.

المرحلة الرابعة: الرضى التام تجاه الدين وأحكامه

على الإنسان المؤمن أن يتعامل مع الدين وأحكامه برضى تام وانبساط مطلق، وليس بشعور المكره الساخط، فما يعتبره تكليفاً ينبغي أن ينفذه دون أي توجه واهتمام بأهوائه النفسية ورغباته الذاتية، حتى يكون محبّاً للعبادة، فيؤديها بروحه وقلبه، لأن المطلوب منه أن يؤديها بقبول كامل.

المرحلة الخامسة: التسليم تجاه ما أقرَّ به

فما عرفه والتزم به وارتضاه لابد أن يصل به إلى حالة التسليم؛ الحالة التي

هي أفضل وأكمل صفة من الممكن أن تتكرس في حياة الإنسان المؤمن. فمرحلة التسليم تجاه أوامر ونواهي الله سبحانه وتعالى، هي نفسها ما يعبر عنها بمقام الخلوص والتزكية، حيث يصل عبره إلى المعنى الواقعي لكلمة (عبد الله)، فلا يؤمن بإرادة غير إرادة الله التي من الممكن أن تتحكم بمقدراته.

ففي هذه المرحلة لا يرى العبد سوى ربه، ولا يمتثل لغير أوامر الله، وهو يسلم لإرادة الله دون قيد أو شرط.

إن الإيمان من وجهة نظر أهل البيت عليهم السلام، عبارة عن الإيمان المقرون بالعمل، إذ العمل في حقيقته جزءٌ من الإيمان، وهذا الجزء مرتبط كل الارتباط بالقلب والروح.

أما أجزاء الإيمان الأخرى؛ فهي متعلقة بجوارح الإنسان وأعضائه.

مزج العمل بالإيمان

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «.. **الْإِيمَانُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِعَمَلٍ، وَالْعَمَلُ مِنْهُ، وَلَا يَثْبُتُ الْإِيمَانُ إِلَّا بِعَمَلٍ**»[١].

لقد استخدم الإمام عليه السلام لفظة «**بِعَمَلٍ**» بصيغة النكرة عوضاً عن صيغة المعرفة، مما يدلل على العموم؛ بمعنى؛ أن أي عمل يصب في قناة الإيمان فهو باعث على تثبيته وتقويته، لأن الإيمان هو التسليم، فكان لابد للقلب أن يسلم بهذه الحقيقة.

مفهوم مصطلح الإيمان

إن مفهوم مصطلح الإيمان الذي نحن بصدده، ليس بمعنى إعطاء الأمان، بل إنه مشتق ومأخوذ من مادة (آمن) بمعنى (سلّم) فتارة يعطي الإنسان الأمان

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٦، ص٢٢.

لأحدهم، وتارةً أخرى يأخذ الأمان من أحدهم، ولكن من يسلم بشيءٍ فإنه يكون قد وضع نفسه تحت أمان ذلك الشيء.

فالإيمان بشيءٍ يعني إضفاء حالة الأمان عليه.

ويبدو لي أن حقيقة مفهوم كلمة (آمن) تعني إيجاد حالة التسليم في قلب العبد، فهو يعطي الأمان لنفسه حينما يذعن ويقبل حقيقة ما آمن به، كما أن تلك الحقيقة في أمان من احتمال الرفض أو التشكيك.

وعلينا أن ندقق في الجذر اللغوي لكلمة «**الْإِيمَانُ**» بشكل أعمق، حتى نكتشف مدى ظلال هذه الكلمة.

إننا نجد أن كلمة (المؤمن) تُنسب إلى الله في القرآن الكريم حيث نقرأ في الآية ٢٣ من سورة الحشر: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ...**﴾ وهنا يختلف معنى الكلمة عما إذا نُسبت إلى العبد: ﴿**وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ**﴾، فالله المؤمن يعني: أن الله يعطي لعباده الأمان، أما في جانب العبد فتعني كلمة (المؤمن) أن العبد يستظل بأمان الله بعد أن يسلِّم أمره له.

علاقة الإيمان بالعمل الصالح

جاء في القرآن الكريم: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[١].

كما هو واضح؛ فإن الله سبحانه وتعالى أراد منا العمل كما أراد الإيمان في هذه الآية.

وهنا سؤال يطرح نفسه، وهو: إذا كان الإيمان هو العمل، فما هي ضرورة

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥.

تكرار عبارة ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؟.

وفي معرض الإجابة يمكن القول: إن مفهوم الإيمان في هذه الآية هو الإسلام، لأن الإيمان مرتبة أسمى، وقد يكون الإنسان مسلماً ولكنه لمّا يبلغ درجة الإيمان بعد.

وحسبما يبدو لي أن المراد من الإيمان في هذه الآية هو الإيمان باللسان والقلب والجوارح. أما مفهوم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهو يشمل الأعمال التي لا تُعتبر جزءاً من الإيمان. فأعمال الخير كبناء المنزل، وإعطاء حقوق الناس، والعمل الايجابي في المجتمع.. تنضم كلها إلى قائمة الأعمال الصالحة، وفي الحقيقة فإن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تشمل كل الأعمال التي هي جزء من الدين، أما عبارة ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهي تشمل كل أعمال الخير التي قد لا تكون جزءاً صريحاً من الدين. وفي الواقع، إن العمل الصالح لا يعني الصلاة والعبادات المعروفة فقط، بل إنه يعني أيضاً عموم العمل والتكسب والزراعة وشق الطرق والامتناع عن المفاسد مثلاً..

فإذا وضع الإنسان نفسه في إطار الإيمان، وعمل الخير، ولم يفسد في الأرض، وبادر إلى القيام بالأعمال الصالحة، بما في ذلك الزواج والتكسب عن الطريق الحلال، فإن ذلك كله سيكتب في صحيفة أعماله الصالحة.

وعلى كل حال؛ فإن عبارة ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تشمل موارد كثيرة غير الصلاة والصيام والحج والزكاة والخمس التي تنطوي تحت عنوان فروع الدين.

وعلى هذا الأساس؛ يتضح جلياً أن التفسير الذي قال به كثير من الفقهاء وعلماء التفسير أن العمل الصالح هو الصلاة والصيام، لا يعد تفسيراً دقيقاً كاملاً. فما يُستلهم من الروايات الشريفة هو أن الإيمان يشمل الصلاة والصيام.. فمن كان لا يصلي، فهو غير مؤمن. ومن كان مستطيعاً ولكنه لا يؤدي فريضة الحج، فلا نصيب له من الإيمان، بل قد يُعتبر في عداد الكفار. ولكن من كان يؤدي الصلاة ويلتزم بفروع الدين الأخرى، ولكنه لا يعمل لتوفير لقمة عيشه، أو لا يخدم الناس -مثلاً-

فهو وإن كان مؤمناً، ولكنه في نفس الوقت لا يُعد من الذين عملوا الصالحات.

وفي هذا الإطار يلزمنا بذل مزيد من الدقة لدى مطالعتنا روايات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، وقراءتنا لتفاسير آيات القرآن المجيد، حتى نتأكد مما إذا كان بالمقدور إعلان وجهة نظرنا المتقدمة الذكر بصورة قاطعة أم لا. ومن الطبيعي أن يتطلب منا هذا العمل تحقيقاً عميقاً وطويلاً، لأنه عمل صعب حقاً، رغم أنه كثيراً ما خضع للبحث والتحقيق.

وللأسف لدينا من التفاسير ما كتبت تحت تأثير المنهج الفكري للمعارضين لمنهج أهل البيت عليهم السلام، ومن الخطأ جداً أن يلتقط المفسِّر فكرة من منهج أهل البيت وفكرة أخرى من منهج مخالفيهم، ويقدم الخليط من الفكرتين للناس.

إن الأجدى -بدلاً من إتلاف الوقت هذا- هو التدقيق في مناهج أهل البيت عليهم السلام، ثم المبادرة إلى الخوض في عملية التفسير.

ولا نعني بالتدقيق في مناهج أهل البيت عليهم السلام مجرد قراءة رواياتهم وأحاديثهم، بل نقصد جعل ولاية الأئمة عليهم السلام هو الأساس في التفكير. فحينما نفسر الآيات بالروايات، وحينما تحدد الرواية معاني الآية، فهذا هو الذي يعكس ويترجم الولاية الحقة، ويجعلها النقطة المركزية في التفكير.

فحسب تصريح الروايات؛ يكون الفرد مثلوم الإيمان كلما قصر في أعماله، حتى لا يبقى له سهم من الإيمان في نهاية المطاف، وإن كان يصدق عليه اسم المسلم، أو كانت الأحكام الأولية للدين الإسلامي نافذة فيه وجارية عليه.

فقد نقل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «.. **فَمَنْ أَقَرَّ بِدِينِ اللَّهِ فَهُوَ مُسْلِمٌ، وَمَنْ عَمِلَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[١].

فالإقرار بالتوحيد والرسالة والتلفظ بالشهادتين والاعتراف بإمامة الأئمة عليهم السلام

---

(١) بحار الانوار، ج٥٦، ص٢٥٩.

كل ذلك علامة إسلام الشخص وطهارته الظاهرية وحلية الزواج منه، ولكن بلوغ درجة الإيمان يستوجب قطع مسافة أشق وأطول من مسافة الإسلام بكثير.

العمل من أركان الإيمان

إذن؛ فالعمل من أركان الإيمان، ولا يمكن تصور تكريس الإيمان من دون عمل.

ونحن من خلال الرواية التي ذكرناها آنفاً نفهم أن العمل جزء من الإيمان، بل الإيمان كله عمل في الحقيقة؛ فمنه عمل قلبي، ومنه عمل باللسان، ومنه عمل بالجوارح الأخرى.

فإذا كتبت كتاباً معروفاً مثل كتاب (الإمام علي؛ صوت العدالة الإنسانية) ولكنك لا تتقبل على الصعيد العملي إمامة أمير المؤمنين عليه السلام ولا تقتدي به في حياتك العملية، فإن كتابة هذا الكتاب لوحده لن تصنفك ضمن المسلمين والمؤمنين.

إن كثيراً من الأشخاص يعرفون النبي صلى الله عليه وآله، ولكنهم لم يترجموا هذه المعرفة إلى إيمان في قلوبهم.. فكان من الطبيعي عدم إمكان إطلاق اسم الإيمان على مثل هؤلاء، لأن الإيمان حركة في ذات الإنسان وعمقه، وليس مجرد المعرفة النظرية.

فالمعرفة يجب أن تجد لها مصداقاً في العمل، كما أن على الجوارح والأعضاء تأييد هذه المعرفة، وهنا يأخذ الإيمان شكله المطلوب.

ومن دون ما ذهبنا إليه وأكدناه، لن تكون البنية التحتية للإيمان صلدةً، وكذلك سيكون شأن البنية الفوقية للإيمان.

ونستفيد من هذه الرواية الشريفة أن الإنسان لا يصح منه أن يخدع نفسه.

فالإنسان حينما يرى أن الإيمان ليس بالأمر اليسير، فإنه يلجأ إلى مخادعة

نفسه، فيبدأ بتلقينها وإقناعها بالاكتفاء بمجرد المعرفة دون العمل، وأن هذه المعرفة المجردة هي التي تدخله في سلك المؤمنين، في حين أن هذا الأمر خدعة نفسية ليس إلاّ..

إن الفرد يجب أن يجد لنفسه ما ينجيها بشكل حقيقي، وهو وحده القادر على هذا الإنجاز.

وتلك الروايات التي طالعناها وبحثنا جانباً من جوانبها لا تختص بشخص دون آخر، أو جماعة دون أختها، بل على الجميع أن يستفيدوا منها ويضعوها نصب أعينهم دائماً وأبداً.

فالأئمة عليهم السلام يعتبرون العمل مصداق الإيمان، وما من بأسٍ في أن نعيد النظر في طبيعة أعمالنا، فننظر إلى صلواتنا وما هي حقيقتها، وإلى صيامنا وفي أيّة درجة ومرتبة هو، وهل أدعيتنا تتوافر فيها شروط الاستجابة التي حددتها الآيات والروايات؟.

وللإجابة على ذلك كله، ينبغي القول: إن رحمة الله وحدها هي التي تأخذ بأيدينا، وإلا فإن صلواتنا وصيامنا وسائر عباداتنا مليئة بالنقص والضعف، في حين كان ينبغي أن نأخذ مثل هذه العبادات مأخذ الجد والحقيقة.

ومن كان يعيش في المجتمع الديني، وكان شخصاً ربانياً، عليه أن يعلم بأنه -وإن لم ينبس ببنت شفة، وكان لا يعمل إلا لله وحده- سيكون ذا تأثير شديد في هذا المجتمع. والعكس هو الصحيح تماماً، إذ من كان يقول ما لا يفعل كان كلامه لغواً أو نفاقاً.

2

دعائم الإيمان

جاء في موسوعة (بحار الأنوار) للعلامة المجلسي -نقلاً عن نهج البلاغة- «سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: **إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ؛ عَلَى الصَّبْرِ، وَالْيَقِينِ، وَالْعَدْلِ، وَالْجِهَادِ. فَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ؛ عَلَى الشَّوْقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ. فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ فِي الْخَيْرَاتِ..**»(١).

بانتظار الآخرة

فالصبر إذن، هو أول دعائم الإيمان، ولعل المقصود من الصبر هو التغافل عن الزمن الذي يستغرقه الوصول إلى الهدف. فالإنسان المؤمن عليه أن يكون مستعداً للآخرة ومنتظراً لها.. فيتجاوز الفاصلة الزمنية بينه وبين العالم الآخر.

وهذا الأمر يتيسر بواسطة قوة التخيل، التي هي من جملة القوى المفيدة التي أودعها اللّه في الإنسان. وهذا التخيل عَبَّر عنه القرآن الكريم بلفظة (الظن) بمعنى أن المؤمن يظن ويتخيَّل وقوفه في يوم من الأيام في محكمة العدل الإلهي وميزان

(١) بحار الأنوار، ج٦٥، ص٣٤٨، عن نهج البلاغة، حكمة رقم: ٣١.

الحساب الدقيق، وكأنه يعيش ذلك الموقف في يومه الحاضر.

ونحن إذا لم يحدث التغيير في أنفسنا لدى تلاوتنا لكتاب اللّه المجيد، فذلك لأن قوة التخيُّل لدينا ضعيفة وقاصرة. فالإنسان إذا استطاع تصوُّر الجنة وأنواع النعيم فيها، ووضعها نصب عينيه، فإن الشهوات الدنيوية ستفقد إلى حد كبير قيمتها لديه، قياساً بالجنة وما فيها من نعيم إلهي لا يوصف، «**فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ**».

وإذا استطاع -في مقابل ذلك- تخيُّل نار جهنم الرهيبة، سيمتنع إلى حد كبير أيضاً عن ارتكاب المعاصي، كما سيبيع الدنيا الصغيرة الزائلة برضوان اللّه الأكبر في الدار الآخرة، «**وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ**».

حفظ اليقين

أما الدعامة الثانية من دعائم الإيمان فهي اليقين، يقول الإمام علي عليه السلام في الرواية السابقة: «**وَالْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ وَسُنَّةِ الْأَوَّلِينَ. فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ عَرَفَ الْعِبْرَةَ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ..**»[1].

فاليقين بمثابة النور الذي يصدر عن جهاز التصوير فجأة وبسرعة مذهلة، ونور اليقين يسطع على قلب الإنسان فجأة أيضاً، فيضيئه في لحظة واحدة، ولكن محاولات الاستفادة الدائمة من هذه الإضاءة الخاطفة بحاجة ماسة إلى اتخاذ تدابير لازمة، وهي العوامل الأربعة -حسب ما أشارت الرواية- والتي تتصل فيما بينها، لتخلق اليقين في روح الإنسان، فهي عبارة عن:

١- تبصرة الفطنة.
٢- تأوّل الحكمة.
٣- موعظة العبرة.
٤- سُنَّة الأولين.

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٥، ص٣٤٨.

فالعامل الأول؛ هو الاستفادة من الذكاء في كشف الحقائق، والاتصاف بالنظرة الثاقبة التي تُمكِّن الفرد من حل المشاكل المستعصية.

ينقل أن أحد الأشخاص أرسل ولده إلى مُنَجِّم، ليعلمه مسائل في علم النجوم، فاهتم به المنجِّم أي اهتمام، ولكن هذا التلميذ لم يتعلم شيئاً، فجاء الأب ليعترض على المنجِّم بقوله: لقد صرفتُ من المال الكثير لتُعلّم ولدي، فلماذا لم يُتقن شيئاً حتى الآن؟!.

فقال المنجم: إنني لم أقصّر في تعليم ولدك، ولكنه هو الذي يفتقر إلى العقل الكافي والذكاء اللازم. فاستنكر الأب على المنجم هذا القول الذي اعتبره إهانة مباشرة له ولولده، مؤكداً أن ولده يمتاز بالعقل الثاقب والاستعداد المناسب للتعلم.

ولكي يُثبت المنجّم صدق مدعاه وخطل رأي الأب في ولده، مدّ يده في جيبه قبل أن يتنبّها إليه، وأخفى خاتماً في كفه، ورفع قبضة يده باتجاه الولد، سائلاً إياه: هل لك أن تعرف ما في قبضتي؟.

فأجاب الولد دونما انتظار: إنه معدن. فقال له المنجّم: لكي أجعل الإجابة أكثر يسراً، أُعلمك أن ما في يدي دائري ووسطه فارغ. فأجاب الولد: لقد عرفت إنه حجر الرحى!!.

وهكذا عرف الأب أن ولده لا يتمتع بالفطنة والتعقل الكافي.

إن التعقل والتفكر من جملة الضروريات لحياة الإنسان، ومن دون امتلاكهما، ستعترض الإنسان مشاكل جمة. وقد وصف القرآن الكريم الأشخاص المميزين بقوله الشريف: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[1].

وواضح أن السماوات والأرض قد عُرضت أمام أنظار الناظرين دون استثناء،

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٩١.

ولكن -طبقاً لهذه الآية الكريمة- فإن الأشخاص العاقلين والمفكرين وحدهم يستطيعون التوصل إلى النتائج المطلوبة والمفيدة عبر نظرتهم الثاقبة إلى كيفية خلق السماوات والأرض. وإن واحدة من تلكم النتائج هي التأكد من أن خلق هذه المخلوقات العجيبة المرسومة على لوحة الوجود، لم يكن باطلاً، أو مجرداً عن هدف وقصد خاص.

إن أُولِي الأَلْبابِ يصنعون من نظرتهم الثاقبة إلى الصور المادية جسراً للوصول إلى نتائج معنوية، وهي -في أحد معانيها المهمة- الخوف من عذاب جهنم والوقاية من عذابها.

إن الانطلاق من الماديات باتجاه المعنويات يعتبر فنًّا خاصًّا بـ(أُولِي الْأَلْبابِ).

والعامل الثاني؛ في صناعة اليقين الداخلي لدى الفرد وبصورة مؤثرة، فهو «**تَأَوُّل الْحِكْمَةِ**».

إن الحكمة هي أن يعي الإنسان السنن الإلهية والقيم التي وضعها اللّه سبحانه وتعالى وجعلها بمثابة الهدف والغاية من الخلقة، فيجعلها نصب عينيه، ويمشي ضمن قواعدها ليتجنب الوقوع في المخاطر.

يقال: إن أحدهم كان جالساً على غصن شجرة كبيرة، بينما كان يقطع الغصن من أصله بالمنشار. فمرَّ طفل بالقرب من الشجرة، وعندما شاهد الرجل فطن إلى أنه سيسقط على الأرض لو قطع الغصن الذي يجلس عليه، فصاح به وحذره من السقوط، فوقع هذا التحذير موقعه من قلب ذلك الشخص، وسُرَّ لذلك أيَّما سرور، حيث نجا من الهلكة. فقال للطفل: أنت إما جنيٌّ أو ملك، حيث إنك تعلم الغيب والخطر الذي كان يحدق بي!!.

فقال له الطفل: إنك غنيٌّ عن علم الغيب إذا ما عرفت جاذبية الأرض والقواعد الفيزيائية!.

يبدو أننا -بني البشر- نعرف بعض السنن الإلهية وقوانين الخلقة في الحياة، وبقدر معرفتنا بها نهتم بها في ممارساتنا اليومية، فمثلاً: منذ الصغر نعرف النار ونعي خطرها وحرارتها، ولعلنا قد شعرنا مرات عديدة بالألم الناتج عن الاحتراق، ولذلك فإننا لا نلعب بالنار، ولا نقترب منها اقتراباً يُعرِّضنا لخطر الاحتراق.

إن قابلية الحرق التي تحملها النار واحدة من السنن الإلهية، ونحن لا نغفل عن ذلك ولا نتجاهله أبداً، ولكننا هل نعتني بالسنن الإلهية الأخرى كما هو اعتناؤنا بالنار وسنتها؟!. وواحدة من تلكم السنن الإلهية هي التي يكشفها قول النبي ﷺ: **«مَنْ أَعَانَ ظَالِماً سَلَّطَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ»**[1].

وإذ لا نُعطي هذه السنة الإلهية حقها، ترانا لا نمتنع -الامتناع المطلوب- عن إعانة الظالم والخدمة في أجهزته.

الخير الكثير في الحكمة

كل من نال الحكمة، كان -حسب التعبير القرآني- قد أُوتي خيراً، إذ قال اللّه تعالى: ﴿**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**﴾[2].

فالإنسان الحكيم يستطيع بدرايته وذكائه ربط المسائل التي تبدو أنها منفصلة في ظاهر الأمر، ليخرج منها بنتائج مفيدة.

لقد كان من أول الذين كرَّسوا قدرة الخلافة العباسية وثبَّت أعمدة حكومتها هو المنصور الدوانيقي.. وكانت قد اندلعت ثورة حملت اسم ثورة محمد ذي النفس الزكية، وكان محمد، وإبراهيم أخوه، من أحفاد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، قرَّرا إعلان هذه الثورة بأن يقوم محمد من المدينة المنورة، وإبراهيم من البصرة، وكان اتفاقهما أن تندلع الثورة في المنطقتين في آن واحد، ولكن هذا القرار قد غُيِّر في

---

(١) الخرائج والجرائح، ج٣، ص١٠٥٨.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٦٩.

اللحظة الأخيرة لأسباب خاصة.

كان المنصور الدوانيقي جالساً في دار الإمارة، ففاجأه البريد بأن محمداً ذا النفس الزكية قد أعلن الثورة في المدينة المنورة، فجمع الدوانيقي مستشاريه ليبحث معهم القضية ويتوصلوا إلى السبل الكفيلة لمواجهتها.

فقال له رجل طاعن في السن يُدعى عيسى: أرى أن تبعثوا جيشاً إلى البصرة!.

فما كان من المنصور الدوانيقي إلّا أن تجاهل هذا الرأي، واعتبر ذلك نوعاً من الهذيان، نظراً إلى أن مركز الثورة والحركة هو المدينة، ثم أمر بإخراج الرجل من المجلس. وبعد أيام من هذه الحادثة، جاء رسول من البصرة لينبئ الدوانيقي بأن حركة واسعة قد اندلعت في البصرة تحت قيادة إبراهيم سالف الذكر.

فبعث الدوانيقي يطلب عيسى الذي كان قد طرده، ولما حضر بين يديه، سأله قائلاً: يا عم! على أي أساس ذكرت البصرة.. فنحن اليوم بصدد مواجهة حركتها الجديدة؟.

فقال عيسى: إن المدينة بسكانها القليلين ليست سوى قرية صغيرة، ومحمداً الذي أعلن الثورة بادئ بدء، ليس بالرجل الغبي، وهو لم يختر المدينة مركزاً للحركة، وإنما أراد من خلال ذلك التمويه والتعمية، إذ له خطته الحقيقية في العراق. ولما كانت بغداد مركزاً للخلافة العباسية تحت قيادتكم، فهو لا طمع له فيها، وكذلك الكوفة من جانبها تحت سلطة بني العباس بشكل كامل.. وتبقى البصرة، وقد رأيت لكم من قبل أن تبعثوا بجيشٍ نحوها، ولو كنت قد أصغيت لي، لكانت البصرة خاضعة لكم الآن.

ما هي الحكمة؟

إن الحكمة هي قدرة الإنسان على كشف العلاقة بين القضايا والأمور المختلفة، وربط بعضها بالبعض الآخر، واستنباط واستخراج السنن الإلهية من

بينها، وأن يضع نفسه في الموقع المناسب حيال تلك السنن، وبأخذها بعين الاعتبار في مسيرته الحياتية فإنه يكون قد حقق أهدافه المطلوبة.

يقول اللّه سبحانه وتعالى في سورة الإسراء المباركة بعد عرضه لمجموعة من السلبيات: ﴿**كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً * ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً**﴾(١).

يجب أن نكون دائماً بصدد كشف القيم والسنن، وأن نطبقها على المصاديق الراهنة والمعاصرة.

ومن خلال رواية قضائية نستطيع أن نكتشف مدى القدرة التي يتمتع بها الأئمة المعصومون عليهم السلام في استنباط الأحكام الإلهية من آيات الذكر الحكيم.

جاء في تفسير نور الثقلين: «أُتِيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِرَجُلٍ وُجِدَ فِي خَرِبَةٍ وَبِيَدِهِ سِكِّينٌ مُلَطَّخٌ بِالدَّمِ، وَإِذَا رَجُلٌ مَذْبُوحٌ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِهِ. فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: **مَا تَقُولُ**؟!.

قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَنَا قَتَلْتُهُ. قَالَ عليه السلام: **اذْهَبُوا بِهِ، فَاقْتُلُوهُ بِهِ**. (أي اقتصوا منه). فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ لِيَقْتُلُوهُ بِهِ، أَقْبَلَ رَجُلٌ مُسْرِعاً فَقَالَ: لَا تَعْجَلُوا وَرُدُّوهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَرَدُّوهُ. فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ مَا هَذَا صَاحِبُهُ، أَنَا قَتَلْتُهُ.

فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام لِلْأَوَّلِ: **مَا حَمَلَكَ عَلَى إِقْرَارِكَ عَلَى نَفْسِكَ**؟.

فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ وَقَدْ شَهِدَ عَلَيَّ أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ وَأَخَذُونِي وَبِيَدِي سِكِّينٌ مُلَطَّخٌ بِالدَّمِ وَالرَّجُلُ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِهِ، وَأَنَا قَائِمٌ عَلَيْهِ وَخِفْتُ الضَّرْبَ، فَأَقْرَرْتُ وَأَنَا رَجُلٌ كُنْتُ ذَبَحْتُ بِجَنْبِ هَذِهِ الْخَرِبَةِ شَاةً، وَأَخَذَنِي الْبَوْلُ فَدَخَلْتُ الْخَرِبَةَ فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِهِ، فَقُمْتُ مُتَعَجِّباً فَدَخَلَ عَلَيَّ هَؤُلَاءِ فَأَخَذُونِي.

---

(١) سورة الاسراء، ٣٩- ٣٨.

فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: **خُذُوا هَذَيْنِ فَاذْهَبُوا بِهِمَا إِلَى الْحَسَنِ عليه السلام، وَقُصُّوا عَلَيْهِ قِصَّتَهُمَا، وَقُولُوا لَهُ: مَا الْحُكْمُ فِيهِمَا.**

فَذَهَبُوا إِلَى الْحَسَنِ عليه السلام وَقَصُّوا عَلَيْهِ قِصَّتَهُمَا. فَقَالَ الْحَسَنُ عليه السلام **قُولُوا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ** عليه السلام: **إِنَّ هَذَا إِنْ كَانَ ذَبَحَ ذَاكَ فَقَدْ أَحْيَا هَذَا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾، يُخَلَّى عَنْهُمَا وَتُخْرَجُ دِيَةُ الْمَذْبُوحِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ**»[١].

ونحن نستطيع من خلال هذه الحادثة التعرُّف على طريقة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في الاستدلال والاحتجاج بتلك الآية القرآنية الكريمة لإثبات صدق رأيه.

وعلى أية حال؛ فإن «**تَأَوُّل الْحِكْمَةِ**»، قد أشير إليه في الرواية باعتباره إحدى شعب اليقين الأربع، وهو يعني تطبيق الأحكام الكلية على المصاديق الخارجية.

ومن الشعب الأخرى لليقين، معرفة العبرة، والذي جاء في الروايات أن أكثر عبادة أبي ذر رضي الله عنه كان التفكُّر والاعتبار[٢]، فهو كان إذا مرّ بين الأزقة ورأى خربة من الخرائب، وقف وقال: «يُولَدُونَ لِلْمَوْتِ، وَيُعَمِّرُونَ لِلْخَرَابِ، وَيَحْرِصُونَ عَلَى مَا يَفْنَى، وَيَتْرُكُونَ مَا يَبْقَى، أَلا حَبَّذَا الْمَكْرُوهَانِ: الْمَوْتُ وَالْفَقْرُ»[٣].. فهنا كانت غرفة نومهم، وهنا كانت غرفة أطفالهم، ولكن ذلك كله قد آل إلى خراب.

ينبغي للإنسان أن ينظر إلى الأمور بنظر الاعتبار والاتعاظ، فهو حينما يخرج من منزله باتجاه عمله أو مدرسته أو غير ذلك قد تصادفه مناظر كثيرة جدًّا في مسيره، وقد يكون معظمها ذا عبرة جديرة بالتأمل.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص٦٢٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٢٢، ص٤٣١. عَنْ يُونُسَ عَمَّنْ رَوَاهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «**كَانَ أَكْثَرُ عِبَادَةِ أَبِي ذَرٍّ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ التَّفَكُّرَ وَالاعْتِبَارَ**».

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم، حديث رقم ٥٢٨.

الاتعاظ بسنن الأولين

ومن الشعب الأخرى لليقين، الاستفادة من «**سُنَّةِ الْأَوَّلِينَ**»، وقد قيل: إن الماضي نور المستقبل.

ومن مميزات الدنيا وخصائصها تكرُّر القضايا والأحداث فيها، فإذا كان الإنسان دقيق النظر، باحثاً ومتتبعاً، استطاع التنبُّه إلى طبيعة ومزايا الطرق التي سلكها الماضون، والتعرُّف على ما حقَّقوه من إنجازات إيجابية، وماتعرَّضوا له من أحداث سلبية ونقاط فشل، فيسعى إلى برمجة حياته والاستفادة من تلكم التقلبات الماضية.

فالباحث الذي يبحث في الشؤون التاريخية، يستطيع التعرف على فلسفة التاريخ، فيعرف -مثلاً- أسباب هزيمة الألمانيين خلال الحرب العالمية الثانية، على الرغم مما كانوا يتمتعون به من القوة، فيضع هذه المعرفة على طاولة التحليل والكشف، ويرى من جانب آخر تاريخ الاستعمار البريطاني والتوسُّع الظالم الذي أحرزه، إذ كان يقال عنه بأن الشمس لا تغيب عن أرض المستعمرات البريطانية، ورغم ذلك فقد تلاشى هذا الاستعمار، وكذلك كان شأن الاتحاد السوفياتي الذي آلَ أمره إلى الانقسام في جمهورياته وقومياته إلى قطع وأوصال.

أقول: إذا اجتمعت هذه الشعب الأربع لليقين، فإن اليقين يحصل للإنسان.

ثم إن الرواية الكريمة تؤكد أن كل واحدٍ من أركان اليقين الأربعة يُعدُّ جسراً أو مرحلة تمهّد للوصول إلى الركن الذي يليه، ليتم في نهاية المطاف الوصول إلى اليقين المطلوب: «**فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ عَرَفَ الْعِبْرَةَ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ**».

إن اليقين والحصول عليه، وإن كان نعمة إلهية كبرى، إلَّا أنه لا يتم دون توفير الفرد مقدماته الخاصة به، كما يحتاج أيضاً إلى ذكاء خاص.

وهناك بعض الأفراد يعتقدون بأنهم ليسوا على درجة كافية من الذكاء، في حين أن الأمر ليس كذلك، إذ إن كل فرد من الأفراد يتمتع بالقدر المناسب له من الذكاء، ولكن بعض الأشخاص يستنفذون ذكاءهم في توافه القضايا الدنيوية، بينما يدخر الآخرون ذكاءهم في السير إلى الآخرة.

وفي الواقع، إن العثور على جهة مناسبة لاستنفاذ الذكاء بحاجة هو الآخر إلى ذكاء خاص به.

ويعتقد الباحثون أن عدد الخلايا التي تموت من مخ الإنسان يوميًّا يتراوح بين عشرة آلاف إلى مائتي ألف خلية، وإن الرقم الأول مرتبط بحالة الإنسان النائم.

فهل جزاء هذه الخلايا الثمينة أن تُحرق في المجادلات اللفظية بين الرجل زوجته، لدى الاختلاف على ألوان ستائر النوافذ مثلاً؟!.

ففي اليوم الذي يأتي الإنسان إلى الدنيا يكون لمخه ثمانون مليون خلية، وهذه الخلايا تموت بالتدريج، والمدهش أن هذه الخلايا لا تجد لها ما يحل في محلها، ومن هنا أيضاً تنشأ حالة العجز والشيخوخة لدى الإنسان.

فأعصاب ابن آدم تتسلم أوامرها من المخ، وحينما يفقد هذا المخ خلاياه تصاب الأعصاب بالضعف، ويتلو ذلك ضعف وعجز العضلات والعظام، وينتهي الفرد في نهاية الأمر إلى الانكماش على نفسه؛ روحاً وجسداً.

3

دعامتا العدل والجهاد

وتشير الرواية السابقة إلى أن العدل والجهاد هما أيضاً من دعائم الإيمان، ثم تبيّن شُعب هاتين الدعامتين: «**وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى غَائِصِ الْفَهْمِ، وَغَوْرِ الْعِلْمِ، وَزَهْرَةِ الْحُكْمِ، وَرَوْضَةِ الْحِلْمِ**[1]**، فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحُكْمِ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ، وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيداً..**»[2].

وقبل الدخول في هذا البحث، لا بد من بيان مقدمتين:

المقدمة الأولى: إن المعارف الإلهية تختلف عن العلوم المادية مثل علم الفيزياء والجغرافية، مثلاً، فهذه العلوم قابلة للتعلم من خلال الدراسة، بينما المعارف الإلهية ومعرفة اللّه تعالى، تعتبر قضايا اعتقادية لا بد أن يتفاعل معها الإنسان حتى يستوعبها ويؤمن بها، فكلما همست أو صرخت في أذن المستمع بما يتعلق بنار جهنم أو الجنة أو اليقين والصبر وأمثال ذلك، ومهما قام هو بحفظ خطب (نهج البلاغة) الخاصة بالمعتقدات الدينية مثلاً، فإنه لن يتذوق الطعم الحقيقي لهذه المسائل ولن يستوعبها بشكل عميق ما لم يسبر غورها بنفسه ويتلقى معانيها بعقله وقلبه.

---

(١) وفي رواية أخرى: «وَرَسَاخَةِ الْحِلْمِ».

(٢) بحار الأنوار، ج٦٥، ص٣٤٨، نهج البلاغة، حكمة رقم: ٣١.

إن سائر العلوم تحتاج إلى تكرار دروسها والتعمّق في مطالبها والتدقيق في الآراء والأقوال المتعلقة بها.. ولكن أمر المعارف الإلهية بحاجة إلى سهر الليالي في التضرّع إلى اللَّه حتى يستطيع الإنسان الاستفادة منها، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾[1].

فارتقاء الدرجات العلى إنما يحصل بواسطة المعرفة الواعية وليس بالدراسة السطحية ورواية المعلومات، لأن عملية الرواية نفسها، أو حفظ هذه المعلومات يتحقق عن طريق جهاز التسجيل أيضاً، ولكن المعرفة والوعي الذين يخلقان التحوُّل والتغيُّر في نفس الإنسان، إنما يحصلان لمن أوتي قلباً سليماً وعقلاً ثاقباً.

والمقدمة الثانية: إن كل دعامة من تلكم الدعائم الأربع تتصل بِبُعد من الأبعاد الإنسانية.

فالصبر واليقين يختصان ويتعلقان بالصفات الحسنة للروح الإنسانية، بينما العدل يرتبط بالبعد الاجتماعي والسلوكي للإنسان، والجهاد بدوره مرتبط بصورة مباشرة بمسؤولية الإنسان تجاه مجتمعه.

منزلة العدل

للعدل معنيان: خاص، وعام.

فالمعنى الخاص؛ هو أن يقصدك شخصان متخاصمان، لتحكم بينهما، فتقضي لهما بالعدل.

أما **المعنى العام**؛ فهو أن يختار الإنسان في جميع قضايا وأبعاد حياته حدًّا وسطاً. فحينما ينفق فإنه يختار الاعتدال سلوكاً، انطلاقاً من قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾[2].

---

(١) سورة المزمل، آية: ٦.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٧.

وكذلك ينتخب العادلون في مشيهم الحد الوسط، ليكون مصداقاً لأمر اللّه القائل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾[1].

إن العدل يختلف عن المساواة من حيث المعنى. فالأب الذي يريد تحقيق العدالة بين أولاده -مثلاً- فإنه يقدّم لولده الأصغر هدية العيد بشكل يناسبه، بينما يقدم لولده الأكبر هدية على قدره، فلا يعمد إلى التسوية بينهم في العطاء والإهداء.

الأسس الأربعة للعدل

للوصول إلى العدل وتحقيقه، من اللازم الاهتمام بالأمور الأربعة التي أشارت إليها الرواية:

الأول: «**غَائِص الْفَهْمِ**». أن يكون هناك فهم ووعي خاص لحل المسائل المبهمة والمعقدة.

الثاني: «**غَوْر الْعِلْمِ**». نيل العلم الغزير الذي يشمل كل مساحة الروح الإنسانية.

الثالث: «**زَهْرَة الْحُكْمِ**». حفظ التناسب وحسن الانتخاب، فيلزم تعمُّد انتخاب الأفضل من بين الأمور. فحينما تدخل بستاناً للفواكه، وترى جميع أنواعها تحت تصرفك، فإنك تسعى لقطف أفضل الثمار وأحسنها، وهذا الأمر يعتمد على حُسن الاختيار عندك.

ففي بعض الأوقات تشاهد أحدهم يمشي في الطريق، فترى ملبسه أفضل ملبس، بحيث يتناسب وتركيبة جسمه ولون بشرته.

إن الملابس يملكها جميع الناس، وينفقون من أموالهم الكثير لشرائها، ولكن البعض من هؤلاء الناس يمتازون بالجذابية وجمال المنظر العام.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٣.

ومن المؤكد أنكم قد صادفكم أن دخلتم بيوت بعض الناس، وكانت مرتّبة بشكل ملفت للنظر، فقد تكون تلك البيوت صغيرة المساحة بسيطة البناء وقليلة الأثاث، ولكنها مرتبة طبق الذوق الرفيع والفاتن والجذاب. في حين أن بيوتاً غيرها قد تكون غير مرتبة ومزعجة المنظر، رغم ما قد تمتاز به من المساحة وفخامة البناء.

إن حسن الانتخاب يعني اختيار الجيد والابتعاد عن الرديء.

الرابع: «**رَوْضَةِ الْحِلْمِ**». إن العدل عبارة عن عملية دخول إلى روضة غنّاء من الحلم.

وقد شبّه الإمام عليه السلام في هذه الرواية الحِلم (الصبر والوقار) بروضة، فحينما يدخل الإنسان «**رَوْضَةِ الْحِلْمِ**» فإن روحه تبتهج، ومشاعره تتفتح، ويغمر قلبه الارتياح والطمأنينة.

وإذ فَصَّلنا القول في شعب العدل الأربعة، نستطيع أن نعثر على العلاقة الرابطة بينها، ونعتبر كل واحد منها نتيجة للشعبة الأخرى.

فحينما يتجنب المرء النظرة السطحية ويختار التعمق في رؤيته، فإنه سينال العلم الأصيل -الذي هو الأساس الثاني- وفي هذه الحالة سيتمكن من تفسير مختلف العلوم وفهمها حسبما يشير إلى ذلك الإمام عليه السلام.

بعد عبور المرحلتين المذكورتين، قد يصل إلى طرق عديدة توصله إلى الهدف المطلوب، فيختار الطريق المناسب والأفضل.

فحينما يريد القاضي -مثلاً- حل نزاع وخصام ما، فإن ذهنه يرشده إلى أفضل طرق الحل والفصل، ففي بعض موارد القضاء قد تقتضي المصلحة تغيير حكم القصاص إلى بذل الدية، وقد يكون الإصرار على القصاص هو الأوفق والأنسب بالمصلحة، ولذلك؛ فإن القاضي يجب أن يصل إلى مستوىً يُمكِّنه من الجمع بين المسائل ومراعاة المهم والأهم، وحينما يكون في مقام إصدار الحكم النهائي يكون

قادراً على انتخاب أقل الطرق ضرراً.

وهذه المرحلة بحد ذاتها تعني الدخول إلى روضة الحلم والتمتُّع بسعة الصدراللازمة. ففي بعض المناصب، كمنصب القضاء والتدريس وأمثال ذلك تشتد الحاجة إلى عامل الحلم والصبر وانشراح الصدر.

إن حفظ هذه المسائل ورعايتها ينتهي إلى تنفيذ العدل بنوعيه الخاص والعام في المجتمع، وقد كان نبي الإسلام الأكرم ﷺ يحافظ على العدل في جميع الأحوال، حتى إنه كان إذا قصده عدة أشخاص، لم يكن ليُقبل بوجهه أوبانتباهه على أحدهم أكثر من غيره.

ونحن أيضاً، علينا أن نرتقي إلى درجة سامية من العدل في علاقاتنا مع الآخرين، فنسلك أحسن الطرق في التعامل مع الزوج أو الأخ أو القريب أو الصديق أو غيرهم، وأن نحفظ حقوقهم بشكل كامل، وألَّا نحرم أحداً حقًّا من حقوقه.

وحتى على صعيد المأكل والنوم والغضب والشهوة، يجب أن نحافظ على الاعتدال، وأن نحذر من الوقوع في فخ الإفراط أو التفريط.

دعامة الجهاد

وحول الدعامة الرابعة من دعائم الإيمان يقول الإمام علي عليه السلام: **«وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصِّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ، وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ**[1]**. فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْمُنَافِقِينَ وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ**[2] **قَضَى مَا عَلَيْهِ، وَمَنْ شَنِئَ الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لِلَّهِ، غَضِبَ اللَّهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[3].

(١) أي بغض الفاسقين.
(٢) أي كان صادقاً في مواطن المواجهة مع أعداء الدين.
(٣) بحار الأنوار، ج٦٥، ص٣٤٨.

من يمتنع عن الجهاد، ولا يهتم بمقارعة الكفر والفسوق، فإن إيمانه يعتبر إيماناً ناقصاً دون شك، إذ الإنسان المؤمن ينبغي أن يكون غيوراً على دينه.

وتشير الرواية إلى أن الجهاد بدوره على أربع شعب، وهي:

الأولى: «الْأَمْر بِالْمَعْرُوفِ».

الثانية: «النَّهْي عَنِ الْمُنْكَرِ».

الثالثة: «الصِّدْق فِي الْمَوَاطِنِ».

الرابعة: «شَنَآن الْفَاسِقِينَ».

ويؤكد الإمام عليه السلام لدى تفسيره للأمر بالمعروف على أن من يمارس هذه الفريضة الدينية والاجتماعية إنما يدافع عن إخوانه المؤمنين ويحمي ظهورهم.

إن المجتمع، تماماً ككل واحد من الأفراد، هو ذو روح واحدة، وهذه الروح هي خلاصة أرواح الأفراد. وإن من الممكن أن يكون نصف أفراد المجتمع أفراداً مؤمنين، والنصف الآخر من الفساق، وفي هذه الصورة يكون المعدل النهائي لروح المجتمع تلفيقاً وخليطاً من هذين النوعين، وإن من الطبيعي أن يسير المجتمع في جادة الخير كلما ارتفع عدد المؤمنين والمتقين فيه.

وفي مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تصدق هذه القاعدة أيضاً، حيث ينبغي أن تُعمَّم وتُكرَّس في المجتمع روح الأمر بالصلاح والنهي والتحذير عن المنكر، وأن تحلَّ هذه الروح محل روح الغفلة واللامبالاة في المجتمع.

نقل أحدهم: كنت في مسجد بإحدى الدول الإسلامية، وعندما حان وقت الصلاة بادرت وأذّنت، وحينما شرعت في فقراته، وجدتني قد نسيت البسملة قبل الأذان، وإن لم تكن ركناً من أركانه.. ولما انتهيت منه، جاءني أحد الحاضرين في المسجد وقال لي: لقد نسيت البسملة.

فأجبته: أطلب المعذرة، فقد كان ذلك سهواً مني.

وبعد هنيئة قصدني شخص آخر وقال: إن البسملة شيءٌ جيد، فلماذا لم تشرع بها قبل الأذان؟.

فوجدت نفسي مضطراً إلى إعادة الاعتذار.. ثم إنني أجبت عدداً آخر من المصلين الذين استجوبوني على ما فرطت من البسملة بغير عمد مني.

وكان هذا الأمر مثيراً بالنسبة لي، حيث تنبَّهت إلى أن جميع الأفراد في ذلك المسجد يشعرون بالمسؤولية ويحبون أداء تكليفهم الشرعي، وإن كان ما أخذوه عليَّ أمراً مستحباً، وتأكدت بأن رد فعلهم سيكون أشد من ذلك إذا ما اصطدموا بفعل حرام أو ترك واجب ما، وهذا ما يعكس تكرُّس روح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين أوساطهم.

إن من الطبيعي أن يكون الانتقاد الصادر عن الشخص الثاني عامل دعمٍ وتقوية لكلام الشخص الأول.. وهكذا هو شأن انتقاد الشخص الثالث، حيث يؤيد ما صدر من كلام وانتقاد للأشخاص الذين سبقوه، وفي هذه الحالة، يجد الشخص المخطئ نفسه مضطراً وملزماً بترك ما ارتكبه من المنكر أو ما تركه من المعروف.

ويجب على أية حال؛ أن يعلن المجتمع رد فعله المناسب تجاه الفسق والفجور، فإذا صادف أن كانت بقعة من الصبغ على جبهتك، فإنك حينما تواجه شخصاً من الأشخاص ستجده يُنبِّهك إلى العيب في ذلك، بل ولعله يبادر إلى إزالتها بيده عن جبهتك باعتبارها شيئاً زائداً ومخلًّا بمظهرك العام.

ينبغي أن ينظر إلى المنكر المتفشي في الوسط الاجتماعي كذلك، وعلى أنه شيءٌ غير طبيعي، وأنه أمر غير مطلوب، بحيث يشير إليه الأشخاص بأصابع الاتهام.

ولعل السبب في تسمية هذا العمل غير المناسب منكراً، لأنه غير مقبول، وليس متعارفاً عليه، وينكره الجميع؛ على الضد من العمل الصالح والمطلوب الذي يُسمَّى معروفاً؛ أي العمل المتطابق مع العرف الاجتماعي والموافق مع القواعد العامة المقبولة. وقد أشارت الرواية السابقة إلى هذه الحقيقة بالقول: «**وَمَنْ نَهَى**

عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْمُنَافِقِينَ»[١].

ولكن المنافق والكافر إذا رأى نفسه حرًّا في البيت أو المدرسة أو المصنع أو السوق أو الشارع أو النادي أو المتنزه، ورأى أن مصالحه الشخصية مصانةً، كان ذلك دافعاً له لأن يتجرَّأ ويُصبح أشد وقاحة وممارسة للمنكر.

فهو لا يرى ما يُجبره على الكف عن أعماله المنكرة؛ فيما لو تأكد له بأن ماء وجهه مصان وغير مُعرَّض للخطر، بل لعله يحاول طرد المؤمنين والحالة الإيمانية والأعمال الصالحة من الساحة الاجتماعية عموماً.

الصدق والمصداقية

يمتلئ بعض الناس ادِّعاءً، ولكنهم عاجزون عن إنجاز الأعمال، فقد يدَّعون إتقان السباحة مثلاً، إلَّا أنك ترى تخبُّطهم وعجزهم عن حفظ توازنهم في الماء، أو تراهم يرفعون عقيرتهم في زمن الصلح، ولكنهم في الحروب نعامة!!.

والعجب هو أن بعض الأفراد -رغم انقضاء أعمارهم في أداء الفرائض، كالصلاة والصيام والحج وغير ذلك- ولكنهم في لحظات الامتحان الحرجة، تخور عزائمهم فيفترون.

إن مهمة الصلاة وسائر الفرائض العبادية، تكريس ومضاعفة معدل التقوى لدى الفرد، ليستطيع بمعونتها الثبات والاستقامة في اللحظات الحرجة، فهو إذا فشل في الامتحان -الابتلاء- ضاعت عليه جميع المقدمات والتمارين التي مارسها هباءً منثوراً.

اجتناب الفساق

ولا شك في وجوب ابتعاد الإنسان المؤمن عن فساق المجتمع واجتنابهم، إلَّا أن يكون الغرض من الاقتراب منهم هو إصلاحهم. إذ إن المؤمن إذا كان لا يبالي

---

(١) وفي رواية أخرى: أُنُوفَ الْكَافِرِينَ.

من إحاطة الفاسقين به واختلاطه معهم، ولا يعي ما يشكل ارتباطه بهم من خطر على دينه وشخصيته، بل وعرضه أيضاً، فليس من المستبعد أن يصطبغ بصبغتهم.

نعم؛ قد يكون الفرد الفاسق -إلى جانب فسقه- يمتاز بميزة معينة، قد يحتاجها الفرد المؤمن.. وفي هذه الحالة لا تكون هذه الميزة لوحدها مبرراً لارتباط المؤمن بالفاسق، بل يجب عليه أن يبدي امتعاضه وغضبه منه، لأن في الأحوال جميعاً، يتوجب فتح حساب خاص للتبرؤ من أعداء اللّه من جهة، وإعلان الموالاة لأوليائه وأحبائه من جهة أخرى.

علماً أن الإنسان إذا غضب للّه من أحدهم، غضب اللّه له ونصره، عاجلاً أم آجلاً، وهو إذا ضاعت عليه مصالحه في هذا الإطار أبدله اللّه خيراً منها.

رُوِيَ عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام أنه قال: «**الْمُؤْمِنُ يُنْصِتُ لِيَسْلَمَ، وَيَنْطِقُ لِيَغْنَمَ، لَا يُحَدِّثُ أَمَانَتَهُ الْأَصْدِقَاءَ، وَلَا يَكْتُمُ شَهَادَتَهُ مِنَ الْبُعَدَاءِ، وَلَا يَعْمَلُ شَيْئاً مِنَ الْخَيْرِ رِيَاءً، وَلَا يَتْرُكُهُ حَيَاءً، إِنْ زُكِّيَ خَافَ مَا يَقُولُونَ، وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ، لَا يَغُرُّهُ قَوْلُ مَنْ جَهِلَهُ، وَيَخَافُ إِحْصَاءَ مَا عَمِلَهُ**»[1].

من هنا ينبغي على المؤمن أن يكون نبهًا واعيًا دقيقاً في مقام استماعه، ليدرك المسائل بصورة صحيحة، وإن من الطبيعي أنه إذا تمتع بهذه القوة والقابلية، كان قادراً على التمييز بين الصالح والطالح.

فاللّه تبارك وتعالى قد زود الإنسان بنعمة الأذن، لتساعده في الاستماع إلى أقوال الآخرين وآرائهم، ومن ثم الخروج بنتائج مناسبة وإدراك صحيح لهذه الأقوال والآراء.

وبعد ذلك فالمؤمن لا ينطق ولا يتكلم إلّا إذا كان في كلامه نفع وفائدة للآخرين، وهو أمين على أسرار الآخرين لا يُذيعها بأية حال من الأحوال، ولكنه

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٥.

في الوقت نفسه لا يكتم الشهادة إذا كانت المسؤولية الشرعية تتطلبها منه.

والمؤمن لا يرائي في أعماله، حتى أعمال الخير لا يبادر إليها بدافع التظاهر والرياء، بل عندما يريد المؤمن القيام بعمل صالح فإنه يتوجس خيفة من أن يشاهده الناس ويثنون عليه، وهو يخشى من الغرور بسبب أداء الصالحات بقدر ما يخشى من ترك الأعمال الصالحة، وإذا ما أثنى عليه الناس ومدحوه في مجال ما فإنه سرعان ما يتذكر سيئاته ونقاط ضعفه حتى لا يسقط في فخ العُجب الذي ينصبه الشيطان للمؤمن. وقد جاء في الحديث عن رسول اللّه ﷺ «أَنَّهُ نَهَى عَنِ الْمَدْحِ، وَقَالَ ﷺ: **احْثُوا فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ**»[1].

(١) بحار الأنوار، ج٧٠، ص٢٩٤.

4

المؤمن.. والخصال الثمانية

روي عن عبد الملك بن غالب عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «**يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ثَمَانُ خِصَالٍ: وَقُوراً عِنْدَ الْهَزَاهِزِ، صَبُوراً عِنْدَ الْبَلَاءِ، شَكُوراً عِنْدَ الرَّخَاءِ، قَانِعاً بِمَا رَزَقَهُ اللَّـه، لَا يَظْلِمُ الْأَعْدَاءَ، وَلَا يَتَحَامَلُ لِلْأَصْدِقَاءِ، بَدَنُهُ مِنْهُ فِي تعَبٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. إِنَّ الْعِلْمَ خَلِيلُ الْمُؤْمِنِ، وَالْحِلْمَ وَزِيرُهُ، وَالْعَقْلَ أَمِيرُ جُنُودِهِ، وَالرِّفْقَ أَخُوهُ، وَالْبِرَّ وَالِدُهُ**»[1].

إذا ما أمعنّا النظر في هذه الخصال سنعرف أن جميعها ترجع إلى الإيمان باللّه سبحانه وتعالى والتوكل عليه، وإلى البصيرة النافذة، والرؤية المستقبلية، وقوة الشخصية.

المؤمن وقور

الخصلة الأولى: «وَقُوراً عِنْدَ الْهَزَاهِزِ»

فحينما تتأزم الأوضاع وتنتشر الفوضى في المجتمع، يجب أن يحفظ المرء نفسه، وأن لا يسمح لها بالإخلال بالهدوء والاستقرار العام.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٣.

المؤمن صبور

الخصلة الثانية: «صَبُوراً عِنْدَ الْبَلَاءِ»

فالصلابة والاستقامة لها جذورها المتينة في إيمان الإنسان.

روي أنه: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْصِنِي بِوَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ الْبِرِّ أَنْجُو بِهِ.

قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: **«أَيُّهَا السَّائِلُ اسْتَمِعْ ثُمَّ اسْتَفْهِمْ ثُمَّ اسْتَيْقِنْ ثُمَّ اسْتَعْمِلْ وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ ثَلَاثَةٌ زَاهِدٌ وَصَابِرٌ وَرَاغِبٌ فَأَمَّا الزَّاهِدُ فَقَدْ خَرَجَتِ الْأَحْزَانُ وَالْأَفْرَاحُ مِنْ قَلْبِهِ فَلَا يَفْرَحُ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا يَأْسَى عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَاتَهُ فَهُوَ مُسْتَرِيحٌ وَأَمَّا الصَّابِرُ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّاهَا بِقَلْبِهِ فَإِذَا نَالَ مِنْهَا أَلْجَمَ نَفْسَهُ عَنْهَا لِسُوءِ عَاقِبَتِهَا وَشَنَآنِهَا لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَى قَلْبِهِ عَجِبْتَ مِنْ عِفَّتِهِ وَتَوَاضُعِهِ وَحَزْمِهِ وَأَمَّا الرَّاغِبُ فَلَا يُبَالِي مِنْ أَيْنَ جَاءَتْهُ الدُّنْيَا مِنْ حِلِّهَا أَوْ مِنْ حَرَامِهَا وَلَا يُبَالِي مَا دَنَّسَ فِيهَا عِرْضَهُ وَأَهْلَكَ نَفْسَهُ وَأَذْهَبَ مُرُوءَتَهُ فَهُمْ فِي غَمْرَةٍ يَضْطَرِبُونَ»**[١].

فمن غلب عليه النوم وتأخر في الاستيقاظ ولم يستطع الحضور إلى الموعد الذي اتخذه مع صديقه، أو أنه تأخر في الحضور إلى مكتب عمله، فإنه لا ينبغي له جبران ذلك بالانفعال والإسراع في قيادة السيارة بشكل غيرمسموح به، لأن ذلك قد ينتهي به إلى الاصطدام.

فقد يعرض الهروب من مشكلة معينة، ابن آدم إلى مشكلات أسوأ، وحينما يحل البلاء، لا يجد الفرد أمامه سوى الرضى والتسليم.

وبهذا الصدد رويَ «كَانَ قَوْمٌ أَتَوْا أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام فَوَافَقُوا صَبِيًّا لَهُ مَرِيضاً فَرَأَوْا مِنْهُ اهْتِمَاماً وَغَمّاً وَجَعَلَ لَايَقِرُّ. قَالَ فَقَالُوا: وَاللَّهِ لَئِنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ إِنَّا لَنَتَخَوَّفُ أَنْ نَرَى مِنْهُ مَا نَكْرَهُ.

---

(١) الكافي، ج٢، ص٤٥٦.

قَالَ (الراوي) فَمَا لَبِثُوا أَنْ سَمِعُوا الصِّيَاحَ عَلَيْهِ (أي مات الطفل)، فَإِذَا هُوَ قَدْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ مُنْبَسِطَ الْوَجْهِ فِي غَيْرِ الْحَالِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، فَقَالُوا لَهُ: جَعَلَنَا اللَّهُ فِدَاكَ لَقَدْ كُنَّا نَخَافُ مِمَّا نَرَى مِنْكَ أَنْ لَوْ وَقَعَ أَنْ نَرَى مِنْكَ مَا يَغُمُّنَا.

فَقَالَ عليه السلام لَهُمْ: **إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ نُعَافَى فِيمَنْ نُحِبُّ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ سَلَّمْنَا فِيمَا يُحِبُّ**»[1].

فهم يهتمون ويدعون قبل نزول البلاء والمصيبة، فإذا حلّ القضاء ونزل أمر اللّه سلموا له وصبروا، لأن ذلك محلٌ للصبر.

المؤمن شكور

الخصلة الثالثة والرابعة: «شَكُوراً عِنْدَ الرَّخَاءِ، قَانِعاً بِمَا رَزَقَهُ اللَّـه»

لعل واحدةً من المشاكل التي قد يتسبب بها وفور النعمة، هي النسيان.

فتصوروا أن مالاً كثيراً قد صار من نصيبكم، فإنكم سوف تنشغلون إلى حد كبير بطرق استغلال هذا المال وفي أي مجال تستثمرونه، فهل ستعمرون بيوتكم، أو تزوجون أولادكم، أو تشدون الرحال للسفر؟..

إن وفرة المال وتعاظم الأرباح سبب مباشر من أسباب الانشغال والغفلة، بينما الإنسان يجب أن يربي نفسه بحيث يضاعف فيه شكر المنعم المطلق حينما ينعم عليه.

إن كثيراً من الناس يصبرون عند حلول المصائب والبلايا، ولكنهم لا يشكرون اللّه سبحانه وتعالى عند توالي النعم عليهم وتوافر الخير لديهم.

ينبغي أن يتصف الفرد بالوعي والبصيرة، وبالقناعة باحتمال تبخر ثروته بين لحظة وأخرى، وكذلك هو الشأن بالنسبة للإنسان العالم المكلف بعدم الاغترار،

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٣٠١.

وأن يضع نصب عينيه إمكانية زوال معلوماته من ذاكرته بفعل العوارض الصحيّة أو غير ذلك. أو ليست ذاكرة جهاز الحاسوب معرضة للخلل والاضطراب جراء الانقطاع المتكرر للتيار الكهربائي، أو بفعل عمل الفيروسات الموجهة؟! فهل الإنسان في منجىً عن هذه المخاطر بفعل حدوث السكتة الدماغية، فتمحى معلوماته، بل تضمحلّ قدرته على التفسير والتحليل؟.

وأنا شخصياً أعرف أحد الأشخاص قد فقد قدرته على القراءة والكتابة بعد أن تعرض للسكتة الدماغية.

وبناءً على ذلك؛ يجب أن نكون عباداً شاكرين، كما علينا أن نتأكد بأن الشكر يضاعف النعم، بينما يكون كفرانها سبباً في زوالها، وقد قال اللّه سبحانه وتعالى في كتابه المجيد: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾[١].

على الإنسان الالتفات وإبداء الشكر الكثير لدى نزول النعم عليه. ولكن قد يصيب الالتفات والإحساس خلل ما في بعض الأحيان، فيكون حاصل هذا الخلل وعدم الاهتمام لإبداء الشكر سبباً لانقطاع النعم أو نزول البلاء الشديد.

للأسف هناك من الآباء والأمهات مَن لا يرون مِن الإناء إلا النصف الفارغ، فهم دائماً يشكون من فشل أولادهم في الدراسة والامتحانات، أو إصابتهم ببعض الحالات المرضية، أو عدم تحلّيهم ببعض الآداب الاجتماعية.. في حين كان ينبغي لهم -إلى جانب ذلك- أن يشكروا اللّه من ناحية أخرى على المميزات الإيجابية التي يتمتع بها أولادهم، فلا يعكفون على مجرد الشكوى والتظلّم!

فالعافية نعمة إلهية كبرى، والشكر عليها أكبر منها، ومن كان معافىً من الناحية الجسمية، ولكنه لم يكن بصدد الشكر عليها، فهو مصاب بعافيته وسلامته الروحية أصلاً.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٧.

واعلموا أن نبي الإسلام الأكرم ﷺ كان يكرر عبارة الشكر للّـه سبحانه وتعالى في كل يوم ثلاثمائة وستين مرة، ولعل الحكمة في ذلك؛ هي أن بدن الإنسان يحوي ثلاثمائة وستين عرقاً، وإذا أصيب واحد من هذه العروق بخلل معين، تعرض البدن برمته للمرض.

وحينما يتعافى الإنسان من المرض، فذلك يعني أن ثلاثمائة وستين عرقاً تعمل بصورة صحيحة، وتؤدي وظيفتها على الوجه المطلوب، ولذلك كان حرياً بتوجيه الشكر للّـه سبحانه وتعالى بعددها.

المؤمن لا يظلم.. ولا يتحامل

الخصلة الخامسة والسادسة: «لَا يَظْلِمُ الْأَعْدَاءَ، وَلَا يَتَحَامَلُ لِلْأَصْدِقَاءِ»

فالمؤمن مسؤول عن أن يتجنب الظلم حتى تجاه أعدائه، إذ المسموح به من الناحية الشرعية، رد الاعتداء باعتداء مثله إن شاء، وليس أكثر.

وهذا المؤمن مطالب أيضاً بتخليص نفسه وإنقاذها من ضغط الحب والبغض الشخصي. يقول اللّه سبحانه وتعالى في كتابه: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**(١).

فليس من الصحيح أن ندع الحب والبغض تجاه الأصدقاء والأعداء أن يدفعنا للانحراف عن المسيرة الصحيحة في التعامل مع الآخرين.

وإن واحداً من المفاهيم التي تحملها الأحاديث والروايات الشريفة إلينا هو أن المؤمن لا يجوز أن يسمح لنفسه بممارسة موبقة الغيبة لصاحبه لمجرد صداقته الحميمة معه، وارتباطه وإياه بعلاقة عميقة طيبة.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٨.

وعلى هذا الترتيب؛ يجب أن يراعي الفرد أصول العدالة والإنصاف تجاه أقربائه من الدرجة الأولى، بل عليه أن يحفظ الحق حتى في مقام الدفاع عنهم، فلا يدافع عن أهله وذويه لمجرد كونهم أهله وذويه، ومن دون أخذ الحق بنظر الاعتبار.

المؤمن يَتّعَب ويُريح

الخصلة السابعة والثامنة: «بَدَنُهُ مِنْهُ فِي تَعَبٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ»

حينما تكون مالكاً لسيارة، فهل من المنطقي أن تقوم بتنظيفها وغسلها ثم تضعها في موقفها الخاص في البيت دون الاستفادة منها؟!.

إن من الطبيعي أن تستغل السيارة لقضاء حوائجك في أقل وقت ممكن، ولتوفير التعب على نفسك.

وكذلك أبداننا، تنطبق عليها نفس القاعدة، فحينما ننام في الليل نكون كأننا قد أوقفنا سياراتنا في مواقفها الخاصة.

إن المؤمن يُتعب بدنه جراء الضغوط التي يتعرض لها، وفي مقابل ذلك يكون الناس منه في راحة وأمان، بل إنه يسعى كل جهده في أن لا يطلب من الآخرين شيئاً أو حتى مساعدة.

روي عن أبي عبد اللّه الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «جَاءَتْ فَخِذٌ مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وآله فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه لَنَا إِلَيْكَ حَاجَةٌ. فَقَالَ صلى الله عليه وآله : **هَاتُوا حَاجَتَكُمْ**. قَالُوا: إِنَّهَا حَاجَةٌ عَظِيمَةٌ. فَقَالَ صلى الله عليه وآله: **هَاتُوهَا مَا هِيَ؟**. قَالُوا: تَضْمَنُ لَنَا عَلَى رَبِّكَ الْجَنَّةَ.

قَالَ: فَنَكَسَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله رَأْسَهُ ثُمَّ نَكَتَ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ صلى الله عليه وآله : **أَفْعَلُ ذَلِكَ بِكُمْ، عَلَى أَنْ لَا تَسْأَلُوا أَحَداً شَيْئاً**.

قَالَ: فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَكُونُ فِي السَّفَرِ فَيَسْقُطُ سَوْطُهُ فَيَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ لِإِنْسَانٍ:

نَاوِلْنِيهِ. فِرَاراً مِنَ الْمَسْأَلَةِ، فَيَنْزِلُ فَيَأْخُذُهُ وَيَكُونُ عَلَى الْمَائِدَةِ فَيَكُونُ بَعْضُ الْجُلَسَاءِ أَقْرَبَ إِلَى الْمَاءِ مِنْهُ فَلَا يَقُولُ: نَاوِلْنِي. حَتَّى يَقُومُ فَيَشْرَبُ»[١].

وبعد ذكر الخصائل والخصائص الإيمانية الثمانية للإنسان، جاء في الرواية الكريمة: «**إِنَّ الْعِلْمَ خَلِيلُ الْمُؤْمِنِ**».

وفي عصرنا الحاضر يمكن الإشارة -إضافة إلى الكتاب- إلى دور أشرطة التسجيل والأقراص الممغنطة في نشر العلم والثقافة. عليكم السعي ما استطعتم إلى الاستفادة ممن تظنون فيه علماً وحكمة ورشاداً.

ثم يضيف الإمام عليه السلام: «**وَالْحِلْمَ وَزِيرُهُ**». فالمؤمن بما يحمل من حلم، يدافع عن نفسه؛ أما الذي يغضب سريعاً ويصطدم في كل يوم مع الآخرين، فذاك ناقص الإيمان. بعد ذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**وَالْعَقْلَ أَمِيرُ جُنُودِهِ**».

ولكن؛ ما الفائدة من أن يمتنع البعض عن الاستفادة من عقولهم ولو بنسبة قليلة؟.

يجب أن يحكّم الإنسان عقلَه في جميع مناحي الحياة، وهذا التوجُه بحاجة إلى إيلاء الاهتمام اللازم، والدقّة في استخدام العقل. إن الاستفادة الدقيقة والطيبة والكافية من العقل تشبه عملية فتح بعض الأقفال بمفتاح صغير، حيث لا يصح إدارة المفتاح بعنف وإصرار لا داعي لهما، لأنه لا شك سينتهي إلى كسر المفتاح أو تحطيم القفل.

---

(١) الكافي، ج٤، ص٢١.

5

نماذج المؤمنين

إن المؤمن يجب أن يكون صندوقاً لأسرار الآخرين، فيتجنب كشف هذه الأسرار وفضح أصحابها، اللهم إلا أن يستدعي لأداء الشهادة، فعند ذاك لا يصح له كتمان الحقائق. كما لا ينبغي له أن يكون مرائياً، فلا يقوم بعمل صالح بدافع التظاهر أمام الآخرين.

إن الفرد المؤمن حينما يريد إنجاز عمل خيرٍ ما، يدفعه القلق إلى الحذر من أن يُرى فيكون محطاً للمديح والثناء، لأنه يحذر الاغترار جراء ما قام به من خير، بنفس المستوى الذي يخاف من ترك العمل الصالح بداعي الحياء، أو بسبب الكسل، وحينما يمتدحه الناس، تراه يعكف على تذكر نقاط ضعفه ونقائصه التي قد لا يعرفها غيره، لئلا يقع في فخ الشيطان الرجيم، أو تسوقه رياح الغرور والعُجب. وقد جاء في الحديث الشريف عن النبي الأكرم ﷺ: «**احْثُوا فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ**»[1].

العلماء يرفضون المديح

أتذكّر أنني تشرفت في ليلة القدر بزيارة مدينة مشهد المقدسة في إحدى السنين، وكنت ضيفاً على أحد الأصدقاء، وكان آية الله الشيخ حسن علي مرواريد قدس سره

(١) بحار الأنوار، ج٧٠، ص٢٩٤.

حاضراً في مجلس أقامه مضيفي، وبعد تناولنا لطعام الإفطار، ارتقى أحد الخطباء المنبر، وكان من الخطباء البارعين ومن وكلاء العلماء في مدينة مشهد، وفي خضم كلامه، وبعد أن تطرق إلى سيرة المرحوم العلامة الأميني ﵀ صاحب موسوعة (الغدير) الشهيرة، عرج على مدح الشيخ المرواريد ﵀، اذ قال: إن فضيلة الشيخ مرواريد الذي نتشرف بالحضور بين يديه، له صفات أخلاقية أصيلة، وهو زاهد عن الدنيا وزخارفها، ومن جملة علامات زهده أنه لا يملك بيتاً لنفسه..

وفي تلك الأثناء، قام الشيخ مرواريد متكئاً على عصاه، قاطعاً خطبة الخطيب، قائلاً له: إن الكلمات التي أوردتها بخصوص العلامة الأميني صحيحة، ولكن ما وصفتني به لا أساس له من الصحة، فلا تكرر ذلك رجاءً.. ثم من أين لك أن تعلم بأنني لا أملك بيتاً؟!.

فاضطر الخطيب أن يتوقف عن مدحه، دون أن يضيف إلى كلامه شيئاً.

إن هذا الموقف علامة على عظمة روح الإنسان المؤمن الذي لا يتوقع أو لا يقبل المديح من أحد.

وسمعت ذات مرة أن سماحة آية الله المجتهدي قال مازحاً: لقد أحيل الملك الخاص بكتابة أعمالي الصالحة على التقاعد منذ مدة، وهو يتسلم مرتبّه دون أن يقوم بأي عمل(!) أما ملك جانبي الأيسر، والمختص بكتابة سيئاتي، فهو كثير العمل ونشيط الحركة، حتى ليبدو أنه بحاجة إلى من يساعده!!.

ترى هل نعلم حق العلم بما تحويه ملفات أعمالنا؟!.

إن المؤمنين الأذكياء والدقيقين لهم مفكراتهم الخاصة التي يكتبون فيها أعمالهم، حتى تكون لهم بمثابة النموذج المصغر لكتابهم الذي سيفتح لهم في يوم القيامة.

وإذا كانت الأمهات الساذجات في سالف الأيام يمتنعن عن عد أولادهن، لاعتقادهن بأنهن إذا قمن بهذا العمل قَلّ عددهم!.

لكننا من جانبنا لا يصح أن نجرّ هذا المثال على ذنوبنا، بل إن إحصاء الذنوب هو الذي يمكن أن يوجد فينا الدافع للعمل على تقليلها.

وإنه لمن دواعي السرور أننا نأنس بروايات أهل البيت عليهم السلام، ونأمل أن يخلق هذا الأنس تغييراً إيجابياً وجدياً في أنفسنا وأرواحنا.

ولكن من المؤسف أننا ورغم ارتباطنا المباشر والوثيق بنصوص الروايات النورانية، غير ملتزمين بها كما ينبغي؛ بل إننا إذا أمعنا النظر في أنفسنا، وجدنا نوعاً من القسوة الناتجة عن طبيعة النظر الروتينية التي نلقيها على نصوص الروايات، ولذلك وجب أن نستعيذ بالله عز أسمه من هذه الحالة المزرية.

العقل دليل العبادة

إن المرحوم المحدث الحر العاملي رحمه الله عرض الروايات الأخلاقية ضمن الأطر والأحكام الفقهية، في موسوعته العظيمة (وسائل الشيعة)، وهذا بحد ذاته يعتبر نوعاً من التغيير في كتب الفقه الحديثية. ومن جملة ذلك؛ الرواية الواردة عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام التي حوت وصيته المفصلة لتلميذه هشام رحمه الله، علماً أن هذه الرواية قد نقلها العلامة المجلسي رحمه الله في موسوعة (بحار الأنوار) بصورة مفصلة في باب (العقل والجهل[1]) مرة، وفي (مواعظ الإمام موسى الكاظم عليه السلام وحكمه[2]) مرة أخرى.

جاء في هذه الرواية: «**يَا هِشَامُ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَقُولُ: مَا عُبِدَ الله بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنَ الْعَقْلِ**»[3].

فالعقل -أساساً- هو دليل عبادة الرب، وهو الذي يقرِّب العبد من ربه العظيم أكثر من العبادات نفسها.

---

(١) بحار الأنوار، ج١، ص١٤٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٥، ص٣٠٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٥.

إن التعقل بنفسه نوع من العبادة. فتارة يتصدق الفرد بماله على الفقير في إطار العبادة، أو يقوم بتأسيس مؤسسة تهتم بوضع الفقراء والمحرومين. وتارة أخرى، تراه ينتخب لعبادته طريق تأسيس مؤسسة أو مجمع للنهوض بالمستوى العلمي للمستضعفين من المؤمنين الموالين لأهل البيت عليهم السلام. ولا شك أن هذا الإنجاز أكثر تأثيراً وقيمة من المساعدة المالية، من حيث الأثر الدنيوي والثواب الأخروي.

وقد يقوم بتشييد حوزة علمية تشرف على إدارة مجموعة من المؤسسات الإعلامية والتثقيفية العديدة.

وثمة التفاتة، إذا عبد الإنسان ربه بواسطة يده، كان له من الثواب على قدر اليد. وإذا مارس العبادة بعينه، كان له من الثواب على مستوى العين أيضاً.

أما إذا أدخل القلب في صميم عبادته، كانت القضية مختلفةً، وإذا استفاد من عقله وفكره، كان له من الثواب على حدّه.

وقد جاء في الحديث الشريف: «**تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ**»[1].

ومن هنا؛ يتضح أن الاستفادة من قدرة العقل وطاقة التفكير في العبادة له من الثواب أكثر مما لتحريك الأعضاء المادية للجسم.

ومن الطبيعي أن القيام بالعبادة البدنية بحاجة إلى الاستفادة من القدرة العقلية، وفي نفس الوقت؛ فإن وقف العقل على العبادة بحاجة إلى شأن كبير ومنزلة رفيعة وخاصة.

كيف يتكامل العقل؟

وهنا سؤال مهم يطرح نفسه، وهو: كيف يستطيع المرء عبادة ربه عن طريق العقل؟ ثم ألا يحتاج العقل إلى التكامل؟ فما هو طريق تكامل العقل؟.

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٢٧.

يجيب الإمام الكاظم عليه السلام عن ذلك بما يحتم على الإنسان المؤمن أن يكون بصدد إحراز خصال وصفات عديدة ليتمكّن من الوصول إلى مرحلة الكمال بعقله، وذلك في قوله في الرواية السابقة: «**وَمَا تَمَّ عَقْلُ امْرِئٍ حَتَّى تَكُونَ فِيهِ خِصَالٌ شَتَّى الْكُفْرُ وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونَانِ وَالرُّشْدُ وَالْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولَانِ وَفَضْلُ مَالِهِ مَبْذُولٌ وَفَضْلُ قَوْلِهِ مَكْفُوفٌ نَصِيبُهُ مِنَ الدُّنْيَا الْقُوتُ لَا يَشْبَعُ مِنَ الْعِلْمِ دَهْرَهُ الذُّلُّ أَحَبُّ إِلَيْهِ مَعَ الله مِنَ الْعِزِّ مَعَ غَيْرِهِ وَالتَّوَاضُعُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرَفِ يَسْتَكْثِرُ قَلِيلَ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِهِ وَيَسْتَقِلُّ كَثِيرَ الْمَعْرُوفِ مِنْ نَفْسِهِ وَيَرَى النَّاسَ كُلَّهُمْ خَيْراً مِنْهُ وَأَنَّهُ شَرُّهُمْ فِي نَفْسِهِ وَهُوَ تَمَامُ الْأَمْرِ**»[1].

فإذا أراد أحد الأشخاص تقييم عقله وتحديد أيّة درجة من الكمال قد ارتقى، فيجب عليه أن ينظر إلى ما لديه من الصفات التي ذكرها الإمام الكاظم عليه السلام في حديثه الآنف الذكر، ويتأكد من وجودها فيه.

إذن، يجدر بالمؤمن أن يمنع ذهنه وتصوره عن انتحال الكفر والشر، فضلاً عن كونه غير كافرٍ أو شرير من الناحية العملية.

ومن جانب آخر؛ فإن مثل هذا الإنسان يجرّ إليه الرأي الصائب والرشد المادي والمعنوي أينما حل وذهب..

ومن الخصال الإيمانية الأخرى أن يسمح المؤمن لإخوانه بالاستفادة من أمواله، وما فضل منها تكرم به على المستحقين والسائلين.

فإذا كان في مكتبته كتاب إضافي، منحه لأخٍ له في الدين، كي تعم الفائدة، وإذا كان لديه ثوبان، تصدق بواحد منهما. ثم إنه لا يتفوه بلغو الكلام، بل لا يتكلم إلا بالمفيد من القول.

فهو يستنفذ كل طاقاته في طريق الخير وقراءة القرآن والكلمة المفيدة والقول الثابت، دون اللغو واللهو.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٥.

إن المؤمن مكلف بأن يدير عجلة حياته، وأن يجتنب التفريط، ويُجهد نفسه لتحصيل قوت يومه.

وهناك صفة أخرى في الإنسان المؤمن، هي أنه لا يشبع من العلم والمعرفة، ويكتفي بالنزر اليسير من الدنيا، ويشبع من زخارفها بسرعة خارقة.

وهو يمتنع امتناعاً كلياً عن تحصيل العزة الظاهرية التي قد تتوافر لديه عن طريق التقرب من الأغنياء، ولكنه في نفس الوقت قد يرضى بالفقر والعوز إلى جوار رضوان الله سبحانه وتعالى، وعزة نفسه.

إن الإنسان المؤمن ليس بصدد التفاخر والتظاهر والتكبر أبداً، وهو لا ينسى الخير -وإن كان قليلاً- الذي يقدمه له الآخرون، في حين أنه ينسى ما قدم من أعمال عظيمة لغيره.

يقال: إن رجلاً أهدى صديقاً له دجاجةً، ثم جاء في اليوم الثاني يسأله عن صحة الدجاجة، وهل باضت؟!.

ثم جاءه في اليوم الثالث ليقول له: كم بيضة باضت؟، وهل أصبح لها فراخ من ذلك البيض؟!... وهكذا كان يمطره بوابل من الأسئلة عن الدجاجة كل يوم، وكأنه قد وضعها أمانةً لديه، بل إنه ذهب أبعد من ذلك، حيث جعل يوم إهدائه الدجاجة تأريخاً خاصاً به.. فكان يقول مثلاً: سافرت بعد عشرة أيام من إهدائي الدجاجة لك..!.

ولكن المؤمن حقاً يضع ما قام به من أعمال صالحة في ملف النسيان، أو أنه يستصغرها على الأقل، وفي مقابل ذلك يستكثر أعمال الآخرين الذين يعتبرهم أفضل درجة منه.

وإذا نال الإنسان هذه الصفات والحالات، سار عقله باتجاه الكمال، ولكنه سيبقى يراوح في أول الطريق، إذا لم يستطع أن يخرق حجب الأنانية والذاتية.

6

من خصائص المؤمن

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «الْمُؤْمِنُ لَهُ قُوَّةٌ فِي دِينٍ وَحَزْمٌ فِي لِينٍ وَإِيمَانٌ فِي يَقِينٍ وَحِرْصٌ فِي فِقْهٍ وَنَشَاطٌ فِي هُدًى وَبِرٌّ فِي اسْتِقَامَةٍ وَعِلْمٌ فِي حِلْمٍ وَكَيْسٌ فِي رِفْقٍ وَسَخَاءٌ فِي حَقٍّ وَقَصْدٌ فِي غِنًى وَتَحَمُّلٌ فِي فَاقَةٍ وَعَفْوٌ فِي قُدْرَةٍ وَطَاعَةٌ لِلَّـهِ فِي نَصِيحَةٍ وَانْتِهَاءٌ فِي شَهْوَةٍ وَوَرَعٌ فِي رَغْبَةٍ وَحِرْصٌ فِي جِهَادٍ وَصَلَاةٌ فِي شُغُلٍ وَصَبْرٌ فِي شِدَّةٍ وَفِي الْهَزَاهِزِ وَقُورٌ وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ وَلَا يَغْتَابُ وَلَا يَتَكَبَّرُ وَلَا يَقْطَعُ الرَّحِمَ...»[١].

ويمكن تفسير المقطع الأول من هذا الحديث بصورتين:

الأولى: أن المؤمن يتمتع بدين وعقيدة راسخة متينة.

الثانية: أن كل ما لديه من قوة، يصرفها، أو ينبغي له أن يصرفها في إطار الدين، فلا يتنازل عن أصوله ومعتقداته أبداً.

والخصلة الأخرى للمؤمن من وجهة نظر الإمام جعفر الصادق عليه السلام أن لإيمانه جذوراً ضاربةً في اليقين.

أما الخصوصية الأخرى للفرد المؤمن؛ فهي (الحرص في الفقه) وهذه العبارة

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٥.

يمكن تفسيرها بشكلين أيضاً:

الأول: أن المؤمن يرغب في المال والدنيا، ولكن ذلك ضمن الأطر القانونية والفقهية.

والثاني: هي أنه حريص في طلب وتحصيل العلم والمعرفة.

وهناك خصلة أخرى يتصف بها الإنسان المؤمن، وهي أنه نشيط في سيره في طريق الهداية، وأنه مستقيم ومتواصل في فعل الخير.

فمن وجهة نظرنا الدينية، أن العمل القليل المستمر الذي ينجزه المؤمن خير من العمل الكثير المملول عنه. وقد روي أن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «**قَلِيلٌ تَدُومُ عَلَيْهِ أَرْجَى مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ**»[1].

أما الميزة الأخرى؛ فهي «**عِلْمٌ فِي حِلْمٍ**» بمعنى أن علمه ينتهي إلى اتصافه بالحلم. فهو إذا بلغ من العلم والمعرفة درجة عليا، لم يعكف على توجيه اللوم للجهال، بقدر ما يهتم ويصرّ على تعليمهم.

وهناك صفة إيمانية أخرى، هي أن ذكاءه مقرون بالوقار، حيث لا ينهمك في محاولات جاهلة، لغرض التغلب على الآخرين، لمجرد كونه ذكياً، بل إنه يضع الإنصاف نصب عينيه دائماً وأبداً.

إنصاف العلامة الأميني والمقدس الأردبيلي

طُلب من العلامة الأميني رحمه الله أثناء إحدى سفراته إلى إيران أن يصعد المنبر، ليعظ الناس ويخطب فيهم، فأبى أن يستجيب لذلك، مبرراً بأنه لا يرتقي المنبر في إيران بشكل دائم، على العكس من بقية الوعاظ والخطباء الذين يمارسون عملهم بصورة مستمرة، ويتمتعون بمكانة خاصة وسمعة طيبة في المجتمع، وهو لا يريد أن يضيّع عليهم تلك المكانة في ليلة واحدة!.

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٢٧٨.

وقيل أيضاً: إن الشيخ البهائي رحمه الله ذهب إلى النجف الأشرف حينما كان شاباً قوياً، وكان من جملة ما صادفه أنه حضر مجلساً كان حافلاً بالعلماء، ومنهم المقدس الأردبيلي رحمه الله وأثناء المجلس جرى حوار علمي بين هذين العملاقين، انتهى بقصور المقدس الأردبيلي عن البحث والكلام وتفوق الشيخ البهائي الذي كان يوم ذاك يلقب بشيخ الإسلام.

ففرح رفاق وأنصار الشيخ البهائي لتفوقه على المقدس الأردبيلي.

وفي صباح الغد، وإذ كان الشيخ البهائي في طريقه لزيارة مرقد الإمام علي عليه السلام التقى المقدس الأردبيلي الذي كان يخرج من الحرم العلوي لتوّه. فقال الأردبيلي: إن ما استدللت به من أدلة في الليلة الماضية كان غير صحيح، ثم قرأ عليه رواية أخرى تنقض رأيه تماماً.

فوافقه المرحوم الشيخ البهائي وسأله: هل اطلعت على هذه الرواية بعد بحثنا بالأمس؟.

فأجاب المقدس الأردبيلي: كلا، بل كنت أتذكرها جيداً، ولكنني لم أرغب بنقض رأيك استناداً على الرواية، لأنني رأيتك قد قدمت من إيران، فأشفقت إن أنا تفوقت عليك على كهولة سني، أن تتغير نظرة المسلمين في إيران تجاهك، وهذا ليس من مصلحة الدين قطعاً، ولكنك إذا انتصرت عليّ فرح لك الإيرانيون وظنوا بأن شيخ الإسلام -العالم الشاب الذي بين ظهرانيهم، وهو الذي سيأخذ الزعامة الدينية كلها فيما بعد- قد تفوق على شيخ النجف المخضرم!.

أما آية الله المجتهدي -وهو من أصدقائنا الكرام- فقد نقل هذه القصة التربوية إذ قال: بعد وفاة آية الله السيد أبي الحسن الأصفهاني رحمه الله، اشتدت حدة البحث في مسألة جواز البقاء على تقليد المجتهد الميت، وعدم جوازه.

فأما مقلدو السيد الأصفهاني؛ فقد رجعوا في تقليدهم إلى آية الله السيد البروجردي الذي كان حياً آنذاك وهو ممن لا يجيز البقاء على تقليد المجتهد الميت،

الأمر الذي سبب ظهور نوع من الاختلاف بين الناس عموماً والعلماء بوجه خاص.

وفي تلك الأيام قَدِمَ المرحوم اليثربي من مدينة كاشان إلى مدينة قم المقدسة، ليشارك في مجلس الفاتحة على روح السيد الأصفهاني، الذي أقيم في المدرسة الفيضية الشهيرة، وكان قد حضره جمع من العلماء الأفاضل.

وفي ذلك المجلس دار بين الناس بحث جواز البقاء على تقليد الميت أم لا، فوصل الخبر إلى مسامع السيد البروجردي.

وعلى حين فجأة استدعى السيد البروجردي الشيخ إشراقي الذي كان خطيب المجلس، وطلب منه أن يعلن على الحاضرين بأن فتواه قد تغيرت في هذه اللحظة، وأنه يفتي بجواز البقاء على تقليد المجتهد الميت في المسائل التي عمل بها المكلف إبان حياة المجتهد.

.. إن هذا التغيير المفاجيء في الفتوى يتطلب جرأة وعظمة نفس خاصتين، لا يمتاز بهما إلا العظماء كآية الله السيد البروجردي رضي الله عنه.

وحسب تعبير المرحوم آية الله الشيخ الحائري -مؤسس الحوزة العلمية في مدينة قم المقدسة- فإن الرجل ليس من كانت كلمته واحدة في كل الأزمان، بل إن الرجل من كان يمتاز بالشجاعة الخاصة التي تمكنه من تغيير موقفه -إذا ما ثبت لديه خطؤه فعلاً- ثم إعلانه بأنه لم يفكر بشكل صحيح فيما سلف..بالإضافة إلى الأخذ بعين الاعتبار المصلحة العامة للإسلام والمسلمين.

المعتقدات أولاً..

إن أهم المسائل والقضايا الثقافية التي كان أهل البيت عليهم السلام يبادرون إلى تعليمها لشيعتهم، هي المسائل والمواضيع العقائدية، قياساً بكمية ما كانوا يبينونه من المسائل الفرعية الفقهية، كالصلاة والصيام.

فالناس عرفوا الله وحده لا شريك له من خلال ما جاءهم من تعاليم النبي

الأكرم ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام، وبواسطة هذه التعاليم طردوا الشبهات والوساوس الشيطانية من أذهانهم وضمائرهم.

إن منظومة الأخلاق الحسنة في مذهب أهل بيت رسول الله ﷺ يقوم علىأساس معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الشيطان، وقدرة التمييز بين العقل والهوى.

ولابد من الإشارة إلى أنه ما من نظام أخلاقي في العالم له من القوة والرصانة ما لمذهب أهل البيت عليهم السلام وللثقافة الإسلامية الأصيلة التي قامت أولاً وقبل كل شيء على أساس معرفة الخالق والخلق بصورة حقيقية.

فإذا كان الإنسان يعيش تحت مظلّة الشريعة ويدعي التمتع بالأخلاق الحسنة، ثم إنه لم يتمسك بحبل الله سبحانه وتعالى المتمثل في مفاهيم القرآن الكريم الحقيقية، ومنهج أهل بيت رسول الله ﷺ، فإن أخلاقه ستفقد قيمتها في واقع الأمر.

إن مفكراً كـ(الغزالي) الذي ألف كتاب (إحياء العلوم) في مدة عشر سنوات قضاها في السياحة في الصحارى، حيث اختار الاعتزال عن المجتمع، ولكن لعدم ارتباطه بخط أهل البيت عليهم السلام جاء كتابه مليئاً بالتناقضات، بل وبالآراء التافهة أحياناً.. فبعض سلوكيات هذا الشخص ومواقفه لم تقم على أرضية صلبة. فهو قد دخل بلاط السلاطين الذين تظاهروا بالإسلام، ولم يكن واقعهم سوى الكفر والفسوق وعصيان الرب، فاختار الارتزاق على موائد هؤلاء السلاطين، ووجه سهامه إلى صدور أتباع أهل البيت عليهم السلام، وبعد أن هاجم الصليبيون البلاد الإسلامية، ودمّروا ما كان يُدعى بالخلافة الإسلامية، اختار الغزالي الهروب تحت مظلة الزهد والاعتزال، واتجه صوب الجبال والبراري أو الإقامة قرب الشواطيء النائية.

فيا ترى كيف يمكن لهذا الشخص أن يكون معلّماً للأخلاق الحميدة في المجتمع؟.

وكان ابن عربي من هذا القبيل، إذ كانت له مشاكله وأزماته الخاصة به.

وهناك شخصيات أخرى كأفلاطون وأرسطو على هذه الشاكلة.

وفي عصرنا الحديث، هناك أشخاص مثل هيجل ونيتشه وديكارت، لهم الحالة نفسها، فهؤلاء جميعاً لم يتمتعوا بالثبات الفكري، وكانوا يحنون رؤوسهم أمام العواصف الفكرية، بل كانت آراؤهم ونظرياتهم -بشكل عام- تصب في مصلحة السلطات الطاغية.

أما الفلاسفة الألمان في عهد هتلر؛ فقد هبوا للدفاع عن آرائه وسياساته وسلوكياته اللاإنسانية.. وقد أعلن هؤلاء الفلاسفة -في محاولة التمهيد والتبرير لجرائم هتلر- بأن الحرب ضرورة من ضرورات الحركة التاريخية والاجتماعية للعالم!!.

وكان أحد كبار المؤرخين وأحد كبار معلمي الأخلاق الغربيين يدعى آرنولد توينبي قد انخرط في سلك وزارة المستعمرات (الخارجية) البريطانية، وقد ساهم في المجازر الرهيبة التي كانت بريطانيا ترتكبها بحق الشعوب المستعمرة من قبلها.

إن صيحات حقوق الإنسان تخرج اليوم من حناجر لا يرى أصحابها أية أهمية لصرخات واستغاثات المضطهدين في العالم.

وهذا الأمر ناجم بالدرجة الأولى عن ابتعاد وانفصال الأخلاق الغربية عن الوحي والينابيع الدينية.

إن القرآن الكريم يشبّه البناء الفكري للأشخاص الذين يتخذون من دون الله أولياء لهم ببيت العنكبوت، فيقول: **﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾**[1].

بينما الأئمة المعصومون عليهم السلام كان همهم الأكبر إعادة الناس إلى فطرتهم السليمة والمنسية في بعض الأحيان، كما كانوا يسعون إلى إيقاظ العقول من سباتها، وتذكير الناس بالمواثيق القديمة التي طواها النسيان. فهم كانوا يهتمون بتقوية أسس بناء الفطرة، ثم ينتقلون إلى سائر الجهات الأخلاقية الأخرى.

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤١.

العلم والتحمل

لنعد إلى فصول الرواية التي تلوناها حول خصائص المؤمن، عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث يقول: «**عِلْمٌ فِي حِلْمٍ**».

فلبلوغ درجات رفيعة في مقام العلم، يجدر بالإنسان أن يكون ذا حِلْم، وأن يوفر في نفسه قدرة تحمل العلم والاستفادة منه في موقعه المناسب.

وفي هذا الخصوص روي عن عمر بن حنظلة أنه قال للإمام محمد الباقر عليه السلام: «إِنِّي أَظُنُّ أَنَّ لِي عِنْدَكَ مَنْزِلَةً؟.

قَالَ عليه السلام: **أَجَلْ**. قَالَ قُلْتُ: فَإِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ عليه السلام: **وَمَا هِيَ**؟.

قُلْتُ: تُعَلِّمُنِي الِاسْمَ الْأَعْظَمَ. قَالَ عليه السلام: **وَتُطِيقُهُ**؟. قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ عليه السلام: **فَادْخُلِ الْبَيْتَ**. قَالَ فَدَخَلَ الْبَيْتَ فَوَضَعَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ فَأَظْلَمَ الْبَيْتُ فَأَرْعَدَتْ فَرَائِصُ عُمَرَ. فَقَالَ عليه السلام: مَا تَقُولُ أُعَلِّمُكَ؟. فَقَالَ: لَا. قَالَ فَرَفَعَ يَدَهُ فَرَجَعَ الْبَيْتُ كَمَا كَانَ»(١).

فليس بمقدور كل إنسان أن يتحمل كل علم، بل تحتاج بعض العلوم إلى حِلم وقدرة فائقة على الاستيعات والتحمّل.

أما نحن الناس العاديين؛ فلا طاقة لدينا على تحمُّل الحقائق والأسرار، فقد لا نتمكن من حفظ سر بسيط في أنفسنا، فترانا نبوح به لزوجاتنا -مثلاً- وهن اللائي يبحن به لبناتهن، وهكذا حتى يطفح السر البسيط على سطح المنطقة أو المدينة برمتها وبسرعة خاطفة.

في الغنى والفقر..

يتطرق الحديث الشريف بعد ذلك إلى مسألة السخاء، ويؤكد اشتراط أن يكون السخاء في حق؛ أي أن يكون العطاء من أموال الإنسان الشخصية دون غيرها.

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٧، ص٢٧.

رُوِيَ: «أَنَّ عَقِيلاً سَأَلَ عَلِيًّا عليه السلام، فَقَالَ: إِنِّي مُحتاجٌ وإِنِّي فَقِيرٌ فَأَعْطِنِي. قَالَ عليه السلام: **اصْبِرْ حَتَّى يَخْرُجَ عَطَاؤُكَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَأُعْطِيكَ مَعَهُمْ.**

فَأَلَحَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ لِرَجُلٍ: **خُذْ بِيَدِهِ وَانْطَلِقْ بِهِ إِلَى حَوَانِيتِ أَهْلِ السُّوقِ، فَقُلْ لَهُ: دُقَّ هَذِهِ الْأَقْفَالَ وَخُذْ مَا فِي هَذِهِ الْحَوَانِيتِ**، قَالَ: تُرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَنِي سَارِقًا؟!. قَالَ عليه السلام: **وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَنِي سَارِقًا، أَنْ آخُذَ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ فَأُعْطِيكَهَا دُونَهُمْ..**»[١].

ثم تضيف الرواية في بيان خصائص المؤمن: «**وَقَصْدٌ فِي غِنًى وَتَحَمُّلٌ فِي فَاقَةٍ**».

نعم، يجب أن يصرف كل مالٍ في مكانه المناسب، وأن يقتصد في المعيشة حتى ولو كان المتصرف فيه مالكاً له، لأن الملكية لا تُعدّ مبرراً للإسراف والسفه... تماماً كما أن الفقر والفاقة لا تجيزان الاستجداء من الآخرين، أو الاستيلاء على أموالهم دون حق، بل ينبغي للفقير أن يتحمّل الفاقة والعوز ويتعفّف حتى يفتح الله عليه باب الرزق الحلال، ولا يذل نفسه بالسؤال، فمن الممكن أن يكون المرء فقيراً، ويكون في الوقت نفسه عزيز النفس، نظيف البدن والثياب، فمن كان عاجزاً عن شراء الملبس الجديد، فهو يستطيع على الأقل غسل ثيابه.

ثم تقول الرواية: «**وَعَفْوٌ فِي قُدْرَةٍ**». فالمؤمن لا يخضع للعقد النفسية والضغائن وروح الانتقام، بل يعفو عمن ظلمه عند القدرة عليه، وبذلك يمتاز على غير المؤمنين.

أما البعد الإيماني الآخر؛ فهو الذي أكدته الرواية الكريمة القائلة: «**وَطَاعَةٌ لِلَّهِ فِي نَصِيحَةٍ**».

ومن الممكن أن تفهم هذه الجملة بمعنيين:

الأول: أن المؤمن يجب أن يجمع بين طاعة الله، وبين توجيه النصيحة للآخرين. ولكن البعض يعتزل الناس بحجة تفرغه لعبادة الله عز وجل.

---

(١) الصواعق المحرقة، ص١٣٢.

وهناك بعض آخر حينما يخطو خطوات عبادية بسيطة، يرغب في نيل الشهرة، ليؤكد للآخرين بأنه إنسان فاضل ومنزّه.. وهؤلاء عادة ما ينطبق عليهم القول بأنهم ملكيون أكثر من الملك، وقد تجرّأ بعضهم حتى على نقد الأئمة المعصومين عليهم السلام وتقديم النصح لهم، وهم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً..

يُروى أن الحسن البَصرِيّ قال للإمام علي عليه السلام في حوار دار بينهما بعد وقعة الجمل «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! لَقَدْ قَتَلْتَ بِالْأَمْسِ أُنَاساً يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ..»[١]. وكان بذلك يستنكر على الإمام علي عليه السلام موقفه من أهل الجمل.

كما أن عبد الله بن عمر قال للإمام الحسين عليه السلام: «أَيْنَ تُرِيدُ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، قَالَ عليه السلام: الْعِرَاقَ. قَالَ: مَهْلًا ارْجِعْ إِلَى حَرَمِ جَدِّكَ...»[٢]. وما معناه لو أنك عكفت على أداء الصلاة في المسجد الحرام أو المسجد النبوي، لعرفت أن ثوابك في ذلك أكثر من ثواب ذهابك إلى الكوفة وإعلان الثورة!.

إن البعض منا –وللأسف– يتصف بهذه الروحية التي تحبب له أن يكون أمة لوحده بمجرد قيامه ببعض العبادة.

والمعنى الثاني للجملة السالفة الذكر هو: أن المؤمن يطيع ربه طاعةً واعية، ولا يغفل عن توجيه النصح للآخرين باتجاه تلك الطاعة.

ترك الشهوة عند اشتداد الرغبة

ومن الخصائص الأخرى للمؤمن هو أن له: «**انْتِهَاءٌ فِي شَهْوَةٍ**» فهو يهجر رغبته وشهوته عند اشتدادها واستفحالها.

نعم؛ هناك من بلغوا من العمر مبلغ من يعجزون عن ممارسة الشهوة أو تلبية الرغبة

---

(١) الاحتجاج للطبرسي، ج١، ص١٧١.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣١٣.

-أية شهوة أو رغبة كانت- ولكنهم يرون لأنفسهم نوعاً من القدسية أو هكذا يتظاهرون بذلك، في حين أنهم قد يكونون قد قضوا وطرهم -ما شاء لهم- في أيام شبابهم!

فإن استطعت أن تمتنع عن التناول من ألوان الطعام التي بين يديك فإن لذلك أهميته، وإن هجرت الفراش الوثير، ولما تشبع من النوم بعد، فتقوم للعبادة والتهجد في وقت السحر، فذلك هو الشيء المطلوب.

إن المهم أن يتحكَّم الإنسان برغباته ومشتهياته، لا أن يترك زمام رغباته دون ضبط ودون رادع فيرتكب ما تشتهيه نفسه ويفعل ما توحي به أهواؤه.

والخصلة التالية للإنسان المؤمن هي الورع في الموارد المرغوبة: «**وَوَرَعٌ فِي رَغْبَةٍ**». فرغم وجود رغبة عارمة في نفسه تجاه بعض المحرمات، إلا أنه يتقي الله ويتورع عن الحرام ويكبت رغبته اللامشروعة. والفرق بين هذه الميزة وبين سابقتها: «**وَانْتِهَاءٌ فِي شَهْوَةٍ**» أن الحديث في الميزة السابقة هو ضبط النفس حتى بإزاء المشتهيات والرغبات المحلّلة، فالمؤمن لا يسرف حتى في الرغبات الحلال.

وهناك خاصية أخرى للمؤمنين، وهي حرصهم في أمر الجهاد في سبيل الله تعالى: «**وَحِرْصٌ فِي جِهَادٍ**».

وفي هذه الرواية، تمت الاستفادة من لفظة (الحرص) وقد مرّ في بداية الرواية استخدام هذه الكلمة بالنسبة للفقه أيضاً، حيث قال الإمام عليه السلام: «**وَحِرْصٌ فِي فِقْهٍ**». ولعل المقصود هنا هو: أن المؤمن إذا أراد أن يستفيد من حرصه في موقع من المواقع، فإن من اللازم له أن يستفيد منه من طريق الجهاد.. الجهاد الذي هو غير مرغوب فيه من قبل الكثير من الناس، لأنه يتطلب التضحية والعطاء والفداء.

الاهتمام بالصلاة

ثم يقول الإمام الصادق عليه السلام بعد ذلك: «**وَصَلَاةٌ فِي شُغُلٍ**» وهذه العبارة يمكن تفسيرها بشكلين:

الأول: أن الفرد المؤمن يخصص لصلاته وقتاً وهو في أوج انشغاله في أموره الدنيوية.

الثاني: أنه حينما يصلي لا ينشغل قلبه بغير الصلاة.

يقول سبحانه وتعالى: **﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾**[1].

أما الخصلة الأخرى للفرد المؤمن، فهي أنه صبور عند الشدائد، وقور عند الهزاهز التي تضطرب لها أحوال الناس: **«وَصَبْرٌ فِي شِدَّةٍ وَفِي الْهَزَاهِزِ وَقُورٌ وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ»**.

ولابد أن تكون قد صادفتكم حادثة اصطدام سيارة، فترون هناك من الأشخاص من يتعرض إلى اضطراب شديد، بينما في مثل هذه الحالة ينبغي للإنسان أن يكون صبوراً، ووقوراً، وأن يسيطر على أعصابه، ليحول دون وقوع خسارة وضرر أكبر، إذ أن الاضطراب يتسبب في الغالب في مضاعفة المشاكل والخسائر.

صبر صاحب (مفتاح الكرامة)!

كان العلامة السيد محمد جواد العاملي ﭭ صاحب كتاب (مفتاح الكرامة) من تلامذة السيد بحر العلوم ﭭ يعيش في مدينة كربلاء المقدسة، وقد ألف كتابه العظيم هذا في باب الفقه، شرحاً مُفصلاً على كتاب (قواعد الأحكام) للعلامة الحلي ﭭ. وكان من سيرة أهالي مدينة كربلاء أنهم كانوا يتوجهون إلى مدينة النجف الأشرف، لزيارة مرقد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في يوم الغدير، وفي إحدى الرحلات الجماعية، استغل الوهابيون الضالون هذه الفرصة وهاجموا مدينة كربلاء، واقتحموا الضريح المطهر للإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام وأضرموا النار في الضريح مما أحرق نواحي عديدة من صندوق القبر الشريف، ولا يزال أثر النار

(١) سورة النور، آية: ٣٧.

موجوداً عليه. وحينما عاد الناس إلى المدينة هرب الوهابيون بعد فعلتهم الشنيعة.

ويبدو أن المرحوم السيد محمد جواد العاملي قدس سره كان أثناء الهجوم في كربلاء منشغلاً بتأليف كتاب (مفتاح الكرامة) الذي كان جمعه وتأليفه يمثل عملية شاقة جداً. وكان الوهابيون على علم بوجوده في كربلاء، حيث قرروا تصفيته والقضاء عليه، وحينما أحس السيد قدس سره بالخطر المحدق به من جهة، وعدم وجود الأهالي الذين ذهبوا إلى مدينة النجف من جهة أخرى، فقد أخفى نفسه في غرفة مليئة بالحطب والتبن، وقد قضى في هذه الغرفة ثلاث ليالٍ على هذه الحالة.

وقد ذكر السيد المرحوم قدس سره هذه القصة في أحد فصول كتابه (مفتاح الكرامة) حينما كان منشغلاً بتأليفه[1].

إن الإنسان المؤمن مطالب بأن يكون صبوراً وذا استقامة عند النوائب.

وثمة خصلة أخرى للمؤمن، وهي: «**وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ**».

وكذلك ينبغي للمؤمن أن يتوجه إلى ربه سبحانه وتعالى بالشكر في مواقع الرخاء. فلعل من نقائص الإنسان أنه ينسى ربه وآياته لدى وفور النعمة، فهو يلجأ إلى صلاة الاستسقاء عند انقطاع المطر وحدوث الجفاف مثلاً، في حين أنه لا يحمد الله حين هطول المطر!!.

والمؤمن يتحلى بأرفع درجات الأخلاق الحسنة وبالذات فيما يتعلق بالآخرين وبحقوقهم: «**وَلَا يَغْتَابُ وَلَا يَتَكَبَّرُ وَلَا يَقْطَعُ الرَّحِمَ**».

فهو بعيد عن هتك حرمات الآخرين فلا يذكرهم بسوء، ولا يغتاب أحداً، كما لا يتكبر على الآخرين لأنه لا يرى في نفسه ميزة تسمح له بالتعالي على غيره، فهو عبد لله، يتذكر دائماً سيئاته ونقاط ضعفه فتخشع نفسه ويتواضع، وهو بالتالي يقيم أنبل العلاقات مع أقاربه وأرحامه لأن قطع الرحم يتنافى مع الإيمان بالله والتمسك بشريعته.

---

(١) أنظر: مفتاح الكرامة، ج٩، ص٢١٠. نشر دار إحياء التراث العربي.

صفوة الكلام

وخلاصة القول في خصائص المؤمن، أنه يمتاز بالصلابة والثبات حتى في أيام كهولته التي لا تفرض عليه الخضوع للباطل، فهو لا يسلك مع الآخرين سلوكاً عنيفاً، ولا يسمح لهم في الوقت نفسه بإجباره على أمرٍ من الأمور.

إن المؤمن ذو سلطة قاطعة على بطنه وفرجه، ولا يمد عينيه إلى أموال الناس، أو ينظر إليهم حسداً، وهو لا يلوم الناس، ويسمح لهم بملامته وانتقاده، كما يبتعد عن الإسراف.. كذلك عن البخل.

إنه يبذل كل ما بوسعه في إطار البحث عن المظلومين والمضطهدين وتقديم المساعدة لهم، كما أنه دائم الإصرار على أن يكون الناس منه في راحة.

وليس أكبر همه الوصول إلى عز الدنيا، ولا يهتم لمصاعب الحياة، فهو وإن رأى تكالب الناس على الدنيا، فذلك لا يشغله عن الآخرة أبداً.

إن تفكّر المؤمن بأمر الآخرة والهم الذي يحمله جراء الخوف منها، يشغله عن الدار العاجلة وما فيها.

ثم إنه لا يبدر منه تقصير إذا ما طلبت منه المشورة، فإذا احتاج الآخرون إلى نصحه، لم يتوانَ عن نصحهم ومساعدتهم أبداً.

7

كمال الإيمان

روي أنه: «مَرَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِمَجْلِسٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَإِذَا هُوَ بِقَوْمٍ بِيضٍ ثِيَابُهُمْ صَافِيَةٍ أَلْوَانُهُمْ كَثِيرٍ ضِحْكُهُمْ يُشِيرُونَ بِأَصَابِعِهِمْ إِلَى مَنْ يَمُرُّ بِهِمْ ثُمَّ مَرَّ بِمَجْلِسٍ لِلْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فَإِذَا قَوْمٌ بُلِيَتْ مِنْهُمُ الْأَبْدَانُ وَدَقَّتْ مِنْهُمُ الرِّقَابُ وَاصْفَرَّتْ مِنْهُمُ الْأَلْوَانُ وَقَدْ تَوَاضَعُوا بِالْكَلَامِ فَتَعَجَّبَ عَلِيٌّ عليه السلام مِنْ ذَلِكَ وَدَخَلَ عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، فَقَالَ عليه السلام: **بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي إِنِّي مَرَرْتُ بِمَجْلِسٍ لِآلِ فُلَانٍ** -ثُمَّ وَصَفَهُمْ- **وَمَرَرْتُ بِمَجْلِسٍ لِلْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ** -فَوَصَفَهُمْ ثُمَّ قَالَ عليه السلام:- **وَجَمِيعٌ مُؤْمِنُونَ فَأَخْبِرْنِي يَا رَسُولَ الله بِصِفَةِ الْمُؤْمِنِ**؟!.

فَنَكَسَ رَسُولُ الله، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **عِشْرُونَ خَصْلَةً فِي الْمُؤْمِنِ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ لَمْ يَكْمُلْ إِيمَانُهُ: إِنَّ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ يَا عَلِيُّ؛ الْحَاضِرُونَ الصَّلَاةَ وَالْمُسَارِعُونَ إِلَى الزَّكَاةِ، (وَالْحَاجُّونَ إِلَى بَيْتِ الله الْحَرَامِ، وَالصَّائِمُونَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ،)**[1]**، وَالْمُطْعِمُونَ لِلْمِسْكِينِ، الْمَاسِحُونَ لِرَأْسِ الْيَتِيمِ، الْمُطَهِّرُونَ أَطْمَارَهُمْ، الْمُتَّزِرُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمُ، الَّذِينَ إِنْ حَدَّثُوا لَمْ يَكْذِبُوا، وَإِنْ وَعَدُوا لَمْ يُخْلِفُوا، وَإِنِ اؤْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا، وَإِنْ تَكَلَّمُوا صَدَقُوا، رُهْبَانُ اللَّيْلِ، أُسْدٌ بِالنَّهَارِ، صَائِمُونَ النَّهَارَ،**

---

(١) هذه الزيادة ذكرها الشيخ الصدوق رحمه الله في كتابه الأمالي، في: المجلس الحادي والثمانون. ويبدو هو الصحيح، إذ بهما تكتمل الخصال العشرون.

قَائِمُونَ اللَّيْلَ، لَا يُؤْذُونَ جَاراً، وَلَا يَتَأَذَّى بِهِمْ جَارٌ، الَّذِينَ مَشْيُهُمْ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنٌ، وَخُطَاهُمْ إِلَى بُيُوتِ الْأَرَامِلِ وَعَلَى أَثَرِ الْجَنَائِزِ، جَعَلَنَا الله وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْمُتَّقِينَ»[1].

بلى؛ هناك عشرون خصلة يجب أن تكون في الإنسان المؤمن، وإذا لم تتم هذه الخصال فيه، فذاك علامة على عدم اكتمال إيمانه -كما يُصرِّح الحديث الشريف-.

وأول تلك الخصال، حضوره في الصلاة في أول الوقت: «**الْحَاضِرُونَ الصَّلَاةَ**». وأما الخصال الأخرى، فهي: التزام المؤمن بأداء الزكاة، والحج لبيت الله الحرام، وصيام شهر رمضان المبارك، وإطعام المساكين، وإبداء حنانه تجاه الأيتام. ثم إن لباس المؤمن يجب أن يكون طاهراً نظيفاً: «**الْمُطَهِّرُونَ أَطْمَارَهُمْ**». ثم تعبر الرواية تعبيراً رمزياً عن السعي الحثيث والجاد في الحياة: «**الْمُتَّزِرُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ**»؛ أي يربطون الإزار على الظهور كناية عن الاستعداد لأداء المسؤوليات.

فالمؤمنون جادون ومستعدون للسعي والعمل، وهم أيضاً دقيقون في نقلهم للأحداث، وصادقون في تقرير الوقائع، لا يذهبون إلى ما يذهب إليه عموم الناس من الاعتماد على عواطفهم وإحساساتهم التي مالها من قرار في تناقل الحوادث، ولذا نرى أن مواقف الناس تجاه حادثة من الحوادث تتعدد وتتفاوت في النقل والتقرير حتى يصل إلى التضاد في بعض الأحيان؛ «**الَّذِينَ إِنْ حَدَّثُوا لَمْ يَكْذِبُوا**».

ومن خصائص المؤمن الأخرى امتناعه عن الخلف في وعده، كما وأنه لا يخون الأمانة إذا ائتمن، وفي إطار الكلام، تراه يتخذ من الصدق منهجاً ثابتاً؛ «**وَإِنْ وَعَدُوا لَمْ يُخْلِفُوا، وَإِنِ اؤْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا، وَإِنْ تَكَلَّمُوا صَدَقُوا**».

إن المؤمن يشغله البكاء والأنين في الأسحار لدى العبادة والسجود إلى ربه المتعال، بينما تراه أسداً في النهار، حيث يدخل معترك الحياة بكل جرأة وإقدام؛ «**رُهْبَانُ اللَّيْلِ، أُسْدٌ بِالنَّهَارِ، صَائِمُونَ النَّهَارَ، قَائِمُونَ اللَّيْلَ**».

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٦.

لا يصدر منه أذىً تجاه جاره، فلا يتعرض لشكوى هذا الأخير مطلقاً.

وبعبارة أدق؛ إنه لا يتعمَّد إيذاء جاره، كما أنه يكون دقيقاً في تصرفاته بحيث لا يتأذّى جاره منه حتى من دون عمد؛ «**لَا يُؤْذُونَ جَاراً، وَلَا يَتَأَذَّى بِهِمْ جَارٌ**».

ثم يضيف رسول الله ﷺ: «**الَّذِينَ مَشْيُهُمْ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنٌ**».

حينما يسير المؤمن على الأرض لا يسير مرحاً بحيث يتأذى منه الآخرون.. وقد جاء في الكتاب المجيد: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾[1].

إن معنى المشي في المنظور القرآني ليس مجرد المشي المادي في الشوارع، وإنما هو يشمل طريقة سلوكه في الحياة عموماً.

فمثلاً؛ قد يعلم أحد المؤلفين أن استخدامه لمفردة معينة تعني إلحاق الأذى بشخص من الأشخاص، ولذلك فهو يحجم عن هذا الاستخدام، لكي لايؤذي الآخرين بقلمه. تجد ذلك بوضوح في الكتب العلمية الحوزوية، فحينما يريد الكاتب نقد آراء الآخرين من العلماء، فإنه يستعمل لفظة (قيل) في أكثر المواضع، ولا يصرح باسم العالم صاحب الرأي، لئلا يُساء إليه.

إن هذا من جملة الآداب المتداولة في أدبيات الحوزة العلمية، ونحن من جانبنا يجب أن نسلك هذا السلوك.

أما في إطار البناء وتشييد البيوت مثلاً؛ فأنت قد تحصل على الرخصة من الجهات المسؤولة لبناء عمارة شاهقة، ولكنك ضمن محاسباتك تعلم بأن ما سترفعه من بناء شاهق، سيحجب النور عن جارك وسيمنع عليه أيضاً حقه في الهواء، فأنت إن امتنعت عن حرمان جارك من حقه تكون قد التزمت بالقيم الإنسانية الرفيعة، وتكون ممن يمشون على الأرض هوناً.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٣.

ومن ميزات المؤمن أيضاً ومن مكمِّلات إيمانه أنه يسعى إلى بيوت الأرامل لمساعدتهن، لأنهن من أضعف الفئات الاجتماعية وأكثر حاجة للعون والمساعدة.

وحينما يرى المؤمن جنازةً تُشيَّع في الطريق، يسارع إلى المشاركة بمراسم التشييع، وإن لم يكن على معرفة مسبقة بالشخص المتوفّى، لأن هذا من أدب المؤمن الذي يحترم أخاه المؤمن حياً وميتاً **«وَخُطَاهُمْ إِلَى بُيُوتِ الْأَرَامِلِ وَعَلَى أَثَرِ الْجَنَائِزِ»**.

مميزات الإيمان

وجاء في حديث شريف عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: **«إِنَّ شِيعَةَ عَلِيٍّ عليه السلام كَانُوا خُمُصَ الْبُطُونِ، ذُبُلَ الشِّفَاهِ، أَهْلَ رَأْفَةٍ، وَعِلْمٍ وَحِلْمٍ، يُعْرَفُونَ بِالرَّهْبَانِيَّةِ، فَأَعِينُوا عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِالْوَرَعِ وَالِاجْتِهَادِ»**[1].

إن المؤمنين:

١ - ليسوا عظيمي البطون، لأنهم لا ينهمكون في التهام الطعام أكثر من اللازم لقوام البدن؛ **«كَانُوا خُمُصَ الْبُطُونِ»**.

٢ - وإن من صفاتهم أن شفاههم جافة غالباً من أثر الصوم أو ذكر الله سبحانه وتعالى؛ **«ذُبُلَ الشِّفَاهِ»**.

٣ - وإنهم يمتازون بالعلم والرأفة والحلم والتحمل، **«أَهْلَ رَأْفَةٍ وَعِلْمٍ وَحِلْمٍ»**.

٤ - ويعرفهم المجتمع بزهدهم في حطام الدنيا وعدم الخضوع لضغوط المادة؛ **«يُعْرَفُونَ بِالرَّهْبَانِيَّةِ»**.

ثم يخاطب الإمام عليه السلام من كانوا يستمعون إليه: **«فَأَعِينُوا عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِالْوَرَعِ وَالِاجْتِهَادِ»**، فإذا كنتم محرومين من ذلك، فاسعوا للاتصاف بهذه الخصال على الأقل، وسارعوا إلى ترك الذنوب، وسيروا باتجاه إنجاز صالح الأعمال.

ويقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن بعض مميزات المؤمن: **«الْمُؤْمِنُ حَلِيمٌ لَا**

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٨٤٧.

يَجْهَلُ، وَإِنْ جُهِلَ عَلَيْهِ يَحْلُمُ، وَلَا يَظْلِمُ وَإِنْ ظُلِمَ غَفَرَ، وَلَا يَبْخَلُ وَإِنْ بُخِلَ عَلَيْهِ صَبَرَ»[١].

فالمؤمن يتمتع بالحلم، وهو هنا بمعنى العقل، فلا يتصرف بجهل، وإذا ما واجه تصرفات خاطئة نابعة من جهل الآخرين فإنه يحلم عنهم ويتعامل معهم بتعقل.

والمؤمن لا يكون ظالماً على الإطلاق، وإذا ما ظلمه أحد أبناء مجتمعه فإنه يغفر له. وهو بالتالي كريم ليس ببخيل، ولكن إذا تعامل بعض الناس معه بالبخل فإنه يصبر على هذا التصرف ولا يرد عليهم بالمثل.

وفي حديث آخر يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**الْمُؤْمِنُ مَنْ طَابَ مَكْسَبُهُ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ، وَصَحَّتْ سَرِيرَتُهُ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ كَلَامِهِ، وَكَفَى النَّاسَ شَرَّهُ، وَأَنْصَفَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ**»[٢].

صحيح أن المؤمن يجب أن يكون بصدد طلب الرزق، ولكن ينبغي التركيز على أن يكون رزقه طيباً وحلالاً. ففي حين أن البعض يدعي عدم إمكانية أن يكون الإنسان نزيهاً نقياً في المعاملات التجارية، نجد هناك من الأشخاص المؤمنين من يحافظ على نزاهته ونقائه وهو في معمعة الأسواق التي تحتوي الكثير من الغش والحرام.

والمؤمن -كما تقول الرواية- حسن الخليقة، فيتمتع بالأخلاق الفاضلة، وصحيح السريرة فقلبه نقي وطاهر من الأضغان والأحقاد، وهو في نفس الوقت يقوم بواجباته تجاه مجتمعه فينفق الفائض من أمواله لمساعدة الفقراء والضعفاء، ولدعم المؤسسات الدينية والاجتماعية المفيدة. كما أن المؤمن لا يترك العنان للسانه، يقول ما يمليه عليه الشيطان أو نفسه الأمّارة بالسوء، بل يمسك الفضل من كلامه، ويكف شرّه عن الناس، بل ويتعامل معهم بمزيد من العدل والإنصاف.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٧.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٧.

8

خيار العباد

روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، أنه قال: «سُئِلَ النبي صلى الله عليه وآله عَنْ خِيَارِ الْعِبَادِ فَقَالَ: **الَّذِينَ إِذَا أَحْسَنُوا اسْتَبْشَرُوا، وَإِذَا أَسَاءُوا اسْتَغْفَرُوا، وَإِذَا أُعْطُوا شَكَرُوا، وَإِذَا ابْتُلُوا صَبَرُوا، وَإِذَا غَضِبُوا غَفَرُوا**»[1].

خير العباد من تمتع بدرجة عالية من الروح المعنوية التي تدفعه إلى:

١- إذا أحسن صنعاً يستبشر ويغمره الارتياح، لأن اللّه وفّقه لذلك؛ «**إِذَا أَحْسَنُوا اسْتَبْشَرُوا**».

٢- وإذا ما صدرت منه سيّئة فإنه سرعان ما يندم على ذلك ويستغفر؛ «**وَإِذَا أَسَاءُوا اسْتَغْفَرُوا**».

٣- وإذا أُعطي شيئاً فإنه يشكر، على النقيض من ذلك الإنسان الذي يتوقع المزيد من الناس كلما أنعموا عليه، وكأنه هو المتفضل عليهم. إن مثل هذه الخصلة يجب طردها عن نفوسنا، والاستعاضة عنها بحالة الرضى والقناعة؛ «**وَإِذَا أُعْطُوا شَكَرُوا**».

٤- إن المؤمن لا يفزع ولا يجزع إذا تعرض للبلاء، بل يصبر؛ «**وَإِذَا ابْتُلُوا صَبَرُوا**».

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ١٤٩. وفي رواية: «وإذا أُغضبوا...».

٥- وإذا غضب لا يخرج عن طوره، بل يتحكم في أحاسيسه، وإذا أغضبه الغير فإنه يغفر ولا يتحفَّز للرد؛ «**وَإِذَا غَضِبُوا غَفَرُوا**».

ثم يؤكد الرسول الأعظم ﷺ في رواية أخرى: «**إِنَّ خِيَارَكُمْ أُولُو النُّهَى**. قِيلَ: يَا رَسُولَ الله مَنْ أُولُو النُّهَى؟.

قَالَ ﷺ: **هُمْ أُولُو الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، وَالْأَحْلَامِ الرَّزِينَةِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَالْبَرَرَةُ بِالْأُمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ، وَالْمُتَعَاهِدُونَ لِلْجِيرَانِ وَالْيَتَامَى، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ، وَيُفْشُونَ السَّلَامَ فِي الْعَالَمِ، وَيُصَلُّونَ وَالنَّاسُ نِيَامٌ غَافِلُونَ**»[١].

و«**أُولُو النُّهَى**» يعني: أصحاب العقول الذين يحكِّمون عقولهم في الأمور. فمن هم أولوا النُهى وأصحاب العقول؟.

هم -حسب الرواية الشريفة- «**أُولُو الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ**»، الذين يتعاملون مع الآخرين من منطلق المناقب والفضائل.

ومن الصفات الطيبة الأخرى التي ينبغي توفرها لدى خيار العباد؛ الحلم الذي يمنع الإنسان من أن يبدي رد فعله السلبي تجاه تصرفات الآخرين غير اللائقة، فهو يتمتع بقوة الشخصية والتواضع والوقار.

ثم إن المؤمن ينبغي أن يكون فرداً صالحاً رحيماً تجاه أبويه بارّاً بهما، كما عليه أن يبدي اهتماماً خاصاً تجاه جاره وأيتام المسلمين بصورة عامة.

وإلى جانب الإنفاق، هناك قضية الإطعام، إذ الفرد المؤمن مكلّف بسد حاجة المحتاجين من الغذاء والطعام، وأن يسلمها لهم بشكل مباشر.

والمؤمن يعمل -بدوره- على إشاعة السلام وتعزيز الأمن في المجتمع.

وحينما يغط الناس في نومهم، يستيقظ المؤمن ويهب إلى مناجاة ربه المتعال،

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٩.

فيشتغل بالصلاة والدعاء، أما من ينام كالموتى، ويكون كسولاً أثناء النهار، فذلك ينبغي أن يعيد النظر في برنامجه اليومي، ويسعى لتطبيق وصايا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حياته.

9

من أخلاق المؤمن

وروي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «**إِنَّ الْمَعْرِفَةَ بِكَمَالِ دِينِ الْمُسْلِمِ، تَرْكُهُ الْكَلَامَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَقِلَّةُ مِرَائِهِ، وَحِلْمُهُ وَصَبْرُهُ، وَحُسْنُ خُلُقِهِ**»[1].

هناك الكثير من الناس من ليس لديهم الاطلاع الكافي فيما يتعلق بهم من مسائل الأحكام الشرعية والفردية ومفردات تاريخ وجغرافيا بلدهم وغير ذلك من الأمور ذات العلاقة بحياتهم، ولكنهم يهتمون بما لا يعنيهم من القضايا؛ فهم قد يقضون الساعات الثمينة في مشاهدة مباراة لكرة القدم بين فريقين أوروبيين، ويبدون آراءهم تجاهها، يؤيدون فريقاً ويبغضون فريقاً، في حين أن فوز أو خسارة كلا الفريقين لا تعنيهم بوجه من الوجوه، وليس لها أي تأثير على أمورهم المصيرية.

إن على المؤمن أن لا يفرّط بوقته في الجدل والمراء، أو يسقط في رذيلة الصراعات اللفظية مع إخوانه في الدين. وجاء في رواية أخرى نقلها أبو حمزة الثمالي رضي الله عنه عن الإمام زين العابدين عليه السلام، حيث قال: «**مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِ: الْإِنْفَاقُ عَلَى قَدْرِ الْإِقْتَارِ، وَالتَّوَسُّعُ عَلَى قَدْرِ التَّوَسُّعِ، وَإِنْصَافُ النَّاسِ، وَابْتِدَاؤُهُ إِيَّاهُمْ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِمْ**»[2].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٩.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٩.

فالمؤمن ينظِّم إنفاقه حسب وضعه الإقتصادي، فحينما تتحسن أوضاعه الاقتصادية، يوسِّع على عياله وينفق في سبيل الله تعالى، وحينما تضيق عليه المعيشة فإنه ينفق باقتصاد.

ولكن هناك من الناس من يكثرون من الإنفاق حينما تضيق بهم الأمور فيضغطون على أنفسهم، بينما يبخلون بأموالهم حينما تبتسم لهم الدنيا وتُقبِل عليهم، وهذه الحالة غير صحيحة أبداً.

ومن الخصال الحميدة الأخرى التي يجدر بالإنسان المؤمن الالتزام بها، والتي تشير إليها الرواية السالفة هي المبادرة إلى أداء السلام وإلقاء التحية على الآخرين.

ولقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتفقون فيما بينهم على أن يسبقوه في أداء التحية بالسلام عليه ولكن محاولاتهم كلها كانت تبوء بالفشل، لحرص خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم على الالتزام بهذه الفضيلة الاجتماعية الطيبة.

وفي إحدى المرات اتفق عدد من الأصحاب فيما بينهم على الاختفاء وراء النخل ليفاجئوه صلى الله عليه وآله وسلم بأداء التحية، ولكنه -وهو ذو الأخلاق العظيمة- سبقهم في ذلك أيضاً.

التلوث الصوتي

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «**شِيعَتُنَا مَنْ لَا يَعْدُو صَوْتُهُ سَمْعَهُ**»[١]. وقد جاء في كتاب الله الكريم: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾[٢].

فالمؤمنون حينما يتحدثون يخفضون أصواتهم إلى درجة لا تصل إلى الصياح المزعج.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٥٠.

(٢) سورة لقمان، آية: ١٩.

وللأسف؛ فإن مدننا في الحال الحاضر تعاني -إلى جانب المعاناة العديدة- من التلوث الصوتي بصورة هائلة جداً .

إن الأذن السالمة -كما يقول الخبراء- هي تلك الأذن التي تسمع رنين الإبرة حينما تسقط على الصخرة، في حين أن آذاننا قد فقدت هذه القدرة والخاصية.

والعجيب أن أحدنا إذا اختلى في بستان أو قرب جبل أو أي مكان ناءٍ وهادىء، فإن أصواتاً تشبه أصوات ازدحام السير وأمثال ذلك تبدأ في الصفير في أذنه تلقائياً، وهذا مما يدلل على تلوث آذاننا.

ويقال: إن التلوث الصوتي له من التأثير السلبي على الإنسان ما يعادل تلوث الجو أربع مرات!.

ونلاحظ أن في بعض المراسم والاحتفالات تتم الاستفادة من مكبرات الصوت ذات النوع القوي جداً، وهذا الأمر له ضرره الأكبر على أعصاب الناس، في وقت لم يكن ذلك متعارفاً عليه في العهود السابقة، وكان الناس يتمتعون بسلامة جسمية وروحية طيبة.

خصال حميدة أخرى

ثم قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «.. **وَلَا شَحْنَاؤُهُ يَدَيْهِ، وَلَا يَمْتَدِحُ بِنَا مُعْلِناً، وَلَا يُجَالِسُ لَنَا عَائِباً، وَلَا يُخَاصِمُ لَنَا قَالِياً، وَإِنْ لَقِيَ مُؤْمِناً أَكْرَمَهُ، وَإِنْ لَقِيَ جَاهِلًا هَجَرَهُ.. إِلَى أَنْ قَالَ: شِيعَتُنَا مَنْ لَا يَهِرُّ هَرِيرَ الْكَلْبِ، وَلَا يَطْمَعُ طَمَعَ الْغُرَابِ، وَلَا يَسْأَلُ عَدُوَّنَا وَإِنْ مَاتَ جُوعاً**»[١].

فمن الخصال البارزة للمؤمن، سيطرته على يده وطبيعة حركتها في مواقع الغضب، بحيث لا يمدها -ظالمة- باتجاه غيره.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٥٠.

كما أن المؤمن حينما يشاهد من يسيء الأدب في كلامه تجاه الأئمة المعصومين عليهم السلام والعياذ بالله، فإنه ويمتنع عن مجالسته، وهو إذا نازع أحد الأفراد بخصوص أية قضية من القضايا، فإنه بدوره لا يسيء الأدب.

إن منهج الإنسان المؤمن وسيرته تقتضي منه أن ينظر إلى أخيه في الدين نظرة إجلال واحترام، فيما يمتنع عن مجالسة الجاهلين ومرافقتهم.

وكذلك ليس للمؤمن طبيعة الغراب في الطمع والسرقة!!.

إن المؤمن لا يطمع بالدنيا وثرواتها، وهو لا يسأل أحداً، لاسيما حين يكون الطرف الآخر من أعداء الله أو أعداء أوليائه، حتى وإن قضى جوعاً وفقراً!.

10

أشبه الناس بالنبي ﷺ

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «قَالَ النبي ﷺ: **أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَشْبَهِكُمْ بِي؟**. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه. قَالَ ﷺ: **أَحْسَنُكُمْ خُلُقاً، وَأَلْيَنُكُمْ كَنَفاً، وَأَبَرُّكُمْ بِقَرَابَتِهِ، وَأَشَدُّكُمْ حُبّاً لِإِخْوَانِهِ فِي دِينِهِ، وَأَصْبَرُكُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَأَكْظَمُكُمْ لِلْغَيْظِ، وَأَحْسَنُكُمْ عَفْواً، وَأَشَدُّكُمْ مِنْ نَفْسِهِ إِنْصَافاً فِي الرِّضَى وَالْغَضَبِ**»[1].

فأشبه الناس برسول اللَّه ﷺ هو أحسن الناس أخلاقاً، وأكثرهم مرونة في التعامل مع الآخرين، وأبرَّهم بأقربائه، حيث يصلهم بالمعروف قبل أيٍّ أحد.

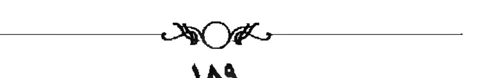
كما يحبُّ إخوته في الدين أكثر من غيرهم.

وتعلمون أن القرآن الكريم قد وصف النبي الأكرم ﷺ بأنه كان يحب المؤمنين دون حدود، حيث قال: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[2].

وكذلك أيضاً أكثر الناس صبراً على الحقّ. ففي مواقع الغضب يتخذ من الصبر نبراساً، فيعفو عن الخاطئين دون أن يجرهم إلى الذل، لأن أفضل عقوبة

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٥٠.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.



للشخص الخاطيء هو التعامل معه بطريقة تجعله يكتشف خطأه ويندم على ما بَدَر منه، ولا يلزم أكثر من ذلك.

وأخيراً، فإن أشبه الناس برسول اللّه ﷺ هو أشدهم إنصافاً في مواقع الرضا والغضب، فلا الرضى يخرجه من دائرة الإنصاف ولا الغضب يجره إلى الظلم والاعتداء.

إن روح الإنسان تصاب بنوع من الاضطراب لدى الغضب، وفي هذه الحالة يستطيع المرء تفعيل الإنصاف في تحركه، لينقذ نفسه من مأزق التفريط.

إن المؤمن مكلف بأن يربي نفسه بصورة مجردة عن الحب والبغض، عن الرضا والغضب الشخصي فيعلن الحقيقة كما هي مجردةً.

وهناك قاعدة مهمة ينبغي للمؤمن أن يلتفت إليها في مواقفه في الحياة، وأُبيِّن لكم هذه القاعدة من خلال هذه القصة:

كنت في مطار طهران ذات يوم مستعداً لركوب الطائرة، فبادرني شاب بالتحية قائلاً: أنا كويتي، وأنوي العودة إلى بلادي، فأين تذهب أنت؟!

فقلت: إلى سوريا إن شاء اللّه تعالى.

فقال: أرجو أن تنصحني في هذه اللحظات بما يعود عليّ بالفائدة.

فقلت له: قد يكون الوقت غير مناسب!.

فأصر قائلاً: انصحني ولو بكلمة واحدة.

فقلت له: حاول أن تقول للناس ما تجرؤ أن تعلنه أمام ربك!.

ومضت على هذه المحاورة سنتان تقريباً. وإذ كنت أمشي في منطقة الزينبية بدمشق، أوقفني أحد الأشخاص قائلاً: إنني ذلك الشخص الذي نصحتني بما نصحتني في مطار طهران قبل سنتين، وقد بذلت قصارى جهدي لأعمل بما

أوصيتني، ولكني لم أستطع تنفيذ ما علمتني طيلة هذه المدة، لمشقته.

وجاء في رواية أخرى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أن: «**الْمُؤْمِنُ حَسَنُ الْمَعُونَةِ، خَفِيفُ الْمَئُونَةِ، جَيِّدُ التَّدْبِيرِ لِمَعِيشَتِهِ، وَلَا يُلْسَعُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**»[١]. فالمؤمن يسعى دائماً إلى مساعدة الآخرين وتقديم العون لهم ولكن يختار أحسن الطرق وأفضلها لذلك، فهو: «**حَسَنُ الْمَعُونَةِ**».

وعلى المؤمن أن لا يتسبب في إزعاج الآخرين، وأن لا يكون كَلّاً عليهم، فحتى وإن كان المؤمن أباً، فإنه لا يحق له مزاحمة أولاده أو التجبر عليهم، كأن يأمر ولده وهو جالس على مائدة الطعام بفتح الباب مثلاً، أو المجيء بالماء وسائر الأمور الأخرى التي تمثل عامل ضغط لا مبرر له.

فمن سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، الذي كان خفيف المؤونة جداً، أنه كان إذا جلس لتناول الطعام في البيت لم يكن يبحث عن نقص الطعام أو عيوبه، ثم القيام بنقد الزوجة ومحاسبتها بما لا مبرر له.

لقد كان نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله يسعى إلى إنجاز احتياجاته الشخصية بنفسه، ولا يطلب المساعدة من أحد، فكان يرتب فراشه بنفسه قبل النوم وبعد الاستيقاظ، بالإضافة إلى إصلاح ثوبه، وغير ذلك.

وقد روي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «**مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ مَنْ أَلْقَى كَلَّهُ عَلَى النَّاسِ**»[٢].

أما الصفة الأخرى للإنسان المؤمن؛ فهي أنه لا يُلدغ من جُحرٍ مرتين.. أي أنه كثير الاتعاظ بالتجارب، لما قد وفَّر في نفسه من الكياسة والفطنة والنظر إلى الحياة نظرة جدية هادفة.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٥٠.

(٢) الكافي، ج٤، ص١٢.

11

المؤمن حقاً..

في إطار تبيين صفات المؤمن الأخرى، روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «**لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِناً حَتَّى يَكُونَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ..**» ثم أشار الإمام عليه السلام ضمن كلام مفصَّل إلى أن هذه الخصال هي: «**كِتْمَانَ سِرِّهِ، وَمُدَارَاةَ النَّاسِ، وَالصَّبْرُ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ**»[1].

كتمان السر

فالمؤمن يحافظ على أسراره ولا يذيعها للآخرين. وهناك حكمة تقول: «كل سرٍّ جاوز الاثنين شاع».

إن بعض الأدباء يعتقدون أن المقصود من كلمة (الاثنين) في هذه الحكمة هو شفتا الإنسان، وعلى هذا الأساس ينبغي أن لا يسمى سراً ما اطلع عليه شخصان.

وقد كان والدي رضي الله عنه[2] يقول: إن إحدى مكائد الشيطان هي أنه يُطلع الكفار

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٥١.

(٢) فقيه أهل البيت عليهم السلام آية الله العالم العارف السيد محمد كاظم المدرسي قدس سره، عرف في أوساط الحوزة العلمية في كربلاء ومشهد المقدستين، أستاذاً للمعارف الإسلامية، وتلميذاً مباشراً للعارف الفقيه الشيخ الأكبر الميرزا مهدي الأصفهاني قدس سره، له ملفات مخطوطة ينتقد فيها الفلسفة والتصوف أشهرها كتاب: العلم. توفي عام ١٤١٤هـ، ودفن في حرم فاطمة المعصومة عليها السلام بقم المقدسة، في غرفة آية الله العظمى الشيخ فضل الله النوري قدس سره.

والمنافقين على أسرار المؤمنين، ولذلك فقد كان ﷺ يُكثر الاستعاذة بالله تعالى من الشيطان الرجيم وذكر البسملة الشريفة حينما يريد التفوه بكلام ليطرد الشيطان ويبعده، لعنه الله.

والوجه في أن يطلب من الإنسان المؤمن أن لا يطلع الشخص الغريب على صندوق أسراره، هو أن صدرَ المؤمن منشرحٌ بالإيمان بالله سبحانه وتعالى، إذ الإنسان المؤمن كله سكينة واطمئنان ووقار ويقين، وهو بعيد عن القلق والخوف والوسوسة.

فهو يناجي ربه من جوهر وجوده، كما أنه على اتصال دائم وعميق بينبوع أنواره عز وجل.

إن قلب المؤمن هو عرش الرحمن، ولذلك فهو يحفظ الأسرار ولا يذيعها، في حين أن قلب الكافر والمنافق ضيق ولا مكان للأسرار فيه.

مداراة الناس

أما مداراة الناس والتعامل معهم بذوق واحترام، فهي خصلة أخرى من خصال الإنسان المؤمن، إذ لا يتذرع بأدنى الذرائع، لكي يختلف مع الناس أو يخاصمهم ويهجرهم.

إن مجالات قيام المؤمن بنصح الآخرين، والعمل بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي مجالات محدودة. وفي مثل هذه الحالات قد يحدث الاصطدام والمواجهة بينه وبينهم، بينما في غير ذلك ينبغي للمؤمن أن يتحمَّل الناس ويتعامل معهم ويداريهم بالرغم من كل النقائص والإشكاليات.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَمَرَنِي رَبِّي بِمُدَارَاةِ النَّاسِ، كَمَا أَمَرَنِي بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ**»[1].

---

(١) الكافي، ج٢، ص١١٧.

إن الذين يتظاهرون بالاهتمام بأمور الناس، ولكنهم يوجهون ألذع النقد إليهم دون مبرر، إنما يخلقون لهم أعداءً ويجرون حياتهم نحو المزيد من المشاكل.

وقد قيل في المثل المعروف: ألف صديق قليل، وعدو واحد كثير.

الصبر على البلاء

أما الخصلة الثالثة التي تشير إليها الرواية السالفة عن الإمام الرضا عليه السلام، فهي: «**الصَّبْرَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ**».

ولعل المقصود من «**الْبَأْسَاء**»، الأحوال الصعبة والشديدة، التي يفرضها الآخرون على المؤمن، كالحرب، واضطهاد الحاكم الجائر، والسجن، والمطاردة من قبل الظالمين، وما شاكل.

أما «**الضَّرَّاء**»؛ فهي الحوادث التي يتعرض لها عموم المجتمع على أثر الأمور الطبيعية، كالسيول والزلازل والفقر، وما أشبه.

12

هدية الرب جل جلاله

روي أن الأمين جبرئيل عليه السلام قال للنبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله: «**يَارَسُولَ الله إِنَّ الله أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ بِهَدِيَّةٍ لَمْ يُعْطِهَا أَحَداً قَبْلَكَ. قَالَ رَسُولُ الله** صلى الله عليه وآله**: مَا هِيَ؟. قَالَ: الصَّبْرُ وَأَحْسَنُ مِنْهُ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟. قَالَ: الرِّضَى...**»[1].

إن الصبر هو عبارة عن تحمل مشاق الأمور، والضغط على النفس، لئلا تصل إلى حالة الانزجار والغضب بسبب ما حلَّ به. أما الرضى؛ فهو استيعاب المصائب والمشاكل بقلب مرتاح ومبتهج، والتسليم لأمر الله بكل ارتياح.

وقد ذكرت هاتان الخصلتان في كتاب ربنا الحكيم جنباً إلى جنب، حيث قال عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾[2].

إن حالة الشكر والرضى إنما تتكرس في أكثر الأحيان لدى الإنسان إذا كان واعياً لمجموعة النعم التي يتمتع بها بفضل الله عز وجل، وناسياً ومتغافلاً عمّا يفتقده من النعم الأخرى. فمن كان حائزاً على نعمة البصر واليد والرجل والقلب

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٥١.
(٢) سورة إبراهيم، آية: ٥.



وسائر الأعضاء السليمة، فإنه يحمد الله ويشكره بشكل متواصل على هذه النعم، بحيث لو تعرض لنقص في نعمة ما، لم يفتر عن الحمد والشكر لله لتوجهه للنعم الكثيرة الأخرى المتوفرة عنده، ولا يتضاءل شكره لربه بسبب النقص في واحدة من النعم. ولذلك؛ فهو يتمتع بسلامة بال، جراء تذكره للنعم الإلهية الأخرى.

لقد جاءتني إحدى النساء ذات مرة تشكو حزنها على موت زوجها في حادث اصطدام، بالإضافة إلى حزنها على تيتم أولادها.

فقلت لها فيما قلت: اشكري الله تبارك وتعالى، فأولاد العائلة الفلانية قد فقدوا والدهم ووالدتهم مرة واحدة في حادث اصطدام أيضاً!.

فحينما نتعرض لمصيبة من المصائب؛ فلابد من الصبر على بلاء الله، وتقديم الشكر له؛ إذ لم ينزل علينا بلاءً أشد منه.

وأتذكر أن إحدى العوائل القروية نزلت إلى جانبنا، حيث كنا نسكن في مدينة كربلاء المقدسة، وكانت هذه العائلة تعاني الفقر والفاقة تماشياً مع ما كانت عليه مدينة كربلاء من وضع اقتصادي مترد للغاية، وهي كانت تزداد اضطراباً حينما يتضاعف عدد الزائرين في المناسبات مثلاً، ومن أفراد هذه الأسرة كانت فتاة في مقتبل العمر وهي ملتزمة بالحجاب، مع افتقارها لحذاء مناسب، فقالت لوالديها تشكو الأمر، فأكدا لها أنهما لا يملكان ما يشتريان لها ما تريد، ولما اعترضت عليهما، أجاباها بغضب: اذهبي حافيةً إذا أردت، فأعربت عن خجلها من صديقاتها إذا رأينها حافية، فأكدا لها أن هذا هو وضع العائلة.

تقول الفتاة: فقصدت حرم الإمام الحسين عليه السلام منكسرة القلب، واقتربت من الضريح على خلاف عادتي، دونما قراءة دعاءٍ أو استئذان بالدخول، ووقفت إلى جانب الضريح وناجيت الإمام بكلمات منفعلة وقلت له: ألسنا في جوارك؟ وأنت ترى حالنا، فنحن لا نستطيع أن نسد حاجاتنا الضرورية، فلماذا لا تسد خلّتنا؟!.

وتضيف الفتاة: وإذ ذاك، رأيت فتاة في مثل عمري وإلى جانبها شخصان

يسندانها وقد جاءا بها إلى الزيارة، حيث كانت معاقة الرجلين.

فكففت عن الشكوى في هذه اللحظة واعتذرت للإمام الحسين عليه السلام وقلت في نفسي: إذا لم أكن أملك حذاءً، فإنني أتمتع برجلين سالمتين، والحمد لله.

أي شيءٍ أفضل من الرضى؟!

ومواصلةً للرواية المشار إليها قال الأمين جبرئيل عليه السلام لنبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله: «..**الرِّضَى وَأَحْسَنُ مِنْهُ.. قَالَ: وَمَا هُوَ؟، قَالَ: الزُّهْدُ وَأَحْسَنُ مِنْهُ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟. قَالَ: الْإِخْلَاصُ وَأَحْسَنُ مِنْهُ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟، قَالَ: الْيَقِينُ وَأَحْسَنُ مِنْهُ. قُلْتُ: وَمَا هُوَ يَا جَبْرَئِيلُ؟. قَالَ: إِنَّ مَدْرَجَةَ ذَلِكَ التَّوَكُّلُ عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ**»[١].

إن الزهد يمنح الإنسان شعوراً عارماً بالراحة والرفاه، ولكن ما هو الشيء الأعلى من الزهد؟.

يقول جبرئيل عليه السلام: **الْإِخْلَاصُ**.

فهناك الكثير من الزهاد انحرفوا، بسبب المراءاة وعدم الإخلاص.

وعلى ذلك؛ فإن الزهد المقرون بالإخلاص هو الزهد القيِّم والمطلوب وأفضل الزهد -كما جاء في بعض الروايات- هو إخفاء الزهد[٢].

واليقين أحسن من الزهد، كما قال جبرئيل عليه السلام.

واليقين يعني أن يكون قلب الإنسان على مستوىً من الطهارة والنزاهة والسلامة، حتى يتحول إلى ما يشبه المرآة ليعكس عليها نور الحقائق، فمن كانت الوسوسة في وجوده -ولو بحجم الذرة- فإنه لم يصل إلى مرتبة اليقين بعد.

ولا يحصل اليقين إلا بمزيد العبادة والخضوع لله تعالى.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٥٢-١٥١.
(٢) بحار الأنوار، ج٦٧، ص٣١٦. باب ٥٨، الزهد ودرجاته.

وأما الشيء الذي يجب أن يرفد الإنسان في حركته بين الصبر واليقين، فهو التوكل على الله سبحانه وتعالى، لأن قطع هذه المسافة عملية صعبة للغاية، حتى أن الإنسان ليكون عرضة دائمة لهجمات الشيطان الرجيم، حيث يهاجمه بعواصف الوساوس ليقعده عن مسيرته في هذا الطريق الشاق، أو لكي ينحرف به على الأقل. وهنا يمكن بواسطة التوكل على الله تعالى، أن يدحر الإنسان الخمول والكسل واحتمال الانقطاع عن المسير أو الانحراف خلاله، وأن يقطع هذه الرحلة الشاقة إلى النهاية.

الصبر على كل حال

إن الفرق بين كلمات الأئمة المعصومين عليهم السلام وبين كلمات سائر العلماء والمنظرين، هي أن العلماء يبحثون في الاصطلاحات والمفاهيم، وتأخذ أحاديثهم وبحوثهم صبغة نظرية، في حين أن الأئمة المعصومين عليهم السلام يبينون لنا الحقائق، ويوضحُّون المفاهيم ذات الصلة المباشرة بالحقيقة.

إن للمفاهيم حالة ذهنية ونظرية، والإنسان حيالها يستطيع بما يملك من قوة الخيال أن يغيِّرها كيف شاء، ومثال ذلك: أنك تستطيع أن تفترض في مخيلتك سجادة من حرير أخضر أو أحمر أو أزرق، وفيها الرسوم المختلفة للحيوانات والمناظر، ولكن ذلك ليس من الحتم أن يكون له وجود خارجي، هذا هو حال المفاهيم النظرية المجردة عن الواقع، بينما كلمات أهل البيت عليهم السلام تشير إلى الواقعيات دون تخيّل ذهني.

وقد جاء في الحديث الآنف الذكر أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله سأل جبرئيل الأمين عليه السلام: **«يَا جَبْرَئِيلُ فَمَا تَفْسِيرُ الصَّبْرِ؟ قَالَ عليه السلام: تَصْبِرُ فِي الضَّرَّاءِ كَمَا تَصْبِرُ فِي السَّرَّاءِ، وَفِي الْفَاقَةِ كَمَا تَصْبِرُ فِي الْغِنَى، وَفِي الْبَلَاءِ كَمَا تَصْبِرُ فِي الْعَافِيَةِ، فَلَا يَشْكُو حَالَهُ عِنْدَ الْمَخْلُوقِ بِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْبَلَاءِ»**[١].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٥٢.

فالمؤمن في حالة الضراء والفقر يتمتع بنفس الدرجة من الاستقرار الروحي والسكينة والطمأنينة التي يتمتع بها في حالة السراء والغنى.

إن الإنسان بطبعه يتمتع باستقرار وسكينة وطمأنينة في حالة السراء والغنى، ولكنه حينما يصاب بضراء كأن يفتقر أو يتعرض للخسارة تراه يتزلزل ويضطرب ويصاب بالقلق. ولكن المؤمن ليس كذلك.

ولا بأس هنا أن أذكر لكم هذه القصة عن أحد المؤمنين، حيث يقول فيها: في القسم الغربي من الولايات المتحدة الأميركية توقع خبراء علم طبقات الأرض حدوث زلزال عنيف يهدد ولايات كاليفورنيا ولوس انجلس وسان فرانسسكو وكل الغرب الأميركي بالدمار والفناء.

يقول: في تلك الأيام، ذهبت إلى إحدى شركات التأمين، لكي أؤمن بيتي. فأكد لي موظف الشركة المذكورة أنها تؤمِّن على بيتي تجاه جميع الحوادث والمخاطر باستثناء حادث الزلزال الذي تنبأ به الخبراء.

فقلت: ولماذا تستثنون هذا الزلزال المتوقع بالذات؟.

فقال مسؤول الشركة: لأن الزلزال إذا وقع، فلن تبقى أنت ولن أبقى أنا، ولن تبقى الشركة نفسها!.

إن هذه القصة ذات عبرة كبيرة. فنحن بني البشر نضع جميع إمكاناتنا الدنيوية المادية على سطح الكرة الأرضية، ولا نجد ما نعتمد عليه ونثق به سوى ثبات الأرض واستقرارها، ولكم أن تتصوروا هنا إذا أرادت الأرض أن تهتز، فما الذي يحدث؟. إن معنى ذلك هو أن أهم ما نعتمد عليه وتطمئن إليه قلوبنا سيحفر تحت أقدامنا، وهذا بحد ذاته يعتبر درساً بليغاً يُعلِّمنا أن علينا أن نعتمد على شيء غير معرض للاهتزاز والاضطراب، وهو الله سبحانه وتعالى.

لقد كنا في صغرنا ندرس عند سماحة الشيخ علي أكبر النائيني رحمه الله في محلّة

«باب الطاق» في مدينة كربلاء المقدسة، وكان يعلمنا الخط، فكانت إحدى الجمل التي يرشدنا إلى كيفية كتابتها بالخط العربي الجميل، هي العبارة الشعرية التالية:

إنما الدُّنيا فناءٌ، ليس للدُّنيا ثبوت
هذه الدُّنيا كبيتٍ نسجتهُ العنكبوت[١]

فثبات الدنيا أشبه ما يكون ببيت العنكبوت، وقد قال القرآن الكريم عن خيط العنكبوت بأنه لا ينسج إلاّ أوهن البيوت!.

ثم تضيف الرواية عن صفات المؤمن: «**فَلَا يَشْكُو حَالَهُ عِنْدَ الْمَخْلُوقِ بِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْبَلَاءِ**».

إن الدنيا وما فيها من زخارف لا تساوي عند المؤمن شيئاً، لذلك فهو لايفرح إذا اكتسب شيئاً منها، ولا يشكو حاله عند أحد إذا فقد شيئاً منها.

لذا تجد المؤمن لا ينادي بالويل والثبور عندما يواجه أية مشكلة في حياته، بل يصبر على ذلك صبراً جميلاً.

ولنضرب مثالاً على ذلك: إذا قدم لك أحد الأشخاص قطعة شوكولاتة صغيرة ووضعتها في جيبك فهل لك أن تخبر من تلقى من الناس بأن الشوكولاتة في جيبك؟ بالطبع كلا.. ذلك لأنها لا تساوي عندك شيئاً، ولا تستحق أن تفتخر بامتلاكها. ولكنك إن قدمت الشوكولاتة لطفل صغير، فإن من المتوقع جداً أن يفرح لها كثيراً ويتفاخر بها على إخوانه وأقرانه.

إن جميع المتع الدنيوية، ليست عند أصحاب النفوس الكبيرة، والمهتمين بأمر آخرتهم، أكثر من تلك الشوكولاتة، وكذلك نظرتهم إلى مصاعب الدنيا ومشاكلها، باعتبارها أموراً حقيرة، قياساً إلى ما يعرفونه من نماذج العذاب في الدار الآخرة، بل إن المصاعب الدنيوية لا تستحق التحدث عنها عند هذا وذاك.

---

(١) ينسب للإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أنظر ديوان الإمام علي عليه السلام، نشر دار نداء الإسلام، قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١١هـ.

قناعة المؤمن

جاء في الرواية السابقة أن النبي ﷺ سأل جبرئيل عليه السلام عن القناعة قائلاً: **«فَمَا تَفْسِيرُ الْقَنَاعَةِ؟. قَالَ: يَقْنَعُ بِمَا يُصِيبُ مِنَ الدُّنْيَا يَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ وَيَشْكُرُ الْيَسِيرَ»**.

إن المؤمن يرضى بالقليل مما قسم الله له، ويتوجه لأجل ذلك بالشكر والامتنان، وإذا وقعت في كفه قطعة خبز، فلا يتناولها بلهفة جاهلة، بل يأكلها بلذة الشاكر، ويقول: ما أطيب هذا الخبز!.

رضا المؤمن

بعد ذلك سأل رسول الله ﷺ: **«فَمَا تَفْسِيرُ الرِّضَى؟. قال جبرئيل عليه السلام: قَالَ الرَّاضِي لَا يَسْخَطُ عَلَى سَيِّدِهِ أَصَابَ مِنَ الدُّنْيَا (أَمْ لَا يُصِيبُ) مِنْهَا وَلَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْعَمَلِ»**.

ينبغي للمؤمن إذا ما سُلبت منه النعمة أن يلقّن نفسه بأن تلك النعمة قد تكون أكبر من حاجته، ولو كان لديه الاستعداد الكافي، لكان الله سبحانه وتعالى قد وضعها تحت تصرفه.

إن الإنسان المؤمن يتصف بصفة الرضا، فهو لا يسيء الظن بربه المتعال حينما يرى أحدهم يقود سيارة ذات طراز جيد وجديد، في الوقت الذي يفتقر إلى مثلها. إنه لا يحجم عن توجيه اللوم إلى نفسه، كما أنه يستصغر ما يقوم به من الأعمال، فيما يستشعر الخجل والحياء في مقابل الله دوماً.

فإذا اعترف المؤمن بعجزه ومرتبته الحقيرة في إطار عبوديته لله عز وجل، سيتقدم خطوة، بل خطوات إلى معرفة مقام الربوبية، والتسامي في ذرى الإخلاص لله عز وجل.

معنى الزهد

وسأل النبي الأكرم ﷺ جبرئيل الأمين عليه السلام عن معنى الزهد، قائلاً:

«ياجَبْرَئِيلُ فَمَا تَفْسِيرُ الزُّهْدِ؟ قَالَ عليه السلام: **يُحِبُّ مَنْ يُحِبُّ خَالِقَهُ، وَيُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُ خَالِقَهُ، وَيَتَحَرَّجُ مِنْ حَلَالِ الدُّنْيَا، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى حَرَامِهَا، فَإِنَّ حَلَالَهَا حِسَابٌ، وَحَرَامَهَا عِقَابٌ، وَيَرْحَمُ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا يَرْحَمُ نَفْسَهُ، وَيَتَحَرَّجُ مِنَ الْكَلَامِ كَمَا يَتَحَرَّجُ مِنَ الْمَيْتَةِ الَّتِي قَدِ اشْتَدَّ نَتْنُهَا، وَيَتَحَرَّجُ عَنْ حُطَامِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا كَمَا يَتَجَنَّبُ النَّارَ أَنْ يَغْشَاهَا، وَأَنْ يُقَصِّرَ أَمَلَهُ وَكَأَنَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَجَلَهُ»**[١].

فإن يرقى الإنسان إلى مقام لا يعكف فيه على مصالحه الذاتية فيما يحب أو يكره، بل يجعل الله وأمره نصب عينيه في الحب والبغض، فإنه -في الواقع- يرقى إلى مقام شامخ جداً.

وللوصول إلى حقيقة الزهد، يجب أن يطرد الإنسان أنانيته عن تفكيره وسلوكه.

هذا ما يجعل المؤمن يحذر ويهرب حتى من حلال الدنيا، فإذا وقع في يديه شيء من المال، اعتبر ذلك امتحاناً جديداً يتعرض له، ويسعى جاهداً إلى الخروج بنجاح باهر منه.

إن الكثير منا يتشوّق لأن تُقبل الدنيا عليهم، وأن يودعوا في حساباتهم الأموال الطائلة، في حين أن المؤمن الحقيقي يشعر بالقلق تجاه الثروة، وقد يعتبرها وبالاً عليه.

معنى الإخلاص

.. وسأل النبي صلى الله عليه وآله جبرئيل الأمين عليه السلام قائلاً: **«يا جَبْرَئِيلُ فَمَا تَفْسِيرُ الْإِخْلَاصِ؟** قَالَ: **الْمُخْلِصُ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئاً حَتَّى يَجِدَ، وَإِذَا وَجَدَ رَضِيَ، وَإِذَا بَقِيَ عِنْدَهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ فِي الله، فَإِنْ لَمْ يَسْأَلِ الْمَخْلُوقَ فَقَدْ أَقَرَّ لِلَّهِ بِالْعُبُودِيَّةِ، وَإِذَا وَجَدَ فَرَضِيَ فَهُوَ عَنِ الله رَاضٍ، وَالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ رَاضٍ، وَإِذَا أَعْطَى لِلَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ عَلَى حَدِّ الثِّقَةِ بِرَبِّهِ»**[٢].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٥٢.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٥٢.

إن المخلص من المؤمنين لا يمد يد الطمع باتجاه فلان وفلان، فهو قد آمن إيماناً حقيقياً بأن الله سبحانه وتعالى كفيله ووكيله.

ولهذا؛ فهو قد أقر إقراراً كاملاً، وبصورة عملية، بعبوديته لله الواحد الأحد.

فمن رضي بما قسم له، يكون مستسلماً للتقدير الإلهي الحكيم.

روي عن جابر، عن أبي جعفر الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: «أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: وَقَعَتْ فَأْرَةٌ فِي خَابِيَةٍ فِيهَا سَمْنٌ أَوْ زَيْتٌ فَمَا تَرَى فِي أَكْلِهِ؟. فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: **لا تَأْكُلْهُ**. فَقَالَ: لَهُ الرَّجُلُ الْفَأْرَةُ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ أَنْ أَتْرُكَ طَعَامِي مِنْ أَجْلِهَا. قَالَ: فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: **إِنَّكَ لَمْ تَسْتَخِفَّ بِالْفَأْرَةِ إِنَّمَا اسْتَخْفَفْتَ بِدِينِكَ**»[1].

في بعض الأوقات ترانا نجهل أو نتجاهل إلى مَنْ تتجه شكاوانا وانتقاداتنا غير المباشرة، أليس إلى الله الذي يعطينا كل شيء؟.

وإليك هذا المثال: لو أهدى لك أحدهم قميصاً أو كساءً، فتوجهت بانتقاد مباشر أو لاذع للونهما أو طريقة خياطتهما، فإنك -في الواقع- قد وجهت النقد واللوم إلى صاحب الهدية.

ولكن الإنسان إذا ربّى نفسه بشكل يدفعه إلى الرضى القلبي عمّا رزقه الله تعالى، فإنه يؤكد بذلك إيمانه بالتدبير والتقدير الإلهي. أما إذا كان رضاه عن ربه مجرد تلفظ بالكلمات ولقلقة باللسان، كأن ينقم على بيته الصغير من جهة، بينما يعلن رضاه عن الرب العلي الكبير من جهة ثانية.. فذاك هو التناقض بعينه. فالمؤمن حينما يعلن رضاه عن الله تعالى، فإنه يرضى بحياته كما وفّرها الله له.

وكذلك من رضي من الله بالرزق القليل، فإن الله بالمقابل يرضى منه العمل القليل.

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «**مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ؛ ابْنَ آدَمَ كُنْ كَيْفَ شِئْتَ، كَمَا تَدِينُ تُدَانُ، مَنْ رَضِيَ مِنَ الله بِالْقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ، قَبِلَ الله مِنْهُ**

(١) الاستبصار، ج١، ص٢٤.

الْقَلِيلَ مِنَ الْعَمَلِ»[١].

وقد نقل المرحوم آية الله العظمى السيد المرعشي النجفي رحمه الله هذه القصة، قال رجل كبير السن: استيقظت فجر أحد الأيام، فرأيت أن السماء قد أمطرت ثلجاً عظيماً، فضلاً عن هبوب عاصفة ثلجية أيضاً.. فلم أجد في نفسي تلك الإرادة لأن أقوم من فراشي فأتوضأ بماء النهر القريب في ذلك الجو القارص.. فأخفيت رأسي تحت الغطاء وقلت: إلهي؛ لقد رضيت عن نعمتك ورزقك في جميع الأحوال، فكنت أتقدم إليك بخالص الشكر إذا رزقتني بأطيب الطعام، وكذلك كنت أرضى وأستسلم لك إذا رزقتني بالخبز وحده.. فتفضل عليّ بقبول ركعتي صلاة الصبح بدون وضوء وتحت الغطاء في هذا اليوم!!.

ثم إنه صلى من غير طهارة.. وبعد مدة فارق الحياة، فرآه بعض أصدقائه في المنام، حيث كان من جملة ما قال لهم: لقد تقبل الله مني تلك الصلاة التي أديتها دون وضوء قبل كل صلواتي!.

من المؤكد أن جميع أعمالنا العبادية هي عبادات صورية فيها الكثير من القصور أو التقصير، ولن يقبل الله سبحانه وتعالى منها شيئاً مالم ينظر إليها بعين التسامح والصفح والرحمة. ولكن بشرط أن نتمتع نحن بالتسامح أيضاً فنرضى بالتقدير الإلهي مهما كان.

إن المؤمن هو من إذا وقع في يده درهمان، أنفق أحدهما على نفسه، وتصدق بالآخر في سبيل الله تعالى، ولا يساوره في هذا المجال أي قلق تجاه المستقبل أو اضطراب من احتمالات العوز والفاقة بسبب تصدّقه، لأنه يعتمد اعتماداً عميقاً على ربه الذي يؤمن به تبارك وتعالى، وهو كله يقين بأن مَنْ رزقه اليوم سيتكرم عليه ويرزقه في الغد أيضاً.

من هنا نفهم أن ظاهر الإخلاص هو أن يقول الفرد الإنسان في نيته لصلاة الصبح مثلاً: أصلي صلاة الصبح ركعتين قربة إلى الله تعالى.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٤١.

ولكن حقيقة الإخلاص هي أن يرضى بالنعم الإلهية المتاحة له، فيقبلها بكل رغبة وشوق، ولا يطمع بما في أيدي الآخرين.

معنى اليقين

ومن ثم سأل النبي صلى الله عليه وآله جبرئيل عليه السلام «**فَمَا تَفْسِيرُ الْيَقِينِ**؟. قَالَ عليه السلام: **الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ لِلَّـهِ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَى الله فَإِنَّ الله يَرَاهُ، وَأَنْ يَعْلَمَ يَقِيناً أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ**»[١].

ولذلك؛ فإن أمير المؤمنين عليه السلام قال فيما يخص منزلة إيمانه وما بلغه من اليقين: «**لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِيناً**»[٢].

وقال عليه السلام أيضاً: «**لَمْ أَكُنْ لِأَعْبُدَ رَبّاً لَمْ أَرَهُ**»[٣].

وهذه كلها إشارات واضحة وصريحة إلى بلوغ درجة اليقين.

أما نحن الأفراد العاديين؛ إن لم نصل إلى هذه المرتبة السامية، فلنبيت النية -على الأقل- حينما نرفع أيدينا لتكبيرة الإحرام في صلواتنا اليومية لأن نترك الدنيا وما فيها وراء ظهورنا، ونتوجه إلى الله سبحانه وتعالى، مخلصين له الدين.

وعلى هذا الأساس؛ تكون عبادة المؤمن عاملاً مهماً في تطهير الروح وبعث النشاط والحيوية فيها، وليس كعبادة البعض من الناس التي لا تعد إلا لقلقة لسان وحركات عضوية جامدة.وفي نهايات دعاء أبي حمزة الثمالي المروي عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام نقرأ هذه الفقرة عن اليقين: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيمَاناً تُبَاشِرُ بِهِ قَلْبِي، وَيَقِيناً** [صَادِقاً] **حَتَّى أَعْلَمَ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَنِي إِلَّا مَا كَتَبْتَ لِي، وَرَضِّنِي مِنَ الْعَيْشِ بِمَا قَسَمْتَ لِي، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ**»[٤].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٥٢.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٠، ص١٥٣.

(٣) بحار الأنوار، ج٢٥، ص١١٩.

(٤) مفاتيح الجنان، دعاء أبو حمزة الثمالي.

وتجدر الإشارة إلى أن الفرق بيننا وبين المشركين ليس مجرد الاعتقاد بخالقية الله تعالى وحده، بل في الاعتقاد بربوبيته أيضاً. فأنت حينما تقرأ هذه السطور وفي كل لحظة من حياتك لابد أن تعرف أن الله تعالى هو الذي يحفظ السقف الذي تستظل به من أن يقع عليك، وأن القادر المتعال هو الذي يضفي على النخلة الباسقة في حديقة بيتك مسحة من الجمال، كما أن النفس الذي تستنشقه وسائر الأعمال التي تقوم بها، كلها تحت قدرة رب العزة والجلالة..

فالإنسان يجب أن يفهم ويكرس في وجوده حقيقة ربوبية الله سبحانه في كل لحظة.

فإذا قصدت الطبيب الحاذق مثلاً فلا تطلب الشفاء منه، أو تنسبه إليه، لأنك إذا كنت كذلك، فقد وقعت في لون من ألوان الشرك، والعياذ بالله؛ بل من اللازم أن تطلب الشفاء من الله سبحانه وتعالى وتنسبه إليه وحده لا شريك له.

أغصان التّوكل..

وفي خاتمة الحديث الآنف الذكر يقول الأمين جبرئيل عليه السلام: «**وَهَذَا كُلُّهُ أَغْصَانُ التَّوَكُّلِ وَمَدْرَجَةُ الزُّهْدِ**»[1].

إن كل ما ذُكر من خصال الصبر والرضى والزهد والإخلاص واليقين، وكل ما أشير إليه من تفسير الأمين جبرئيل عليه السلام لهذه الخصال؛ كل ذلك أغصان لشجرة التوكل الباسقة. فبالتوكل على الله يعالج الإنسان كل نقاط الضعف في حياته.

إن المؤمنين حقاً يحافظون بالتوكل على الله تعالى على برودة أعصابهم حتى في أقسى ساعات العسر والحرج، بما في ذلك لحظات الصراع مع الموت.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٥٢، أبواب جهاد النفس، باب ٤.

3

الباب الثالث

لنكون من التائبين

١- الاعتراف بالذنوب أولاً.

٢- آفاق التوبة.

٣- شروط التوبة.

٤- تذكر الذنوب!

٥- استغفار الأنبياء والأولياء.

٦- باب التوبة مفتوح أبداً..

٧- توبة الأشقياء.

٨- محاسبة النفس ومراقبتها.

٩- خذ حذرك.

****

1

الاعتراف بالذنوب أولاً

إننا وفي كثير من الأحيان نطالع الروايات والأحاديث الشريفة بشكل عاجل، فلا نتأمل فيها بصورة جيدة وجدية، ظانين أنها نصوص بسيطة المعاني وعادية المفاهيم. وهذه الحالة تشتد أكثر فأكثر بالنسبة إلى الروايات التي مرت على أسماعنا كثيراً، في حين علينا أن نعرف أن هذه الروايات والأحاديث تتضمن الكثير من حقائق الحياة، وهذا يعني: لزوم عدم الاقتصار على ظواهرها، ووجوب الغوص في أعماقها، وهذا الغوص له مفاتيحه الخاصة به، ومن الطبيعي أن لا يحالف النجاح من كان غير عابئ بها.

وبتعبير آخر: إن الروايات لا أقفال عليها، بل الإنسان هو الذي قد تعمى بصيرته ويُقفل قلبه عن فهم الأحاديث بفعل التورط بالحجب العديدة..

إن مفهوم بعض الروايات يتناقض وبعض المسائل والمعتقدات التي سلمنا بها من قبل، فلعلنا كنا سمعنا شيئاً ما منذ أيام صغرنا، ورسمنا على أساسه خططنا في الحياة الدنيا، وحينما نصطدم برواية ما؛ من شأنها تغيير نسيج أفكارنا وأدمغتنا المحجوبة، وخدش أحكامنا المسبقة، فإن من الطبيعي أن تباغتنا، فنعجز عن استيعابها للوهلة الأولى.

وقد نقل لي أحد المؤمنين هذه القصة، قال: اشتركت في أحد المؤتمرات

الثقافية، وكان خطيب من الخطباء يتحدث عن المرحوم الشيخ الكليني رحمه الله، وكان يطرح جملة من الإشكالات الواهية على هذا العالم الديني الكبير، مما أثار حفيظة بعض العلماء الحاضرين واعتراضهم عليه، ويبدو أن الخطيب المشار إليه كان قد صادفته رواية من روايات كتاب (الكافي) للشيخ الكليني رحمه الله، فلم تجد لها موقعاً في أحكامه المسبقة، فلجأ إلى إثارة الفوضى الفكرية في أذهان الناس، بدلاً من السعي إلى تصحيح آرائه وأفكاره وطبيعة تعامله مع النصوص الدينية التي نقلها رجل جليل القدر والمنزلة، كالمحدث الشيخ الكليني.

وعلى أية حال؛ نطالع في هذه الصفحات باباً جديداً من أبواب (جهاد النفس) في موسوعة (وسائل الشيعة) تحت عنوان: (وجوب اعتراف المذنب لله بالذنوب) لنستلهم من أنوار السنة الشريفة وبصائرها بتجرّد كامل عن الأفكار والمفاهيم المسبقة.

إن الإنسان بطبعه لا يرغب بالاعتراف بالذنب والخطأ، ولعل واحداً من مساعي الشيطان أنه يستغفل ابن آدم، فيقول له: من الواجب أن تعترف بالذنب وتتوب لربك، ولكن ما قمت به الآن لا يعتبر ذنباً أبداً(!) وإنما لك أن تتوب حينما تذنب فقط.

إن علينا الاعتراف -بادئ الأمر- بأننا خطاؤون وغير معصومين، فلا نتهرب من حقيقتنا وواقعنا؛ وعلى الأقل، علينا أن نعرف بأننا أولاد أبينا آدم عليه السلام الذي خسر الجنة بسبب الأكل من الشجرة الممنوعة، فكيف نبرىء أنفسنا ونتصور وجود النزاهة المطلقة فينا؟!.

إن الخطوة الأولى في عملية بناء الذات وتزكية النفس هي الإقرار بإمكانية صدور الذنب منا، والاعتراف به إذا ما صدر منا فعلاً.

تقول الرواية الأولى في هذا الباب، والمروية عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: **«وَاللهِ مَا يَنْجُو مِنَ الذَّنْبِ، إِلَّا مَنْ أَقَرَّ بِهِ»**[1].

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٤٧.

ومن الواضح أنك إذا اعتبرت الذنب شيئاً صواباً، فلن تهبّ إذ ذاك إلى التوبة والتخلص منه، بل إنك قد تتجرأ على التفاخر باقترافه.

ثم إن الإمام الباقر عليه السلام نفسه قال في نصٍّ كريم آخر: «**كَفَى بِالنَّدَمِ تَوْبَةً**»[١]. أي: يكفي في تحقق التوبة أن يستشعر المذنب الندم في البداية.

أما الرواية الثانية في هذا الباب، فقد نقلت عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً، إذ قال: «**لَا وَاللهِ مَا أَرَادَ اللَّهُ مِنَ النَّاسِ إِلَّا خَصْلَتَيْنِ: أَنْ يُقِرُّوا لَهُ بِالنِّعَمِ، فَيَزِيدَهُمْ وَبِالذُّنُوبِ فَيَغْفِرَهَا لَهُمْ**»[٢].

فالإنسان الذي لم يزكِ نفسه؛ يكون مثل قارون الذي كان يعزو إمكاناته وثرواته إلى نفسه ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ**﴾[٣].

في حين تجد الإنسان المزكّى يعتبر جميع النعم المحيطة به هي من الله تبارك وتعالى، علماً أن هذه الحالة تعود بالفائدة الجمة عليه نفسه، لأن شكر النعمة يستوجب مضاعفتها وإطالة أمدها.

الإقرار بالذنب

ووردت الرواية الثالثة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، حيث قال: «**إِنَّهُ وَاللهِ مَا خَرَجَ عَبْدٌ مِنْ ذَنْبٍ بِإِصْرَارٍ وَمَا خَرَجَ عَبْدٌ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا بِإِقْرَارٍ**»[٤].

إن الإقرار بالذنب ينبغي أن ينبع من صميم القلب.

هناك الكثير من المسلمين من ينتظر الأوقات الشريفة، أو يقصد الأماكن

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٤٧.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٤٧.

(٣) سورة القصص، آية: ٧٨.

(٤) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٤٧.

المقدسة، كالكعبة المشرفة أو أضرحة الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم، ليعلنوا توبتهم إلى ربهم ويطلبوا منه العفو والمغفرة، تيمناً بتلك الأزمنة والأماكن، ولكنهم قد لا يصلون إلى مرتبة الإقرار الحقيقي بالذنب، وإنما قد تكون توبتهم مجرد لقلقة لسان ولعبة تمارسها عواطفهم، ودليل ذلك عودتهم إلى سابق سلوكهم المشين فور رجوعهم إلى محال كسبهم التي يمارسون فيها أنواع الخدع وأقسام الغش، أو إلى بيوتهم التي يرتكبون فيها أشكال الاضطهاد والاستغلال بحق نسائهم وأولادهم.

إن واحدة من صفات الشيطان أنه يزين الموبقة ويصورها لابن آدم على أنها عمل صالح، ومن جانب آخر فإن الله عز وجل قد يطبع على قلب بعض الناس ويعمي بصيرته، لمّا علم فيه الإصرار على الخطيئة والجرم، وهنا يقوم صاحب القلب الأعمى بارتكاب أعظم الذنوب، حتى يصل إلى السماح لنفسه بالمشاركة في قتل الإمام الحسين عليه السلام سبط رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال الإمام الصادق عليه السلام في الرواية الرابعة من هذا الباب: «**مَنْ أَذْنَبَ ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ اللَّـهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ. غَفَرَ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ**»(١).

ويرى البعض أن الإنسان الذي يرتكب الذنب، يجب أن يرتكب الذنب! لأن السيئة -بزعمهم- قد عجنت بطبعه، وأن الله يعلم بذلك، فهو إن لم تصدر عنه الخطيئة، سيتبدل علم الله إلى جهل، وهذا أمر قبيح!!.

ولا شك أن هذه الفكرة خاطئة تماماً، وهي تنبع من وسوسة الشيطان الهادفة إلى تعبيد جادة الذنوب والخطايا أمام الإنسان الضعيف. فلا الإنسان مجبول على الذنب، ولا هو مجبور عليه، وإذا ما صدر الذنب منه فعليه أن لا ييأس من رحمة الله تعالى. فالله وعدنا بالعفو والمغفرة إن تبنا إليه وعدنا إلى حظيرة الإخلاص له.

لقد كان ابن ملجم لعنه الله الذي اغتال الإمام علي عليه السلام في مسجد الكوفة

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٤٧.

قارئاً للقرآن، وكان ذهنه يأنس بمفردات القرآن ومصطلحاته، ولكنه رغم ذلك كان اليأس من رحمة الله معشعشاً في كيانه، في حين أن القرآن قد نهى كل النهي عن اليأس والقنوط من احتمال بلوغ الفلاح وإمكانية الإصلاح والتوبة إلى الله تعالى.

ينقل أن الشيخ جعفر الشوشتري قصد في سنة من السنين العاصمة الإيرانية طهران بقصد التبليغ للدين، فاجتمع الناس له، حتى قيل إن بعضهم كان يغشى عليه لتأثره الشديد بخطابات الشيخ.

وذات مرة أراد أحد الأشقياء المعروف ببطشه وقسوته وفجوره أن يزور الشيخ، فأحس بعض أصحاب الشيخ بالخطر، وأن يكون هذا الشقي يبطن الشر وإلحاق الأذى بالشيخ الشوشتري، فأرادوا منعه دون تحقيق إرادته، ولكن الشيخ أمرهم بالسماح له بلقائه.

فاقترب هذا الشقي من الشيخ وهمس في أذنه بعض الكلام ثم غادر المكان من فوره. وسرعان ما رأى الناس الشيخ لا يتمالك نفسه من شدة البكاء، وبعدما عاد إليه هدوءه، سألوه عما قال له ذلك الشقي حتى تتغير حالته بهذا الشكل الملفت للنظر؟!.

فقال: لقد جاءني هذا الشقي، وقال لي: يا شيخ جعفر! إنني كبير أشقياء طهران، وجميع الناس يعرفونني بهذا الاسم، وأنا لا أمتلك شخصية أخرى في باطني. فهل ظاهرك المعروف بالخير والصلاح يتفق مع باطنك؟!.

إن الرواية التي نحن بصددها هنا، قد تناولت قضية الصدق مع الذات، ووحدة الشخصية التي يظهرها الفرد المذنب وإحساسه بأن الله تبارك وتعالى هو علام الغيوب المطلع على ما ارتكبه ويرتكبه من المعاصي، وأنه إذا أراد، جرّه إلى طاولة المحاكمة والعقاب.

فهذا الفرد -من وجهة النظر الإسلامية- أفضل بكثير من ذلك الفرد الذي يتظاهر بالصلاح والخير، وأنه يمثل الدين بين الناس، ولكنه في واقعه أسير

للهواجس الشيطانية والأوهام الفاسدة، ولا يرى موجباً للاعتذار إلى ربه العزيز الحميد إزاء هذه الازدواجية وحالة النفاق التي تتملكه.

والرواية الخامسة في هذا الباب نقلت عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، حيث قال: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ أَنْ يَطْلُبَ إِلَيْهِ فِي الْجُرْمِ الْعَظِيمِ، وَيُبْغِضُ الْعَبْدَ أَنْ يَسْتَخِفَّ بِالْجُرْمِ الْيَسِيرِ**»[١].

إن ذنب الحر بن يزيد الرياحي في كربلاء لم يكن ذنباً صغيراً أبداً، فلو لم يكن الله ليغفر له، لما كانت جريمة الحر بأقل من جريمة يزيد وابن زياد وشمر وابن سعد.. ولكن هذا الذنب قد غُفر، لأن فاعله عدّه كبيراً، وقد اتخذ من الإمام الحسين عليه السلام شفيعاً إلى الله من أجل الحصول على المغفرة والرحمة الإلهية.

وجاء في الرواية السادسة في باب الاعتراف بالذنب أن رسول الله صلى الله عليه وآله روى عن الأمين جبرائيل عليه السلام أنه قال: «**قَالَ اللَّـهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ أَذْنَبَ ذَنْباً صَغِيراً كَانَ أَوْ كَبِيراً، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ لِي أَنْ أُعَذِّبَهُ أَوْ أَعْفُوَ عَنْهُ، لا غَفَرْتُ لَهُ ذَلِكَ الذَّنْبَ أَبَداً. وَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْباً صَغِيراً كَانَ أَوْ كَبِيراً، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ لِي أَنْ أُعَذِّبَهُ أَوْ أَعْفُوَ عَنْهُ، عَفَوْتُ عَنْهُ**»[٢].

ثم إن رواية شريفة نقلت عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، قال فيها: «**لَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ بِكَلِمَتَيْنِ؛ دَعَا بِهِمَا، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ تُعَذِّبْنِي فَأَهْلُ ذَلِكَ أَنَا، وَإِنْ تَغْفِرْ لِي فَأَهْلُ ذَلِكَ أَنْتَ. فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ**»[٣].

ويلاحظ في بعض الأحيان أن أفراداً يخاطبون ربهم بقلب سليم ولسان بسيط دون أي حجاب، فينطلق خطابهم بصورة مباشرة إلى عرش الرحمن. نلاحظ في الرواية أعلاه أن رجلاً بدوياً قد غفر له ربه بكلمتين خاطبه بهما.. وكانت الكلمتان البسيطتان عبارة عن الاعتراف بالذنب والإقرار والتسليم بحق الله في العقاب.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٤٧.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ص٣٤٨.
(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٤٨.

صلاة الأعرابي

بهذا الخصوص أنقل لكم هذه القصة التي سمعتها من أحدهم دون أن أقرأها في كتاب معيّن.. يقال: إن أحد الأشرار وافته المنية، فلم يتطوع أي من علماء الدين للصلاة عليه، وحينما رأى الناس هذا الامتناع من قبل العلماء، أعرضوا هم بدورهم، مبررين ذلك بأعذار شتى.

ثم إنهم حملوا الجسد ليدفنوه في الصحراء، وفي طريقهم إليها رأوا بدوياً راكباً بعيراً، ويسير إلى جهة خاصة به، فسألوه: هل تجيد الصلاة على الميت؟.

فتأمل قليلاً ثم قال: لعلني أعرف ذلك!.

ثم إنهم مدّوا الجسد، فوقف إزاءه وتلفظ بكلمات لم يسمعها أحد، ثم قال لهم: ارفعوا ميتكم، فقد انتهيت من الصلاة!.

فدفنوه وعادوا إلى بيوتهم. وحينما حل الليل، رأى بعض أقرباء الميت صاحبهم، فسألوه: هل الأمر في قبرك على ما يرام؟!.

فأجابهم بأن حالته جيدة وأنه ينعم بالراحة والأمان من العذاب!!.

فقيل له: لعلك تمزح؟!. فقال: إن الصلاة التي أقيمت على جسدي كانت مفيدة لي للغاية!.

فقالوا: هل تقصد صلاة الرجل البدوي التي لم نفهم منها شيئاً؟!. قال: نعم!.

فأخذ أقارب الميت في اليوم التالي يبحثون عن الرجل البدوي، فعثروا عليه بعد جهد جهيد، فقصوا عليه قصة ميتهم، وسألوه عن الصلاة التي صلاها على ميتهم، والتي كانت سبب تغيير مصيره.

فأجاب: إنني لم أكن أعرف أداء صلاة الميت، ولكنني قلت لربي سبحانه وتعالى: إن هذا الميت هو ضيفك في هذه الليلة، ولو كان ضيفي أنا، لنحرت له جملي، ولصنعت

منه طعاماً وأطعمته إياه، والآن حيث هو في ضيافتك، لننظر كيف ستستقبله!!.

ويبدو أن هذه الكلمات البسيطة التي قيلت بأبسط شكل ممكن على لسان هذا البدوي، بدلاً من الصلاة عليه، عَدَلَت كثيراً من الصلوات، وكان لها دور مهم جداً في تغيير مصير هذا الميت الذي كان معروفاً بالشر والشقاء، لأنها كلمات خرجت من القلب، وخاطبت الله بكل إخلاص وتجرّد.

عند ضريح سيدنا العباس عليه السلام

قصد أحد طلاب الحوزة العلمية مدينة كربلاء المقدسة قادماً من مدينة النجف الأشرف، يزور ضريح سيدنا ومولانا أبي الفضل العباس عليه السلام ويطلب منه الدعاء إلى الله عز وجل لشفاء ولده الصغير الذي اصطحبه معه، فكان يحضر عند الضريح الطاهر في كل يوم ليدعو ما شاء له أن يدعو، ولكنه لم يلمس الإجابة كلما استمرت به الأيام، حتى وجد نفسه ذات يوم يحادث أبا الفضل عليه السلام بلسان الرجل المتألم، وفي تلك الحالة رأى ولده وقد عادت إليه سلامته، مما أثار دهشته.

وحينما استلقى في الليل نائماً، رأى سيدنا العباس عليه السلام وقد قال له: إنني لم أسمع صوتك سوى البارحة، فقد كنتَ تطوف بالضريح في الأيام السابقة، ولكنك لم تكن حاضراً بقلبك وروحك!.

فعلم الرجل ضرورة أن يكون الخطاب مع أهل البيت عليهم السلام بلسانٍ نزيهٍ وقلب متوجهٍ سليم، وإن أخذ طابعاً بسيطاً وبعيداً عن الكلمات الأدبية المنمقة.

أما الرواية الثامنة في هذا الباب، فقد جاء فيها أن الإمام جعفر الصادق عليه السلام روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ أَذْنَبَ ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ لِي أَنْ أُعَذِّبَهُ وَأَنَّ لِي أَنْ أَعْفُوَ عَنْهُ، عَفَوْتُ عَنْهُ»**(١).

وهذه الرواية الشريفة تشبه إلى حدٍ كبير الرواية التي سبقتها.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٤٨.

الندم على الذنوب

أما الباب الثالث والثمانون، فقد جاء تحت عنوان: (وجوب الندم على الذنوب).

والرواية الأولى في هذا الباب وردت عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام حيث قال: «**مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ**»(١).

وروي عن عمرو بن عثمان، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: سمعته يقول: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُدْخِلُهُ اللَّهُ بِهِ الْجَنَّةَ**. قُلْتُ: يُدْخِلُهُ اللَّهُ بِالذَّنْبِ الْجَنَّةَ؟. قَالَ عليه السلام: **نَعَمْ؛ إِنَّهُ يُذْنِبُ فَلَا يَزَالُ خَائِفاً مَاقِتاً لِنَفْسِهِ، فَيَرْحَمُهُ اللَّهُ فَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ**»(٢).

وقد جاء في بعض الروايات أنه إن لم يكن العجب الناشئ من القيام بالأعمال الصالحة صفةً رذيلة، لم يكن الله سبحانه وتعالى ليسمح للمؤمن بارتكاب الذنب، وحيث إن عدم ارتكاب الذنب قد يوجب التكبر والغرور لدى الكثير من الناس، فقد كان ارتكاب هذا الذنب أو ذاك يضعف ويقطع أجنحة الغرور ويدعوه إلى الخضوع والتواضع، فذلك أفضل من أن تخلو صحيفة أعماله من الذنوب ظاهراً، بينما تكون نفسه متخمة بالإحساس بالغرور والعجب، ويتصور خطلاً بأن الجنة قد أصبحت في متناوله، وأنه سيتصدر مقاعدها.

ونقل عن أبان بن تغلب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ أَذْنَبَ ذَنْباً فَنَدِمَ عَلَيْهِ، إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ، وَمَا مِنْ عَبْدٍ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَعَرَفَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَحْمَدَهُ**»(٣).

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٤٩.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٤٩.
(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٤٩.

سبع ساعات بعد الذنب!

امتداداً للبحوث المتعلقة بجهاد النفس، عقد المرحوم الشيخ الحر العاملي الباب الخامس والثمانين تحت عنوان: (وجوب الاستغفار من الذنب والمبادرة به قبل سبع ساعات!).

فالفرد ينبغي له أن يقدم على التوبة قبل مرور سبع ساعات على ارتكابه الذنب، إذ الذنب كالصمغ الذي يصعب اقتلاعه كلما مرّ عليه الزمن.

ملاحظة

ما يفهم من عبارة (سبع ساعات) الواردة في روايات هذا الباب، أن الزمن في عصر الأئمة الأطهار عليهم السلام كان يُقاس بمقاييس مشابهة للساعات المتعارفة في عصرنا الحاضر، كما يفهم من المصادر التأريخية أن الساعة المائية كانت موجودة في عهد هارون العباسي، كما أن الساعة أساساً قد اخترعت في العهد البابلي، حيث قسموا اليوم إلى أربع وعشرين ساعة لأول مرة.

ولعله من الممكن أن لا تكون الساعة المقصودة في الروايات هي الستين دقيقة التي نعرفها حالياً، وإنما هي وقت من الأوقات ووحدة زمنية كانت متعارفة آنذاك. وقبل الدخول إلى أصل البحث، لا بأس أن أذكّر القراء الكرام بأننا نفهم الواجبات والمحرمات من خلال ما تعلمناه من آبائنا وأجدادنا، مثل الصلاة والصوم والحج، وقد يتملكنا العجب إذا عرفنا أن تعجيل الاستغفار من الذنوب هو من الواجبات أيضاً، وأنه لا يقل مستوى وجوبه وأهميته عن سائر الواجبات، هذا إن لم يكن أكثر منها أهمية وأشد إلحاحاً.

لقد عقد المرحوم الشيخ الحر العاملي في موسوعة (وسائل الشيعة) أبواباً خاصة بالواجبات المهجورة والمتروكة، التي لا تزال غير معروفة لدى الناس.

أربع نعم أساسية!

جاء في الرواية الأولى من الباب الخامس والثمانين في كتاب جهاد النفس،

عن فضيل بن عثمان المرادي قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**قَالَ رَسُولُ اللهِ** صلى الله عليه وآله وسلم: **أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ لَمْ يَهْلِكْ عَلَى اللَّهِ بَعْدَهُنَّ إِلَّا هَالِكٌ: يَهُمُّ الْعَبْدُ بِالْحَسَنَةِ فَيَعْمَلُهَا، فَإِنْ هُوَ لَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ حَسَنَةً بِحُسْنِ نِيَّتِهِ، وَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَشْراً، وَيَهُمُّ بِالسَّيِّئَةِ أَنْ يَعْمَلَهَا، فَإِنْ لَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا أُجِّلَ سَبْعَ سَاعَاتٍ. وَقَالَ صَاحِبُ الْحَسَنَاتِ لِصَاحِبِ السَّيِّئَاتِ -وَهُوَ صَاحِبُ الشِّمَالِ-: لَا تَعْجَلْ عَسَى أَنْ يُتْبِعَهَا بِحَسَنَةٍ تَمْحُوهَا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾**[1]**، أَوِ الِاسْتِغْفَارِ، فَإِنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الْعَزِيزَ الْحَكِيمَ، الْغَفُورَ الرَّحِيمَ، ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَإِنْ مَضَتْ سَبْعُ سَاعَاتٍ وَلَمْ يُتْبِعْهَا بِحَسَنَةٍ وَاسْتِغْفَارٍ، قَالَ صَاحِبُ الْحَسَنَاتِ لِصَاحِبِ السَّيِّئَاتِ: اكْتُبْ عَلَى الشَّقِيِّ الْمَحْرُومِ**»[2].

إن الله عز وجل لدى الإحصاء يكتب كل شيءٍ على الإنسان، بما في ذلك إراداته المتنوعة ووساوسه القلبية، ولكن الله عز وجل قد تساهل مع الإنسان حيث لا يعتبره عاصياً بمجرد إرادته البدائية وقصده ارتكاب الذنب، في حين أنه إذا نوى إنجاز عمل صالح، يثبت له في صحيفة أعماله وإن لم ينفذه أو يوفَّق إليه.

فتارة ينوي الفرد بناء مسجد فيما لو تمكن مالياً، أو وافته الفرصة، أو أنه سيؤلف كتاباً بخصوص موضوع مفيد.

فيمنحه الله تبارك وتعالى ثواب من يبني مسجداً أو يؤلف كتاباً، بعد أن يعلم الصدق في نيته، ولكن العزم على ارتكاب المعصية بمجرد النية، ليس له الحالة ذاتها، وهذه موهبة الرب المنان الكبير للإنسان.

ومن هنا؛ قد ترى في يوم القيامة جملة من الأعمال الصالحة مثبتة في قائمة

---

(١) سورة هود، آية: ١١٤.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥١.

أعمالك، الأمر الذي سيلفت انتباهك ويثير دهشتك.

فتقول لرب العزة والجلالة: ما هذه الأعمال؟.

فيأتي الجواب: إنها بنات أفكارك ونواياك الطيبة والصادقة التي لم تخرج إلى حيز الفعل.

وعلى هذا؛ نكون قد أشرنا إلى نعمتين ثنتين من النعم الربانية الأربع، وهما كتابة نوايا الخير، دون كتابة نوايا الشر في قائمة أعمال الإنسان.

أما النعمة الثالثة: فهي أن المرء إذا ارتكب عملاً سيئاً ما، فإنه يستطيع تلافيه ودفع ما يترتب عليه من آثار سلبية بعاملين:

الأول: أن ينجز إزاءه عملاً صالحاً ما. فإذا وقع نظره على المنظر الحرام، أو مارس الغيبة بحق أحد إخوانه المؤمنين، فإنه يستطيع اتقاء شره عبر إعطاء الصدقة أو أداء ركعتين.. فالخير يمحق الشر ويطمسه، وهذه نعمة كبرى، إذ يكتب للسيئة مثلها، بينما تكتب للحسنة عشرة أضعافها، وإن بمقدور كل حسنة محو كل ذنب، وقد قال تعالى: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾[١].

وقال أيضاً: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾[٢].

الثاني: أن يستغفر الله تعالى ويتوب إليه من الذنب، وقد جاء في الرواية التي أوردناها أن هناك سبع ساعات، كفرصة للمذنب أن يستغفر. وبالطبع، ينبغي أن تقرن التوبة اللفظية بالندم القلبي العميق، إذ من دون ذلك لا تكون التوبة اللفظية سوى حالة من اللعب والسخرية بالذات.

وجاء في الرواية المذكورة: عندما يذنب العبد، فإن الملك الموكل بكتابة

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

(٢) سورة هود، آية: ١١٤.

الحسنات يخاطب الملك الآخر الموكل بكتابة السيئات بأن لا يعجل في كتابة الذنب قبل مرور سبع ساعات على الذنب. فلعله يتوب إلى الله، أو يعمل عملاً صالحاً يمحو به السيئة.

فإذا انقضت الساعات السبع ولم يتب المذنب، ولم يعمل صالحاً، قال كاتب الحسنات لكاتب السيئات: اكتب على الشقي المحروم.

والرواية الأخرى في هذا الباب، وردت عن أبي بصير رحمه الله عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «**مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً أُجِّلَ فِيهَا سَبْعَ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ، فَإِنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّـهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ**»[1].

وفي صلاة الميت نقرأ ضمن الدعوات المأثورة: «**مَاحِي السَّيِّئَات**».

ترى أي ضرورة أن نخاطب ربنا عز وجل بوصفه الماحي للسيئات؟.

إن كل صفة من صفات الله، لها حكمتها وسرها، والقضية المهمة في هذه الصفة الربانية، هي أن الله تبارك وتعالى هو الوحيد القادر على محو السيئات والتجاوز عنها، وليس الإنسان بقادر على ذلك. وإذا ما تاب الإنسان توبة حقيقية بعد صدور الذنب منه، فإن الله تعالى يمحو السيئة ولا يبقي لها أثراً.

علاج مرض المعصية!

جاء في الرواية الثالثة من الباب نقلاً عن المعصوم عليه السلام: «**لِكُلِّ شَيْءٍ دَوَاءٌ وَدَوَاءُ الذُّنُوبِ الِاسْتِغْفَارُ**»[2].

أما الرواية الرابعة؛ فقد وردت عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام إذ قال: «**إِنَّ**

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥١.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٢.

الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً أُجِّلَ مِنْ غُدْوَةٍ إِلَى اللَّيْلِ فَإِنِ اسْتَغْفَرَ اللَّـهَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ»[١].

والرواية الخامسة، قال فيها الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «**الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً أَجَّلَهُ اللَّهُ سَبْعَ سَاعَاتٍ، فَإِنِ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَإِنَّ مَضَتِ السَّاعَاتُ وَلَمْ يَسْتَغْفِرْ كُتِبَ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ**»[٢].

الإيمان.. شرط التأجيل

جاء في الرواية السادسة عن عبد الله بن سنان، عن حفص قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُذْنِبُ ذَنْباً إِلَّا أَجَّلَهُ اللَّهُ سَبْعَ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ، فَإِنْ هُوَ تَابَ لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَإِنْ هُوَ لَمْ يَفْعَلْ كُتِبَ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ**.

فَأَتَاهُ عَبَّادٌ الْبَصْرِيُّ فَقَالَ لَهُ: بَلَغَنَا أَنَّكَ قُلْتَ مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْباً إِلَّا أَجَّلَهُ اللَّهُ سَبْعَ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ؟. فَقَالَ عليه السلام: **لَيْسَ هَكَذَا قُلْتُ، وَلَكِنِّي قُلْتُ: مَا مِنْ مُؤْمِنٍ.. وَكَذَلِكَ كَانَ قَوْلِي**»[٣].

ويبدو من ذلك أن الإمام اشترط الإيمان في هذا التأجيل، فالمؤمن الذي قد يخدعه الشيطان ويذنب، هو الذي يؤمَّل منه أن يتوب إلى الله خلال سبع ساعات أو يعمل عملاً صالحاً يمحو به السيئة.

والرواية السابعة وردت عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، حيث قال: «**لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾**[٤]. **صَعِدَ إِبْلِيسُ جَبَلاً بِمَكَّةَ يُقَالُ لَهُ (ثَوْرٌ) فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ بِعَفَارِيتِهِ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَمَنْ لَهَا، فَقَامَ عِفْرِيتٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ فَقَالَ: أَنَا لَهَا بِكَذَا وَكَذَا. فَقَالَ: لَسْتَ لَهَا، ثُمَّ قَامَ آخَرُ فَقَالَ: مِثْلَ ذَلِكَ. فَقَالَ: لَسْتَ لَهَا، فَقَالَ**

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٢.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٢.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٣٥.

الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ: أَنَا لَهَا قَالَ: بِمَاذَا؟، قَالَ: أَعِدُهُمْ وَأُمَنِّيهِمْ حَتَّى يُوَاقِعُوا الْخَطِيئَةَ، فَإِذَا وَاقَعُوا الْخَطِيئَةَ أَنْسَيْتُهُمُ الِاسْتِغْفَارَ. فَقَالَ: أَنْتَ لَهَا، فَوَكَّلَهُ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1].

فهو بهذه الوعود الخادعة والأماني المزيفة يعمل على إحاطتهم بدائرة الذنوب، لينسوا فريضة الاستغفار بالتدريج، فيبقيهم على هذه الحالة حتى آخر لحظة من لحظات حياتهم، فلا يستفيدون أية فائدة من الفوائد التي قد تعود الآية المذكورة بها عليهم.

حصنان منيعان

جاء في الحديث الثاني عشر من الباب الخامس والثمانين عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وَالِاسْتِغْفَارُ لَكُمْ حِصْنَيْنِ: حَصِينَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ، فَمَضَى أَكْبَرُ الْحِصْنَيْنِ وَبَقِيَ الِاسْتِغْفَارُ، فَأَكْثِرُوا مِنْهُ، فَإِنَّهُ مِمْحَاةٌ لِلذُّنُوبِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2]**»[3].

يشير الإمام الباقر عليه السلام إلى قضية قد نتصور بأنها لم تستلهم من القرآن الكريم، ولكنه حينما يشير إلى مصدرها، نفهم أن للقضية جذوراً قرآنية.

إن هذا القبيل من الروايات يعلمنا أسلوب الاستفادة من الكتاب المجيد، فضلاً عن احتوائها على نقاط أخلاقية سامية، ولذا؛ علينا أن نسعى للاستفادة من هذا الاسلوب في التعامل مع القرآن الكريم والتدبر فيه دون أن نقع في فخ التفسير بالرأي.

إذن، فإن الله سبحانه -حسب الآية الكريمة- ما كان ليعذب المذنبين والعصاة

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٣.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٣٣.
(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص ٣٥٤.

ما دام الرسول ﷺ بين أظهرهم، وذلك تكريماً لمكانة النبي العظيم ﷺ وإجلالاً لقدره، أما بعد رحيل الرسول ﷺ، فإن الله عز وجل أوكل رفع العذاب عن المذنبين إلى الاستغفار والتوبة.

وفي الرواية التالية يقول إسماعيل بن سهل: «**كَتَبْتُ إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ الثَّانِي عليه السلام: عَلِّمْنِي شَيْئاً إِذَا أَنَا قُلْتُهُ كُنْتُ مَعَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. فَكَتَبَ بِخَطِّهِ أَعْرِفُهُ: أَكْثِرْ مِنْ تِلَاوَةِ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ وَرَطِّبْ شَفَتَيْكَ بِالِاسْتِغْفَارِ**»[1].

ويمكن استنباط نقاط عديدة من هذه الرواية الشريفة:

إن أصحاب الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا يرغبون من خلال علاقاتهم بالأئمة أن ينالوا أكبر قدر من الفيض المعنوي، ولعلنا لو كنا بدلاً منهم، لطلبنا من الأئمة عليهم السلام أن يعلمونا ما يطيل أعمارنا أو يزيد في أموالنا وأولادنا... ولكن إسماعيل بن سهل كان من الذين حصلوا على سعادة الدارين من اصطحابهم لأهل البيت عليهم السلام، ولذلك كان مهتماً بتعلم الطرق التي توصله إلى هذه السعادة.

وهو كان يعلم أن ابتعاده عن الأئمة عليهم السلام وخطهم المقدس يعني وقوعه في شرك الشيطان ووساوسه، ولعله ينزلق إلى المهاوي الجهنمية إلى حيث لا رجعة أبداً.

ولعل العديد ممن كان من أصحاب الأئمة عليهم السلام لم يكن بمستوى هذا الرجل الكبير،فرأوا أنفسهم فجأةً بأنهم قد ابتعدوا عن خط أهل البيت عليهم السلام ليتقمصوا مذاهب شتى.

ونحن من جانبنا، يجب أن نهتم كل الاهتمام بحفظ علاقاتنا بأهل البيت عليهم السلام.وهناك الكثير الكثير من الطرق التي تضمن سلامة المعتقد واستمرار العلاقة بالنبي ﷺ وآله عليهم السلام، وهناك العديد من الأدعية والأذكار والزيارات

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٤.

الشريفة تحوي ما يحتاجه الفرد المؤمن من العقائد ليبقى متصلاً ببحر المحبة والولاية الربانية.

فإذا حلّلنا ذكر الصلوات على النبي ﷺ وآله الطاهرين عليهم السلام، لرأيناه يتضمن عقيدة التوحيد والولاية للنبي ﷺ وآل النبي عليهم السلام.

وقد ورد في الرواية المشار إليها آنفاً أن الإمام المعصوم عليه السلام يوصي أحد أصحابه بالمداومة على قراءة سورة القدر المباركة، نظراً لأن هذه السورة تحوي خلاصة عقائد التشيع لأهل البيت عليهم السلام، وإحدى تلك العقائد، الإيمان بالقرآن الكريم، والأخرى الاعتقاد بالولاية، لأن ليلة القدر مظهر من مظاهر ولاية أهل البيت عليهم السلام.

والعقيدة الثالثة هي الإيمان بغيبة الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه، لأن ليلة القدر تتكرر في كل سنة، وعلى هذا الأساس كان (الروح) المشار إليه في السورة المباركة يتنزل على حجة الله في أرضه، وليس غير المهدي المنتظر حجة لله على عباده.

أما المعتقد الآخر الذي تحويه سورة القدر، فهو عبارة عن العلاقة المباشرة بين الله سبحانه وتعالى وبين عباده. فرغم نزول القرآن الكريم، ورغم عدم وجود نبي من الأنبياء، إلا أن نزول جبرئيل الأمين عليه السلام لا يزال مستمراً.

وعلى هذا؛ إذا داوم الإنسان على قراءة سورة القدر المباركة، استطاع أن يزيل الحجب عن عقله وقلبه، وتوصل إلى حقائق الحياة ودقائق الوجود وأسراره.

إن بين أيدينا الروايات الكثيرة التي جاء فيها أن سورة ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ**﴾ حجة لأتباع أهل البيت عليهم السلام على أعدائهم، وأن الشيعة يمكنهم الاستدلال بها على عقيدة ولاية الأئمة المعصومين عليهم السلام.

1

آفاق التوبة

جاء في رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَقْتَرِفُ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَرْبَعِينَ كَبِيرَةً، فَيَقُولُ وَهُوَ نَادِمٌ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّـهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ، بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيَّ. إِلَّا غَفَرَهَا اللَّهُ لَهُ.** ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ يُقَارِفُ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَرْبَعِينَ كَبِيرَةً!**»[1].

وجاء في رواية أخرى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إِذَا أَرَادَ اللَّـهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَبْدٍ خَيْراً، فَأَذْنَبَ ذَنْباً أَتْبَعَهُ بِنَقِمَةٍ، وَيُذَكِّرُهُ الِاسْتِغْفَارَ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّـهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَبْدٍ شَرّاً فَأَذْنَبَ ذَنْباً أَتْبَعَهُ بِنِعْمَةٍ فَيُنْسِيهِ الِاسْتِغْفَارَ، وَيَتَمَادَى بِهِ وَهُوَ قَوْلُ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، بِالنِّعَمِ عِنْدَ الْمَعَاصِي**»[3].

ممحاة التوبة

جاء في الرواية الخامسة عشرة من الباب الخامس والثمانين، عَنِ الشَّعبيِّ، قال: «سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام يقول: «**الْعَجَبُ مِمَّنْ يَقْنَطُ وَمَعَهُ الْمِمْحَاةُ.**

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٣.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٨٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٤.

قِيلَ: وَمَا الْمِمْحَاةُ؟ قَالَ عليه السلام: **الِاسْتِغْفَارُ**»[١].

أما الرواية السادسة عشرة لهذا الباب، فقد جاء فيها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«صَاحِبُ الْيَمِينِ أَمِيرٌ عَلَى صَاحِبِ الشِّمَالِ، فَإِذَا عَمِلَ الْعَبْدُ سَيِّئَةً قَالَ -صَاحِبُ الْيَمِينِ لِصَاحِبِ الشِّمَالِ-: لَا تَعْجَلْ؛ وَأَنْظِرْهُ سَبْعَ سَاعَاتٍ، فَإِنْ مَضَتْ سَبْعُ سَاعَاتٍ وَلَمْ يَسْتَغْفِرْ، قَالَ: اكْتُبْ فَمَا أَقَلَّ حَيَاءَ هَذَا الْعَبْدِ»**[٢].

لقد خلق الله سبحانه وتعالى ملكين كريمين يراقبان الإنسان، يدعى الأول: الأمين، والثاني: المأمون.. وقد جعل الله تعالى أمر الثاني بيد الأول. وحينما يرتكب ابن آدم خطأ من الأخطاء، أمر ملك الجهة اليمنى صاحبه الذي في الجهة اليسرى، وهو كاتب السيئات بأن لا يعجل، وإنما يمهله سبع ساعات ليريا ما هو صانع، فإن استغفر فبها، وإلا ألصقت به الخطيئة.

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **«تَعَطَّرُوا بِالِاسْتِغْفَارِ، لَا تَفْضَحَنَّكُمْ رَوَائِحُ الذُّنُوبِ»**[٣].

فمن أكل البصل -مثلاً- وهو يريد لقاء الناس، تراه يستفيد من العطر، حتى لا ينفر الآخرون من رائحة فمه. وهكذا الفرد العاصي الذي أصبحت روحه كريهة الرائحة، عليه أن يتعطر بعطر التوبة والاستغفار الصادق، لطرد هذه الرائحة عن روحه وكل وجوده.

وقد ورد عن الأئمة المعصومين عليهم السلام، أن النور يغرب عن وجه من يسترق النظر إلى بيت جاره ويختلس النظرة الحرام، وهذا هو شأن ارتكاب الذنب، حيث يترك أثراً سلبياً على حياة الإنسان. إن الله عز وجل ينظر إلى الفرد المذنب بعين الغضب، وللأسف نجد الكثير من الأفراد يستاؤون إذا ما غضب الناس منهم أكثر من استيائهم وذعرهم من غضب الله عليهم!.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٥.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٥.
(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٦.

العزم على هجر الذنوب

الباب الآخر الذي عقده المرحوم العاملي رحمه الله في (وسائل الشيعة)، هو الباب السادس والثمانون من كتاب جهاد النفس، تحت عنوان: (باب وجوب التوبة من جميع الذنوب والعزم على ترك العود أبداً)، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن من شروط التوبة، معرفة الذنب وأبعاده الخطيرة،إذ أن من أذنب، وكان بصدد تبريره بشكل من الأشكال، فإنه لا يستطيع أن يتوب إلى الله توبة حقيقية.

إن معرفة الذنب وخطورته، والعزم على التوبة والتصميم على عدم العود إلى ارتكاب الذنوب، يعتبر من الواجبات الشرعية ذات الأولوية.

وروي عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إِذَا تَابَ الْعَبْدُ تَوْبَةً نَصُوحاً أَحَبَّهُ اللَّهُ، فَسَتَرَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**. قُلْتُ: وَكَيْفَ يَسْتُرُ عَلَيْهِ؟. قَالَ عليه السلام: **يُنْسِي مَلَكَيْهِ مَا كَتَبَا عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَيُوحِي إِلَى جَوَارِحِهِ اكْتُمِي عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ، وَيُوحِي إِلَى بِقَاعِ الْأَرْضِ اكْتُمِي مَا كَانَ يَعْمَلُ عَلَيْكِ مِنَ الذُّنُوبِ، فَيَلْقَى اللَّهَ حِينَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ**»[١].

وتعلمون أن الأرض والسماء تشهدان على أفعال ابن آدم، ومن هنا؛ فقد أكدت الرواية عن المعصوم عليه السلام استحباب أن يصلي الفرد المؤمن صلواته المستحبة في أماكن مختلفة، لتشهد له الأماكن والبقاع التي صلى عليها في يوم القيامة.

وجاء في الحديث الخاص بتفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ**﴾[٢]. قال عليه السلام: **الْمَوْعِظَةُ التَّوْبَةُ**»[٣].

ونقل أبو بصير رحمه الله عن الإمام الصادق عليه السلام بعد أن قرأ قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا**

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٦.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.
(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٧.

الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾[١]، قَالَ عليه السلام: **هُوَ الذَّنْبُ الَّذِي لاَ يَعُودُ فِيهِ أَبَداً. قُلْتُ: وَأَيُّنَا لَمْ يَعُدْ؟. فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ؛ إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ الْمُفَتَّنَ التَّوَّابَ»**[٢].

منزلة التائب

إن ارتكاب الذنب يشبه السقوط من القمة إلى الوادي.

أما التوبة؛ فهي تعيد الإنسان التائب إلى القمة، بل وترفع درجته إلى مستوىً أعلى مما كان عليه قبل ارتكابه للذنب. وفي الواقع، فإن التوبة تقفز بالتائب قفزات طويلة واستثنائية.. وحسب الوصف القرآني لحال التائب فإن سيئاته -بعد التوبة الصادقة وقبولها- تتبدل إلى حسنات.

إن الفرد الخاطىء إذا تاب توبة نصوحاً، ستتولد فيه حالة كره ونفرة شديدة إزاء ما ارتكبه من الذنب، فيلوم نفسه أشد اللوم.

إن الله سبحانه وتعالى لا يحب عبده الذي يختار العزلة بداعي الحصول على الورع والتقوى، فإذا كان هناك من يختار قمة الجبل أو مغارته فيقضي أيامه بالعبادة والأذكار في تلك الأجزاء الهادئة والأماكن الساكتة، تهرباً من احتمال ارتكاب الذنوب فإن الله لا يحب هذا الخيار الذي يتمسك به البعض أبداً، وإنما يحب أن يتعرض العبد للفتنة بشكل دائم، وأن يتوب إليه تواضعاً إذا ما أخطأ وارتكب ذنباً من الذنوب. فيدخل الوسط الاجتماعي، ويدخل السوق، ويتعرض لإغراء الرشوة، فيضع نفسه بين الله سبحانه وتعالى وبين الشيطان، فيختار الله على الشيطان.. ويعلن تمسكه بالعقل والحق والهدى وإنابته إلى ربه الكريم. إن الله تبارك اسمه يحب لعبده أن يصنع على عينه، وأن تصاغ شخصيته طبقاً لهذا الواقع.

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْفُضَيْلِ، عَنْ أَبِي الصَّبَّاحِ الْكِنَانِيِّ: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام

---

(١) سورة التحريم، آية: ٨.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٧.

عَنْ قَوْلِ اللّـهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا تُوبُـوا إِلَـى اللَّـهِ تَوْبَـةً نَصُوحًـا﴾[١]، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **يَتُوبُ الْعَبْدُ مِنَ الذَّنْبِ ثُمَّ لَا يَعُودُ فِيهِ**. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفُضَيْلِ، سَأَلْتُ عَنْهَا أَبَا الْحَسَنِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **يَتُوبُ مِنَ الذَّنْبِ ثُمَّ لَا يَعُودُ فِيهِ، وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ الْمُفَتَّنُونَ التَّوَّابُونَ**»[٢].

يبدو أن السؤال كان يختلج في صدر الراوي، إذ البشر معرضون لارتكاب الذنب في كل لحظة، وهم حتى وإن تابوا، فإن أرضية اقتراف الذنوب لاتمحى عن وجودهم، فيعلن الإمام عليه السلام له بأن الله تعالى يحب عبده على حقيقته هذه.. وأن أفضل عبيد الله من يتعرضون للامتحان بصورة متواصلة، فإن وقعوا في الخطيئة، تراهم يصممون على النهوض والعودة إلى الجادة الحق من فورهم.

والجدير ذكره أن (التوبة النصوح) التي يأتي ذكرها في النصوص الدينية، تعني: التوبة الصادقة التي ليس فيها شيء من خداع الذات.

إدمان الخطيئة

هناك بعض الأشخاص يستعيضون عن التوبة بالتعود على ارتكاب الذنوب، حيث تراهم يبررون أخطاءهم وذنوبهم بأوهن التبريرات، ثم ينتقلون إلى مرحلة أردأ، فيستغنون عن سرد الأعذار، لأن الذنوب تصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتهم.

أما الرواية الخامسة في هذا الباب، فهي قول المعصوم عليه السلام: «**إِنَّ اللَّـهَ أَعْطَى التَّائِبِينَ ثَلَاثَ خِصَالٍ لَوْ أَعْطَى خَصْلَةً مِنْهَا جَمِيعَ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنَجَوْا بِهَا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٣]، فَمَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ لَمْ يُعَذِّبْهُ وَقَوْلُهُ: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[٤]. وَقَوْلُهُ:**

(١) سورة التحريم، آية: ٨.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٧.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.
(٤) سورة غافر، آية: ٧.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾[1]»[2].

وأرى من المناسب أن أذكّر القراء الأعزاء بأن القرآن الكريم يبيّن المسائل المعنوية عبر الشواهد المادية، لأن الإنسان غالباً ما يرتبط بالماديات، وهوإذا كان ذكياً فطناً، اتعظ وتعلم واستلهم المعنويات لدى توفير المتطلبات المادية لنفسه. ومثال ذلك: استحباب أن يتوب الإنسان أثناء الغسل، لأنه يشاهد الأوساخ تتساقط عن بدنه في الحمام، فيكون ذلك مدعاةً له لإلهام الروح التي استعدت للتعلم عبر ما تراه من النظافة البدنية؛ بمعنى ضرورة إزاحة الأوساخ المعنوية عن الروح ودفعها إلى نيل الفلاح والصلاح.

الجمع بين الدروس الدينية والدنيوية

إن من الجدير بمعلمي الأطفال والأشبال أن يجمعوا لهم علم المسائل المادية والمعنوية في آنٍ واحد، وأن يستفيدوا كل الاستفادة من الأرضية الموجودة في روحياتهم.

فإذا أرادوا أن يكرّهوا لهم الكذب مثلاً، فلهم أن يخاطبوهم بالقول: إنني لا أحب النجاسة! وكذلك لا أحب الكذب!.

وقد استخدم الله سبحانه وتعالى هذا الأسلوب في الآية الشريفة القائلة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[3].

ومن الطبيعي أن الله المنان لا يرمي من يحبهم إلى ألسنة النار الرهيبة.

ثم إنه قد جاء في نهاية الحديث الذي تلوناه: أن الله تعالى قال في سورة الفرقان ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾[4].

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٧٠.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٧٠.

وأنا شخصياً أدعو أثناء الصلاة في بعض الأحيان قائلاً:

إلهي! إن ما أؤديه من الصلاة، ليس هي الصلاة المطلوبة، فاقبلها مني بمنك وقدرتك التي تبدل بها السيئات إلى حسنات، وإن لم تقبلها أكن من الهالكين.

إذ إنني أفكر في كل شيءٍ خلال الصلاة، إلا ما يجب عليّ أن أفكر فيه!!.

وقد جاء في المأثور أن الله تبارك وتعالى ينبه العبد الغافل والمشتت الفكر أثناء الصلاة ويقول له: أين تذهب؟!.

فيعود المصلي إلى وعيه. وإذ يغفل المصلي مرة أخرى، يعود الله عليه بالتذكير له قائلاً: هل وجدتَ من هو أفضل مني؟!. فيعود المصلي إلى صلاته تارة أخرى.

وحينما ينفصل المصلي عن معاني العبادة وآفاقها للمرة الثالثة وينشغل بمشاغله الدنيوية أثناءها، يقول الله سبحانه وتعالى له: اذهب فلا شأن لي بك!.

إن الصلوات التي نصليها، لها هذه الحالة نفسها.. ولكن النوافل والمستحبات تأخذ دور أداة سد النقص وتلافي الخلل الحاصل في الفرائض، وهي متممة لها في واقع الأمر، فإذا ألزمنا أنفسنا بأداء ٣٤ ركعة مستحبة طيلة اليوم وهي النوافل اليومية، فإننا نكون قد نلنا توفيقاً من الله سبحانه. فالبعض يجلس إلى التلفاز خلال اليوم ساعات طويلة، في حين من الأنسب أن يخصص بعض هذه الساعات لأداء المستحبات، لا سيما وأن الفرصة متاحة أمامنا للاستفادة من فترة عمرنا، قياساً بالأجيال التي سبقتنا، إذ كانت تصرف من وقتها الكثير للتنقل أو إعداد وسائل الإضاءة، حيث لم تكن السيارات قد صنّعت بعد، ولا الطاقة الكهربائية قد اكتشفت. أوليس من المناسب إزاء هذه النعم الربانية التي اختصرت لنا المتاعب، أن نؤدي بعض المستحبات؟.

كما ينبغي أن لا نؤدي صلواتنا بصورة عاجلة خاطفة.

ينقل أن أحدهم قصد إماماً من الأئمة المعصومين عليهم السلام لحاجة معينة، فقيل

له: إن الإمام قائم يصلي، فجلس الرجل إلى جانب مصلى الإمام مدة ثلاث ساعات حتى فرغ من صلاته. وكما نُقل أن أمَّ الإمام الرضا عليه السلام، (تُكتمُ) قالت: «أَعِينُونِي بِمُرْضِعَةٍ. فَقِيلَ لَهَا: أَنَقَصَ الدَّرُّ؟. فَقَالَتْ: لَا أَكْذِبُ وَاللَّهِ مَا نَقَصَ، وَلَكِنْ عَلَيَّ وِرْدٌ مِنْ صَلَاتِي وَتَسْبِيحِي..»[1].

أما الإمام علي عليه السلام؛ فقد كان ينشغل بالعبادة أكثر ساعات الليل، كما كان يصرف كل وقته في النهار لإدارة شؤون المجتمع والحكومة، وكانت علامات الأرق بادية على محياه الشريف، وقد نقل عن بعض أصحابه وهو (الأصبغ بن نباته)، تحرقه على حال الإمام، وهو يخاطب الإمام قائلاً: يا أمير المؤمنين! لِمَ لا تنام بالقدر الذي تحتاجه، ولماذا لا ترتاح قليلاً؟ فيجيبه الإمام عليه السلام بالقول: إِنْ نِمْتُ النَهَار ضَيَّعْتُ رعيَّتي، وَإِنْ نِمْتُ الليل ضَيَّعْتُ نَفْسِي».

الصلاة والهجوم الثقافي

كثيراً ما يدور الحديث عن الغزو الثقافي في زمننا الحاضر، ولكن الشيء الوحيد الذي بإمكانه الوقوف بوجه هذا الغزو الكاسح هو الصلوات الكاملة والطويلة، في حين نجد البعض يأكلون صلواتهم ويلتهمونها، بدلاً من أن يؤدوها بصورة صحيحة، فيصلونها نقراً كنقر الغراب، حيث العجلة البالغة،وكأنهم يفرون من مقتلهم!!

وقد نقل لي: أن هناك رجلاً يعمل في السوق يعيد ذكر الركوع سبعين مرة. ترى كيف نسمح لأنفسنا بالجلوس إلى متابعة مجريات لعبة كرة القدم لمدة ساعة ونصف على أقل تقدير، فلا نشعر بمرور الوقت، بينما نشعر بمشقة كبيرة لدى وقوفنا للصلاة، فنبتغي أداءها بسرعة خارقة لنتخلص منها!.

وسألني أحدهم ذات مرة: هل الشطرنج باعتباره رياضة فكرية حرام؟.

فأجبته على الفور: إن لعبة الشطرنج حرام لك بالذات! إذ من الواجب عليك

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٩، ص٤.

أن تحافظ على وقتك بذكر الله تعالى، وإنك تختلف عن ذلك الشاب الذي يريد قتل وقته بنحوٍ من الأنحاء.

وقد وردت في كتاب مفاتيح الجنان الشريف صلاة خاصة بشهر جمادي الثانية، يستغرق أداؤها حوالي ساعة كاملة، أما فائدتها التي تعود على الإنسان في الدنيا، فهي حفظه وعائلته إلى السنة القابلة من شر الآفات والبليات، وإذا وافاه الأجل خلال السنة، فإنه يموت شهيداً. فيقرأ في الركعة الأولى بعد الحمد آية الكرسي، وبعدها سورة القدر خمساً وعشرين مرة، وفي الركعة الثانية يقرأ بعد الحمد خمساً وعشرين مرة سورة التكاثر. أما في الركعة الثالثة؛ فتقرأ سورة الكافرون مرة واحدة، والفلق خمساً وعشرين. وفي الركعة الرابعة والأخيرة فيقرأ فيها بعد الحمد سورة الفتح مرة وسورة الناس خمساً وعشرين مرة.

وبعد إكمال الركعات الأربع يقول سبعين مرة: «**سُبْحانَ اللّهِ وَالْحَمْدُ لِلّهِ، وَلا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ**». ثم «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ**» سبعين مرة، ثم يقول ثلاثاً: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**». ثم يسجد ويقول في سجوده ثلاثاً: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا ذَا الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ، يَا اللَّهُ يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ**».

تقول الرواية السادسة في هذا الباب عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وَتَعالَى أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ وَزَادَهُ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ فَوَجَدَهَا فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ بِرَاحِلَتِهِ حِينَ وَجَدَهَا**»[1].

فلنطلب من الله تعالى أن يوفقنا للقيام بالأعمال التي ترضيه ولا تغضبه!.

التائب كمن لا ذنب له

نقل عن الإمام محمد الباقر عليه السلام في الرواية الثامنة من الباب السادس والثمانين من أبواب جهاد النفس في (وسائل الشيعة) أنه قال: «**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ**

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٨.

كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ وَالْمُقِيمُ عَلَى الذَّنْبِ وَهُوَ مُسْتَغْفِرٌ مِنْهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ»[١].

وجاء في الرواية التاسعة عن أبي بصير عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: «**أَوْحَى اللَّهُ إِلَى دَاوُدَ النَّبِيِّ عليه السلام يَا دَاوُدُ إِنَّ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً ثُمَّ رَجَعَ وَتَابَ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ وَاسْتَحْيَا مِنِّي عِنْدَ ذِكْرِهِ غَفَرْتُ لَهُ وَأَنْسَيْتُهُ الْحَفَظَةَ وَأَبْدَلْتُهُ الْحَسَنَةَ وَلَا أُبَالِي وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**»[٢].

إن أهم عامل يوصل الإنسان إلى هذه الحالة، ورغم الخطأ الصادر منه، هو عودته بعد الذنب إلى رحاب الله، والاستحياء منه. علماً أن هذا الحديث يكشف عن ناحية من نواحي العظمة الإلهية التي تعجز أذهاننا المحدودة عن إدراكها واستيعاب كنهها.

وفي الواقع، إن الله تبارك اسمه يضفي على قلوب المؤمنين القدرة على مواصلة عبادته، ولو لم تكن هذه النعمة الإلهية لتهاوت قلوب أحباء الله المؤمنين إزاء القدرة الربانية الأزلية. إن قلب المؤمن كان أقوى من الحديد، حيث استطاع استيعاب نور الله تعالى في داخله.

وجاء في الحديث العاشر للباب عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ تَابَ تَابَ اللَّـهُ عَلَيْهِ وَأُمِرَتْ جَوَارِحُهُ أَنْ تَسْتُرَ عَلَيْهِ وَبِقَاعُ الْأَرْضِ أَنْ تَكْتُمَ عَلَيْهِ وَنَسِيَتِ الْحَفَظَةُ مَا كَانَتْ كَتَبَتْ عَلَيْهِ**»[٣].

وفي الرواية الحادية عشرة للباب عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إِنَّ لِلَّهِ فُضُولًا مِنْ رِزْقِهِ يَنْحَلُهُ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ وَاللهُ بَاسِطٌ يَدَهُ عِنْدَ كُلِّ فَجْرٍ لِمُذْنِبِ اللَّيْلِ هَلْ يَتُوبُ فَيَغْفِرَ لَهُ وَيَبْسُطُ يَدَهُ عِنْدَ مَغِيبِ الشَّمْسِ لِمُذْنِبِ النَّهَارِ هَلْ يَتُوبُ فَيَغْفِرَ لَهُ**»[٤].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٥٩.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص ٣٥٩.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٥٩.
(٤) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٥٩.

ولعلكم قد شعرتم بحالة طيبة تستولي عليكم حينما تزورون البقاع المقدسة كحرم الإمام الحسين أو الإمام الرضا أو الإمام الهادي عليهم السلام في مدن كربلاء ومشهد وسامراء.

وفي إطار تشبيه ما نقصده، يمكن القول إن الأماكن الطاهرة المذكورة تشبه الأماكن المليئة بغاز الأوكسجين الذي يبعث في روح الإنسان الطراوة والنشاط والانبساط.

إن أرواح الملائكة والصديقين تطوف في بعض الأماكن المقدسة، ولهذا التواجد الأثر الروحي الكبير على بعض الناس.

كما أن هناك بعض الأزمنة التي تحمل معها النفحات الإلهية أكثر من غيرها، فلحظة الفجر التي تتلو فترة السحر تختص بالله تعالى، أما الإنسان الذي يستيقظ في تلك اللحظة ويغتنم جوهرها، فإنه يتعرض إلى النفحات الربانية دون أدنى شك، وقد جاء في القرآن الكريم: **﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾**[1].

وقد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة روايات عديدة، وأرى الأقرب منها أن المقصود بقرآن الفجر هو قراءة القرآن أثناء الفجر. ومن بين الصلوات اليومية، هناك صلاتان تؤديان في أول الوقت، ومن دون مقدمة كصلاة النافلة، وهما صلاة المغرب والفجر. ولكي يختص جميع الوقت بصلاة المغرب، فقد جعلت نافلتها تاليةً لها.

ومن الأفضل أن تؤدى ركعتا الفجر في أول الوقت دون أي تأخير، وقد بلغتنا من الروايات ما تشير إلى أفضلية أداء نافلة الصبح قبل أذانه؛ متصلة بصلاة الليل، حتى تصلى الفجر مباشرة بعد دخول الوقت، وذلك لكي يتسنى للعبد المؤمن التعرض للنفحات الربانية الخاصة بهذا الوقت.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٨.

وعلى هامش ذكر صلاة المغرب، هناك بحث علمي حول ما إذا كان المقصود من المغرب هو زوال الحمرة المشرقية من وسط السماء أم غياب قرص الشمس؟.

لقد وضع الفقهاء، ومنهم المحقق الهمداني في كتاب صلاته بهذا الخصوص بحوثاً عديدة، وكان الكثير من الفقهاء المتقدمين يعتقدون بأن المغرب هو سقوط قرص الشمس.

وحينما تغرب الشمس، تظهر حمرة مميزة من ناحية المشرق وتبدأ بالصعود شيئاً فشيئاً إلى وقت الغروب الكامل للشمس، ثم تذهب هذه الحمرة..ويقابل ذلك إمكانية رؤية الحمرة من ناحية المغرب حين طلوع الشمس صباحاً.

وعلى أية حال؛ يبدو أن أهل البيت عليهم السلام قد عدّوا ظاهرة الحمرة دليلاً على دخول وقت صلاة المغرب والفجر أي غياب الحمرة المشرقية في المغرب علامة غياب الشمس وسقوط القرص.

والرواية الثانية عشرة في باب وجوب التوبة، نقلت عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام فيما يخص تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ**﴾،حيث قال: «**هِيَ الْإِقَالَةُ**»[1]. والإقالة هي فسخ العقد والعود إلى الحالة السابقة.

فبينما ينال الفرد المذنب التوبة من ربه، يعود إلى الحالة السابقة التي كان عليها قبل ارتكاب المعصية. وقد استخدمت مفردة «**الْإِقَالَةُ**» في دعاء كميل المشهور، حيث جاء فيه: «**وَمُنَّ عَلَيَّ بِحُسْنِ إِجَابَتِكَ، وَأَقِلْنِي عَثْرَتِي، وَاغْفِرْ زَلَّتِي..**».

ونقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القول في الرواية الثالثة عشرة: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى كَمَثَلِ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ مُؤْمِنٍ تَائِبٍ وَمُؤْمِنَةٍ تَائِبَةٍ**»[2].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٠.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٥٩.

إن لحظة التوبة لحظة عرفانية سامية، لأن الإنسان التائب يشعر في تلك اللحظة ويحس بمعنى العبودية بتمام وجوده، وتأخذ طبيعة خضوعه وعبوديته حالة أفضل من عبادته، ذلك لأن لحظة العبادة قد تصطبغ بصبغة العجب أو الرياء، ولكن لحظة التوبة هي لحظة انكسار، وهو جوهر وكنه العبودية.

وجاء في الرواية الخامسة عشرة عن الإمام الصادق عليه السلام إذ قال: «**لَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِرَجُلَيْنِ رَجُلٍ يَزْدَادُ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِحْسَاناً وَرَجُلٍ يَتَدَارَكُ ذَنْبَهُ بِالتَّوْبَةِ وَأَنَّى لَهُ بِالتَّوْبَةِ وَاللهِ لَوْ سَجَدَ حَتَّى يَنْقَطِعَ عُنُقُهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ إِلَّا بِوَلَايَتِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ**»[١].

ونقرأ في دعاء يوم الثلاثاء الوارد في كتاب (مفاتيح الجنان): «**وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَالْوَفَاةَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ..**».

ولا شك أن التوبة لا تتحقق إلا بالدخول من باب ولاية أهل البيت عليهم السلام.

أما الرواية الأخيرة في هذا الباب، فهي قول الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**اعْتَرِفُوا بِنِعَمِ اللَّـهِ رَبِّكُمْ، وَتُوبُوا إِلَى اللَّـهِ مِنْ جَمِيعِ ذُنُوبِكُمْ، فَإِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ مِنْ عِبَادِهِ**»[٢].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٠.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٠.

3

شروط التوبة

إن الفرد التائب ينبغي أن يعلن توبته دون أن تشوبها شائبة أو يدخلها رياء،بمعنى أن تسيطر على عزمه وإرادته حالة الندم والانكسار، فلا يبقى الاستغفار مقتصراً على اللسان.

قال محمد بن أحمد بن هلال: سَأَلْتُ أَبَا الْحَسَنِ الْأَخِيرَ، الإمام الهادي عليه السلام عَنِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ مَا هِيَ؟ فَكَتَبَ عليه السلام: **«أَنْ يَكُونَ الْبَاطِنُ كَالظَّاهِرِ وَأَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ»**[1].

وهنا؛ يجب التنبيه إلى قضية مهمة، وهي: أننا نفتقر إلى وسائل فهم الغيب،حيث نجهل غدنا، ولا نعلم متى نموت، وكيف، وأين..؟ كما لا ندري- حينما نوضع في لحدنا- ما إذا كانت توبتنا قد قُبلت، أم لم تقبل؟.

إن حياتنا الطبيعية قائمة على أساس التجربة والتعلم.. فنبدأ العمل ونخوض غمار الحياة، وخلال ذلك نقوم بسد النقائص وتلافي الأخطاء وإصلاح الإنجاز؛ بل وقد نترك ما قمنا به وسط الطريق، لنبدأ من جديد. ولكن حينما يتم الحديث عن الأمور الأخروية فلا يمكن تصور الاستفادة من الأسلوب التجريبي.. إذ لا مجال

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦١.

هنا للتجربة.. ولذا علينا في هذا السبيل الرجوع إلى أبواب الرحمة الإلهية المتمثلة بأهل البيت عليهم السلام الذين لهم الصلة الوثيقة بالغيب، ونحن من جانبنا نستطيع تنظيم سلوكنا وفقاً لسلوك هؤلاء العظام، فنضمن لأنفسنا السير في الطريق القويم.

إن خطاب أهل البيت عليهم السلام يختلف عن خطاب أي إنسان. فالناس العاديون خلال أحاديثهم اليومية يتورطون في لغو الحديث وباطله، حتى أن كلماتهم الصائبة قد تضيع بين طيات كلماتهم الخاطئة، الأمر الذي يستدعي القيام بالفصل بينهما وانتخاب إحداهما.

وتارة تكون أحاديث الناس متشابهة.. وها هي الصحف والجرائد تتشابه عناوينها ومطالبها ونصوصها، بلى وحتى مفرداتها.

وهناك الآلاف من المحطات الإذاعية والتلفازية في أرجاء العالم تبث برامجها،ولا يعلم خطاب أي منها؛ باطلاً أو حقاً.

إذاً بينما نعلم أن كلماتهم عليهم السلام لا يشوبها باطل أو ريب علينا أن نخلق في أنفسنا أرضية استحقاق الجنة وضيافة الله سبحانه وتعالى بالاستعانة بالتعاليم والوصايا التي وضعها أهل البيت عليهم السلام، وأن نحذر كل الحذر من التفريط بكل شيءٍ، أو نقع في المصير الحالك الذي وصفه الله تعالى بقوله العزيز: **﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾**[1].

إن علينا أن نستمع القول بأذن واعية ودقيقة، وأن نستعد روحياً ونفسياً لاستقبال الخطاب الطيب والمفيد.

أما فيما يخص أفراداً من أمثالنا الذين ارتدوا زي العلماء ورجال الدين فيجب -كما وردت التوصية بذلك في الأحاديث والروايات- أن يكون باطننا أفضل من ظاهرنا. فحينما أشاهد -أنا العالم الديني- أن الناس يثقون بي كل الثقة ويقصدونني

(١) سورة الحج، آية: ١١.

ويطلبون مني الاستخارة والاستشارة فيما يحتارون فيه، ويسألونني أن أدعو لهم الله تبارك وتعالى، فهذا ما يشير إلى أن الناس قد اتخذوني وأمثالي قدوة لهم، ونظروا إليَّ نظرة خاصة ومميزة، وهذا الأمر هو الذي يدفعني، أو هكذا ينبغي أن يكون، إلى النهوض بمستوى حقيقتي الباطنية إلى حيث يتصورون على أقل تقدير.

إن هناك من الأشخاص من صنع لنفسه هيبة مزورة تجذب الناس إليها بعد أن تنال إعجابهم من النظرة الأولى، في حين كان ينبغي أن يكون الظاهر والباطن بمستوىً واحد، لئلا يصدق اسم النفاق على الإنسان.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في الرواية الثانية: «**التَّوْبَةُ النَّصُوحُ أَنْ يَكُونَ بَاطِنُ الرَّجُلِ كَظَاهِرِهِ وَأَفْضَلَ**»[1].

وجاء في الرواية الثالثة التي رواها الشيخ الصدوق رضي الله عنه : «**أَنَّ التَّوْبَةَ النَّصُوحَ هُوَ: أَنْ يَتُوبَ الرَّجُلُ مِنْ ذَنْبٍ وَيَنْوِيَ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهِ أَبَداً**»[2].

فماذا تعني «نية»؟، عدم العود إلى المعصية. هل يكفي مجرد الحديث مع النفس لتحقق النية المطلوبة؟.

كلا، إن حديث النفس درجة ضعيفة من النية، إذ النية ينبغي أن تكون مقرونة بالعزم والتصميم القاطع على القيام بعمل ما. ومَن يعزم على إنجاز ما يريد، عليه أن يزيح كافة الموانع التي تحول دون تحقيق إرادته.

ومن جملة الموانع؛ وساوس الشيطان التي لها الدور الكبير في إضعاف إرادة الإنسان وتثبيط همته. وعلى هذا الأساس؛ ومع الأخذ بعين الاعتبار الموانع والعقبات الموجودة في طريق النوايا والهمم والعزائم، لا يمكن بحال من الأحوال الادّعاء بأن فلاناً ينوي القيام بالعمل الفلاني، إلا إذا كان مستعداً كل الاستعداد بالمفهوم العام له، بعد أن كان قد صدق في مواقف سابقة.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦١.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦١.

شروط الاستغفار

وجاء في الرواية الرابعة في الباب نقلاً عن (نهج البلاغة) أن قائلاً قال بحضور أمير المؤمنين عليه السلام: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ. فَقَالَ عليه السلام: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ أَ تَدْرِي مَا الِاسْتِغْفَارُ؟. الِاسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ الْعِلِّيِّينَ وَهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ:**

أَوَّلُهَا: النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى.

وَالثَّانِي: الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَداً.

وَالثَّالِثُ: أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ.

وَالرَّابِعُ: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا.

وَالْخَامِسُ: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالْأَحْزَانِ حَتَّى يَلْصَقَ الْجِلْدُ بِالْعَظْمِ وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ.

وَالسَّادِسُ: أَنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»[١].

ويبدو أن الإمام علي عليه السلام أحس بأن الرجل المستغفر لم يفهم من الاستغفار غير لفظه البسيط، فقرعه بحديث مفصّل وتوجيه مباشر، وأكد له أن للاستغفار جملة من الشرائط ينبغي إحرازها، ليأخذ الاستغفار مصداقيته.

الشرط الأول: الندم على ما مضى، فتارة تعترض الفرد حالة سريعة من الانفعال والانكسار، وتارة تعتريه أمواج من الندم والحسرة على ما فرط في أمره.

وقد تناقلت الصحف ذات مرة أن رجلاً توجه بالضرب المبرح لولده الذي كان قد حطم زجاجة في بيته حتى أدمى يده، فاضطر إلى نقله إلى المستشفى التي

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٦١.

لم يجد الأطباء فيها علاجاً سوى قطع كفه.

وحينما عاد الأب ولده، قال له وهو مستلقٍ على سريره:

يا أبي! لن أكسر زجاجةً بعد اليوم، ولكن أعد عليَّ كفيّ!!.

فهزت هذه الجملة كيان الأب الذي فاجأ الجميع بأن ألقى بنفسه من أعلى بناية المستشفى!.

وهذه الحالة تعتبر قمة الندم، ولنا أن نتصور بأن هذا الرجل إن كان يبقى في الحياة، فإنه لم يكن ليكرر ما قام به بحق ولده أبداً، بل ولم يكن ينسى ما قام به مطلقاً.

ولا شك أن الإنسان إذا وصل إلى درجة الندم الحقيقي، فإنه لن يعود إلى ارتكاب الذنب.

الشرط الثاني: العزم على عدم العود إلى إرتكاب الذنب

أما الشرط الثاني الذي وضعه أمير المؤمنين عليه السلام للاستغفار؛ فهو: العزم على عدم العود إلى ارتكاب الذنب أبداً.

والشرط الثالث هو: أداء حقوق الناس وإعادة ما ضيعه منها، وجبر الخسارة التي لحقت بهم.

فتارة يؤخر المرء إعادة الحقوق إلى ذويها بداعي التساهل والتكاسل.

وقد نكون قد اغتبنا أحد الأشخاص، الأمر الذي يلزمنا الاعتذار منه وطلب إبراء ذمتنا، ولكن وساوس الشيطان لا تسمح للإنسان بإنجاز هذه المهمة الإيمانية.

وقد استخدم الإمام المعصوم عليه السلام في الحديث أعلاه لفظ «**أَمْلَسَ**» الذي يفيد وجوب أن يخرج الإنسان من الدنيا طاهراً نقياً، ليلقى الله بقلب سليم، كما الأملس الخالي من الشعر.

والشرط الرابع: (الاستغفار)، وهو: أداء حق الفرائض الدينية.

والشرط الخامس: إذابة اللحم النابت من الحرام بالحزن وممارسة العبادة حتى يلصق الجلد بالعظم وينبت لحم جديد من الحلال.

والشرط السادس: إذاقة الجسم ألم الطاعة، كما كان قد ذاق حلاوة المعصية.

هناك بعض الناس من يمارس الصلاة دون أن يكلف نفسه عناءً يذكر، أو يضغط عليها شيئاً قليلاً، في حين هناك من يلزم نفسه ويضغط عليها ليتحسس لذة العبادة والخشوع.

وأنا شخصياً أعرف من المؤمنين من يضع في حقيبة سيارته الخلفية الطعام وبعض المستلزمات الضرورية والمنزلية ويخرج بها ليلاً، ليوزعها على الفقراء والمحتاجين الذين كان قد عرف فيهم العوز والحاجة. إن هؤلاء المؤمنين أشخاص عاديون، وقد رسموا لأنفسهم هذا البرنامج، حتى أنهم حينما يخرجون من بيوتهم يحرصون على أن لا يتنبه إليهم أحد.

ولقد وصفت السيدة الصديقة الزهراء عليها السلام أمير المؤمنين عليه السلام بأنه: «**مَكْدُوداً فِي ذَاتِ اللَّهِ**»[1]. بمعنى أنه كان يتعب نفسه في سبيل الله أشد التعب. وقد قال عبدالله ابن الإمام السجاد عليه السلام في وصفه أباه: «كَانَ أَبِي يُصَلِّي بِاللَّيْلِ حَتَّى يَزْحَفَ إِلَى فِرَاشِهِ»[2].

وبعد أن بيّن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام شروط الاستغفار قال: «**فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ أَسْتَغْفِرُ الله**».

التوبة الواقعية

أخبرني أحد المؤمنين من طلاب العلوم الدينية قائلاً: قبل عدة ليالٍ، جاءني أحدهم وقال لي: إنني أعيش في سويسرا، وزوجتي إيرانية، فشب خلاف بيننا، ثم

(١) بحار الأنوار، ج٢٩، ص٢٢٣.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٩٩.

إنها طلبت مني أن لا أطلقها، وأن نكتفي بمجرد الانفصال، على أن نعيش في مكان واحد، فقبلت منها ذلك. ثم إنني أقمت علاقة مع امرأة أخرى، وانتهيت إلى التلوث بالخطيئة.. وها أنا ذا الآن قد قصدتك حتى تطهرني بالطريقة التي تراها صالحةً، فإن رأيت إعدامي، فأعدمني!!.

إن هذه التوبة والرجعة لها أهميتها وقيمتها الكبرى، لأن ضمير هذا الرجل إن كان خاملاً كان باستطاعته مواصلة الحياة في نعيم أوربا المادية بكل هدوء.

ويضيف الطالب المشار إليه قائلاً: لقد قلت للرجل: إن غداً هو يوم الجمعة، وسأذهب إلى الصلاة، فرافقني إلى حيث تقام، فأعلن لي عندها ندمه مرةً أخرى، وطلب مني أن أهيّئ له العقوبة المناسبة. فقلت له: يجب أن لا تعلن للآخرين ذنوبك، بل عليك أن تخلو إلى ربك سبحانه وتعالى، وتطلب منه المغفرة والعفو، واسْعَ ما أمكنك إلى إزاحة الذنوب التي ارتكبتها، عن طريق ما تقوم به من صالح الأعمال، وأعد زوجتك إلى بيتك، وحاول أن تخلق جواً عائلياً جديداً لكما..

أقول: إن هذا الرجل المذنب لو كانت زوجته في متناوله، ثم قام بجريمة الزنا، لكان من نوع زنا المحصن، واستحق الرجم على ذلك، ولكن مهما كان الأمر،فإنه يبقى عليه الاعتراف بذنبه إلى الله تعالى.

وقد روي أن أحدهم جاء إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام معرباً له أنه ارتكب خطيئة قوم لوط، «فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي أَوْقَبْتُ عَلَى غُلَامٍ فَطَهِّرْنِي.

فَقَالَ عليه السلام لَهُ: **يَا هَذَا امْضِ إِلَى مَنْزِلِكَ، لَعَلَّ مِرَاراً[1] هَاجَ بِكَ.**

فَلَمَّا كَانَ مِنْ غَدٍ عَادَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي أَوْقَبْتُ عَلَى غُلَامٍ فَطَهِّرْنِي. فَقَالَ عليه السلام لَهُ: **يَا هَذَا امْضِ إِلَى مَنْزِلِكَ لَعَلَّ مِرَاراً هَاجَ بِكَ.**

حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثاً، بَعْدَ مَرَّتِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا كَانَ فِي الرَّابِعَةِ، قَالَ عليه السلام لَهُ:

---

(١) المَرارة، التي فيها المِرَّةُ، وهي: إحدى الطبائع الأربع من أمزجة البدن. لسان العرب، مادة: (مرر).

يَا هَذَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ **حَكَمَ فِي مِثْلِكَ بِثَلَاثَةِ أَحْكَامٍ، فَاخْتَرْ أَيَّهُنَّ شِئْتَ.**

قَالَ: وَمَا هُنَّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟. قَالَ عليه السلام: **ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ فِي عُنُقِكَ بَالِغَةٌ مَا بَلَغَتْ، أَوْ دَهْدَاهٌ مِنْ جَبَلٍ مَشْدُودَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ، أَوْ إِحْرَاقٌ بِالنَّارِ.**

فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَيُّهُنَّ أَشَدُّ عَلَيَّ؟. قَالَ عليه السلام: **الْإِحْرَاقُ بِالنَّارِ.** قَالَ: فَإِنِّي قَدِ اخْتَرْتُهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ عليه السلام: **فَخُذْ لِذَلِكَ أُهْبَتَكَ.** فَقَالَ: نَعَمْ.

فَقَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ فِي تَشَهُّدِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ أَتَيْتُ مِنَ الذَّنْبِ مَا قَدْ عَلِمْتَهُ، وَإِنِّي تَخَوَّفْتُ مِنْ ذَلِكَ فَجِئْتُ إِلَى وَصِيِّ رَسُولِكَ، وَابْنِ عَمِّ نَبِيِّكَ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يُطَهِّرَنِي فَخَيَّرَنِي بَيْنَ ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ مِنَ الْعَذَابِ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي قَدِ اخْتَرْتُ أَشَدَّهَا، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ ذَلِكَ كَفَّارَةً لِذُنُوبِي، وَأَنْ لَا تُحْرِقَنِي بِنَارِكَ فِي آخِرَتِي ثُمَّ قَامَ، وَهُوَ بَاكٍ، ثُمَّ جَلَسَ فِي الْحُفْرَةِ الَّتِي حَفَرَهَا لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، وَهُوَ يَرَى النَّارَ تَتَأَجَّجُ حَوْلَهُ، قَالَ: فَبَكَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، وَبَكَى أَصْحَابُهُ جَمِيعاً. فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: **قُمْ يَا هَذَا فَقَدْ أَبْكَيْتَ مَلَائِكَةَ السَّمَاءِ وَمَلَائِكَةَ الْأَرْضِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ تَابَ عَلَيْكَ، فَقُمْ لَا تُعَاوِدَنَّ شَيْئاً مِمَّا قَدْ فَعَلْتَ»**(١).

هل ترون ما يصنع الندم بروح الإنسان، حيث يوصله إلى تقديم حياته من أجل الخلاص من الموبقة وآثارها، ومن أجل الكدح إلى الله بقلب سليم؟.

أما الرواية الخامسة في هذا الباب، فقد نقلها المرحوم الحر العاملي قدس سره عن كتاب (تحف العقول) عن كميل بن زياد رضي الله عنه أنه قال للإمام أمير المؤمنين عليه السلام «الْعَبْدُ يُصِيبُ الذَّنْبَ فَيَسْتَغْفِرُ الله. فَقَالَ عليه السلام: **يَا ابْنَ زِيَادٍ التَّوْبَةَ.** قُلْتُ: لَيْسَ!.

قَالَ عليه السلام: **لَا.** قُلْتُ: كَيْفَ؟. قَالَ عليه السلام: **إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَصَابَ ذَنْباً قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ بِالتَّحْرِيكِ.** قُلْتُ: وَمَا التَّحْرِيكُ؟. قَالَ: **الشَّفَتَانِ وَاللِّسَانُ، يُرِيدُ أَنْ يَتْبَعَ ذَلِكَ بِالْحَقِيقَةِ.** قُلْتُ: وَمَا الْحَقِيقَةُ؟. قَالَ: **تَصْدِيقُ الْقَلْبِ وَإِضْمَارُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ**

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٠، ص٢٩٥.

الَّذِي اسْتَغْفَرَ مِنْهُ. قُلْتُ: فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَنَا مِنَ الْمُسْتَغْفِرِينَ؟.

قَالَ: **لَا، لِأَنَّكَ لَمْ تَبْلُغْ إِلَى الْأَصْلِ بَعْدُ.** قُلْتُ: **فَأَصْلُ الاِسْتِغْفَارِ مَا هُوَ؟.**

قَالَ عليه السلام: **الرُّجُوعُ إِلَى التَّوْبَةِ عَنِ الذَّنْبِ الَّذِي اسْتَغْفَرْتَ مِنْهُ وَهِيَ أَوَّلُ دَرَجَةِ الْعَابِدِينَ وَتَرْكُ الذَّنْبِ وَالِاسْتِغْفَارُ اسْمٌ وَاقِعٌ لِسِتَّةِ مَعَانٍ**»[١].

وطبقاً لهذا الحديث الشريف، فإن الاستغفار ليس لقلقة لسان فحسب، بل ينبغي أن يقترن بحقيقة التوبة، وحقيقة التوبة هي تصديق القلب.

جاء في الرواية: «**إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُكَذِّبُ الْكَذَّابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ..**»[٢]، ثم وجدانه.

وقد قامت بعض الدول المتقدمة تكنولوجياً بصناعة جهاز يكشف الكذب، فإذا أوصل الجهاز ببدن من يراد أخذ الاعتراف منه، كشفه كلما مارس الكذب!.

ويبدو أن طريقة عمل هذا الجهاز مرتبطة ارتباطاً كبيراً بالحالة العصبية للفرد نظراً لأنه إذا كذب، اضطربت لذلك أعصابه، فيعلن الجهاز مستوى الاضطراب للشخص المشرف على تشغيله واستخلاص النتائج منه.

وجذوة القول: إن الاستغفار ليس بالأمر اليسير، وطبقاً لهذا الحديث الشريف، لا يصح للفرد أن يتصور أن الله تعالى قد غفر له بمجرد ذكر الاستغفار على لسانه، وليعلم أن الاغترار برحمة الله تعالى يعتبر ذنباً بحد ذاته .

أيام التوبة وبعض آدابها

وطبقاً لروايات الباب (٨٨) من أبواب جهاد النفس في كتاب الوسائل، فإن من المستحسن للفرد العازم على التوبة أن يمهد الأرضية المناسبة لتطهير روحه، فيصوم ثلاثة أيام من الأسبوع، ثم يعلن توبته إلى ربه التواب الغفور.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٢-٣٦١.

(٢) الكافي، ج٢، ص٣٣٩.

فعن أبي بصير رضوان الله عليه عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿**تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا**﴾[١]. قالَ: «**هُوَ صَوْمُ يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ وَالْخَمِيسِ وَالْجُمُعَةِ**»[٢].

فالعبد يلمس ببدنه بهذا العمل الشاق وأمثاله الطاعة.

فمن وجهة نظر الإمام عليه السلام تعتبر الصلاة بعد ارتكاب الذنب كفارة عنه.

وقد ورد في الرواية فيما يخص تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾[٣]، أن المقصود الأول من الحسنات هو الصلاة.

وورد عن المعصوم عليه السلام في الرواية الثالثة: «**مَا مِنْ عَبْدٍ أَذْنَبَ ذَنْباً فَقَامَ فَتَطَهَّرَ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ وَكَانَ حَقّاً عَلَى اللَّهِ أَنْ يَقْبَلَهُ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾**»[٤].

فعل المستحبات وترك المكروهات

تعتبر المستحبات حريماً للواجبات، كما أن المكروهات تعتبر حريماً للمحرمات. ومن المؤكد أن من يهتم بأداء المستحبات، لا يترك الواجبات،وأن من يبغض المكروهات، لا يرتكب المحرمات. وقد ورد في الروايات أن المؤمن لا يدور حول الحمى، وهي جملة موارد الشك والشبهة.

ولقد كان من المتعارف عليه في الأيام السالفة أن يعمد شيخ العشيرة أو رئيس القبيلة إلى حيازة بعض الأراضي وتحديدها بحدود معلّمة، والإعلان بأن لا حق لأحدٍ في الاقتراب منها، وهذه الحدود هي ما يسمى بالحمى.

وقد يحدث في بعض المرات أن يقترب بعض الرعاة مع مواشيهم من هذه

---

(١) سورة التحريم، آية: ٨.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٣.

(٣) سورة هود، آية: ١١٤.

(٤) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٣.

الحمى، مما يدعو مستخدمي رئيس القبيلة إلى مصادرة المواشي، فيفقد الراعي المسكين بذلك ما يملك مرة واحدة!.

وجاء في الحديث: «**إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى وَحِمَى اللَّـهِ مَحَارِمُهُ فَمَنْ رَتَعَ حَوْلَ الْحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ**»[١].

تجديد التوبة

ثم يتحدث الباب التاسع والثمانون عن: جواز تجديد التوبة، وصحتها مع الإتيان بشرائطها. نقرأ في الحديث الأول؛ أن الإمام الباقر عليه السلام قال لمحمد بن مسلم: «**يَا مُحَمَّدَ بْنَ مُسْلِمٍ؛ ذُنُوبُ الْمُؤْمِنِ إِذَا تَابَ مِنْهَا مَغْفُورَةٌ لَهُ، فَلْيَعْمَلِ الْمُؤْمِنُ لِمَا يَسْتَأْنِفُ بَعْدَ التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، أَمَا وَاللهِ إِنَّهَا لَيْسَتْ إِلَّا لِأَهْلِ الْإِيمَانِ**»[٢].

ولا بأس أن نسلط بعض الأضواء على جملة من الأفكار في هذا المجال.

يبدو أن تورط بعض الأشخاص وابتلاءهم بجرثومة الذنوب، يعود إلى إشكالية معينة في حياته. ومثال ذلك أن الإنسان قد يختار طريقاً لسيره، ولكن هذا الطريق يكثر فيه مرور النساء المتبرجات، وطبعاً فإن المشي في هذا الطريق غير محرم، وإنما الواجب هو غض الطرف عن المنظر الحرام؛ وإذا كان الإنسان يطمئن إلى تقواه، فإنه لا يتعمد النظر إلى النساء الأجنبيات نظر شهوة، ولكن من الأفضل له أن ينتخب طريقاً آخر للعبور منذ البداية، ليتحاشى احتمال السقوط في الذنب.

وهناك بعض الكسبة من تكثر النساء والفتيات في الشراء منه، فهو إذا وقع في الذنب وأراد التوبة، فعليه أن يستبدل نوع عمله وكسبه ليصون نفسه عن احتمال معاودة الذنب.

إن بعض الذنوب لها أسباب روحية ونفسية، فالتكبر مثلاً يدفع الإنسان إلى

(١) وسائل الشيعة، ج١٨، ص١٢٢.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٣.

ارتكاب الذنب، ومن الطبيعي أن على مثل هذا الفرد أن يحرص بعد توبته على قلع جذور التكبر من نفسه.

أما المبتلى بسوء الخلق، ويدفعه هذا العامل إلى ممارسة الذنوب، فلا بد أن يكون بصدد معالجة سوء الخلق في حياته، لأنه إن لم يفعل ذلك، سقط في ذنوب أخرى. فإن لم تقتلع الجذور الفاسدة للشجرة، فإنه لن ينفع قص الأوراق والأغصان.

وعلى أية حال؛ وطبقاً للرواية المذكورة، فإن الإمام الباقر عليه السلام قد وعد المؤمنين بأن الله تعالى يغفر لهم ذنوبهم بصورة لا يبقي أي أثر لها.

ويسأل محمد بن مسلم الإمام الباقر عليه السلام: «فَإِنْ عَادَ بَعْدَ التَّوْبَةِ وَالإِسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ وَعَادَ فِي التَّوْبَةِ؟. قالَ عليه السلام: **يَا مُحَمَّدَ بْنَ مُسْلِمٍ أَ تَرَى الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ يَنْدَمُ عَلَى ذَنْبِهِ وَيَسْتَغْفِرُ مِنْهُ وَيَتُوبُ ثُمَّ لَا يَقْبَلُ اللَّـهُ تَوْبَتَهُ**؟!.

قال: فَإِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ مِرَاراً يُذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ وَيَسْتَغْفِرُ؟. فَقَالَ عليه السلام: **كُلَّمَا عَادَ الْمُؤْمِنُ بِالإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ عَادَ اللَّـهُ عَلَيْهِ بِالْمَغْفِرَةِ، وَإِنَّ اللَّـهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، يَقْبَلُ التَّوْبَةَ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ**».

إن صفة (الغفور) التي استعملها الإمام عليه السلام لتوصيف الله عز وجل بها في هذا القسم من الرواية هي صفة مبالغة، أما صفة (الرحيم) فهي صفة تشبيه تدل على المداومة والاستمرار. ثم إن الإمام أحس باحتمال أن يحمل محمد بن مسلم –وهو مفتي الكوفة– الناس على القنوط من رحمة الله تعالى، فأوصاه: «**فَإِيَّاكَ أَنْ تُقَنِّطَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ**»[1].

أما الإمام جعفر الصادق عليه السلام فقد قال: «**إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُفَتَّنَ التَّوَّابَ وَمَنْ لَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْهُ كَانَ أَفْضَلَ**»[2].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٣.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٤.

إن المؤمن ذو إيمان قوي، ولكن الإرادة الضعيفة قد تتعرض للغواية من قبل الشيطان، ولكن القضية المهمة هنا، هي أنه يتوجه إلى نفسه باللّوم في كل مرة، الأمر الذي يجعل الله تبارك وتعالى يحبّه ولا يسمح لليأس بالسيطرة عليه، فيطهره ويطيبه. وليعلم أن الله تعالى يحب اجتماع المؤمنين المتضرعين الخاشعين والمستغفرين، ليرحمهم ويغفر لهم، بل لقد جاء في بعض الروايات:

لو لم يذنب الناس ليغفر لهم الله، لخلق الله خلقاً يذنبون فيعفو عنهم!

والوجه في هذا الأمر؛ هو أن الله يتجلى في جميع أسمائه. فكما يتجلى في صفة الجبروت وكذلك يتجلى في صفة الغفران والرحمة.

تفسير كلمة (اللَّمَمَ)

وفي الرواية الثالثة نقرأ على لسان الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَهْجُرُهُ زَمَاناً ثُمَّ يُلِمُّ بِهِ وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾**. وَسَأَلَهُ (الراوي) عَنْ قَوْلِ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾**[1]، قَالَ عليه السلام: «**الْفَوَاحِشُ: الزِّنَا وَالسَّرِقَةُ. وَاللَّمَمُ: الرَّجُلُ يُلِمُّ بِالذَّنْبِ فَيَسْتَغْفِرُ اللَّـهَ مِنْهُ**»[2].

وجاء في معنى **﴿اللَّمَمَ﴾** تفاسير عديدة مختلفة، وواحدة منها، هي الذنوب التي تبدو صغيرة من حيث الوزن والاعتبار، فإذا كان كذلك يكون طبقاً لقواعد علم الصرف والنحو استثناءً منقطعاً في حالة إدخال أداة **﴿إِلَّا﴾**، لأن اللَّمَمَ ليس من جملة الكبائر، وإنما يتضمن الذنوب الصغيرة فقط.

ولكن طبقاً لبعض الروايات، فإن الاستثناء المستخدم هنا من النوع المتصل،أي أن المؤمن من الممكن أن يرتكب الكبيرة في بعض الأحيان.

---

(١) سورة النجم، آية: ٣٢.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٤.

وقد بحث في كتاب الإيمان والكفر في موسوعة (بحار الأنوار) موضوع ما إذا كان المؤمن يرتكب الكبيرة أم لا؟. وهو إذا ارتكبها هل يبقى اسم المؤمن صادقاً عليه أم لا؟.

يعتقد الخوارج أن أهل الكبائر كفار، وأما المعتزلة فيخرجونهم من حد الإيمان (لا مؤمن، ولا كافر) وإن اتفقا على خلوده في النار إن مات على فسقه، بينما الحق أنه إما أن يعاقب بمقدار جرمه، وإما أن تشمله الشفاعة والمغفرة.

أما فرقة المرجئة التي روّج لها بنو أمية، فتدعي أن المؤمن لا يخرج من الإيمان بارتكاب الكبيرة، ويعنون بذلك عدم ترتيب نتائج الكبائر على مرتكبيها. وكان هدف بني أمية التغطية على جرائم وكبائر حكامهم، وقد أصبح معروفاً في بعض الدول المسلمة أن الحاكم حينما يجلس على كرسي السلطة، فإنه تجب إطاعته بمجرد تلفظه الشهادتين وكونه مسلماً، وإن مارس الظلم وصادر الحقوق.

ولكن أئمة أهل البيت عليهم السلام اتخذوا حيال هذا الموضوع موقفاً متعادلاً وسطاً، حيث قالوا: إن المؤمن يسلب إيمانه لحظة ارتكابه للكبيرة، ولكن له أن يعود بعد الاستغفار والتوبة. وهو في حال سالب روح الإيمان حال المعصية مسلم، يتمتع بكافة حقوق الإسلام، نعم لكل معصية نتائج تترتب على مرتكبها.

وجاء في الرواية الرابعة عن أبي بصير رضي الله عنه عن الإمام أبي عبدالله عليه السلام **فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾**[1]، قَالَ عليه السلام: «**هُوَ الذَّنْبُ الَّذِي لاَ يَعُودُ فِيهِ أَبَداً**. قال الراوي: وَأَيُّنَا لَمْ يَتُبْ وَيَعُدْ؟. فَقَالَ عليه السلام: «**يَا أَبَا مُحَمَّدٍ؛ إِنَّ الله يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ الْمُفَتَّنَ التَّوَّابَ**»[2].

وروي أن «رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يَسْتَغْفِرُ اللَّـهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً يَقُولُ: «**أَسْتَغْفِرُ اللَّـهَ رَبِّي وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**. وَكَذَلِكَ أَهْلُ بَيْتِهِ عليهم السلام وَصَالِحُ أَصْحَابِهِ، يَقُولُ اللَّـهُ

(١) سورة التحريم، آية: ٨.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٦٤.

تَعالَى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾(١). وَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُذْنِبُ فَمَا أَقُولُ إِذَا تُبْتُ؟. قال ﷺ: **اسْتَغْفِرِ الله**. فَقَالَ: إِنِّي أَتُوبُ ثُمَّ أَعُودُ. فَقَالَ ﷺ: **كُلَّمَا أَذْنَبْتَ اسْتَغْفِرِ الله**. فَقَالَ: إِذَنْ تَكْثُرُ ذُنُوبِي!. فَقَالَ ﷺ: **عَفْوُ اللَّهِ أَكْثَرُ فَلَا تَزَالُ تَتُوبُ حَتَّى يَكُونَ الشَّيْطَانُ هُوَ الْمَدْحُورَ**»(٢).

ويبدو أن إحدى خدع الشيطان هي أن يقول للإنسان: لا فائدة من التوبة ونقضها فيما بعد.. فلا حاجة لأن تتعب نفسك!.

ويفهم من هذه الرواية أن النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام كانوا يحرصون كل الحرص على أن يخاطب العبد ربه الجليل باستمرار، إذ أن التلفظ بعبارة «**أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ**»، تضفي على روحه الطراوة والنشاط. وللأسف، ترانا ننظر إلى عباداتنا، ولا سيما الصلاة، نظرة من يريد تسديد الضريبة التي عادة ما تدفع بعدم الرضى قلبي!!.

لبينما الرسول الأعظم ﷺ -القدوة- حينما تحين الصلاة فإن ملامح الفرح والشوق تبدو على وجهه الكريم ﷺ وكأنه قد سمع خبراً مفرحاً للغاية، فيأمر بلالاً رحمه الله بإقامة الأذان قائلاً له: «**أَرِحْنَا يَا بِلَالُ**»(٣).

ترى هل نستطيع أن نربي أنفسنا، فننظر إلى الصلاة بهذا المنظار النبوي؟.

وقد رأيت بعيني نموذج هذا الحرص الشديد على الصلاة والابتهاج بها،حيث صادف أن كنت مع أحد المؤمنين في مكان ما، إذ هيأ لنا فراش النوم،وحينما انقضى وطر من الليل، استيقظت على صوت صديقي الذي رأيته يحدق في النجوم التي يبدو أنه قد عرف من خلالها حلول وقت صلاة الليل، وكان الخوف قد تملكني حينما هب من فراشه، إذ خيل لي أنه قد لسع، فقام من فراشه ليتوضأ بماءٍ كان

(١) سورة هود، آية: ٩٠.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٦٤.

(٣) بحار الأنوار، ج٧٩، ص١٩٣.

قد أعده لهذا الغرض من قبل، فتذكرت النبي الأكرم ﷺ، حيث كان يضع الماء قرب رأسه، فيستيقظ عدة مرات ليتوضأ ويقوم للصلاة، ثم يعود إلى النوم، ويكرر العملية عدة مرات.. ولعلكم قد صادفتكم هذه الحالة المشار إليها حينما يرقد في البيت طفل مريض،وترقدون إلى جانبه، حيث تصابون بالقلق، فرغم أن عيونكم قد تكون مطبقة أجفانها، إلا أن قلوبكم تبقى يقظة، فتقومون بين الحين والآخر،لمراقبة الطفل والاطمئنان عليه.

لقد كانت هذه حالة النبي الأكرم ﷺ في كل ليلة حتى آخر ليلة من عمره الشريف، حيث كان يأخذ قسطاً من النوم أول الليل، ثم يقوم في باقي الليل إلى الصلاة حتى أذان الفجر.

4

تذكر الذنوب!

وفي الباب التسعين نقرأ عدداً من الروايات المأثورة حول: استحباب تذكر الذنب، والاستغفار منه كلما ذكره الإنسان.

وقد جاء في الرواية الأولى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذَكَّرُ ذَنْبَهُ بَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةً حَتَّى يَسْتَغْفِرَ رَبَّهُ فَيَغْفِرَ لَهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ لَيَنْسَاهُ مِنْ سَاعَتِهِ**»(١).

أما الرواية الثانية فقد جاءت تؤكد نفس المفهوم، فقد وردت عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَذْكُرُ بَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةً فَيَسْتَغْفِرُ مِنْهُ فَيُغْفَرُ لَهُ وَإِنَّمَا يَذْكُرُهُ لِيُغْفَرَ لَهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَنْسَاهُ مِنْ سَاعَتِهِ**»(٢).

ونقرأ في الرواية الثالثة أن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «**إِنَّ الله إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْراً فَأَذْنَبَ ذَنْباً أَتْبَعَهُ بِنَقِمَةٍ وَيُذَكِّرُهُ الاسْتِغْفَارَ**»(٣).

لقد روي أن البلاء لا ينزل بالفرد المؤمن في ساعة ذكره وتوجهه إلى خالقه.. وكأن العوامل الطبيعية تحترم الإنسان المؤمن في حالة توجهه إلى ربه، مع الأخذ

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٥.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٥.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٥.

بنظر الاعتبار أن هذه القاعدة غير عامة.

أما الكافر؛ فله واقع متفاوت، إذ كلما غرق في أوحال الذنوب، كلما هطلت عليه النعم الإلهية، ليملي له ربه، حتى لا يجد الفرصة للتوبة، فيلاقي الموت وهو على هذه الحالة المزرية.. وهذا هو ما نستلهمه من كلمتي (الاستدراج، والإملاء) اللتين وردنا في بعض الآيات الكريمة[1].

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام في معنى الِاسْتِدْرَاجِ: «**هُوَ الْعَبْدُ يُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُمْلَى لَهُ وَتُجَدَّدُ لَهُ عِنْدَهَا النِّعَمُ فَتُلْهِيهِ عَنِ الِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ فَهُوَ مُسْتَدْرَجٌ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ**»[2].

وقد جاء في الدعاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام قوله: «**إِلَهِي أَذْهَلَنِي عَنْ إِقَامَةِ شُكْرِكَ تَتَابُعُ طَوْلِكَ وَأَعْجَزَنِي عَنْ إِحْصَاءِ ثَنَائِكَ فَيْضُ فَضْلِكَ..**»[3].

فحينما نعيش في محيط آمن وصحة تامة، وتتوفر بين أيدينا أنواع الأطعمة والماء العذب والفواكه، ونكون في منأىً مع ذوينا عن الأمراض، ونرى أن رؤوس أموالنا ومشاريعنا تدر علينا الأرباح الطائلة دون أية خسارة.. فإننا -والحال هذه- ننسى حقيقة الحياة وجوهرها. ويكفينا أن نتعرض للنقص في أحد الأشياء والأمور المشار إليها حتى نعود إلى ذكر الله.

إن المقصود من قضية (الاستدراج) المشار إليها هنا، هو أن الإنسان يساق إلى الهدف المطلوب خطوة فخطوة. فالكثير من الأشخاص لو كانوا يعلمون سوء

---

(١) جاءت عبارة: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ**﴾، في الأعراف، آية: ١٨٢، وسورة القلم، آية: ٤٤. وجاءت مشتقات كلمة (الإملاء) في عدة مواضع من القرآن، منها، قول الله تعالى في الآية: ١٧٨ من سورة آل عمران: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾، كما جاءت كلمة ﴿**أَمْلَيْتُ**﴾ في الآيات التالية: سورة الرعد، آية: ٣٢، وسورة الحج، آية: ٤٤ و ٤٨.

(٢) الكافي، ج٢، ص٤٥٢.

(٣) الصحيفة السجادية، مناجاة الشاكرين.

العاقبة من وراء الإدمان على المخدرات مثلاً، لكانوا قد امتنعوا عن معاقرتها منذ البداية، ولكنهم يستدرجون -بعد إعراضهم- مرحلة بعد مرحلة إلى الإمام، حتى أن تجربة واحدة في تناول المادة المخدرة والمخربة تعتبر نقطة السقوط في الحضيض والضياع.

وفي بعض الأوقات نرى أن القصاب يخادع الشاة ويستدرجها إلى مقتلها بواسطة ضغثٍ من العلف يشير به إليها، حتى يفاجئها بصرعها على الأرض ومن ثم يذبحها!.

نعوذ بالله تعالى أن يستدرجنا الشيطان إلى حيث السقوط في جهنم.

اغتنام فرص الخير

أما الباب الواحد والتسعون من أبواب جهاد النفس فيتحدث عن ضرورة إنتهاز فرص الخير والمبادرة به عند الإمكان.

ولابد أن نعلم أن طبيعة المؤمن تدفعه دائماً لكي يغتنم الفرص.

ولكن الإنسان قد يشاهد فقيراً يجلس منكسراً على قارعة الطريق في بعض الأحيان، إلا أنه قد يتأخر بمد يد العون له، ويخادع نفسه بأن غيره سيساعده، فيطرد النعمة القادمة له.

وقد جاء في الحديث عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال: «**حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ فَلَا تَمَلُّوا النِّعَمَ فَتَتَحَوَّلُ إِلَى غَيْرِكُمْ**»[١].

وعليه؛ ينبغي أن يسارع الفرد المؤمن في مثل هذه المواقع إلى الإنفاق وتقديم المساعدة والدعم، وإلى عدم التفريط بالفرص الخيرة، وليعلم بأن الله له من عباده من يستطيع أن يوجه إليهم الفقراء والمحتاجين، ولكنه دفعهم إليك لتحصل أنت

(١) مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٣٦٩.

على الثواب، وتسد خلّة أخيك في الدين، فلماذا ترفض هذه النعمة الكبيرة؟.

إننا لا يصح أن ننزعج من كثرة من يقصدنا ويراجعنا من الناس، بل علينا اعتبار ذلك نعمة من الله تعالى قد وفقنا إليها.

وقد نقل عن المرحوم آية الله العظمى السيد محسن الحكيم رضي الله عنه أنه قد أوجب على العلماء أن لا يخلعوا عمائمهم في موسم الحج، لشديد حاجة الناس إليهم.

وأنا من جانبي قد ألزمت نفسي بهذا الأمر، منذ تلك الأيام باعتباري كنت مقلداً للمرحوم السيد الحكيم.

مهمة علماء الدين الدائمة

وكان هذا الأمر هو الصحيح قطعاً، فالعالم الديني قد وضع شعاراً دينياً على رأسه، ويجب عليه أن يحترمه قبل غيره، ويحافظ عليه، فالناس ولا سيما في بقاعٍ مشرّفة مثل مكة المكرمة والأماكن المقدسة الأخرى، يحتاجون إليمعرفة المسائلٍ والأحكام الشرعية، وحينما يرون رجل الدين من بعيد،يشعرون بأنهم قد وجدوا ضالتهم، وأنهم سيصلون إلى مبتغاهم بواسطته.

وما يمكن قوله بشكل قاطع هو أن علماء الدين يتبعون خطى الأنبياء والأئمة عليهم السلام، ويلزمهم أن يقطعوا مسيرتهم المقدسة حتى النهاية.

إن عملنا يشبه إلى حد كبير عمل الأطباء الذين لا يُسمح لهم بالتوقف عن نشاطهم بداعي المشاكل السياسية. فإذا أضربت جميع القطاعات والمشاغل عن العمل، فإن الأطباء لا حق لهم بالإضراب، ومهمة علماء الدين تشترك مع وظيفة الأطباء من هذه الجهة؛ بل إنها أهم من الطب بكثير.

وقد وردت في الرواية الأولى في هذا الباب وصية النبي صلى الله عليه وآله إلى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، حيث قال:«**يَا عَلِيُّ بَادِرْ بِأَرْبَعٍ قَبْلَ أَرْبَعٍ: شَبَابِكَ قَبْلَ هَرَمِكَ،**

وَصِحَّتِكَ قَبْلَ سُقْمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَحَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»[١].

أما الرواية الثانية، فقد قال فيها الإمام علي عليه السلام في تفسير قوله تعالى: **﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾**[٢]؛ **لاَ تَنْسَ صِحَّتَكَ وَقُوَّتَكَ وَفَرَاغَكَ، وَشَبَابَكَ وَنَشَاطَكَ، أَنْ تَطْلُبَ بِهَا الْآخِرَةَ»**[٣].

بلى؛ إن للآية الشريفة تفسيرين:

الأول؛ أنه مادام الإنسان يعيش في الحياة الدنيا، فعليه أن يسعى للحصول على نصيبه من الرزق والمأكل والملبس والمسكن وسائر الاحتياجات المادية.

والثاني؛ وهو التفسير الأعمق من ذلك: أن يضمن المرء نصيبه الأخروي من خلال الدنيا، أو يزرع للآخرة في مزرعة الدنيا.

والملفت للنظر من خلال هذا التفسير، هو أن الإمام علي عليه السلام، وسائر الأئمة عليهم السلام قد تحمّلوا في هذه الدنيا مسؤولية الدفاع عن الإنسان والإنسانية، وكأنهم وكلاء مطلقون في هذه القضية.

فهم يقولون للإنسان: حيث جمعت كل هذا المال والثروة، فاهتم بنفسك أيضاً، لأن الذي جمعته سيكون من نصيب ورثتك من بعدك، وأنت لست إلا حارساً في الدنيا على وارثيك، فخصص من ذلك لنفسك شيئاً ينفعك في كدحك لآخرتك التي هي مثواك الأبدي.

أما الرواية الثالثة في الباب؛ فقد وردت على لسان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً، إذ قال: **«قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ فَانْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ»**[٤].

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٦٦.

(٢) سورة القصص، آية: ٧٧.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٦٦.

(٤) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٦٦.

وللاستفادة من فرص الخير المناسبة، على الإنسان أن يعد نفسه جيداً، وإن لم يفعل ذلك، فلن يستطيع تحقيق الفائدة المرجوة، حتى وإن سنحت له الفرصة.

ومثال ذلك؛ لو كان الرجل قد أعد نفسه من قبل لإيصال الرسالة الفلانية إلى شخص معين، فإن من الطبيعي أن ينجز ذلك في حال رؤيته له.

ولكنه إذا كان لم يضع في حسبانه لزوم إيصال الرسالة، فإنه وإن صادف أن لقيه، فلن يسلم له ما يريد تسليمه، لأنه لم يستعد لذلك، وليس ثم فرصة زمنية تسمح له بما أراد متأخراً.

وعلى صعيد المسائل الأخروية، فإن من الواجب أن يتنافس الناس فيها، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[١].

ولكن التنافس لا ينبغي أن يتحول إلى جدل وصراع، إذ القضية تختلف مع التنافس كلياً.

فإذا كان إمامان للجماعة في مسجد واحد، وكل واحد منهما كان يعتقد بأنه صاحب المسجد دون غيره، فهذا ما يعد تنافساً على الدنيا، وهو ما قد يثير التساؤلات حول صحة صلاتهما أساساً!

وحسب الظاهر، فإن المرجع الديني الفقيد آية الله العظمى السيد محسن الحكيم رحمه الله قد كتب في تعليقه على كتاب (العروة الوثقى) بأن مثل هذين الشخصين يجب عليهما مغادرة المسجد المذكور، وأن يصليا في مسجد آخر.

أما التنافس الذي لا ينتهي إلى الصراع، فهو التنافس الشريف والمطلوب والمستحب، كأن يعمد الفرد المأموم في صلاة الجماعة إلى الإسراع لحضورها، ليحوز على ثواب الوقوف في الصف الأول للجماعة أو الجانب الأيمن للإمام.

وفيما يخص أهمية معرفة قيمة جوهر الوقت وترقب الفرصة المناسبة، ورد

---

(١) سورة المطففين، آية: ٢٦.

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله الكريم: «**مِنَ الْخُرْقِ الْمُعَاجَلَةُ قَبْلَ الْإِمْكَانِ وَالْأَنَاةُ بَعْدَ الْفُرْصَةِ**»(١).

فإذا كنت تلاحق طيراً وتريد الإمساك به، فإن عليك ألا تباغته إلا حينما تقترب منه إلى الحد الأدنى، فإن فعلت غير ذلك، لن تمسك بالطير مطلقاً، إذ سيفر منك إلى الفضاء، وهذا المثل يفسر لنا معنى: المعاجلة قبل الإمكان.

وعلى أي تقدير؛ فإن الاستفادة الصحيحة والمناسبة من الفرص بحاجة إلى ذكاء وترقب خاصّين، وإلا فإن الفرص ستمر وتتبخر دون تحقيق أي نوع من أنواع الاستفادة منها.. ولات حين مندم!!.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٧.

5

استغفار الأنبياء والأولياء

وفي الباب (٩٢) من أبواب جهاد النفس نقرأ الأحاديث الشريفة الواردة عن:استحباب تكرار التوبة والاستغفار كل يوم وليلة من غير ذنب، ووجوبه مع الذنب.

ويمكن من خلال هذا العنوان والروايات الواردة اعتبار الاستغفار أمراً مستحباً ومطلوباً في ذاته، حتى وإن لم يكن هناك ذنب ما. فأن يتهم الفرد نفسه بسوء السريرة، ويتذكر عظمة الرب سبحانه وتعالى، فذلك ما يكشف عن درجة سامية من درجات الإيمان والتقوى. وإن أعلى درجات العبودية هي: أن يرى الإنسان نفسه مسكيناً مستكيناً، وأن ينسب ما يصل إليه من المراتب السامية والرفيعة إلى الله تعالى، ويرى القصور (الفقر) أمام حق المولوية والعظمة الإلهية.

وانطلاقاً من قاعدة استحباب التوبة والاستغفار حتى من دون ارتكاب ذنب، كان الأنبياء والأئمة عليهم السلام دائمي الاستغفار من ذنوب لم يرتكبوها مطلقاً. وقبل ذلك كنا قد نقلنا روايات عديدة بهذا الشأن، ومن جملتها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يستغفر ربه الجليل سبعين مرة طيلة اليوم.

وقد جرى حوار في إحدى شبكات التلفزة، وأعلن فيه أحد المشاركين أن

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كان يرتكب الكبائر (!!) لأنه قد اعترف نصاً في دعاء كميل المنسوب إليه قائلاً: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تَهْتِكُ الْعِصَمَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ النِّقَمَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُغَيِّرُ النِّعَمَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تَحْبِسُ الدُّعَاءَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ الْبَلَاءَ..**»[1].

وهذه كلها أوصاف خاصة بالذنوب الكبيرة.

حقاً.. إن مثل هذه الوقاحة التي تبث في وسائل الإعلام العامة، ومن قبل من يدعي معرفته بالثقافة والتاريخ، تعتبر أمراً غير قابل للصفح، وهي تحكي عن غاية الجهل بحقيقة الاستغفار من جهة، وبحقيقة منزلة وسيرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

وتنشر بعض الصحف العربية مقالات بعيدة كل البعد عن الحقيقة، وقد قرأت في إحدى الصحف العربية أنه لم يصل أحد من الناس كما وصل ابن عربي إلى درجة العرفان والقرب من الله تعالى!.

ولكن يا ترى! كيف لم يستطع علماء أجلاء القدر والمنزلة أمثال الشيخ المفيد والشيخ الكليني والشيخ الصدوق الوصول إلى مرتبة ابن عربي؟!.

إن من القبح أن يترك المرء رجالاً عظماء أمثال العلامة الحلي، وكبار علماء الشيعة رضي الله عنهم، الذين هم الورثة الحقيقيون للأنبياء والأئمة عليهم السلام، ويولي وجهه صوب شخصيات مثل ابن عربي، أو غيره من الأشخاص الذين لم يؤتوا حظاً من مكانة الأولياء والعلماء المخلصين.

ولعلكم صادفتم في شوارع مدننا من يلبس الملابس المخزية وغير المتناسقة من حيث الألوان ونوع الخياطة، بل وحتى الممزقة من بعض جوانبها، ثم يعتبرها جميلة ومغرية، ومثيرة للأنظار، وهذا ما يحكي عن الانحراف في مقاييس الجمال والذوق.

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

فحينما يتجرأ أحدهم على اتهام أمير المؤمنين عليه السلام بارتكاب الكبائر، وهو الرجل الذي شهد له القرآن الكريم بأن الله سبحانه وتعالى قد أذهب عنه الرجس وطهره تطهيراً، فمن العجب أن لا تنزل علينا صاعقة أو بلاء!!.

استغفار عرفان

وينبغي أن نعرف أن استغفار الأنبياء والأئمة عليهم السلام ليس من نوع الاستغفار من الذنوب، بل هو استغفار عرفان وتقرب، وتوحيد وخلوص.

فبعد ركعتي زيارة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، نقرأ هذا الدعاء الحاكي عن أن الاستغفار لا يشترط أن يكون من ذنب دائماً، وأن له أقساماً وأنواعاً: «.. **رَبِّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ اسْتِغْفَارَ حَيَاءٍ، وَأَسْتَغْفِرُكَ اسْتِغْفَارَ رَجَاءٍ، وَأَسْتَغْفِرُكَ اسْتِغْفَارَ إِنَابَةٍ، وَأَسْتَغْفِرُكَ اسْتِغْفَارَ رَغْبَةٍ، وَأَسْتَغْفِرُكَ اسْتِغْفَارَ رَهْبَةٍ، وَأَسْتَغْفِرُكَ اسْتِغْفَارَ طَاعَةٍ، وَأَسْتَغْفِرُكَ اسْتِغْفَارَ إِيمَانٍ، وَأَسْتَغْفِرُكَ اسْتِغْفَارَ إِقْرَارٍ، وَأَسْتَغْفِرُكَ اسْتِغْفَارَ إِخْلَاصٍ، وَأَسْتَغْفِرُكَ اسْتِغْفَارَ تَقْوَى، وَأَسْتَغْفِرُكَ اسْتِغْفَارَ تَوَكُّلٍ، وَأَسْتَغْفِرُكَ اسْتِغْفَارَ ذِلَّةٍ، وَأَسْتَغْفِرُكَ اسْتِغْفَارَ عَامِلٍ لَكَ؛ هَارِبٍ مِنْكَ إِلَيْكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ**»[١].

ولعل الوجه في تعدد أنواع الاستغفار، هو أن الإنسان حينما يرتكب ذنباً ما،فإنه يسقط من قمة العزة إلى حضيض الذلة، ولكنه إذا أراد العودة إلى تلك القمة، توجّب عليه أن يرتقي خطوة فخطوة.. أما الاستغفار المشار إليه بأنواعه، فيمثل المراحل المقصودة والخطوات المطلوبة.

وأول مراحل الاستغفار هو: **اسْتِغْفَارَ حَيَاءٍ.**

فإذا لم يصل الفرد إلى مرحلة الشقاء، فإنه يتوجه باللوم إلى وجدانه بعد ارتكاب كل ذنب، وتتملكه حالة من الخجل والحياء. وبالطبع، فإن الشيطان لعنه الله يدخل على الإنسان في هذه الحالة ويبدأ بتفعيل خططه الجهنمية، فتراه يوهم

---

(١) مفاتيح الجنان، فصل زيارة الإمام الرضا عليه السلام.

ابن آدم بأنه لن يغفر الله له بالاستغفار.

ولكن ما جاء في الدعاء يقف هنا لمواجهة الشيطان، ويقول بعد استغفاره استغفار الحياء: «**وَأَسْتَغْفِرُكَ اسْتِغْفَارَ رَجَاءٍ**». أي إنني أبغض وأتأذى من اليأس وسوء الظن بالله تعالى، فرغم أن من السيىء ارتكاب المعصية، ولكن اليأس من روح الله وغفرانه يعتبر ذنباً أسوأ بكثير، بل هو الكفر بعينه.

إن هذا الدعاء يريد -في حقيقة الأمر- أن يضع الإنسان في مهب الأحاسيس والمشاعر المتضادة، فإذا رأى الإنسان ذنوبه أو قصوره جزع وفزع منها،وإذا توجه إلى ربه طمع بعفوه.

يقول الإمام السجاد عليه السلام في دعائه المعروف بـ(دعاء أبي حمزة الثمالي): «**إِذَا رَأَيْتُ مَوْلَايَ ذُنُوبِي فَزِعْتُ، وَإِذَا رَأَيْتُ كَرَمَكَ طَمِعْتُ..**»[1].

وبعد ذلك، يأتي دور استغفار الإنابة واستغفار الرغبة. في هذه المرحلة حيث يكون العبد المذنب خائفاً من الله تعالى ثم يأمل بعفو الله، يخطو بقلبه إلى الأمام، ويشعر بأن الفرصة مناسبة ومتاحة له، ليطلب بقية حوائجه من الله تبارك وتعالى.

ولا بأس أن نشير -وطبقاً للآيات القرآنية الكريمة- إلى أن الله عز وجل يختار أنبياءه في لحظات خاصة من لحظات حياتهم.

ففي قصة آدم عليه السلام نجد أن أبانا حينما عصا بتركه للأولى، ثم تاب وأناب، منحه الله شرف النبوة. أما موسى عليه السلام؛ فقد اصطفاه ربه للنبوة بعد أن رمى عصاه بأمره سبحانه،وولّى هارباً وقد غمرته حالة الخوف حينما رآها تتبدل ثعباناً عظيماً، فقال له الله: ﴿**يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ**﴾[2].

فعاد موسى عليه السلام خاشعاً خاضعاً، فاختاره الله نبياً من أولي العزم.

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبو حمزه الثمالي.
(٢) سورة النمل، آية: ١٠.

وفي حكاية النبي سليمان عليه السلام نجد أنه حينما ظل يشرف على قطعان الخيل المعدة للجهاد التي كانت تمر من أمامه، فأخّر صلاته شيئاً يسيراً جداً، لام نفسه قائلاً: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾(١).

فتملكه الخجل والحياء، ثم رأى نفسه مؤهلاً لأن يدعو الله تعالى بهذا الدعاء: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾(٢).

وعلى هذا؛ فإننا يجب أن نبلغ بأنفسنا درجة استغفار الرغبة بعد العبور مما سبقتها من الدرجات. وفي هذه المرحلة يتصل الفرد ببحار الرحمة الإلهية، ويزيد من طمعه بعطاء الله غير المحدود.

والقضية المهمة هنا، هي: أن لا يتخبط الفرد المستغفر في مسيرته، كما يجب عليه الإبقاء على حالة الخوف من الله عز وجل في أعماق نفسه، لأن من يعطي، قادر على أن يأخذ ويحرم ويمنع، ولذلك كانت مرحلة الاستغفار التالية هي: استغفار الرهبة، والخوف!.

فمن كان يملك المليون، فهو مع إحساسه بالراحة والفرح، تراه يخاف ويحذر من أن يضيع هذا المبلغ منه.. ومن المؤكد أنه إذا كان يملك المليار كانت فرحته أكبر، كما كان خوفه أشد وأعظم.

ومن هنا، فإن الأنبياء والأولياء الذين كانوا يتمتعون بدرجات أكبر من النعم الإلهية، فإن درجة خوفهم وخشيتهم من الله تعالى كانت أكبر هي الأخرى.

والخطوة التالية للاستغفار هي: «اسْتِغْفَارَ طَاعَةٍ».

فالعبد التائب المستغفر عليه أن يسلك جادة الطاعة للرب الجليل، فيرعى

(١) سورة ص، آية: ٣٢.
(٢) سورة ص، آية: ٣٥.

الواجبات ويمتنع عن المحرمات.

وتبعاً لهذه الطاعة؛ يتعاظم الإيمان لدى المستغفر، وقد وصف الدعاء هذه الحالة بـ(استغفار إيمان).

وبعد ذلك، يأتي دور (استغفار الإقرار)، لأن الإيمان يحرض الفرد من الداخل على أن يكون صاحب موقف، وهنا تراه يقر بوحدانية الله تعالى وبما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وليس بعيداً أن يتواجد الشيطان على مسرح الاستغفار، ليمارس دهاءه وخبثه، ولكن (استغفار الإخلاص) يحل في روح الإنسان وإرادته ليطرد الشيطان وممارساته الهادفة إلى خلط الإيمان بالشرك.. وليس من المستغرب أن يصاب الإنسان المقر بالوحدانية بداء العجب الذي يغزو الروح كما يغزو الدود التفاحة! ولذلك فإنه يستغفر ربه استغفار إخلاص.

وبعد هذا النوع من الاستغفار، يسمو الفرد التائب إلى مرحلة (استغفار التقوى)؛ التقوى التي تُعد قاعدة صلبة في نفس الإنسان تصونه من ارتكاب الذنوب.

والخطوة الأخرى في هذه المسيرة الحافلة بالوعي والخير، هي (استغفار التوكّل)، وفي هذه المرحلة يتوجب على الفرد أن يوطد أواصر العلاقة الإيمانية بربّه. وهذا الأمر بطبيعته يضفي على الإنسان إطمئناناً أكبر وأعمق، للحيلولة دون تعرضه لخسارة أخرى عبر ارتكابه الذنب، لا سيما وأنه قد قطع جميع مراحل التوبة الطويلة.

ولكي لا يظن أن هذه المراحل، وبالأخص مرحلة التقوى، من صناعته هو دون غيره، عليه أن يخلق حالة التوكل والتوسل ويقويها ويكرسها في داخله، فتتولد لديه مرة أخرى حالة الانقياد والخضوع والذلة، وهذه هي مرحلة (استغفار الذلة) والذلة بإزاء الخالق هي جوهر العبودية.

وحينما يصل الفرد هذه الدرجة القريبة من قمة الاستغفار، تراه يخطط ويبدأ بفعاليته، ليفر من الكسل والخمول، وهذه الحالة هي التي سماها الدعاء بحالة (استغفار عامل).

ومن جملة ما نختلف فيه مع المتصوفة... هو الاختلاف في أسلوب التوصل إلى الله تعالى، فهم يقتصرون على مجرد ترديد وتكرار الأذكار والأوراد والصلوات، معتقدين أن ذلك يكفيهم، في حين أن أهل البيت عليهم السلام يعتقدون بأن الأذكار والأوراد ليست إلا مقدمة لممارسة الأعمال الصالحة.

وفي الخاتمة، يقول الدعاء الوارد بعد زيارة الإمام الرضا عليه السلام: «**فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَتُبْ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ، بِمَا تُبْتَ وَتَتُوبُ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. يَا مَنْ يُسَمَّى بِالْغَفُورِ الرَّحِيمِ، يَا مَنْ يُسَمَّى بِالْغَفُورِ الرَّحِيمِ، يَا مَنْ يُسَمَّى بِالْغَفُورِ الرَّحِيمِ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ. وَاقْبَلْ تَوْبَتِي، وَزَكِّ عَمَلِي، وَاشْكُرْ سَعْيِي، وَارْحَمْ ضَرَاعَتِي، وَلَا تَحْجُبْ صَوْتِي، وَلَا تُخَيِّبْ مَسْأَلَتِي، يَا غَوْثَ الْمُسْتَغِيثِينَ، وَأَبْلِغْ أَئِمَّتِي سَلَامِي وَدُعَائِي، وَشَفِّعْهُمْ فِي جَمِيعِ مَا سَأَلْتُكَ، وَأَوْصِلْ هَدِيَّتِي إِلَيْهِمْ كَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ، وَزِدْهُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا يَنْبَغِي لَكَ، بِأَضْعَافٍ لَايُحْصِيهَا غَيْرُكَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى أَطْيَبِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِين**»[1].

ومن خلال هذا النص الأخير نستطيع إضافة نموذج آخر إلى النماذج الأربعة عشر الاستغفارية، وهو ما يمكن تسميته بـ(استغفار العباد المؤمنين).

جدير بالذكر، أن الله تعالى قد خص المؤمنين برحمته الواسعة، وقد جاء في دعاء السمات: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الْعَظِيمِ الْأَعْظَمِ، الْأَعَزِّ الْأَجَلِّ الْأَكْرَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيتَ بِهِ عَلَى مَغَالِقِ أَبْوَابِ السَّمَاءِ لِلْفَتْحِ بِالرَّحْمَةِ انْفَتَحَتْ، وَإِذَا دُعِيتَ بِهِ عَلَى مَضَائِقِ أَبْوَابِ الْأَرْضِ لِلْفَرَجِ انْفَرَجَتْ، وَإِذَا دُعِيتَ بِهِ عَلَى الْعُسْرِ لِلْيُسْرِ**

(١) مفاتيح الجنان، الدعاء بعد زيارة الإمام الرضا عليه السلام.

تَيَسَّرَتْ، وَإِذَا دُعِيتَ بِهِ عَلَى الْأَمْوَاتِ لِلنُّشُورِ انْتَشَرَتْ، وَإِذَا دُعِيتَ بِهِ عَلَى كَشْفِ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ انْكَشَفَتْ..»[١].

وعلى هذا؛ فإن الدعاء الوارد بعد زيارة الإمام الرضا عليه السلام في هذا المجال، قد عنى بأن للّه اسماً رحمانياً يعم جميع الخلق، وليس جماعة دون غيرها.

لزوم الاستغفار

في الرواية السادسة من الباب الثاني والتسعين جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إِنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله كَانَ يَتُوبُ إِلَى اللَّـهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ**»[٢].

أما الرواية السابعة؛ فوردت عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، حيث قال: «**مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّـهِ إِلَى اللَّـهِ الْمُحْسِنُ التَّوَّابُ**»[٣].

ويفهم من هذه الرواية لزوم أن لا يعتمد المرء على عمله أو يغترّ به، وضرورة أن يطلب العفو من ربه.

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء السمات.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٨.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٩.

6

باب التوبة مفتوح أبداً..

حينما تظهر على الإنسان علامات الموت، ويقف الأطباء عند رأسه، ويحدّق كل منهم في عيون أصحابه، كتعبير عن عجزهم عن إنقاذه، فإنه لا تزال الفرصة سانحة أمام هذا الإنسان للتوبة، إلا أن يكون قد عاين الملائكة والعالم الآخر، حسب ما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فيشمله قول الله تعالى: ﴿**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾(١).

جاء في الحديث الأول من الباب الثالث والتسعين من أبواب جهاد النفس ما نقل عن الإمام جعفر الصادق، أو الإمام الباقر عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِآدَمَ** عليه السلام: **جَعَلْتُ لَكَ أَنَّ مَنْ عَمِلَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ سَيِّئَةً ثُمَّ اسْتَغْفَرَ غَفَرْتُ لَهُ. قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي. قَالَ: جَعَلْتُ لَهُمُ التَّوْبَةَ أَوْ بَسَطْتُ لَهُمُ التَّوْبَةَ حَتَّى تَبْلُغَ النَّفْسُ هَذِهِ قَالَ يَا رَبِّ حَسْبِي**»(٢).

ونقرأ في الرواية الثانية عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ هَذِهِ**

---

(١) سورة النساء، آية: ١٨.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٩.

(وَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ) **لَمْ يَكُنْ لِلْعَالِمِ تَوْبَةٌ، وَكَانَتْ لِلْجَاهِلِ تَوْبَةٌ**»[١].

وفي إحدى المجلات الأميركية التي توزع في كثير من بلدان العالم وتطبع في إنكلترا وحدها بأكثر من ثلاثة ملايين نسخة، نشرت مقالة تقول: إن الإنسان إذا بلغ من العمر أربعين عاماً، عجز عن إحداث أي تغيير وتحول في حياته،لأنه قد وصل السقف النهائي من عمره!.

وحينما قرأت هذه المقالة، وجدت الفرق الشاسع بين ما جاء فيها وبين ما نعتقده نحن أتباع الرسول محمد صلى الله عليه وآله وآل بيته عليهم السلام، من تصور بخصوص قدرة الإنسان على إصلاح نفسه وإحداث التحول الجذري حتى آخر لحظة من عمره، فالتوبة لها معنىً عميق في تجديد الحياة، وليس غريباً أن تفيد التوبة حتى الفرد الذي يوثق إلى خشبة الإعدام.

وفي الرواية الثالثة، جاء عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله قال: «**مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَةٍ قَبِلَ اللَّـهُ تَوْبَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ السَّنَةَ لَكَثِيرٌ مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِشَهْرٍ قَبِلَ اللَّـهُ تَوْبَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الشَّهْرَ لَكَثِيرٌ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِجُمْعَةٍ قَبِلَ اللَّـهُ تَوْبَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَإِنَّ الْجُمْعَةَ لَكَثِيرٌ مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِيَوْمٍ قَبِلَ اللَّـهُ تَوْبَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ يَوْماً لَكَثِيرٌ مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ يُعَايِنَ قَبِلَ اللَّـهُ تَوْبَتَهُ**»[٢].

الإقرار بالولاية قبيل الموت

ونقل معاوية بن وهب -في الرواية الرابعة- «**أَنَّ رَجُلًا شَيْخاً كَانَ مِنَ الْمُخَالِفِينَ** عَرَضَ عَلَيْهِ ابْنُ أَخِيهِ الْوَلَايَةَ عِنْدَ مَوْتِهِ فَأَقَرَّ بِهَا وَشَهَقَ وَمَاتَ. قَالَ: **فَدَخَلْنَا عَلَى أَبِي** عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَعَرَضَ عَلِيُّ بْنُ السَّرِيِّ هَذَا الْكَلَامَ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَقَالَ: **هُوَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٩.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٠.

قَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ السَّرِيِّ: إِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ شَيْئاً مِنْ هَذَا غَيْرَ سَاعَتِهِ تِلْكَ. قَالَ عليه السلام: «**فَتُرِيدُونَ مِنْهُ مَاذَا قَدْ وَاللَّهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ!**»(١).

ونقل زرارة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام رواية قال فيها: «**لَمَّا أَعْطَى اللَّهُ إِبْلِيسَ مَا أَعْطَاهُ مِنَ الْقُوَّةِ قَالَ آدَمُ** عليه السلام: يَا رَبِّ! سَلَّطْتَ إِبْلِيسَ عَلَى وُلْدِي وَأَجْرَيْتَهُ مِنْهُمْ مَجْرَى الدَّمِ فِي الْعُرُوقِ وَأَعْطَيْتَهُ مَا أَعْطَيْتَهُ فَمَا لِي وَلِوُلْدِي؟.

قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: **لَكَ وَلِوُلْدِكَ السَّيِّئَةُ بِوَاحِدَةٍ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا**. قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي. قَالَ: **التَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ النَّفْسُ الْحُلْقُومَ!**. قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي. قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: **أَغْفِرُ وَلَا أُبَالِي**. قَالَ عليه السلام: حَسْبِي»(٢).

فقد كان آدم عليه السلام شاهداً على أن الله عزَّ وجلَّ قد أعطى إبليس شيئاً من القوة والنفوذ، فعلم آدم أن إبليس سيكون له ولذريته عدواً، وقد وصفه القرآن الكريم بالقول: ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ**﴾(٣).

كما علم أيضاً مستوى الخطر الكبير الذي سيتعرض له أولاده.

وهنا لابد لي أن أقول: إن البعض منا حينما يطالع قصة آدم وحواء عليهما السلام يتملكه العجب بخصوص الأسباب الحقيقية التي دفعت بهما إلى معصية الله وتقبل العقوبة بطردهما وأبنائهما من كل البشر من الجنة.. ولكن من المستحسن أيضاً أن نثمن موقف آدم عليه السلام حيث أخذ من الله تعالى المزيد من الامتيازات للإنسان في مواجهة خدع الشيطان ومكائده.

وعلى هذا الأساس؛ فقد ألقيت التحية على آدم عليه السلام في الأدعية والزيارات المنقولة عن الأئمة عليهم السلام، ومثال ذلك ما جاء في زيارة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث نقرأ: «**السَّلَامُ عَلَى الشَّجَرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالدَّوْحَةِ الْهَاشِمِيَّةِ الْمُضِيئَةِ الْمُثْمِرَةِ بِالنُّبُوَّةِ**

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٠.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٧٠.
(٣) سورة الأعراف، آية: ٢٧.

الْمُونِعَةِ بِالْإِمَامَةِ. السَّلَامُ عَلَيْكَ وَعَلَى ضَجِيعَيْكَ آدَمَ وَنُوحٍ عليهما السلام(١).

ومهما يكن؛ فإن آدم عليه السلام قد دافع عن ذريته التي لم تأتِ إلى الوجود آنذاك،وكان بصدد ضمان الخصائص والمميزات لها.

فأكد له الرب الجليل بأنه سيعطي لولده جزاء الحسنة بعشر أمثالها.

وحينما طلب آدم من ربه المزيد من الفضل لأولاده، بشّره الله تعالى بأن باب التوبة مفتوح لهم حتى آخر لحظة من لحظات حياتهم، وأنه سيغفر لمن شاء منهم.

ومن هذا الحوار الذي جرى بين الله عزَّ وجلَّ وعبده آدم عليه السلام نستلهم أن الإنسان لا ينبغي له الاكتفاء بتناول غرفة واحدة من البحر عندما تُتاح له الفرصة؛ فالحرص في هذه الحالة غير مذموم أبداً.. فمن كان يخاطب ربه، عليه أن لا يبالي كم يطلب وكم يدعو وكم يريد، ومن عظيم النعمة الربانية علينا أن خالقنا عز اسمه يحب العبد الذي يلح عليه بالدعاء والمسألة، وإلا فما تقصير صاحب البيت إذا كان السائل الفقير بخيلاً في المسألة؟!.

إن إحدى الآفات التي تحيط بالإنسان هي الكسل والخمول والجمود، في حين ينبغي له أن لا يدع الإحساس بالهرم والشيخوخة يسيطر عليه.

إن عالم اليوم يعاني مشكلة المتقاعدين عن العمل، فمثلاً يوجد في روسيا لوحدها عشرات الملايين من المتقاعدين، وتعجز الدولة عن تأمين مرتباتهم.

أما في اليابان؛ فقد أضحت أزمة المتقاعدين هاجس الحكومات المتعاقبة،وقد قيل مؤخراً أن حكومة طوكيو تنوي شراء منطقة ملائمة من حيث البيئة، لتسكن جميع الطاعنين في السن من الرجال والنساء، ليقضوا أواخر أعمارهم فيها.

وطبعاً إن جمع العجزة والطاعنين في السن في مكان واحد ومعزول عن سائر فئات المجتمع لا يخلو من ضرر، وقد نقل أحد الأصدقاء عن إحدى دور العجزة أن الأيام الأولى لمن يدخل هذه الدور تعتبر أياماً عادية، ولكن مرور الوقت كفيل

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٩، ص٢١٢.

بتعريض الإنسان فيها إلى أنواع الأمراض الروحية والبدنية.

بينما الدين الإسلامي له نظرته المختلفة إلى كل ذلك، إذ أنه يشجع الإنسان على مضاعفة معنوياته كلما تقدم به العمر باتجاه الموت، لأنه لا يعتبر الدنيا آخر مرحلة من مراحل الحياة والوجود، وإنما يؤكد على أن الدنيا بأسرها محطة يقف فيها الإنسان -بشكل مؤقت- لينطلق فيما بعد إلى الدار الآخرة.

وقد أجرت صحيفة (اللوموند الفرنسية) مقابلة معي بُعيدَ رحيل آية الله العظمى السيد أبي القاسم الخوئي رضي الله عنه، فسألني مندوبها: ترى من هم الذين سيتسلمون مهام المرجعية؟.

فقلت: هل تقصدون من علماء الجيل الشاب، أم من جيل المسنين؟.

فقال: أقصد الشباب منهم!.

فذكرت أسماء بعض العلماء، فسألني عن أعمارهم، وحينما أجبته بأنها حوالي ستين عاماً، تملكه الذهول من كلامي، وقال: هل تعتبر من بلغ الستين عاماً رجلاً شاباً؟!.

فقلت: إن السيد المرعشي النجفي رضي الله عنه له من العمر خمسة وتسعون عاماً، وهو لا يزال يعمل بنشاط، ونحن من جانبنا يجب أن نعتبر ونستفيد الدروس من هذه المعنويات العالية.

أما التوبة التي هي محط بحثنا، إنما تعتبر انطلاقة جديدة في الحياة وتخطيطاً فذاً للعيش. ولنقل: إنها معركة جدية وحاسمة قبيل انقضاء العمر!.

وقد كان لي صديق اسمه السيد علي البدري كان حينما بلغ من العمر سبعين سنة، بدأ فصلاً جديداً من العمل والنشاط الديني في السودان.

فسألته عن دوافعه في ذلك، فقال: لقد عمّرت ما فيه الكفاية، ولديَّ زوجة وأولاد، وقد وفرت لهم حياةً طيبة ومرفهة، وها أنا ذا أنوي الاستفادة من بقية عمري الباقية لأمر آخرتي وإعمارها.

وكذلك كان، وبعد عمل دؤوب وافاه الأجل بالسكتة القلبية في أفريقيا.

أقول: لا ينبغي بوجه من الوجوه أن نسمح للإحساس بأننا وصلنا إلى طريق مسدود أن ينفذ إلى نفوسنا، فنضطر إلى الاعتكاف في إحدى الزوايا بانتظار ملك الموت... بل يجب أن نكون في حالة توبة دائمة وتحقيق ومراجعة لسلوكنا السابق. إن توبة رجال الدين ليست توبة عن شرب المسكر والعياذ بالله..فنحن لم نمارسه أبداً ولله الحمد، وإنما توبتنا من قلة العمل، واستغفارنا لحذف كماليات الحياة وزوائدها، وللبحث عن طرق جديدة لطاعة الله وكسب ودّه ورضاه.

النبي صلى الله عليه وآله عند رأس اليهودي!

جاء في الرواية الثامنة من الباب الثالث والتسعين الذي هو مصدر بحثنا، عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله دَعَا رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ وَهُوَ فِي السِّيَاقِ إِلَى الْإِقْرَارِ بِالشَّهَادَتَيْنِ فَأَقَرَّ بِهِمَا وَمَاتَ، فَأَمَرَ الصَّحَابَةَ أَنْ يُغَسِّلُوهُ وَيُكَفِّنُوهُ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّـهِ الَّذِي أَنْجَى بِيَ الْيَوْمَ نَسَمَةً مِنَ النَّارِ**»[1].

ومن هذه الرواية يمكن استلهام عدة دروس:

أولها: أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله رغم منزلته الرفيعة عاد يهودياً في احتضاره.

ثانيها: أنه صلى الله عليه وآله كان يأمل في كسب هذا اليهودي في آخر لحظات عمره وأن يهتدي إلى الإسلام.

ثالثها: أنه حينما وفّقه الله تبارك وتعالى لإنجاز هذه المهمة الإيمانية شعر بالسعادة لأن الله تعالى أنقذ على يديه الكريمتين إنساناً من السقوط المؤكد في نار جهنم، نظراً لأن المهمة الأولى والأساسية للرسل والأنبياء وأولياء الله الصديقين والعلماء هي إنقاذ الناس -جميع الناس- من جهنم.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٢.

إننا لا نعادي أحداً؛ بل إننا نحب أعداءنا أيضاً، ولعل عداءنا الظاهري لفرد من الأفراد المعاندين، يكمن في أننا نحبه ولا نريد له أن يغرق في أوحال الشيطان وهوى النفس.. وهذا يعني أننا نحبه أكثر مما يحب نفسه، وهذه هي من مفارقات أمر التبليغ إلى الدين.

وعلى هذا؛ فإن أي إنسان منحرف إذا عاد إلى أحضان الإسلام، رأينا أنفسنا ملزمين بمحبته، ونكرر ما جاء في النص الشرعي الشريف: «**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ**»[١].

ورغم أن ذلك اليهودي المحتضر ربما كان ممن قد آذى شخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إلا أن رسول الإسلام لم يكن بصدد الانتقام منه أبداً، وإنما كان همه الأكبر أن يغيره إلى شخص طاهر النفس لدى لقائه بالملك الجليل عزرائيل عليه السلام!.

أما الرواية التاسعة؛ فقد نقلت عن الإمام الرضا عليه السلام، حيث سأله إبراهيم بن محمد الهمداني بداعي معرفة الحكمة وكسب العلم الجديد دون التطفل على أمر الله تعالى، فقال لأبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**لِأَيِّ عِلَّةٍ أَغْرَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِرْعَوْنَ وَقَدْ آمَنَ بِهِ وَأَقَرَّ بِتَوْحِيدِهِ؟.**

قَالَ عليه السلام: **لِأَنَّهُ آمَنَ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْبَأْسِ، وَالْإِيمَانُ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْبَأْسِ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ فِي السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾**[٢]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾**[٣]»[٤].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٦٠.

(٢) سورة غافر، آية: ٨٥-٨٤.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٨.

(٤) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٢.

ضوابط قاعة الامتحان

إن السبب في عدم قبول هذه التوبة، هو أن الفرد الذي يؤمن حينما يرى مناظر وآيات الآخرة، يشبه طالب المدرسة الذي يريد تدوين إجاباته بعد انتهاء فترة الامتحان، أو مراجعة كتبه الدراسية بعد إغلاق قاعة الامتحان، وإن مثل هكذا إرادة تعبر عن حالة من السخرية أو العناد.

إن الله سبحانه قد هيأ للبشرية فرصة الامتحان في هذه الدنيا، وجعل لهذا الامتحان أصولاً وضوابط خاصة.

أما الكفار؛ فقد طلبوا من أنبيائهم مراراً أن يمكنوهم من رؤية الملائكة عياناً ينزلون من السماء ممتشقين لسيوفهم ليضربوا أعناق غير المؤمنين بالله مثلاً!!.

وفي معرض الإجابة على مثل هذا الطلب، أكد القرآن المجيد مراراً بأنه لو كان قُدّر لهذا الطلب أن يتحقق، لانتفت الحكمة من الامتحان الإلهي أساساً.

7

توبة الأشقياء

تقدم القول بضرورة أن نطلب من الله سبحانه وتعالى التوفيق إلى التوبة قبل بلوغ الحد الفاصل بين الدنيا والآخرة، وهو الحد بين قبول أو عدم قبول التوبة.

وعلى ذلك؛ فإن باب التوبة مفتوح للجميع، بما فيهم الأشقياء إلا أنهم لايقتنصون فرصتها.. ولكن على الرغم من وجود باب التوبة وانفتاحه، إلا أننا قد نتشاغل عنه بزخارف الدنيا، فلا نوفق إلى المرور والعبور من هذا الباب المفتوح على مصراعيه. ونعوذ بالله تعالى أن يكلنا إلى أنفسنا، فالله تعالى قد يكل بعض عباده إلى أنفسهم، ويتركهم يعملون ما يشاؤون دون هداية وتوجيه منه. وقد جاء في الكتاب المجيد: **﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**[١].

فإذا بلغ الفرد هذه الدرجة من الحضيض، ووكله ربه إلى نفسه، أي فوض أمره إليه، ورفع عنه عنايته وبركته، لِما عَلِمَ منه الكفر وروح العصيان، فإنه لن يوفق إلى التوبة أبداً. ولذا ترى المنيبين يدعون قائلين: **﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**[٢].

(١) سورة فصلت، آية: ٤٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٠١.

ولعل أحد معاني هذا الدعاء الرباني، هو طلب التوفيق من الله إلى التوبة، وطلب عدم التعرض إلى البلاء والابتلاء الصعب، باعتبار أن الرب الجليل يعلم حجم تحمل الإنسان المؤمن الذي مهما يكن، فإنه يبقى كائناً ضعيفاً ينتظر الرحمة الإلهية في كل حين.

وقد جاء في الدعاء القرآني الذي يفترض بالإنسان المؤمن أن يتعلمه ويتقنه: ﴿**رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾[١].

باب التوبة مفتوح

جاء في الرواية الحادية عشرة من الباب الثالث والتسعين عن النبي المصطفى ﷺ أنه قال: «**إِنِّي نَازَلْتُ رَبِّي فِي أُمَّتِي فَقَالَ لِي إِنَّ بَابَ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ حَتَّى يُنْفَخَ فِي الصُّورِ.**

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: **إِنَّهُ مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَةٍ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ.** ثُمَّ قَالَ: **وَإِنَّ السَّنَةَ لَكَثِيرٌ مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِشَهْرٍ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ.** ثُمَّ قَالَ: **وَشَهْرٌ كَثِيرٌ مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِجُمْعَةٍ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ.** ثُمَّ قَالَ: **وَجُمْعَةٌ كَثِيرٌ مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِيَوْمٍ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ.** ثُمَّ قَالَ: **وَيَوْمٌ كَثِيرٌ مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِسَاعَةٍ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ.** ثُمَّ قَالَ: **وَسَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مَنْ تَابَ وَقَدْ بَلَغَتْ نَفْسُهُ هَذِهِ** (وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ) **تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ**»[٢].

إن عبارة «**نَازَلْتُ**» المستخدمة هنا، تعني أن رسول الله ﷺ أصرَّ في دعائه ربه عز وجل ودفاعه عن أمته بما له من الشأن الرفيع عند الله.

ويمكن أن يفهم من هذه العبارة أن على الإنسان الباحث عن ربه أن لا يكون

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٣.

ضعيفاً متزلزلاً عند الدعاء، أو يكتفي بطلب أو طلبين بسيطين، وإنما ينبغي له الإلحاح والإصرار والإكثار من الدعاء، بعد أن ربى نفسه التربية الإيمانية العميقة التي تؤهله لمثل هذا الإلحاح والإصرار، لأن في ذلك تصريحاً بإيمانه العميق بأن الله قادر على ممارسة كرمه وتفعيل غناه تجاه من يشاء، وكيف يشاء ومتى يشاء.

لقد طلب النبي صلى الله عليه وآله من ربه الرحمة؛ كل الرحمة لأمته.

إن هذه الرواية الكريمة ومثيلاتها يستفاد منها دائماً في إطار هذا الموضوع، إذ تتضمن الفرصة والفرج الكبير الذي تكرم به الله تعالى على أمة محمد صلى الله عليه وآله ،فصار من الممكن لكل المذنبين أن يتوبوا عما بدر منهم في الماضي قبل العبور إلى العالم الآخر، ليدخلوا ساحة القيامة طاهرين.

كيف يُدفع عذاب الرب؟!

وفي الرواية الأولى من الباب الرابع والتسعين التي نقلت عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، نقرأ: «**إِنَّ اللَّـهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُصِيبَ أَهْلَ الْأَرْضِ بِعَذَابٍ قَالَ: لَوْ لَا الَّذِينَ يَتَحَابُّونَ بِجَلَالِي وَيَعْمُرُونَ مَسَاجِدِي وَيَسْتَغْفِرُونَ بِالْأَسْحَارِ لَأَنْزَلْتُ عَذَابِي**»[1].

إن عذاب الله تعالى يُدفع عن العباد بسبب وجود فئة من الناس تحمل ثلاث صفات هي:

أولاً: أنهم يتحابون بجلال الله وعظمته وفي سبيله، فهم يدخلون على الجميع من باب المحبة، وكلما يلقون من سوءٍ من قبل أصدقائهم وأقاربهم يقولون: إن الله هو أرحم الراحمين، فيحملون أنفسهم على أن لا يقابلوهم بسوءٍ على سوئهم.

وليُعلم أن المحبة والود والصداقة كالشجرة، وأنه يفترض أن تزرع في القلب من اليوم الأول .

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٧٤.

وإذا بذرنا بذرة سوء الظن والسوداوية تجاه شخص معين منذ البدء، فإن من الطبيعي أن يكون موقفنا منه موقفاً سلبياً وعدائياً.

في حين أن نظرة الإسلام الدقيقة تتضمن إلزام أتباعه بحفظ الحرمات فيما بينهم، كما يحفظ أحدهم منافع أخيه المؤمن، أو أن يدعو بالخير لأربعين من معارفه المؤمنين في صلاة الليل.. ومن الطبيعي أن يؤدي هذا الأسلوب إلى جعل شجرة المحبة والود أكثر إيناعاً وإثماراً في نفس الإنسان.

وثانياً: أنهم يعمرون المساجد، فالله سبحانه وتعالى يشترط على المؤمنين المتحابين أن يعمروا مساجده بالصلاة والعبادة وكسب المعارف وبناء الذات.

وقد كان الطلاب قديماً يتعلمون دروسهم العلمية والدينية في المساجد كما كانت الغرف منتشرة على أطرافها ليتدارس الطلاب ويستريحوا فيها، وهذا يشير إلى أن إعمار المساجد لا يقتصر على أداء الصلاة فقط.

وثالثاً: أنهم يستغفرون بالأسحار.

وللاستغفار بالليل طرق متنوعة. فلا يقتصر الاستغفار على أن يهجر المرء فراشه الوثير ليقوم إلى الوضوء والصلاة، إذ يمكن التوجه أيضاً إلى القبلة ولما يقم المرء من فراشه، فيقول: أستغفر الله، ويستغفر لغيره من المؤمنين.

والرواية التالية وردت عن رسول الله ﷺ، حيث قال: «**إِنَّ اللَّـهَ جَلَّ جَلَالُهُ إِذَا رَأَى أَهْلَ قَرْيَةٍ قَدْ أَسْرَفُوا فِي الْمَعَاصِي وَفِيهَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ نَادَاهُمْ جَلَّ جَلَالُهُ يَا أَهْلَ مَعْصِيَتِي لَوْ لَا مَنْ فِيكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَحَابِّينَ بِجَلَالِي الْعَامِرِينَ بِصَلَاتِهِمْ أَرْضِي وَمَسَاجِدِي وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ خَوْفاً مِنِّي لَأَنْزَلْتُ بِكُمْ عَذَابِي ثُمَّ لَا أُبَالِي**»[1].

والمقصود من «**قَرْيَةٍ**» ليس المعنى المتعارف لدينا فقط، وإنما يشمل المدن الكبيرة أيضاً.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٧٤.

المبادرة إلى تلافي الذنوب

وفي الباب (٩٥) من كتاب جهاد النفس نقرأ الروايات التي تحث الإنسان عليأن يتلافى في يومه ما فرّط في أمسه، وأن لا يؤخر ذلك إلى غده.

وفي المجال المادي، واضح أنه ما لم يتم إزالة الأوساخ والقاذورات عن الملابس والبدن بشكل سريع، فإنها ستلصق بهما أكثر، وكلما مر الوقت على ذلك، كانت عملية التنظيف أصعب. والمرأة في بيتها إن بادرت إلى غسل أواني الطعام، كان ذلك أيسر لها من أن تؤخرها إلى يوم الغد وما بعده.

أما الإنسان الذي يرتكب الموبقات، فإن ثمَّة نوعاً من التلوث سيحل في روحه، وبعبارة أخرى؛ إن الموبقة تحدث في قلب الإنسان أخدوداً، فيما يقتنص الشيطان هذه الفرصة ليبذر بذوره فيه، ويقف مترقباً.

إن كل ذنب - حسب نوعه وحجمه- يقلل من يقين وإيمان الإنسان، فإن لم يبادر إلى التطهر، أو أصرَّ على ارتكابه، فإنه سيخلو من اليقين أساساً،وسوف لن يجد ما يصدر منه سوى التكذيب بآيات الله تعالى، وهو القائل: **﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾**[١].

إن الفرد المذنب قد يصل به الأمر إلى التكذيب بجميع الآيات والدلائل الربانية الواضحة. وعلى هذا؛ ينبغي العمل على تضميد الجراح التي تتعرض لها الروح منذ اللحظة الأولى، وعملية الاستغفار والإنابة الفورية هي ذلك التضميد الروحي.

في الرواية الأولى لهذا الباب، نقل عن الإمام زين العابدين عليه السلام قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِنَّمَا الدَّهْرُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ أَنْتَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ: مَضَى أَمْسِ بِمَا فِيهِ، فَلَا يَرْجِعُ أَبَداً، فَإِنْ كُنْتَ عَمِلْتَ فِيهِ خَيْراً لَمْ تَحْزَنْ لِذَهَابِهِ وَفَرِحْتَ بِمَا اسْتَقْبَلْتَهُ مِنْهُ،**

(١) سورة الروم، آية: ١٠.

وَإِنْ كُنْتَ فَرَّطْتَ فِيهِ فَحَسْرَتُكَ شَدِيدَةٌ لِذَهَابِهِ وَتَفْرِيطِكَ فِيهِ، وَأَنْتَ مِنْ غَدٍ فِي غِرَّةٍ لَا تَدْرِي لَعَلَّكَ لَا تَبْلُغُهُ وَإِنْ بَلَغْتَهُ لَعَلَّ حَظَّكَ فِيهِ التَّفْرِيطُ مِثْلُ حَظِّكَ فِي الْأَمْسِ. (إِلَى أَنْ قَالَ): **وَإِنَّمَا هُوَ يَوْمُكَ الَّذِي أَصْبَحْتَ فِيهِ وَقَدْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ عَقَلْتَ وَفَكَّرْتَ فِيمَا فَرَّطْتَ فِي الْأَمْسِ الْمَاضِي مِمَّا فَاتَكَ فِيهِ مِنْ حَسَنَاتٍ أَنْ لَا تَكُونَ اكْتَسَبْتَهَا وَمِنْ سَيِّئَاتٍ أَنْ لَا تَكُونَ أَقْصَرْتَ عَنْهَا..** (إِلَى أَنْ قَالَ) **فَاعْمَلْ عَمَلَ رَجُلٍ لَيْسَ يَأْمُلُ مِنَ الْأَيَّامِ إِلَّا يَوْمَهُ الَّذِي أَصْبَحَ فِيهِ وَلَيْلَتَهُ فَاعْمَلْ أَوْدَعْ وَاللهُ الْمُعِينُ عَلَى ذَلِكَ»**[(١)].

وكم يجمل بالإنسان المعمر المؤمن أن ينظر إلى لحيته ويشكر ربه، على أنها قد شابت وابيضت في طريق الهداية، وأتذكر حينما كنت في مدينة مشهد المقدسة وكنت منهمكاً في تفسير القرآن الكريم، وكنت قد وصلت إلى تفسير قصار السور القرآنية التي تهز الإنسان من الأعماق، وعند تدبري في بعض الآيات تأثرت كثيراً حينما قارنت الأوضاع التى نعيشها بما في تلك الآيات، فقلت في نفسي: إذا كان ما ذكر في هذه السور صحيحاً -وهو الحق-، فأين نحن منه؟ وإن كان ما نقول هو الصحيح، فما الذي تؤكده هذه الآيات والدلائل الربانية؟!.

وعند حلول الظهر، لم أستطع تناول شيءٍ من الطعام، لما أصابني من قلق واضطراب شديد، حتى شعرت أنني قد دخلت عالماً آخر، فقصدت ضريح الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، فقلت داعياً: إذا كانت حالتي هذه أمراً صحيحاً، فاحفظها لي يا رب، وإن كانت مكيدة شيطانية، فاهدني إلى الصراط السوي!.

ولكنني حينما عزمت على مغادرة المرقد المقدس، وإلقاء التحية الأخيرة، شعرت باستيلاء هاجس خاص يغمر قلبي، أن: اشكر الله على أنك قد اشتغلت بدراسة العلوم الدينية منذ صغرك، وتربيت وأينعت في جو إيماني وديني، ولم تخدم السلاطين والطواغيت، ولم تسقط في فخ الكبائر والمحرمات.

وإذ طغا عليّ هذا الهاجس والشعور، رأيت قلبي قد غمره النور واستولت

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٥.

عليه السعادة، وشعرت بالراحة إلى أن حياتي لم تذهب سدىً، وكان هذا الشعور يعادل الدنيا وما فيها بالنسبة لي.

إذن، عليك أن تتصور أبداً بأنك لا تملك يومك، وينبغي أن تكون أفكارك أفكاراً جديدة، أو أن تفترض بأن أمك قد ولدتك لتوها، ولن تعيش في الدنيا أكثر من يوم واحدٍ، فعليك أن تقوم بالأعمال الصالحة التي لم تقم بها من قبل، وأن تهجر ذنوبك وتستغفر الله سبحانه وتعالى.

ولو أنك افترضت نفسك مسافراً، فإنك تسعى لأن تتذكر كل شيء تحتاجه في سفرتك وأن لا تنسى شيئاً. أو تخوض نزاعاً مع الآخرين، وأن لا تكون عصبياً أو قلقاً في اللحظات الأخيرة قبل المغادرة، فإن كنت كذلك خلال يومك، فلا شك أن الله سيساعدك ويحميك، وستقف إرادته إلى جانبك.

تارة يغرق الإنسان في التفكير في ماضيه بصورة ينسى فيها حاضره أيضاً، فضلاً عن مستقبله، فيكون كمن يتعرض لحادث اصطدام، فيصاب بالحيرة والذهول، حتى أن هذه الحالة تتسبب له في مضاعفة حجم الضرر والخسارة.

إن من الضروري أن لا نسمح للدنيا وتقلبات الحياة أن تحيرنا وتذهلنا،لأنها إذ ذاك لن تدع لنا الفرصة في التفكير الصحيح واتخاذ القرار الصائب.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في الرواية الثانية: «**إِنَّ النَّهَارَ إِذَا جَاءَ قَالَ: يَا ابْنَ آدَمَ اعْمَلْ فِي يَوْمِكَ هَذَا خَيْراً، أَشْهَدْ لَكَ بِهِ عِنْدَ رَبِّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنِّي لَمْ آتِكَ فِيمَا مَضَى وَلَا آتِيكَ فِيمَا بَقِيَ. فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ**»[1].

ترون أن جميع عناصر الخلقة تنذر الإنسان بلسان حالها كي يراقب نفسه، وأن لا يفرط بوقته الذي هو الفرصة التي لا تعوض في الحياة.

إن هذه الإيحاءات تنبه الإنسان في أوقات مختلفة. فحينما يستيقظ في

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٥.

الصباح، يشعر بهذا الإيحاء ويتلقاه، وكذلك حينما يتوجه إلى مخدعه في الليل.

وقد تمت الإشارة إلى هذه الحقيقة في بعض كلمات الدعاء الشريف الموسوم بدعاء (الصباح) للإمام علي عليه السلام، حيث جاء فيه: «**يَا مَنْ أَرْقَدَنِي فِي مِهَادِ أَمْنِهِ وَأَمَانِهِ، وَأَيْقَظَنِي إِلَى مَا مَنَحَنِي بِهِ مِنْ مِنَنِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَكَفَّ أَكُفَّ السُّوءِ عَنِّي بِيَدِهِ وَسُلْطَانِهِ..**»[1].

ونقل في الرواية الثالثة عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث قال: «قَالَ أَبِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: **لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ إِلَّا لِرَجُلَيْنِ رَجُلٍ يَزْدَادُ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَيْراً وَرَجُلٍ يَتَدَارَكُ مَنِيَّتَهُ بِالتَّوْبَةِ**»[2].

ونقرأ في الدعاء الخاص بيوم الثلاثاء: «**وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَالْوَفَاةَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ..**»[3].

وفي الرواية الرابعة عن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ أيضاً: «**قَالَ الْمَغْبُونُ مَنْ غُبِنَ عُمُرَهُ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ**»[4].

وفي هذه الرواية يُعرِّف الإمام عليه السلام شخصية المغبون، وللأسف نجد أن المغبون بين أوساطنا هو من يتعرض للخسارة المادية فقط، فمن باع بيته بسعر زهيد أو اشتراه بثمن كبير يعتبر مغبوناً، في حين أن الغبن الحقيقي هو الغبن والخسارة على الصعيد المعنوي. ولكن الناس عادةً ما يهتمون بالأمور ذات العلاقة بالثروة والمال. ففي أسواق مكة المكرمة، والمدينة المنورة، ترى الحجاج ينهمكون أشد الانهماك في انتخاب السلعة التي تنال قيمتها رضاهم، ثم إنهم بعد انتهاء عمليات الشراء يدخلون لساعات مديدة في مداولات عن كيفية الشراء وأماكنه وجودة

(١) مفاتيح الجنان، دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٦.
(٣) مفاتيح الجنان، أدعية الأسبوع، دعاء يوم الثلاثاء.
(٤) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٦.

السلع، فإذا كان منهم من ابتاع بسعر مناسب، تفاخر على زملائه بما سيحصل عليه من ربح ومنفعة، وأنهم قد خدعوا من قبل أصحاب المحلات!.

ولكنهم لا يفكرون في أن الوقت الذي أضاعوه في الأسواق كم سيعرضهم للخسارة بدلاً من اهتمامهم باكتساب المنافع المعنوية والحصول على جزيل الأجر.

لقد كان بإمكانهم أن يقتنصوا فرصة الوقت الذي يضيعونه، فيتلون القرآن المجيد، أو يعمدون إلى ختمه، أو أن يهتموا بأداء المستحبات من الصلوات، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن ركعتين يصليهما الحاج في المسجد الحرام تعدل مئة ألف ركعة يؤديها في الأماكن الأخرى.

جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ، وَمَنْ كَانَ آخِرُ يَوْمَيْهِ خَيْرَهُمَا فَهُوَ مَغْبُوطٌ، وَمَنْ كَانَ آخِرُ يَوْمَيْهِ شَرَّهُمَا فَهُوَ مَلْعُونٌ**»[١].

لاحظوا روعة التقسيم الذي أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام في حديثه في إطار إيقاظ القلوب الخاملة والغافلة، فما أتعس من لا يبدي ردّ فعل مناسب تجاه هذا التنبيه والإيقاظ!. فإذا كنا قد أقمنا مجلساً ثقافياً أو دينياً في شهر رجب في العام الماضي، ولكننا أحجمنا عن ذلك في عامنا الحاضر، أو كنا قد ختمنا القرآن فيه، ولم نختمه في سنتنا الحاضرة، فما علينا إلا أن نبكي أنفسنا لهذا التراجع المهين.

إن بين أيدينا المزيد من الروايات التي تلزم من تعوَّد على إنجاز العمل الصالح بأن لا يترك الالتزام به، لأن تركه يمثل تراجعاً مرفوضاً من طريق الخير والعمل الصالح. ثم يواصل الإمام الصادق عليه السلام كلامه الشريف قائلاً: «**وَمَنْ لَمْ يَرَ الزِّيَادَةَ فِي نَفْسِهِ فَهُوَ إِلَى النُّقْصَانِ، وَمَنْ كَانَ إِلَى النُّقْصَانِ فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْحَيَاةِ**»[٢].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٦.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٦.

8

محاسبة النفس ومراقبتها

من أعقد المشاكل البشرية عبر التاريخ هي الغفلة عن حركة الزمن، ومرور الوقت، وطول الأمل، وقد قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام -في حديث رائع-: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الْأَمَلِ**»[1].

وفي مقابل ذلك، فإن من السعادة أن يعطي الفرد لوقته ما يستحق من القدر والاهتمام ويتنبه لمرور الزمن، وطبعاً فإن الله تبارك وتعالى يعرض الإنسان بين الحين والآخر إلى ما ينبهه ويذكره، ليخرجه من الغفلة والجهل والكسل. فموت الأعزة يعتبر جرس إنذار -وإلى حد بعيد- لإعادة الفرد إلى وعيه، وقد شجع الدين على إقامة مراسم تشييع الأموات وحضورها للغرض المشار إليه. فالمراسم هذه هي بمثابة حركة استعراضية في إطار إثبات حقيقة أن الجميع يسيرون في نفس الاتجاه الذي يسير إليه الفرد المحمول على الأكتاف!.

ويبدو أن حالة الإيقاظ والإنذار التي يحويها الموت الذي يفتح لنا كوة على الغيب، ليست ذات تأثير دائم فينا، إذ لا تزال الحياة الدنيا تخدعنا بزخارفها وزبرجها.

(١) مستدرك الوسائل، ج١١، ص٣٠٥.

المحافظة على أوقات الصلاة

ولأهمية الوقت في الدين فإننا نرى تأكيداً على المحافظة على أوقات أداء الصلاة وعدّ ذلك من أهم أركان الصلاة، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾[١].

ولو لم يكن هذا الأمر مهماً، لكان مسموحاً لنا أن نؤدي الصلوات الخمس مرة واحدة.. ولعل لمسألة الوقت أهمية أكبر من أهمية المحافظة على الطهارة وإحرازها للصلاة، ودليل ذلك: لو كان أمام الإنسان خيار المحافظة على الوقت الخاص بالصلاة مع التيمم، أو الصلاة خارج وقتها مع الطهارة المائية، فإنه يجد نفسه مضطراً إلى المحافظة على وقت الصلاة، واستبدال الطهارة المائية بالطهارة الترابية، لأن الأمر الأوجب هو أداء الصلاة لوقتها، دون التفريط به في حال الوضوء أو الغسل. ودليل آخر هو: أن المصلي إن لم يدرِ جهة القبلة وخاف فوات وقت الصلاة، كان عليه أن يصلي إلى أيّة جهة شاء، ويكفيه ذلك عن تيقن التوجه إلى القبلة، وهو في غنى عن إعادة الفريضة خارج الوقت.

وجملة هذه المسائل وغيرها الكثير تؤكد لزوم الاهتمام بالوقت.

إن الإنسان أساساً يجب أن يعتبر من جميع عناصر الحياة، ويعدّها من إشارات حركة الزمن، وأن يوقظ نفسه تجاه ذلك.

إن حركة الشمس والقمر والنجوم تحمل رسالة إيقاظ للإنسان.. كذلك علمنا أئمتنا المعصومون عليهم السلام. فالزمن يتحدث مع الإنسان وينبهه إلى أن جميع عناصر الحياة شهود صامتون على أفعاله وأقواله، فإن قام بعمل صالح شهدوا لصالحه.

وجوب محاسبة النفس

ومن القضايا المهمة التي ينبغي للإنسان الاهتمام بها، قضية محاسبة النفس، التي يعبر عنها البعض بمراقبة النفس، حيث يجعلها تحت مجهر وجدانه، ليقضي لها أو عليها.

(١) سورة النساء، آية: ١٠٣.

وفي الباب (٩٦) من جهاد النفس نقرأ الأحاديث الواردة بشأن محاسبة النفس.. ونقرأ في الحديث الأول قول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: **«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُحَاسِبْ نَفْسَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ فَإِنْ عَمِلَ حَسَناً اسْتَزَادَ اللَّهَ وَإِنْ عَمِلَ سَيِّئاً اسْتَغْفَرَ اللَّهَ مِنْهُ وَتَابَ إِلَيْهِ»**[1].

ومثال ذلك؛ أنه إذا أدّى صلاة الفجر لوقتها، عليه أن يدعو ربه ليوفقه في اليوم التالي إلى أداء نافلة هذه الصلاة ويضم إليها الأدعية والتعقيبات المخصوصة.

وقد سألني شاب مؤمن خلال إحدى زياراتي إلى مدينة مشهد المقدسة: قائلاً: ماذا يلزمني أن أفعل ليوسع الله عليّ رزقي، فقد أعياني الفقر والفاقة؟!.

قلت: وهل تلزم نفسك بما أوصيك، أم أنك تدعي وتقول فقط؟.

قال: سأفعل ما توصيني به إن شاء الله.

فقلت له: أشغلْ نفسك بتعقيبات الصلاة بين طلوع الفجر وبزوغ الشمس، ولا تنم بينهما أبداً، فقد ورد في الروايات أن الاستيقاظ بين الطلوعين أفضل من قصد البحار والبراري لطلب الرزق وأكثر فائدة.

فقال: إن ما أوصيتني به أمر صعب!.

فأجبته: إن كسب المال الحلال ليس بالأمر السهل أيضاً، فإذا أردت أن تكون غنياً، فعليك سلك هذا الطريق.

ونرى بعض الناس يعتقدون بعدم وجود الفرصة الكافية للقيام بجميع العبادات والأعمال الواردة في كتاب (مفاتيح الجنان) مثلاً، في حين أن الإنسان إذا ألزم نفسه بالقيام بتلك الأعمال، سيرى أن الله تعالى سيبارك في وقته وعمره.

وقد كان المرحوم الشيخ محمد بن الحسن الطوسي قدس سره، المعروف بشيخ

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٧.

الطائفة، ومؤسس حوزة النجف العلمية، قد دوّن برنامجه العبادي اليومي وسماه بـ(مصباح المتهجد)، وأخرجه على هيئة كتاب؛ أصبح فيما بعد من أمهات كتب الأدعية والزيارات. كما أن بعض الفقهاء والمجتهدين المراجع كانوا يخططون لسلوكهم أدق التخطيط.

وجاء في الرواية الثانية أن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَسْأَلَ اللَّهَ شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُ، فَلْيَيْأَسْ مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وَلَا يَكُونُ لَهُ رَجَاءٌ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ، فَإِذَا عَلِمَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ ذَلِكَ مِنْ قَلْبِهِ، لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُ، فَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا عَلَيْهَا، فَإِنَّ لِلْقِيَامَةِ خَمْسِينَ مَوْقِفاً، كُلُّ مَوْقِفٍ مِقْدَارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ -ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى:- ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾**[١]»[٢]. ولا شك أن جميعنا نتوقع أن يستجيب الله لنا فوراً.

ترى ماذا علينا أن نعمل لنصل إلى هذه الدرجة؟.

إن ما يلزمنا هو أن نتعامل مع ربنا عز وجل بصورة مباشرة.

فقد نجد أشخاصاً، وربما كانوا من الفئات الاجتماعية البسيطة، يتعاملون مع ربهم بصورة مباشرة، والعجيب أن الطرفين تراهما يلتزمان بشروط المعاملة هذه، فما يأمر به الله، يلتزم به العبد. ويستجيب الرب لما يطلب العبد.

وقد نقل أن رجلاً بسيطاً من أهالي مدينة تبريز الإيرانية رأى صدفةً ولده الصغير يسقط من سطح المنزل، فصاح صيحة بسيطة وقال: أمسكه يا رب!.

فبقي الطفل معلقاً في الهواء، حتى وقف الأب تحته وتلقفه، ولم يتعرض الطفل لمكروه.. فتعجب الناس الذين تجمعوا وكادوا يعتقدون بأن الرجل البسيط نبي!!. فقال لهم: ابتعدوا ولا تتعجبوا، فلقد أطعت الله تعالى دهراً، فلماذا العجب من أن يستجيب لي الله دعائي مرة واحدة؟!.

---

(١) سورة السجدة، آية: ٥.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٧.

وهناك من الدعاء ما يؤكد هذه الحقيقة، وهو دعاء سحر ليلة الجمعة الموجود في كتاب (مفاتيح الجنان)، حيث جاء فيه: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَهَبْ لِيَ الْغَدَاةَ رِضَاكَ، وَأَسْكِنْ قَلْبِي خَوْفَكَ، وَاقْطَعْهُ عَمَّنْ سِوَاكَ، حَتَّى لا أَرْجُو وَلَا أَخَافَ إِلَّا إِيَّاكَ..**»[١].

ونقل أبو حمزة الثمالي رضي الله عنه عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال: «**ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَا تَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَكَ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِكَ وَمَا كَانَتِ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هَمِّكَ وَمَا كَانَ الْخَوْفُ لَكَ شِعَاراً وَالْحُزْنُ لَكَ دِثَاراً ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَمَبْعُوثٌ وَمَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّـهِ فَأَعِدَّ جَوَاباً**»[٢].

وروي عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: «يَا رَسُولَ اللَّـهِ فَمَا كَانَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ؟. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**كَانَتْ أَمْثَالًا كُلُّهَا: أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُبْتَلَى الْمَغْرُورُ!، إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَلَكِنْ بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّي دَعْوَةَ الْمَظْلُوم، فَإِنِّي لَا أَرُدُّهَا وَإِنْ كَانَتْ مِنْ كَافِرٍ، وَعَلَى الْعَاقِلِ مَا لَمْ يَكُنْ مَغْلُوباً. أَنْ تَكُونَ لَهُ سَاعَاتٌ، سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيهَا صُنْعَ اللَّـهِ إِلَيْهِ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا بِحَظِّ نَفْسِهِ مِنَ الْحَلَالِ. فَإِنَّ هَذِهِ السَّاعَةَ عَوْنٌ لِتِلْكَ السَّاعَاتِ، وَاسْتِجْمَامٌ لِلْقُلُوبِ وَتَفْرِيغٌ لَهَا**»[٣].

أما الرواية الخامسة؛ فقد وردت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حيث قال: «**لَذِكْرُ اللَّـهِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ خَيْرٌ مِنْ حَطْمِ السُّيُوفِ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ. يَعْنِي: مَنْ ذَكَرَ اللَّـهَ بِالْغُدُوِّ وَتَذَكَّرَ مَا كَانَ مِنْهُ فِي لَيْلِهِ مِنْ سُوءِ عَمَلِهِ وَاسْتَغْفَرَ اللَّـهَ وَتَابَ إِلَيْهِ انْتَشَرَ وَقَدْ حُطَّتْ سَيِّئَاتُهُ وَغُفِرَتْ ذُنُوبُهُ. وَمَنْ ذَكَرَ اللَّـهَ بِالْآصَالِ وَهِيَ الْعَشِيَّاتُ وَرَاجَعَ نَفْسَهُ فِيمَا كَانَ مِنْهُ يَوْمَهُ ذَلِكَ مِنْ سَرَفِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَإِضَاعَتِهِ لِأَمْرِ رَبِّهِ فَذَكَرَ اللَّـهَ وَاسْتَغْفَرَ اللَّـهَ تَعَالَى وَأَنَابَ رَاحَ إِلَى أَهْلِهِ وَقَدْ غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ..**»[٤].

---

(١) مفاتيح الجنان، من أدعية السحر لليلة الجمعة.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٨.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٨.

(٤) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٨.

وعلى هذا؛ فإن المقصود من الآية القرآنية الشريفة القائلة: ﴿**رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ**﴾[١]، ليس هو أن يقوم الإنسان لأداء الصلاة فقط، وإنما هو محاسبة نفسه ونقدها. وحينما يلتزم الفرد بهذه الوظيفة، ستكون صلاته وعملية المحاسبة اللتان يقوم بهما سبباً لأن يغفر الله له ذنوبه ويعفو عنه. فإذا كان الوقت وقت النهار، استطاع أن يقصد جهة عمله ونشاطه مستقرَّ النفسِ. وإذا حلّ الليل، ذهب إلى فراش نومه قرير العين؛ فارغ البال. فالاستغفار في الصباح والمساء يرقى بالإنسان إلى حالة الاطمئنان الروحي والتعادل النفسي.

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الرواية السادسة من روايات هذا الباب: «**مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ وَمَنْ خَافَ أَمِنَ وَمَنِ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ**»[٢]. ولكنه إذا امتنع عن محاسبة نفسه، جرته إلى الخسارة في الدنيا والآخرة. أما إذا خاف العاقبة، ونفذ هذا الخوف إلى عمقه، فقد بلغ الأمن والأمان في الدنيا والآخرة، لأن لهذا الخوف أن يقيم الحصن المنيع ضد هجوم الهوى وغزو الشيطان.

ومن كان معتبراً، نال البصيرة، والبصيرة تنتهي إلى الوعي، والإدراك والوعي يجران إلى العلم والمعرفة. ثم إن الإمام علي عليه السلام ينتهي إلى حيث العلم، مما يشير إلى عدم وجود شيءٍ أسمى من العلم في الحياة.

وجاء في الرواية السابعة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في وصيته لأبي ذر رضي الله عنه [٣]:

---

(١) سورة النور، آية: ٣٧.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٨.

(٣) كانت للنبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وصايا عديدة، ذكر قسم منها في كتاب (تحف العقول)؛ منها وصيته للإمام أمير المؤمنين عليه السلام ومنها وصيته لابن مسعود، ووصيته لمعاذ بن جبل، وأخرى لأبي ذر الغفاري.

أمـا وصيتـه صلى الله عليه وآله لأبـي ذر؛ فلها قدسـية خاصة، تتعلـق بالزهد والتقوى، أمـا وصيته لأمير المؤمنيـن عليه السلام فتتعلق أكثر ما تتعلق بالآداب والسـلوك في الحياة. ويبـدو أن النبي صلى الله عليه وآله كان يأخذ بالحسبان تنظيم وصاياه وفقاً للحالة والظرف، علماً أن العظماء من حيث اتصالهم بالفئات الاجتماعية المختلفة، فإنهم يختارون الموضوع المناسب حين مخاطبة كل شريحة منها.

«يَا أَبَا ذَرٍّ؛ حَاسِبْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبَ، فَإِنَّهُ أَهْوَنُ لِحِسَابِكَ غَداً، وَزِنْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تُوزَنَ، وَتَجَهَّزْ لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ يَوْمَ تُعْرَضُ، لَا تَخْفَى عَلَى اللَّـهِ خَافِيَةٌ..»(١).

فإذا قيّم الإنسان نفسه وصقلها جيداً، أصبح أكثر استعداداً ومقاومة وفاعلية في مواجهة العوامل الاجتماعية والنفسية الضاغطة، فيعرف إذ ذاك ماذا يفعل، وماذا يجب أن يبدي من رد فعل في مواجهة العواصف. ومن الطبيعي له إذا كان قد فشل في الامتحان الأول، فإنه سيجهد في تلافي الضعف لديه.

إن يوم القيامة ليس باليوم الهزل، ومن كان يفتقر إلى عوامل الصد والمقاومة لعوامل الإغراء فإنه سيعجز عن الثبات إزاء ذلك الزلزال الرهيب.

تصوروا -أيها القراء الكرام-لو أعلن عن أن يوم غد سيكون يوم استعراض، ويجب علينا المشاركة في هذا الاستعراض، فكم سنهتم بأنفسنا ونتهيأ للمشاركة، ونتخيل بأننا قد اشتركنا فعلاً في هذا الاستعراض؟.

إن علينا أن نتهيأ للاستعراض الأكبر أمام جبار السموات والأرض في يوم القيامة. وللقرآن الكريم آيات متعددة لتصوير عظمة يوم القيامة، منها: **﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾**(٢).

ففي ذلك اليوم، لا يخفى على الله عز وجل شيءٌ، فينبغي أن نسعى لأن يكون مظهرنا أصيلاً وواقعياً من أجل حضور ذلك الاستعراض الأكبر، دونما تصنّع أو ممارسة خداع أو كذب.

ثم يضيف النبي الأكرم ﷺ القول في وصيته لأبي ذر رضي الله عنه: **«يَا أَبَا ذَرٍّ؛ لَا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ أَشَدَّ مِنْ مُحَاسَبَةِ الشَّرِيكِ شَرِيكَهُ، فَيَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ، وَمِنْ أَيْنَ مَشْرَبُهُ، وَمِنْ أَيْنَ مَلْبَسُهُ، أَ مِنْ حَلَالٍ أَوْ مِنْ حَرَامٍ؟**.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٩.

(٢) سورة الحاقة، ١٨.

يَا أَبَا ذَرٍّ؛ مَنْ لَمْ يُبَالِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَ الْمَالَ، لَمْ يُبَالِ اللّـهُ مِنْ أَيْنَ أَدْخَلَهُ النَّارَ!»[١].

وتعلمون أنه حينما يشترك تاجران -مثلاً- في مشروع مالي معين، فإن كل واحد منهما يسعى إلى تحري الدقة اللازمة في تجارتهما، لئلا يلحقهما الضرر،أو يصابا بالخسارة، أو أن يستغل أحدهما الآخر؛ وكذلك المؤمن عليه أن يشدد على نفسه المحاسبة بنفس الدقة. وفيما يخص طريقة المحاسبة؛ فإنه ﷺ قال: «**فَيَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ**». فتارة يصلنا الطعام عن طريق الحرام، ولكن الفرد في بعض الأحيان لايبدي رغبة في التدقيق والتحقيق في ما إذا كان طعامه حراماً أم حلالاً.. وإذا تأكد من حرمته، كيف له منع ذلك والتخلص منه؟.

إن القرآن الكريم قد حدد الفاصل بين الحلال والحرام عبر ما يقرب من ثلاثين آية كريمة، وعلى هذا؛ فإننا لو لم نراجع الروايات، فإن الآيات تشرح نفسها بنفسها، ولذلك كان علينا أن نراقب أنفسنا بكل دقة، لكي لا نتعرض إلى المصير الذي تعرض له علماء اليهود، حيث قال القرآن المجيد عنهم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾[٢].

وطبعاً؛ فإن النبي ﷺ قد توقّع لكثير من المسلمين أن يقتفوا أثر اليهود فيما ذهبوا إليه من حرام وضياع.

لقد أنذر النبي الأعظم ﷺ أبا ذر الغفاري رضي الله عنه لكي يبدي اهتماماً كبيراً في التعرف على طريق وأسلوب كسبه للمال، لأن الله تعالى لا يبالي أبداً في كيفية وأسلوب إدخال الإنسان إلى جهنم إذا كان منحرفاً عن الطريق السوي.

أما الرواية الثامنة: فقد نقلها الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن علي عليه السلام، عن النبي ﷺ إذ قال: «**أَكْيَسُ الْكَيِّسِينَ**[٣] **مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ**

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٩.

(٢) سورة التوبة، آية: ٣٤.

(٣) الكيّس: الفَطِن والذكي. وأكيس الكيِّسين يعنى: أذكى الأذكياء.

لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ»[١].

إن تعريفنا للفرد الذكي يختلف عما عرّفه الأئمة الأطهار عليهم السلام . ففي عرفنا يعتبر الذكي من يشتري السلعة الثمينة بسعر زهيد، كما يعتبر الرجل الكيِّس من يغبن الناس ويغشهم ويستغل الضعفاء منهم.

ولكن وجهة نظر عظماء الشريعة الإسلامية تختلف عن ذلك بكثير، إذ يعتبرون الذكي من يشدد على نفسه بالمحاسبة المستمرة، ومن يزاول الأعمال الصالحة ليدخرها -بذكائه- لليوم الآخر.

وإكمالاً للرواية السابقة: «قَالَ رَجُلٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَيْفَ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ؟.

قال: **إِذَا أَصْبَحَ ثُمَّ أَمْسَى، رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ، وَقَالَ: يَا نَفْسِي؛ إِنَّ هَذَا يَوْمٌ مَضَى عَلَيْكِ، لَا يَعُودُ إِلَيْكِ أَبَداً. وَاللهُ يَسْأَلُكِ عَنْهُ بِمَا أَفْنَيْتِهِ فَمَا الَّذِي عَمِلْتِ فِيهِ؟، أَذَكَرْتِ اللَّـهَ أَمْ حَمِدْتِهِ؟، أَ قَضَيْتِ حَوَائِجَ مُؤْمِنٍ فِيهِ؟، أَنَفَّسْتِ عَنْهُ كَرْبَهُ، أَحَفِظْتِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ فِي أَهْلِهِ وَوُلْدِهِ؟، أَحَفِظْتِيهِ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي مُخَلَّفِيهِ؟، أَكَفَفْتِ عَنْ غِيبَةِ أَخٍ مُؤْمِنٍ؟، أَعَنْتِ مُسْلِماً؟، مَا الَّذِي صَنَعْتِ فِيهِ؟ فَيَذْكُرُ مَا كَانَ مِنْهُ، فَإِنْ ذَكَرَ أَنَّهُ جَرَى مِنْهُ خَيْرٌ، حَمِدَ اللَّـهَ وَكَبَّرَهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ، وَإِنْ ذَكَرَ مَعْصِيَةً أَوْ تَقْصِيراً، اسْتَغْفَرَ اللَّـهَ، وَعَزَمَ عَلَى تَرْكِ مُعَاوَدَتِهِ**»[٢].

وبعد هذه المحاسبة، عليه أن يتوجه إلى الله تبارك وتعالى بالحمد والشكر لما وفّقه إلى القيام بأعمال الخير والصلاح، ومقابل ذلك، يلزمه أن يطلب العفو والمغفرة من ربه على ما ارتكبه من المعاصي والذنوب، كما عليه أن يعزم على هجر الذنوب.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٩.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٩-٣٨٠.

9

خذ حذرك

وحينما يبلغ المرء سن الأربعين، عليه أن يهتم بمراقبة نفسه بشكل أكثر جدية من السابق. هذا ما تؤكده الروايات الواردة في الباب (٩٧) من أبواب جهاد النفس والذي يحمل عنوان: (وجوب زيادة التحفظ عند زيادة العمر،خصوصاً أبناء الأربعين فصاعداً).

جاء في الرواية الأولى من هذا الفصل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَفِي فُسْحَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَإِذَا بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مَلَكَيْهِ، قَدْ عَمَّرْتُ عَبْدِي هَذَا عُمُراً فَغَلِّظَا وَشَدِّدَا وَتَحَفَّظَا وَاكْتُبَا عَلَيْهِ قَلِيلَ عَمَلِهِ وَكَثِيرَهُ وَصَغِيرَهُ وَكَبِيرَهُ**»(١).

إن نشاط الإنسان ورغبته في التحرك وقدرته الطبيعية حتى على ارتكاب الذنوب تمتد إلى سن الأربعين، وحينما يتجاوز هذا الحد من العمر، لابد له أن يكون أكثر منطقية، إذ أن شهواته تأخذ بالتضاؤل، ولابد أن تنسحب أمام إشراقة العقل المتكامل، وعليه؛ فإنه لا يجد العذر اللائق إذا أراد الاستمرار في طيش الشباب.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٨١.

أما الرواية الثانية؛ فقد نقلت عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، حيث قال: «**إِذَا أَتَتْ عَلَى الرَّجُلِ أَرْبَعُونَ سَنَةً قِيلَ لَهُ: خُذْ حِذْرَكَ!، فَإِنَّكَ غَيْرُ مَعْذُورٍ، وَلَيْسَ ابْنُ الْأَرْبَعِينَ أَحَقَّ بِالْحِذْرِ مِنِ ابْنِ الْعِشْرِينَ، فَإِنَّ الَّذِي يَطْلُبُهُمَا وَاحِدٌ، وَلَيْسَ بِرَاقِدٍ فَاعْمَلْ لِمَا أَمَامَكَ مِنَ الْهَوْلِ وَدَعْ عَنْكَ فُضُولَ الْقَوْلِ**»(١).

إن من المؤسف للغاية أن يتشاغل الفرد المؤمن باللغو واللهو، بدلاً من أن يهتم بأداء الأعمال الصالحة والمساهمة في تطوير مجتمعه، أو أن يشتغل بالأعمال العبادية التي تعينه على تزكية نفسه.

إن الاهتمام بالتوافه وممارستها، يحمّل الفرد المسؤولية ويجعله عرضة للمحاسبة والعقاب في يوم الجزاء. ولابد أن نعرف أن عكس ذلك صحيح أيضاً، إذ أن الإنسان المتدين،والمؤدب بالأدب الديني، والذي شبَّ وشاب على المعتقد السليم والسلوك النزيه، سيكون أكثر قرباً من الله سبحانه وتعالى.

والرواية الثالثة وردت على لسان الإمام جعفر الصادق عليه السلام، حيث قال: «**خُذْ لِنَفْسِكَ خُذْ مِنْهَا فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ وَفِي الْقُوَّةِ قَبْلَ الضَّعْفِ وَفِي الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَمَاتِ**»(٢).

ونقل عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**الْعُمُرُ الَّذِي أَعْذَرَ اللَّهُ فِيهِ إِلَى ابْنِ آدَمَ سِتُّونَ سَنَةً**»(٣).

وورد عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قوله حينما سئل عن قول الله عز وجل: ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ**﴾(٤)، فقال عليه السلام: «**تَوْبِيخٌ لِابْنِ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً**»(٥).

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٨١.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٨٢.
(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٨٢.
(٤) سورة فاطر، آية: ٣٧.
(٥) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٨٢.

ولا بد أن نعرف أن عقل الإنسان يكتمل عند بلوغه السنة الثامنة عشرة، ورغم أن البلوغ من حيث الوجهة الشرعية يتم في السنة الخامسة عشرة،إلا أن نمو العقل يؤخر إلى الثامنة عشرة.

الحياء مفتاح الاستغفار

جاء في المأثور عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**ثَلَاثٌ مَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ، فَلَا يُرْجَى خَيْرُهُ أَبَداً: مَنْ لَمْ يَخْشَ اللّهَ فِي الْغَيْبِ، وَلَمْ يَرعْ فِي الشَّيْبِ، وَلَمْ يَسْتَحِ مِنَ الْعَيْبِ**»[١].

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن للاستغفار ثلاثة عشر نوعاً قد ذكرت في الدعاء الوارد بعد زيارة الإمام الرضا عليه السلام، وواحد من تلكم الأنواع هو المسمى باستغفار الحياء. فالإنسان ينبغي له أن يخجل من وجدانه وفطرته، وإذا وصل إلى مرتبة الحياء هذه، حيث يحترم ذاته، ويرى الشرف لنفسه، فإنه سيعتبر من غير المناسب له ارتكاب الذنوب والموبقات، ولكنه إذا لم تأخذه الغيرة على دينه أو مصيره، فإنه لن يتأذى من ارتكاب السيئات أبداً.

مراحل العمر واستعدادات اللقاء

نقل أبو بصير رضي الله عنه عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: «**إِذَا بَلَغَ الْعَبْدُ ثَلَاثاً وَثَلَاثِينَ سَنَةً فَقَدْ بَلَغَ أَشُدَّهُ وَإِذَا بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً فَقَدْ بَلَغَ مُنْتَهَاهُ فَإِذَا طَعَنَ فِي وَاحِدٍ وَأَرْبَعِينَ فَهُوَ فِي النُّقْصَانِ**»[٢]. وقد جاء في القرآن المجيد قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[٣].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٨٢.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٨٢.

(٣) سورة الأحقاف، آية: ١٥.

فإذا تجاوز السنة الحادية والأربعين، فإنه بلغ حد أفول العمر وتهاويه ونكسته.

وقد نقل المرحوم صاحب كتاب (جواهر الكلام)، أن الإنسان إذا بلغ سن الخامسة والخمسين يُعد شيخاً أو شيخة. وطبعاً؛ إن هذه التقسيمات تختلف باختلاف المناطق والأقاليم، ففي الوقت الحاضر نجد من النادر أن يبلغ الفرد سن الخمسين من العمر في بعض الدول الأفريقية، وهو إذا بلغ الستين من عمره يُعد شيخاً كبيراً طاعناً في السن،والسبب في ذلك هو نوع البيئة والغذاء الذي يتناوله الناس في تلك الدول، بالإضافة إلى الأمراض التي يتعرضون لها.

ثم يواصل الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**وَيَنْبَغِي لِصَاحِبِ الْخَمْسِينَ أَنْ يَكُونَ كَمَنْ كَانَ فِي النَّزْعِ**»[1].

هناك من بين الأشخاص المهتمين بمراقبة ومحاسبة أنفسهم، من يعدّونها للموت حينما يتوجهون إلى أسرّة نومهم، وحينما يستيقظون في الصباح يضعون نصب أعينهم أنهم قد لا يتمون يومهم أحياءً، فهم مستعدون دوماً إلى لقاء الله عز وجل، فتراهم يحرصون كل الحرص على تسوية حساباتهم مع الآخرين، ليبرؤوا ذممهم وتكون صفحاتهم بيضاء.

وقد ورد في بعض الروايات القول فيما يخص كيفية نوم الإنسان المؤمن، حيث جاء في بعضها أن المؤمن ينام بنفس الطريقة التي يوضع في قبره، إذ يتجه إلى القبلة بوجهه وعلى جانبه الأيمن.

ومعلوم أن النوم هو الموت الأصغر؛ كما وصفته النصوص الدينية.

وروي عن الأئمة المعصومين عليهم السلام أن ينام المؤمن وكأنه في حالة احتضار، فهو -حين ينام- الموت مسيطر عليه، وكأنه لن يقوم من نومته، وليس بعيداً عن الذهن أن يفاجئ الموت الإنسان في نومه، وقد ثبت ذلك علمياً، كما أشارت إليه بعض الآيات القرآنية الشريفة من قبل.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٨٢.

الصالحات بعد السيئات

إذا ارتكب الإنسان سيئة بسبب إغراء الشيطان له، أو اتباعه للهوى، فماذا عليه أن يفعل؟.

تقول الروايات الواردة في الباب (٩٨) من (جهاد النفس) أن عليه أن يعمل حسنة بإزاء ما ارتكبه من سيئة. وفي هذا المجال روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: **«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ مَا لَهُ عِنْدَ اللَّـهِ فَلْيَنْظُرْ مَا لِلَّـهِ عِنْدَهُ وَمَنْ خَلَا بِعَمَلٍ فَلْيَنْظُرْ فِيهِ فَإِنْ كَانَ حَسَناً جَمِيلًا فَلْيَمْضِ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ سَيِّئاً قَبِيحاً فَلْيَجْتَنِبْهُ فَإِنَّ اللَّـهَ أَوْلَى بِالْوَفَاءِ وَالزِّيَادَةِ وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فِي السِّرِّ فَلْيَعْمَلْ حَسَنَةً فِي السِّرِّ وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فِي الْعَلَانِيَةِ فَلْيَعْمَلْ حَسَنَةً فِي الْعَلَانِيَةِ»**[١].

في هذه الرواية تم التأكيد على وجود معيار خاص يمكن للإنسان أن يعرف من خلاله مدى محبة الله سبحانه وتعالى له. والمعيار هو أن ينظر إلى القضية بشكل معكوس، فيلاحظ مستوى محبته لربه المنان!.

فهناك من ينسى خالقه لدى تعرضه لأية صعوبة أو إغراء، ولذلك فإن من الطبيعي أن ينساه الله بعد كل تلك النعم والرحمات والدلائل والآيات.

وفي مقابل أولئك؛ هناك من لا ينسى الله وإن أُعطي الدنيا برمتها، لأنه يحب ربه أكثر من الدنيا وما فيها.

إن الإنسان يستطيع -في أكثر الحالات- أن يكون أفضل مراقب وأدق محاسب وأنصح ناصح لنفسه، حيث يستغني عن كل خبير غريب. فحينما يحدد الشخص أو يكتشف أنه قد قام بعمل قبيح، عليه أن يتجنبه فيما بعد، وأن لا يحسب لاحتمالات الخسارة التي قد يتعرض لها بتركه العمل القبيح أي حساب، لأن الله تعالى سيعوضه خيراً كثيراً عن ذلك.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٨٣.

ومن جانب آخر؛ يلزم الفرد المؤمن -إذا ما عمل عملاً سيئاً في الخفاء- أن يستغفر ربه يقوم في مقابل ذلك، بعمل صالح؛ في الخفاء أيضاً. أما إذا أساء علناً، فكذلك عليه أن يصلح ما فسد منه؛ علناً، فيكون ذلك كفارة لتجرئه على أمر الله تعالى.

الصراع بين الآحاد والعشرات

الرواية الثانية وردت عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام الذي قال: «**كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام يَقُولُ: وَيْلٌ لِمَنْ غَلَبَتْ آحَادُهُ أَعْشَارَهُ**»[1].

وكنا قبل ذلك قد نقلنا القول عن القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام بأن الله عز وجل قد خص أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من بين الأمم بأن من قام منهم بعمل صالح واحد أعطاه الله عشرة أضعاف من الأجر، أما السيئة فلا يجزون إلا مثلها.

ومع كل ذلك؛ نرى في بعض الأحيان من تفوق سيئاته حسناته، وهذه لعمري منتهى الخسران والهزيمة.

ثم يسأل الراوي إمامنا الصادق عليه السلام: «وَكَيْفَ هَذَا؟. قَالَ عليه السلام: **أَمَا سَمِعْتَ اللّـهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَـنَةِ فَلَهُ عَشْـرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَـا وَهُـمْ لَا يُظْلَمُـونَ﴾[2]. فَالْحَسَنَةُ الْوَاحِدَةُ إِذَا عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْراً وَالسَّيِّئَةُ الْوَاحِدَةُ إِذَا عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةً فَنَعُوذُ بِاللهِ مِمَّنْ يَرْتَكِبُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ وَلَا يَكُونُ لَهُ حَسَنَةٌ وَاحِدَةٌ فَتَغْلِبَ حَسَنَاتُهُ سَيِّئَاتِهِ**».

أما الرواية الثالثة؛ فقد نقلها أبو بصير رضي الله عنه عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث قال: «**إِنَّ اللّـهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَى عِيسَى عليه السلام: مَا أَكْرَمْتُ خَلِيقَةً بِمِثْلِ دِينِي وَلَا أَنْعَمْتُ عَلَيْهَا بِمِثْلِ رَحْمَتِي اغْسِلْ بِالْمَاءِ مِنْكَ مَا ظَهَرَ وَدَاوِ بِالْحَسَنَاتِ مَا بَطَنَ فَإِنَّكَ**

(١) وسائل الشيعة، ج١، ص٣٨٣.
(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

إِلَيَّ رَاجِعٌ شَمِّرْ (أي سريعاً) **فَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ وَأَسْمِعْنِي مِنْكَ صَوْتاً حَزِيناً»**[١].

أركان الإيمان الأربعة

جاءت في (نهج البلاغة) رواية رائعة معروفة بـ (دعائم الإيمان) عن الإمام علي عليه السلام، حيث جاء فيها: «**الْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى الصَّبْرِ، وَالْيَقِينِ، وَالْعَدْلِ، وَالْجِهَادِ**»[٢]. أي الصبر على الإيمان بالشيء الذي لا نراه، فلا نظنّن أن الجنة والنار قضية بعيدة، إذ ينبغي أن نتجاهل عامل الزمن، لنلصق المستقبل بالحاضر، تماماً كما تتأكد من مجيء ضيف لك، فما عليك إلا أن تتجاهل الفاصلة الزمنية لحلول الضيف، وتهتم بتهيئة ما يلزمك لأداء حق الضيافة، وقد وهب الله الإنسان قدرة التخيل، ليوجد في داخله حالة الاستعداد الدائم.

وقد استخدم القرآن الكريم مصطلح (الظن) لدى وصفه عباده الصالحين، فقال عز من قائل: ﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[٣].

فالعبد الصالح يجسد في ذهنه القيامة ودخول الجنة أو النار. وقد كان عظماؤنا من العلماء يصنعون لأنفسهم حفراً تشبه القبور، ويستلقون فيها، ليصوروا أو يجسدوا أمام أعينهم الموت والعالم الأبدي الذي يليه، ثم يلقّنون أنفسهم أنهم يطلبون العفو من ربهم، والفرصة في إعادتهم إلى الدنيا، كما قال القرآن الكريم في وصفه لبعض المغبونين في الدنيا ويريدون العودة إليها عندما يفاجئهم الموت: ﴿**قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ**﴾[٤].

وحين التشييع، ينبغي أن يشعر المشيعون والمشاهدون شعور من يتصور أنه هو المحمول على الأكتاف، مع فارق أن باستطاعتهم مواصلة الحياة وجبر ما فاتهم.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٨٤-٣٨٣.
(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم، رقم: ٣.
(٣) سورة البقرة، آية: ٤٦.
(٤) سورة المؤمنون، آية: ٩٩-١٠٠.

أما الرواية الرابعة من الباب؛ فقد نقلت عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، حيث قال: «**مَا أَحْسَنَ الْحَسَنَاتِ بَعْدَ السَّيِّئَاتِ وَمَا أَقْبَحَ السَّيِّئَاتِ بَعْدَ الْحَسَنَاتِ**»[١].

إن هدف الشيطان لدى مشاهدته الإنسان الفاعل للخير أن يعمل على تخريب عمله الصالح؛ مهما كلفه الأمر، ولذا فهو يحاول إحباط هذا العمل عبر تزريق الرياء والعجب والمفاخرة في روح الإنسان المؤمن وقلبه وعقله.

ولذلك؛ كان على فاعل الصالحات أن لا يتصور بأنه مجاز في ارتكاب الموبقات بمجرد فعل الخير.. كما عليه أن يحافظ على العلاقة الطيبة والوطيدة مع ربه الغنيّ المنّان.

وقد نقل الصحابي الجليل أبو ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**اتَّقِ اللّـهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ حَسَنَةً تَمْحُوهَا**»[٢].

فالإنسان مأمور بأن يجعل في حسبانه ضرورة أن يكون مع الله تعالى وشريعته المقدسة أينما حل وارتحل، فلا ينساه مهما تغيرت أحواله. فإذا ما أوليت هذه النصوص الدينية الاهتمام اللازم، فإن النظرة إلى الحياة ستتغير نحو الأحسن والأرقى دون أدنى شك.

ثم تؤكد الرواية أعلاه في نهاية المطاف على الفرد المؤمن أن يسرع -ما وسعه- إلى القيام بالعمل الصالح، بعد غفلته وارتكابه للعمل السيء، ليمحو الله جل جلاله ما علق به من القبح والضرر: «**وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ حَسَنَةً تَمْحُوهَا**».

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٨٤.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٨٤.

4

الباب الرابع

تَزكِيةُ النَّفسِ سَبِيلُ المُؤمنين

1

مقدمات في تزكية النفس

باديء ذي بدءٍ؛ نشير إلى سؤالٍ هامٍ طالما شغل ذهن الإنسان، وبالذات سالكي طريق تهذيب النفس وبناء الذات خصوصاً.

والسؤال هو: لماذا يعاود الإنسان الذنوب واجتراح المعاصي رغم تمتعه بتعاليم الفطرة وهدايتها وعلمه المسبق بقبح الذنب، ورغم مواجهته -بعد ارتكابه كل ذنب ومعصية- التقريع الشديد من قبل النفس اللوامة؟!.

في معرض الإجابة؛ يجدر القول بأن الجذر الأصلي للذنوب هو الأخلاق والصفات الذميمة والرذيلة، ومادامت هذه الجذور باقيةً، فإن محاربة الأعواد والأغصان تبدو أمراً تافهاً وعبثاً، بل وستبقى الرغبة إلى المعصية وتجاوز الحدود الإلهية راسبةً في عمق الوجود الإنساني.

إن من عشعشت في نفسه الصفات القبيحة، مثل الحسد والكبر والعصبية المقيتة، يكون أبداً في معرض وساوس النفس التي تدفعه إلى ممارسة الذنب. وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى هذه الحقيقة، إذ قال: «.. **وَمَا مِنْ تَائِبٍ إِلَّا وَقَدْ تَسْلَمُ لَهُ تَوْبَتُهُ، مَا خَلَا السَّيِّءَ الْخُلُقِ، لِأَنَّهُ لَا يَتُوبُ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا وَقَعَ فِي غَيْرِهِ أَشَرَّ مِنْهُ**»[1].

(1) بحار الأنوار، ج٧٠، ص٢٩٦-٢٩٧.

ولا يصحّ القول بأن اصطلاح (سيئ الخلق) هو مجرد الإنسان سيئ الأخلاق، والذي يتسم بعصبية المزاج وتقطيب الوجه فحسب، بل إن الاصطلاح المشار إليه يقصد به أكثر من ذلك،وهو بالضد تماماً لمصطلح (مكارم الأخلاق) وما يحويه من معاني، وهو الذي أشار إليه النبي الأكرم ﷺ بقوله: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**»(١). وبتعبير آخر؛ فإن نبي الإسلام ﷺ قد بعث لتطهير النفوس وجلاء الأرواح من الخصال الأخلاقية غير الحميدة، مثل الحسد والحقد والطمع والحرص و.. و.. هذه الخصال التي أوردها القرآن الكريم تحت عنوان (الفواحش الباطنية) بقوله: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾(٢).

لأن وجود كل واحدة من هذه الفواحش في روح الإنسان يمثل عقبةً ومانعاً دون تقدمه وتساميه، ومادامت هذه العقبة والمانع لم تقتحم أو ترفع، فإن التوبة والاستغفار الظاهريين لن يعودا بالنفع على الإنسان، بل وستظل الرغبة والشوق إلى معاودة الذنب والاندفاع باتجاهه كامناً في عمقه، وفي هذه الحالة لن يكون العلاج الناجح إلا جهاد النفس.

جهاد النفس في النصوص الدينية

لقد استحق جهاد النفس عنوان (الجهاد الأكبر) -كما أطلقت عليه الأحاديث الشريفة- وقد أكدت النصوص الدينية على ضرورته وأهميته بصورة خاصة واستثنائية. ولاشك أن الهدف منه هو إصلاح النفس والتخلص من الصفات والخصال الرذيلة، وإنه من الطبيعي أن لا يمكن إنجاز هذه المهمة بمجرد الممارسات العبادية مثل الصلاة.. بل إن الصفات الرذيلة ستلقي بثقلها المقيت على مثل هذه الصلاة الخاوية في بعض الأحيان.

إن المصلي الذي ضربت جذور الحرص والطمع والحقد في أعماق نفسه

---

(١) مستدرك الوسائل، ج١١، ص١٨٧.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

لا يكون في مأمنٍ من شرورها حتى أثناء أدائه الصلاة، ولعله سيقبع في حضيض التفكير في كيفية الوصول إلى المال والثروة، مثلاً، وسيغرق في متاهات التآمر والتخطيط لمواجهة الآخرين بمجرد اصطدامه بعدم اهتمامهم به، وذلك تبعاً لما يكنّه من حقد وضيق صدر تجاههم.

وبكلمة واحدة؛ إنه في أثناء انشغاله بذكر الله، سيكون قلبه منشغلاً أيضاً في التسكع في أزقة الدنيا المعقّدة والمتداخلة.. وطبيعي أنّ من كان قلبه متعلقاً بالدنيا، فلن تكون صلاته قادرة على العروج به. ولهذا كان ينبغي أن تكسر قيود الدنيا والتعلق بها، حتى يتمكن الإنسان من التحليق والعروج، وإذ ذلك؛ يتم الابتعاد عن الذنب والمعصية. وهنا بالذات تتضح حقيقة قول الإمام الصادق عليه السلام: «**رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ حُبُّ الدُّنْيَا**»[1].

وكما قال كبار أهل المعرفة: إن الخطوط الأولى لسلوك طريق العرفان هو تطهير الذات من الرغبات والأهواء النفسية، وعدم الانسياق وراء جاذبيات الدنيا الخفية.. ومادامت هذه الخطوة لم تنفذ بصورة صحيحة، فإن عملية بناء الذات عبر الممارسات العبادية، سواء الواجبة منها أو المستحبة، ستكون غير ذات فائدة تذكر.

إن الثقافة القرآنية تشير إلى أن المعيار الحقيقي ليس هو العمل الذي يقوم به الإنسان فحسب، بل ينبغي أن يكون العمل مقارناً مع تزكية النفس وطهارتها. قال الله تعالى: ﴿**وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[2]. كما أشارت آيات قرآنية أخرى إلى آثار ونتائج وتجليات طهارة النفس في أعمال الإنسان، فقالت إحدى تلكم الآيات: ﴿**وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[3].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص٧.
(٢) سورة الجمعة، آية: ٢.
(٣) سورة الحشر، آية: ٩.

ففي هذه الآية الشريفة تمت الإشارة إلى أن صفة الإيثار والغلبة على الأنانية -رغم الإحساس بالحاجة- من المصاديق البارزة لعدم الاهتمام بالماديات والحاجات الدنيوية، لأن صلاح أو فساد المجتمعات البشرية تابعان -بصورة تامة- لسلوك الناس وأعمالهم حسب ما يؤكد القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[١].

جذور الأخلاق الرذيلة

إن السبب في اندلاع الحروب ووقوع الدمار هو صفات الإنسان السيئة، مثل الحسد والبخل والحقد والضغينة. ولهذا فنحن نسأل: ما هو جذر هذه الصفات الرذيلة؟ وما هو سبب ظهورها واستفحالها؟.

وللإجابة على ذلك، ينبغي القول بأن جذر الأخلاق الرذيلة هو العقيدة والرؤية السيئة، كما أن جذر العقائد والرؤى الفاسدة هو ضعف الإرادة. ولكن ما لم تتحول هذه العقائد والرؤى السيئة إلى واقع خارجي؛ أي ما لم تتحول إلى أخطاء وذنوب في الحياة العملية للإنسان فإن الإنسان لن يتعرض لعذاب وعقاب الله عز وجل. ولكن لا يعني هذا أن نطمئن إلى هذا الأمر.. فالصفات الأخلاقية السيئة لابد أن تدفع بالإنسان إلى هاوية الذنوب، ولهذا كان لزاماً علينا أن نجعل أكبر همنا السعي لاقتلاع الصفات الرذيلة من نفوسنا، أو كبح جماحها على الأقل. وفي هذا الإطار ينبغي الاستفادة الكاملة من الفرص التي يمنحها الله سبحانه وتعالى للإنسان.

وواحدة من هذه الفرص الذهبية الخاصة ببناء الذات، تتمثل في الأشهر العبادية المباركة، كالشهور الثلاث المباركة: رجب، وشعبان، ورمضان، حيث يتوجب على المرء بالتوكل على الله وطلب العون منه تعالى أن يعكف على أداء الأعمال الخاصة بهذه الشهور الشريفة وأدعيتها وأذكارها، ليتمكن من التغلب على

---

(١) سورة الروم، آية: ٤١.

صفات النفس الرذيلة.

وهنا؛ لابد من الإشارة إلى قضية مهمة، وهي أن العلة الأساسية لبعض الصفات الرذيلة في نفس الإنسان قد تنشأ في بعض الأحيان من الممارسات الخاطئة التي يرتكبها الآباء والأمهات بحق أولادهم، ولكن هذه القضية لا تبرر للأولاد -مطلقاً- محاولات التملص عن مسؤولياتهم في إطار إصلاح أنفسهم وبناء ذواتهم، وسد هذا النقص الحاصل. فحالهم في ذلك ليس أشد وطأً من حال أولئك الأولاد الذين تسبب آباؤهم في حدوث نقص جسماني -كضعف النظر- لديهم، حيث لا يسمح لهم العقل بالامتناع عن معالجة ضعفهم بداعي تقصير الآخرين وتسببهم في حدوث مثل هذا العيب والضعف.

إن الإنسان ينبغي أن يتحمل المسؤولية الكبرى في إطار إصلاح النفس، فيصلح انحرافاته التي تسبب هو في حدوثها، كما عليه أن يصلح ما تسبب به الآخرون من انحرافات وعيوب.

الامتحان.. وإظهار كوامن النفس

إن الصفات السلبية هي جزء من ذات وطبيعة البشر، وهي تنشأ من البعد الظلامي في الإنسان، ولذا لا يمكن أن تنسب هذه الصفات إلى الرب المنّان أبداً، لأن ذات الله تعالى هو الخير المطلق،وهو النور والضياء، ولا يصدر عنه سوى الخير والأمر الإيجابي النوراني. في حين أن كل أشكال الشر تعود أساساً إلى شكل من أشكال الظلام.

فالصفات السلبية موجودة في أعماق كل إنسان، بمن فيهم الأولياء والصالحين.. وليس الفتن والابتلاءات التي يمتحن الله بها الإنسان بما يتناسب ومكانة الإنسان إلا للكشف عن هذه الصفات،وفضحها، ليتعرف عليها صاحبها.

ولعل اصطلاح الفتنة بالمعنى اللغوي، هو تسليط الحرارة والنار على الذهب

لتخليصه مما علق به من شوائب، وكذلك لمعرفة عياره الحقيقي[١]. ولهذا السبب كان الأنبياء عليهم السلام يتعرضون للامتحانات والفتن حتى يصلوا إلى أعلى درجة ممكنة من الصفاء والخلوص، فينالون مرتبة المخلَصين، والناس عموماً كذلك يتعرضون للامتحانات والفتن نفسها، فتصفو أرواحهم ونفوسهم، ولكن على مستوى أدنى من مستوى الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

الاستقامة؛ شرط النصر والفلاح

إن الصراع مع النفس دائم وطويل، ولعل الانتصار في هذا الصراع الطويل أمر شاق للغاية، وإن الآفة التي تهدد الاستمرار في عملية الصراع هي اليأس. فالإنسان قد ييأس في مرحلة معينة جراء عدم تغلبه على نفسه وعجزه عن مقاومة الذنوب، فيتنازل عن المقاومة والصراع. في حين أن الانتصار والوصول إلى الكمال بحاجة إلى الاستقامة وبذل المزيد من السعي الدؤوب، فإذا انزلق الإنسان في هذه المسيرة مرةً، عليه ألا ييأس أو يقنط، بل وعليه أيضاً التأكد بأن بعض موارد ارتكاب الذنوب قد تكشف له عن عيوبه ونقاط ضعفه.

ففي بعض الأحيان قد يصاب المرء بالغرور والتكبر، وقد يعتقد بأنه بلغ درجة أولياء الله، ولكنه ما أن يرتكب ذنباً حتى يكشف الله له عن نفسه، ويحثه على الاستغفار وقلع جذور الرغبة في ارتكاب الذنوب، مما يدفعه إلى مراجعة الذات والتفكر في الأسباب التي أدّت به إلى الغفلة والانهزام أمام المشاكل والامتحانات والفتن وعدم تحسسه بلذة الصلاة وذكر الله وعموم العبادة، وبهذه الطريقة المفعمة بالتفكر والتأمل يتعرف المرء على جذور الرذيلة وجراثيم الذنوب. وهنا ينبغي مواجهة الصفات السيئة والموبقات.. المواجهة التي تستغرق من العمر سنين مديدة، وذلك عبر التوكل على الله سبحانه وتعالى، وطرد الخوف.

---

(١) المنجد في اللغة، باب (فَتَنَ).

معالجة الجذور

ينقل عن المرحوم العلامة بحر العلوم الذي كان مرجعاً دينياً في زمانه، أنه خرج على الناس ذات يوم ضاحكاً يملؤه السرور والفرح، مما أثار تعجب من شاهدوه، ولما سئل عن سبب فرحه وسروره غير الطبيعي، أجاب وهو يردّد عبارات الشكر لله تبارك وتعالى: اليوم فقط اكتشفت بأنني قد اقتلعت جذور داء الحسد من داخلي!!.

إن هذه القصة تؤكد لنا ضرورة بذل المزيد من الجهد، والتضرع والبكاء لله الواحد الأحد قبل إنجاز أي عمل، لكي يعيننا على كبح جماح أنفسنا، وأن يكفينا ما أهمنا من أمورنا.. ثم -في المرحلة التالية- أن نزاول العبادة التي قد يكون أداؤها صعباً أو شاقاً في بعض الأحيان، وذلك من أجل السيطرة على زمام النفس الأمارة بالسوء.

إن أعمالاً عبادية مثل عمل (أم داود) وأعمال (ليلة الرغائب) الخاصة بشهر رجب، وأداء نافلة اللّيل وسائر النوافل والأدعية والأذكار الأخرى.. وإن كانت تبدو صعبة في بادئ الأمر، ولكن ينبغي أن يعلم بأن الإحساس بصعوبتها ومشقتها قد يتكرس في بداية المشوار بداعي الخمول والكسل والميول النفسية والمادية الأخرى، وإن الاستمرار في ممارستها سيخلق جواً وإحساساً جدياً بالانبساط والبهجة في روح الإنسان إلى حد لا يوصف، مع العلم بأن صعوبة أداء هذه الأعمال العبادية لا يمكن قياسها بمشقة عذاب القبر وأهواله، فضلاً عن أهوال يوم القيامة. وبالطبع؛ فإن من لم يقاسِ مشقة العبادة لن ينجو من صعوبات الآخرة.

إننا نعتقد ونؤمن بأن جميع المؤمنين هم من أهل الجنة إن شاء الله تعالى، ولكن يبقى القول جديراً بأن من لم يطهر نفسه من الرذائل الأخلاقية، لن يكون لائقاً لدخول الجنة.. هذه الرذائل التي يجب أن تقلع وتقمع، إما بواسطة الإنسان نفسه، وإما عبر ما سيتعرض له من عذاب أثناء الاحتضار والموت، وحتى وروده ساحة الحشر والحساب في يوم القيامة.

اليقظة إزاء مكائد النفس

قد تصادف الإنسان حالة شيطانية يخضع فيها للهوى ويرتكب ذنباً معيناً، فتراه يعمد بعد ارتكابه هذا الذنب إلى أداء عمل محمود معين، وهو بزعمه الزائف هذا يتصور بأنه قد تطهر من ذلك الذنب. فهو يعتقد بأنه قد محق أكله الربا -مثلاً- بعد ذرفه الدموع وبكائه الطويل لدى قراءته لدعاء كميل في ليلة الجمعة(!) في حين أنه خاطئ في هذا التصوّر، لأن ذلك ليس إلا خدعة من جانب النفس الأمارة بالسوء. وهذا يشبه إلى حدٍ بعيد ما كان عليه ديدن المشركين في صدر الإسلام الذين كانوا يتهربون عن أوامر الإيمان بالله ورسوله ويلجؤون إلى عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج.. وهم -بفعل حالة الكبر المتسلط عليهم- كانوا يهدفون التهرب من الأوامر الإلهية والعمل ضمن ما تمليه عليهم أهواؤهم. وقد أعلن الله تعالى بطلان تصورهم الزائف بقوله المجيد: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[1].

وهكذا كان الشيطان، وهكذا كانت تصوراته الخاطئة، حيث امتنع عن أداء سجدة واحدة قد لا تستغرق لحظات بسيطة؛ كان قد أمره الله بأدائها لآدم عليه السلام، رغم أنه كان قد عبد الله مدة آلاف من السنين، وأنه كان مستعداً للقيام بعبادة الله آلافاً وآلافاً أخرى. ولكن المهم عند الله سبحانه ليس كمية العبادة وظاهرها، إنما هو روح العبادة والتعبد والعبودية له وحده وتذويب الذات في المشيئة الإلهية.

ومن جملة الحيل والخدع النفسية؛ أن الصفات الرذيلة تخفي نفسها في أعماق الذات، ولكي لا يتم الكشف عنها، فهي تغطي نفسها برذيلة أخرى. فمثلاً نجد صفة الحقارة يحاول البعض إخفاءها وراء صفة التكبر والغرور.. وليس التكبر إلا رد فعل إزاء الإحساس بالحقارة.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٩.

إن للنفس الأمارة بالسوء وجوهاً عديدة ومتنوعة، وهي في مقابل ما نبذله من مساعٍ يومية تبدّل صورتها باستمرار، وهي تواجهنا بوسائل وأسلحة جديدة دائماً..

وحالة النفس الإنسانية تشبه ما كشفه علم الطب بخصوص مرض السل الذي يقضي على ما يقرب من ثلاثة ملايين شخص سنوياً في العالم. فهذا المرض ورغم التعرف على جرثومته، ورغم ما وضع له من وقاية ولقاح، ولكنه بمرور الزمان يحاول مضاعفة قوته مقابل لقاح الوقاية والدواء، وهو عبر مقاومته وتغيير صورته يحاول -أيضاً- القضاء على ما للدواء من تأثير. ولذلك يجد العلماء والمحققون أنفسهم مجبرين على اكتشاف دواء أحدث وأقوى للقضاء عليه.

إننا يجب أن ننظر إلى أنفسنا عبر مرآة آيات القرآن الكريم وكلمات النبي وأهل بيته عليهم السلام، فنتعرف على عيوبنا، ثم نحاول القضاء عليها.. لا أن نعتبر هذه المصادر الأصيلة مجرد تحف نعرضها على الآخرين أو نقرأها عليهم، لأن ذلك لا يعود علينا إلا بالحسرة والندم. إذ ليس من البعيد أن يفوز الآخرون عبر العمل بتلك الآيات والروايات والأحاديث.. وأن نصاب -نحن- بالخسران والضياع.

1

في بوتقة الامتحان الإلهي



لماذا يحتاج الإنسان إلى الدين؟.

يمتاز الإنسان بخصائص تفتقر إليها المخلوقات الحية، وواحدة من هذه الخصائص قدرته على الاختيار بسبب الإرادة المتكرسة فيه، وهي العامل الذي يؤهله إلى انتخاب خيار واحد من بين عدة خيارات، وطريق من بين طرق متفاوتة.

إن بإمكان الانسان انتخاب طريق الهداية أو طريق الضلال.

وبالطبع؛ فإن تحديد الطريق الحق وتمييزه عن الطريق الباطل ليس بالأمر اليسير، لأن هوى النفس والدواعي الذاتية المدمرة تحاصر الإنسان بصورة تكاد تسلبه القدرة على التفكير والانتخاب بمجرد أية غفلة يغفلها.

أما الدين؛ هذا المشعل الوهاج في دنيا الفتنة والضلال، فهو يعرض نفسه بأجمل هيئة حتى يمكّن الفرد من تَرجيح الهدى على الهوى، وترجيح الله ربه على إبليس عدوه.. فيسيطر على نفسه الأمارة بالسوء بواسطة عقال الدين وقدرة العقل.

إن الصراع مع النفس، أو الجهاد الأكبر حسب ما سماه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يعني أن يتعمد المرء انتخاب خيارٍ لا يلقى ترجيحاً أو ترحيباً من قبل النفس الأمارة

بالسوء؛ بمعنى أن النفس إذا دفعته وحرضته على ارتكاب ذنب ما، فإنه يكون ملزماً برفض هذا التحريض ومقاومة هذا الدفع.

ومن المعلوم أن الشريعة الربانية من شأنها أن توضح للإنسان ما هو ممنوع عنه أو ملزم بالقيام به، لأن الخالق هو رب الإنسان، ويعرف أكثر من غيره خصائص هذا المخلوق واحتياجاته. فالعمل وفق التكاليف الشرعية والالتزام بما من شأنه توفير الهداية والصلاح ينمي في الإنسان قدرة التفكير والتطلع وتحديد مسار الهداية والفرار عما يضله ويغويه، فهو -وفقاً لما تمليه عليه هذه الطاقة المعنوية- سيميز الحق عن الباطل، والنور عن الظلام.

دار الفتنة والابتلاء

بإلقاء نظرة إلى آيات القرآن الكريم وروايات النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام يتضح جلياً أن الناس عرضة للامتحان الدائم، كقوله تبارك وتعالى: ﴿**أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾[1].

فالدنيا مزيج من الحق والباطل، والشبهات لائحة في كل موقع من مواقع الدنيا، وهذه هي طبيعة الحياة. والإنسان دائماً ما يجد نفسه مخيراً بين طريق الحق وطريق الباطل، وهو لا يستطيع الفرار من ذلك إلا عبر الانتخاب الواعي. فهوى النفس في صراع متواصل مع قوى العقل والفكر الإنساني، ويبقى مصير الفرد متعلقاً بما يختار من بين هذه العوامل ويتبعه.

إن جهاد النفس يشمل ويعم جميع أعمال الإنسان؛ فالصلاة تعتبر جهاداً للنفس، وكذلك سائر الأعمال العبادية. وبالطبع فليس كل صلاة أو عبادة لها هذه الخصوصية. إنما المطلوب من الانسان هو التسلّح بالإرادة الفاعلة والواعية التي تمكنه من الارتقاء بمستوى خصوصيات تلكم الأعمال العبادية، فيجاهد بها نفسه بصورة صحيحة وتامة.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٦.

إن محاربة النفس ومخالفتها تبعد الأهواء عن الإنسان، كما تضعف من قوته الشهوانية، حتى لا تجد لها مكاناً في وجوده، بل وتسلمُ العقل ونداء الرحمن والحقيقة دورها وحيزها.

إن بانتظار الإنسان أنواع من الفتن والامتحانات بما يتناسب ومكانته ومرحلته؛ فتارة يكون الامتحان بلباس الشهوة، وأخرى يتقمص لباس المنصب.. وكلما ارتقى المرء في ميادين الحياة كان امتحانه أصعب وأثقل، حتى يصل الامتحان درجات هي أعلى بكثير من تصور العاديين من الناس، حيث يختص الأمر بالأنبياء والأولياء.

إن الجهاد الأكبر -وطبقاً لما جاء في الأحاديث والروايات- صراع مع النفس واعتراض على النوازع والأوامر الحيوانية الرذيلة في ذات الإنسان.. فالنفس لن تدعه في راحة، وهي كامنة أبداً له،وتظهر حياله في المواقع الحساسة وعند مفترق الطرق.

الشيخ عباس القمي والصلاة الحاشدة!

كان الشيخ عباس القمي صاحب كتاب مفاتيح الجنان يصلي الجماعة في مسجد (گوهر شاد) في مدينة مشهد المقدسة، صلاتي الظهر والعصر في أيام شهر رمضان المبارك، وكان حشد المأمومين كبيراً جداً، وكان من عادة الشيخ أن يعظ الناس من على المنبر بعد الصلاة. وفي أحد الأيام اتجه الشيخ إلى المسجد مع جموع الناس لأداء الصلاة، ولكنه فاجأ الجميع بأن عاد إلى بيته قبل وصوله المسجد قائلاً لهم: إن فلاناً هو الذي سيؤمكم اليوم في صلاتكم. فسأله أحدهم عن السبب، فأجابه: حينما رأيت هذه الحشود متحمسة أكثر من أي وقت مضى إلى الاقتداء بي والاشتراك في صلاة الجماعة والاستماع إلى خطبتي، حدثتني نفسي بأن هذه الجموع قد جاءت من أجلي لا غير، وعلى الفور تنبهت إلى نفسي ولمتها على ما جرأتني من التفكير، فاخترت أن أمنعها عن لذتها..

نعم؛ هذا هو الصراع مع النفس وتربيتها، لأن مجرد الغفلة عنها يجر كل وجود الإنسان إلى الدمار والفناء، فتمحق السلوك والسيرة الطيبة بالرياء والعجب والأنانية.

درس تربوي من التاريخ الإسلامي

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله بعث سريّة، فلما رجعوا قال: «**مَرْحَباً بِقَوْمٍ قَضَوُا الْجِهَادَ الْأَصْغَرَ وَبَقِيَ عَلَيْهِمُ الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ**. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّـهِ مَا الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ؟. قال صلى الله عليه وآله: **جِهَادُ النَّفْسِ**»[1].

فالجهاد وخوض الحرب مع الأعداء الظاهرين في الواقع الخارجي -رغم الصعوبة والمشقة التي يتضمنها- ولا سيما في تلك الحروب القديمة، يعد -قياساً مع جهاد النفس- جهاداً أصغر، إذ ليس من الصعب التعرف على العدو أو اتخاذ موقع مناسب تجاهه في الحروب العلنية. أما ما يخص جهاد النفس؛ فإن هناك عوامل مثل الجهل والغفلة والنسيان تعد من الأسباب التي تحول دون التعرف عليالعدو الحقيقي حتى تتم عملية الإعداد والتسلح ضده، بل إن في بعض الأوقات تكون هذه العوامل المعادية هي التي تجرِّد الإنسان عن أسلحته، حتى تجعله عاجزاً عن المواجهة.. وقد تصور للإنسان في بعض الأحيان أنه غنيٌ عن المواجهة أساساً، ولهذا فإنه قد لايكلف نفسه عناء اتخاذ أية خطوة في هذا الإطار، وهي لعمري قضية خطيرة ومدمرة جداً.

جهاد النفس؛ الواجب الدائم لكل فرد

في ميدان الحرب الظاهرية، يكون من الممكن أن يتعاون الجنود، أو يوفروا السلاح والعتاد لبعضهم البعض، أو يحاربوا عن بعضهم، وفي هذا الميدان يمكن أن يستريح المقاتلون، أو يناموا شيئاً من الوقت، إذ أن وجود مقاتلين آخرين قد يسمح لهم بأخذ قسط من الراحة.

أما في ساحة الحرب مع النفس والهوى؛ فالمرء لا يتمتع بلحظة واحدة من الأمان، أو يسمح له بلحظة من النوم، إذ الغفلة تعني انتصار العدو القاسي المتربص الذي يسمى (النفس). وفي هذه الحرب الضروس يجب أن يتسلح الجميع

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٢.

ويستعدوا، فلا يأخذ أحدٌ دور أحد في الصراع.. كما لا يجوز لأحد من الأفراد أن يغادر موقعه، لأنه بذلك سيفسح المجال لعدوه أن يواجهه ويغير عليه، فيصادر أخلاقه وإيمانه.

ومن هنا يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**احْمِلْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَمْ يَحْمِلْكَ غَيْرُكَ**»(١). وهذا الكلام يعني وجوب أن يتحمل المرء مسؤولية نفسه، فلا ينتظر أو يتوقع من الآخرين فعل شيءٍ له. فالإنسان يعرف نفسه أكثر من غيره، ولأنه كذلك، فهو بمقدوره أن يربي نفسه، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ**﴾(٢).

فواجب الأنبياء والرسل عليهم السلام هو إبلاغ الرسالة الإلهية، دون إجبار الناس على أداء أعمالهم الشخصية ووظائفهم الفردية، ودون أن يراقبوهم في كل لحظة، ليتأكدوا ممن يؤدي واجبه أو لا يؤديه، بل إن الناس عليهم أن يستوعبوا ما جاءهم من نداء إلهي، فيطبقونه ويصلحون به أنفسهم.. وقد قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام لرجل: «**إِنَّكَ قَدْ جُعِلْتَ طَبِيبَ نَفْسِكَ، وَبُيِّنَ لَكَ الدَّاءُ، وَعُرِّفْتَ آيَةَ الصِّحَّةِ، وَدُلِلْتَ عَلَى الدَّوَاءِ، فَانْظُرْ كَيْفَ قِيَامُكَ عَلَى نَفْسِكَ**»(٣).

أما الإمام الحسن المجتبى عليه السلام فقد قال في آخر لحظات حياته الشريفة: «**يَا ابْنَ آدَمَ؛ نَفْسَكَ نَفْسَكَ، فَإِنَّمَا هِيَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ، إِنْ نَجَتْ نَجَوْتَ، وَإِنْ هَلَكَتْ لَمْ يَنْفَعْكَ نَجَاةُ مِنْ نَجَاةٍ**»(٤).

فالإنسان أفضل من يحدد أمراضه الروحية، وهو أفضل من يعالجها، وقد عددت الآيات القرآنية والروايات الشريفة وأحصت الأمراض الروحية، كما يسّرت معالجة ذلك على الإنسان ووفرت أدواته له . ففي مراجعة بسيطة لهذين المنبعين

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٢.

(٢) سورة المائدة، آية: ٩٩.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٢.

(٤) إرشاد القلوب، ج١، ص٣٦.

الصافيين يمكن فهم أن الغيبة والتهمة وسوء الخلق والتجسس والحسد والبخل والعجب والرياء والتكبر والاستبداد وغير ذلك أمراض روحية قد تصيب الإنسان.

إصلاح القلب أولاً..

قال الإمام الصادق عليه السلام لرجل: «**اجْعَلْ قَلْبَكَ قَرِيناً بَرّاً وَوَلَداً وَاصِلًا وَاجْعَلْ عِلْمَكَ وَالِداً تَتَّبِعُهُ وَاجْعَلْ نَفْسَكَ عَدُوّاً تُجَاهِدُهُ وَاجْعَلْ مَالَكَ عَارِيَّةً تَرُدُّهَا**»[١].

فالإنسان مطالب:

أولاً: بأن يصلح قلبه، فيصاحبه كصديق، فلا يشعر بشيءٍ من القلق إزاءه، ولا يقول إلا خيراً حياله، ولا يخون. وكذلك عليه أن يهتم بقلبه كما يهتم بولده، فيراقبه لئلا يضطرب أو يعطب.

ثانياً: ينبغي أن يتبع العلم الأصيل والمفيد والصالح.

ثالثاً: أن يتخذ من نفسه عدوه الأول، فلا يغفل عن جهادها لحظة واحدة.

رابعاً: عليه ألا يعتبر المال أكثر من مجرد أمانة يجب عليه حفظها، وأنه لابد أن يتركه في يوم من الأيام ويرحل عنه.

فإذا كان الإنسان كذلك؛ فإن الدنيا كلها ستأخذ في مفهومه طابعاً آخر، وهذا يعني أنه سينفق ويتصدق، ويخرج من ماله الخمس والزكاة، وسيحفظ حقوق الآخرين، باعتبار أن الدنيا سريعة الانقضاء، فلا يحمل أحداً من الناس ظلماً أبداً.

وفي هذا المجال روي عن زاذان قال: «**انْطَلَقْتُ مَعَ قَنْبَرَ إِلَى عَلِيٍّ عليه السلام فَقَالَ: قُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئَةً! قَالَ عليه السلام: فَمَا هُوَ؟. قَالَ: قُمْ مَعِي.**

فَقَامَ، فَانْطَلَقَ إِلَى بَيْتِهِ فَإِذَا بَاسِنَةٌ[٢] مَمْلُوَّةٌ جَامَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكَ لَا تَتْرُكُ شَيْئاً إِلَّا قَسَمْتَهُ، فَادَّخَرْتُ هَذَا لَكَ.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٣-١٢٢.

(٢) الباسنة: كِساء مَخيطٌ يُجعلُ فيه طعام. لسان العرب، مادة (بسن).

قَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: **لَقَدْ أَحْبَبْتَ أَنْ تُدْخِلَ بَيْتِي نَاراً ؟!**، -فَسَلَّ سَيْفَهُ فَضَرَبَهُ (أي ضرب الباسنة)، فَانْتَثَرَتْ مِنْ بَيْنِ إِنَاءٍ مَقْطُوعٍ نِصْفُهُ أَوْ ثُلُثُهُ- ثُمَّ قَالَ: **اقْسِمُوهُ بِالْحِصَصِ**. فَفَعَلُوا، فَجَعَلَ يَقُولُ عليه السلام: **هَذَا جَنَايَ وَخِيَارُهُ فِيهِ، وَكُلُّ جَانٍ يَدُهُ إِلَى فِيهِ**»[١].

وقال النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله: «**الشَّدِيدُ مَنْ غَلَبَ نَفْسَهُ**»[٢].

ومن خلال هذه الروايات الكريمة يتضح أن قيمة ومنزلة كل شخص بمقدار ما يجاهد نفسه ويخالف هواه.. وأن الانتصار في هذا الميدان بمثابة المقدمة لانتصارات متلاحقة أخرى في ميادين قادمة،وأنه ما لم ينتصر المرء في هذا الميدان الأول والأساسي، فإنه -لا شك- سيمنى بالخسارة الأكيدة في المجالات الأخرى.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ قَلْبِهِ وَزَاجِرٌ مِنْ نَفْسِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَرِينٌ مُرْشِدٌ اسْتَمْكَنَ عَدُوُّهُ مِنْ عُنُقِهِ**»[٣]. ونقرأ في رواية أخرى توضح كيف أوصى النبي محمد صلى الله عليه وآله الإمام علي عليه السلام بقوله الشريف: «**يَا عَلِيُّ أَفْضَلُ الْجِهَادِ مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهُمُّ بِظُلْمِ أَحَدٍ**»[٤].

بعدم التفكير أو العزم على ارتكاب أي ذنب، سواء ما كان ذا علاقة بالآخرين، أو ما كان مرتبطاً بذات الإنسان نفسه، لأن الذنوب الفردية المتعلقة بنفس المذنب تعتبر ظلماً أيضاً، حيث يظلم نفسه، فيلوث قلبه برجس الموبقات.

الإنسان كائن هادف

لا شك أن كل حكم من أحكام الشريعة الإسلامية إنما شُرع لتحقيق هدف أو أهداف معينة، وأن تطبيق تلك الأحكام هو الذي يحقق الهدف منها. وبعبارة ثانية؛ لا يوجد حكم سماوي غير ذي هدف محدد، مما يعني أن الإنسان كائن هادف من

---

(١) مستدرك الوسائل، ج١١، ص٩٢.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٣.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٣.

(٤) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٣.

وجهة النظر السماوية. ثم إن قدرة الإنسان على تحقق تلك الأهداف متعلقة تمام التعلق بطبيعة ومستوى إدراك المرء لروح وحقيقة الأعمال والعبادات..فالعبادات لها ظاهر وباطن، فإذا كان الجميع قادرين على حفظ ورعاية ظاهر العبادة، حيث يكون بإمكانهم إسباغ الوضوء والتوجه إلى القبلة وأداء الحركات الظاهرية للصلاة والنطق بالألفاظ المخصوصة وأداء أجزاء العبادة وأركانها بدقة.. إلا أن الوصول إلى حقيقة العمل وجوهر العبادة يتطلب قطع مسيرة شاقة وممارسة رياضة نفسية وجهاد مع الذات شاقين للغاية. ولعل المقدمة لهذا الواجب الكبير هو التوجه والنظر الواعي للأعمال والعبادات باعتبارها تكاليف ذات معانٍ سامية. وهذا الأمر يؤدي بشكل طبيعي إلى حصول التفاوت بين الناس ودرجاتهم؛ ففي الجنة يوزع الناس ويقسمون طبقاً لقيمة عباداتهم وأعمالهم.

مصاديق جهاد النفس

إن جهاد النفس باعتباره واحداً من أهم التكاليف الواجبة والأعمال اللازمة، له مصاديق متعددة، وكل واحد من هذه المصاديق ذو ظاهر وباطن. فالصلاة والصيام والحج واجتناب الكذب والغيبة والامتناع عن أكل المال الحرام.. كل واحد من هذه الأعمال يعتبر نوعاً من جهاد النفس، إلا أن أداء الواجبات واجتناب المحرمات لا يكفيان لتربية النفس، إذ على الإنسان -وخلال مسيرته الطويلة للوصول إلى درجات رفيعة من التربية الذاتية- يتوجب عليه أن يعرف ويدرك حقيقة وجوهر الأعمال الواجبة، كما ينبغي عليه أن يدرك حقيقة وجوهر الأعمال المحرمة.

ففي بعض الأحيان نجد الإنسان يؤدي ما عليه من صلاة، ولكنه لا يعي الحكمة من تشريع هذه الفريضة، فيكون العمل -والحال هذي- مجرد عمل مبرئ للذمة، حسب ما يرى الفقهاء؛ أي أن هذا الأداء يسقط التكليف، ولكنه لا ينهى صاحبه عن الفحشاء والمنكر، كما لا يضفي حالة من النورانية عليه.

وفي بعض الأحيان أيضاً قد لا يأكل الفرد المال الحرام بسبب عدم تمكنه من

نيله، أو بداعي خوفه من العقاب.. وهذا -كما هو واضح- ليس من التقوى أو جهاد النفس في شيءٍ أبداً، إذ التقوى تعني الامتناع الواعي عن المال الحرام رغم التمكن منه، لأنه يعرف ويعي أن أكل المال الحرام بمثابة إدخال النار إلى الأحشاء.. فهو -إذن- يعرف حقيقة العمل الحرام، ولأنه على يقين من الضرر المتعلق به، فإنه يتجاوزه بكل يسر.

ومن خلال هذه الحقيقة يتضح أن الهدف من جهاد النفس هو الوصول إلى حالة الورع والتقوى.. فإذا مارس المؤمن العبادة وأدّى التكاليف المناطة به انطلاقاً من هذه القاعدة، سيجد في نفسه القدرة على انتخاب الطريق الصحيح والمستقيم لدى تعرضه للمواقف الصعبة.. كما سيتجنب التلوث والضياع والسقوط في مستنقع الشهوات، وسيحول دون تمكّن هوى النفس منه.

في القرآن الكريم آيات عديدة تتضمن قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وذلك لدى الحديث عن التكليف بالأمر الواجب أو النهي عن العمل الحرام.. والهدف من هذه كلها خلق ملكة التقوى في كيان الإنسان، وكلما اقترب الإنسان من الحالة الإنسانية الحقيقية بواسطة التقوى، كلما كانت روحه أقرب إلى القيم الإلهية.

وتجب الإشارة هنا إلى أن دور التقوى في إنقاذ الإنسان لا يقتصر على المصاعب والظروف الحرجة فقط، وإنما هي تشمل حتى الحالات البسيطة، فهي تأخذ بيده -في كل حالة ومكان- إلى النمو والتسامي.. بدءاً من أبسط أنواع العلاقات الاجتماعية والحالات الفردية، حتى أعقد وأوسع القضايا ذات الصلة بالمجتمع والآخرين. فالإنسان ملزم بالتسلح بسلاح التقوى الفعال في مختلف الحالات والمواقع والمواجهات، وهذا هو جوهر جهاد النفس.

2

تزكية النفس مصباح الحق

جاء في رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «**قَالَ مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ إِذَا رَغِبَ وَإِذَا رَهِبَ وَإِذَا اشْتَهَى وَإِذَا غَضِبَ وَإِذَا رَضِيَ حَرَّمَ اللَّهُ جَسَدَهُ عَلَى النَّارِ**»[1].

إن التأمل والتدقيق في هذه الرواية الشريفة تلفت نظرنا إلى أن النفس تثير في الإنسان حالات متفاوتة بشكل دائم؛ فتارة تثير فيه الرغبة إلى شيءٍ، وتارة أخرى تبعث فيه هاجس الخوف أو الرغبة السريعة المفاجئة التي لا تقوم على قواعد وضوابط معقولة، أو أنه يشعر في بعض الأحيان بالرضى والارتياح أو الغضب والكراهية تجاه شيءٍ معين..

وفي جميع هذه الحالات يجب على الإنسان أن يسيطر على هواجس نفسه وعواطفه، فيأخذ بزمامها ويهديها للمسير في إطار الخدمة في مسيرة رضوان الرب تبارك وتعالى.

ونقرأ في رواية أخرى قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «**إِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ**»[2].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٣.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٤-١٢٣.

إن وجود النفس بين الجنبين تعبير مجازي عن حقيقة مدى اقتراب النفس من الإنسان، الأمر الذي يؤكد قبح الغفلة والتغافل، ولو للحظات بسيطة عن النفس، فهي العدو الكامن الدائم، إلى درجة تكفيها طرفة عين للانقضاض والتدمير.. وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**النَّفْسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى سُوءِ الْأَدَبِ، وَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِمُلَازَمَةِ حُسْنِ الْأَدَبِ**»[١]. فطبيعة النفس وجذرها هو العصيان والتمرد والطغيان.. والإنسان هو الذي يتوجب عليه الإمساك بزمامها.

ويقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾[٢].

فالجهل والظلم يعتبران ميزتين لنفس الإنسان؛ فعلمه ضئيل، وجهله جد واسع وعام.. والفرد بعلمه القليل يظلم ذاته والآخرين، لأنه لا يعرف حدوده، فيتعدى ويتجاوز، ولكنه إذا علم بأنه لم يكن شيئاً قبل خلقته، وأنه كان ظلاماً وعدماً، وأن اللّـه عز وجل هو الذي أنعم عليه بنعمة الوجود، حيث خلقه، فإنه لن يرى في نفسه صاحب حق في مقابل خالقه، بل سيرضى بما قسم ربه له، ولن يتعدى أو يتجاوز حرمة أحد من الناس. يقول القرآن الكريم: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا**﴾[٣] وقد وضحت سورة (المؤمنون) المباركة مراحل خلقة الإنسان، ولعل المراد من لفظة (الدهر) تلك المراحل التي ذكرها اللّـه في تلك سورة. وجاء في رواية عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**النَّفْسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى سُوءِ الْأَدَبِ، وَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِمُلَازَمَةِ حُسْنِ الْأَدَبِ، وَالنَّفْسُ تَجْرِي بِطَبْعِهَا فِي مَيْدَانِ الْمُخَالَفَةِ، وَالْعَبْدُ يَجْهَدُ بِرَدِّهَا عَنْ سُوءِ الْمُطَالَبَةِ. فَمَتَى أَطْلَقَ عِنَانَهَا فَهُوَ شَرِيكٌ فِي فَسَادِهَا، وَمَنْ أَعَانَ نَفْسَهُ فِي هَوَى نَفْسِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ نَفْسَهُ فِي قَتْلِ نَفْسِهِ**»[٤].

---

(١) مستدرك الوسائل، ج١١، ص١٣٨-١٣٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٣) سورة الإنسان، آية: ١.

(٤) مستدرك الوسائل، ج١١، ص١٣٨-١٣٧.

وروي في كتاب (عوالي اللآلي) أنه دخل على رسول اللّـه رجل يدعى مجاشع، فقال: «يَا رَسُولَ اللّـهِ كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ؟. فَقَالَ ﷺ: **مَعْرِفَةُ النَّفْسِ**. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّـهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى مُوافَقَةِ الْحَقِّ؟. قَالَ ﷺ: **مُخَالَفَةُ النَّفْسِ**.فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّـهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى رِضَاءِ الْحَقِّ؟. قَالَ ﷺ: **سَخَطُ النَّفْسِ**. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّـهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى وَصْلِ الْحَقِّ؟. فَقَالَ ﷺ: **هِجْرَةُ النَّفْسِ**. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّـهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى طَاعَةِ الْحَقِّ؟. قَالَ ﷺ: **عِصْيَانُ النَّفْسِ**.فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّـهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى ذِكْرِ الْحَقِّ؟. قَالَ ﷺ: **نِسْيَانُ النَّفْسِ**. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّـهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى قُرْبِ الْحَقِّ؟. قَالَ ﷺ: **التَّبَاعُدُ مِنَ النَّفْسِ**. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّـهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى أُنْسِ الْحَقِّ؟. قَالَ ﷺ: **الْوَحْشَةُ مِنَ النَّفْسِ**. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّـهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى ذَلِكَ؟. قَالَ ﷺ: **الِاسْتِعَانَةُ بِالْحَقِّ عَلَى النَّفْسِ**»[١].

وهكذا نرى أن الطريق الوحيد لنيل الحق؛ أي إدراك الحقيقة الإنسانية هو جهاد النفس، والإمساك بزمامها؛ بل إن معرفة الحق منوطة بمعرفة النفس. فكما أن النفس الأمارة بالسوء تحول دون الخير،وتردع عن عمل الخير وتصوِّره أمراً سيئاً أو مملاً.. كذلك إذا عرف الإنسان نفسه وزكّى روحه، فإن هذه الروح الشفافة البالغة في اللطف ستتمكن من تمييز الحق من الباطل، كما ستساعده علىانتخاب الحق ودحض الباطل في مفترق الطرق.

وطبقاً للرواية الآنفة الذكر، فإن موافقة الحق تكمن في مخالفة النفس، وإن رضى الحق في سخط النفس، وإن وصل الحق في الابتعاد عن النفس وهجر الأهواء النفسية، وإن طاعة اللّـه في عصيان النفس ورفض أوامرها، وإن حفظ الحق في نسيان النفس، وإن القرب من الحق منوط بالابتعاد عن النفس، أما وسيلة الأنس بالحق فهي الوحشة والحذر من النفس ومكائدها.. وفي جميع هذه الميادين الصعبة تجب الاستعانة والاستفادة من مصباح الحق والحقيقة لمواصلة الصراع مع النفس.

---

(١) مستدرك الوسائل، ج١١، ص١٣٨.

3

جوارح الإنسان المسؤوليات والواجبات



لكل عضو من أعضاء بدن الإنسان -فضلاً عن كونه جزءاً من مجموعة كاملة هي الإنسان- حقوق وواجبات مستقلة عما للأعضاء الأخرى في نظام التربية الإسلامية. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[١].

وحسب اعتقادنا؛ فإن جميع أعضاء الإنسان ستنطق شاهدةً في محكمة العدل الإلهي في يوم القيامة، لأن لهذه الأعضاء حقوق وواجبات، فإذا ما ضُيِّعت هذه الحقوق فإنها ستتظلم إلى ربها حتى تعاد إليها حقوقها.

حق القلب

وهنا؛ يعتبر حق القلب، هو الأكبر والأهم والأكثر حساسية من بين حقوق الأعضاء الأخرى. فالقلب -وهو هنا روح الإنسان ومركز العواطف والمشاعر والأحاسيس- هو القائد لسائر الأعضاء، باعتبارها جنود طائعة لأوامر القلب بصورة مباشرة ودائمة. فإذا كان القلب طاهراً سليماً، فله أن يقود مجموعة الإنسان إلى الكمال. أما إذا كان مليئاً بالأفكار السيئة والباطلة، فإنه سيفقد القدرة على

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

الهداية والقيادة، بل ويسوق هذه المجموعة إلى مهاوي الباطل والضياع.

إن واجب الإنسان تجاه قلبه وروحه هو صيانته عن التلوث بالشبهات المدمرة والعقائد الباطلة، كما عليه أن يحبّب إليه المعرفة الربانية حتى الإمكان.

وفي رواية مفصَّلة يشرح لنا الإمام الصادق عليه السلام الواجبات المفروضة على جوارح الإنسان وأعضائه، ونحن هنا نتلو مقتطفات منها لكي نتبصَّر من خلالها ما يجب وما يحرم على الإنسان ككتلة واحدة، وما يجب وما يحرم على أعضائه وجوارحه واحدة واحدة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ اللَّـهَ فَرَضَ الْإِيمَانَ عَلَى جَوَارِحِ ابْنِ آدَمَ وَقَسَمَهُ عَلَيْهَا وَفَرَّقَهُ فِيهَا فَلَيْسَ مِنْ جَوَارِحِهِ جَارِحَةٌ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَتْ مِنَ الْإِيمَانِ بِغَيْرِ مَا وُكِّلَتْ بِهِ أُخْتُهَا**... ثم يضيف الإمام عليه السلام: **فَأَمَّا مَا فُرِضَ عَلَى الْقَلْبِ مِنَ الْإِيمَانِ فَالْإِقْرَارُ وَالْمَعْرِفَةُ وَالْعَقْدُ وَالرِّضَى وَالتَّسْلِيمُ بِأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِلَهاً وَاحِداً لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ** صلى الله عليه وآله، **وَالْإِقْرَارُ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّـهِ مِنْ نَبِيٍّ أَوْ كِتَابٍ فَذَلِكَ مَا فَرَضَ اللَّـهُ عَلَى الْقَلْبِ مِنَ الْإِقْرَارِ وَالْمَعْرِفَةِ وَهُوَ عَمَلُهُ وَهُوَ قَوْلُ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وَقَالَ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾**، وقال: **﴿الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾**، وَقَالَ: **﴿إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾**، **فَذَلِكَ مَا فَرَضَ اللَّـهُ عَلَى الْقَلْبِ مِنَ الْإِقْرَارِ وَالْمَعْرِفَةِ وَهُوَ عَمَلُهُ وَهُوَ رَأْسُ الْإِيمَانِ**..»[1].

فالمستفاد من الآيات القرآنية الكريمة والروايات الشريفة -ومنها هذه الرواية التي تلوناها- هو أن قيمة الإنسان بقلبه وروحه وحقيقته، وأن الإيمان ما لم يترسخ في قلب الإنسان وروحه؛ فلا قيمة له. ويخاطب الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد الذين لما يترسخ الإيمان في قلوبهم بعد، فيقول: **﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ**

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٤.

لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١).

فإذا اعتقد المسلم -بكل وجوده- بالله والرسول ويوم القيامة وجميع المعارف الإلهية الحقة، فسيصل إلى درجة الإيمان السامية. وفي هذه الدرجة التي هي مظهر صفات الله وأسمائه الحسنى،ستصطبغ جميع حركاته وأقواله بصبغة الله سبحانه وتعالى.

فإذا قال، فلا يقول غير الحق. وإذا سمع، فلا يسمع سوى كلام حق. وإذا نظر، فلا يتجرأ على النظر الحرام. وإذا سكت، كان سكوته حقاً. وإذا صرخ، كانت صرخته صرخة من يطالب بالحق.

إن الإنسان المؤمن الذي ترسخ الإيمان في روحه لن يفرط بإيمانه بحال من الأحوال، فقلبه كله حقيقة وضياء ونور وهداية في مختلف الظروف، حتى وإن اضطر إلى النطق بما يتضاد مع إيمانه الباطني.وبهذا الصدد يقول ربنا سبحانه: **﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**(٢).

ويتضح من الآيات والروايات أن الكفر غير قابل للغفران من قبل الله عز وجل، إلا أن يتوب الإنسان الكافر قبيل الموت، في صلح عقائده ويجبر ماضيه بتوبة نصوح.

حراسة القلب؛ فريضة دائمة

القلب والروح -باعتبارهما أهم القوى المعنوية - بحاجة إلى حراسة دقيقة وشاملة. فمرآة القلب إذا ما علاها الصدأ وغبار الذنوب والطغيان، والفكر الباطل، والتطلعات غير النزيهة.. فإن عملية التطهير ستكون شاقة جداً، وقد لا يوفق الإنسان إلى إعادة القلب إلى حالته الفطرية الأولى.

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٤.

(٢) سورة النحل، آية: ١٠٦.

فإذا غفل الإنسان، انتشرت نقاط المعاصي السوداء وعمت مساحة القلب كله، ولن يلتفت الإنسان لهذه الحالة حتى يكون القلب قد اسودّ تماماً، فلا يجد بقعة بيضاء في قلبه.

إن المؤمن مكلف بوضع العقائد الحقة نصب عينيه، بل ومعاودة مراجعتها في مختلف الحالات، حتى لا يصاب بداء النسيان والغفلة، وفي ذات الوقت تكريس وترسيخ ما صدّق واعتقد به.

عمل اللسان

ثم يتحدث الإمام الصادق عليه السلام عن اللسان وعمله: «**وَفَرَضَ اللَّهُ عَلَى اللِّسَانِ الْقَوْلَ وَالتَّعْبِيرَ عَنِ الْقَلْبِ بِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ وَأَقَرَّ بِهِ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، وَقَالَ: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. فَهَذَا مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى اللِّسَانِ وَهُوَ عَمَلُهُ..**»[1].

إذن، فلسان المؤمن لابد أن يعبِّر عما وَقَر في قلبه. فليس صحيحاً أن الإيمان بالقلب فقط -كما يُشاع عند بعض الناس- بل الإقرار بالقلب هو المرحلة الأولى من الإيمان، ولابد من التعبير عما في القلب من الإيمان والعقيدة باللسان، كما أن إيمان القلب لابد أن ينعكس على لسان الإنسان في القول الحسن للناس، وإظهار العقائد الحقة والإعلان عن إيمان الإنسان والتزامه بما أُنزل من الله تعالى على النبي محمد صلى الله عليه وآله وعلى من كان قبله من الرسل والأنبياء عليهم السلام.

حق الأذن

أما حق الأذن على الإنسان؛ فهو ألا يستمع لأي حديث كان، بل على الإنسان أن يفتح لأذنه حساباً خاصاً. فقبل أن يحضر مجلساً معيناً، عليه أن يراجع نفسه، فينظر إلى حضوره في هذا المجلس إن كان يعود عليه بالصلاح والهداية، أو بالشر وتبخر الإيمان!.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٥.

فللأسف نجد اليوم أن أبسط الذنوب في أكثر المجالس والسهرات هو ممارسة موبقة الغيبة، وبدون أية اعتبارات أخلاقية، فَيُذكر الأشخاص بالسوء، وقد تنطلق التهم والشائعات ضد هذا وذاك في أمثال هذه المجالس.

ولكن الإنسان المؤمن إذا وعى الصورة الحقيقية لواقع الغيبة، فإنه لن يكون مستعداً لممارستها من أجل الالتذاذ بلحظة واحدة في مجالس اللهو، لأنه سيعرف أن الغيبة تعني أكل لحم الأخ ميتاً.

وهنا ثمّ نقطة هامة ينبغي التذكير بها؛ هناك فرق شاسع بين السماع والاستماع، ففي بعض الأحيان يمر الإنسان في صحراء فيسمع صوتاً، فلا يعيره أهمية، وهنا حسب التعريف اللغوي يسمى سماعاً.ولكنه إذا سمع حديثاً ثم اهتم به وتابعه وأحب أن يواصل سماعه، فإن ذلك يسمى استماعاً.

وفيما يخص حرمة استماع الغيبة؛ فيمكن القول أن الاستماع إلى الغيبة ومتابعة سماعها أو تصديقها هو المقصود بالاستماع المحرم للغيبة.

وكذلك الإنسان الذي يحضر مكاناً يستهزأ فيه بآيات الله وأحكامه، فإن حق أذنه عليه في هذا المجال أن يغادر المكان المشار إليه على الفور، أما إذا أُجبر على الحضور والبقاء؛ فلا يحق له الاستماع إلى مثل هذا الحديث، بل إنه يجب عليه أن يرد هذا الضلال وهذه الشبهات بالأدلة القاطعة المقنعة.

فإذا أخذت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دورها الطبيعي في حياة الناس الاجتماعية، لن يتجرأ أحد على ارتكاب مثل تلكم الذنوب والموبقات أمام أعين الناس، لأن هذه الذنوب إذا لم تلقَ تأييداً، بل وما دامت تواجه بالرفض والإعراض، فإنها لن تجد أمامها مجالاً لإضلال الآخرين.

وحول ما فرض الله تعالى على السمع، يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«وَفَرَضَ عَلَى السَّمْعِ أَنْ يَتَنَزَّهَ عَنِ الِاسْتِمَاعِ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَأَنْ يُعْرِضَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُ مِمَّا نَهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ، وَالْإِصْغَاءِ إِلَى مَا أَسْخَطَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: عَزَّ وَجَلَّ فِي**

ذَلِكَ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾، ثُمَّ اسْتَثْنَى مَوْضِعَ النِّسْيَانِ فَقَالَ: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وَقَالَ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾، وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾. فَهَذَا مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى السَّمْعِ مِنَ الْإِيمَانِ أَنْ لَا يُصْغِيَ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ لَهُ وَهُوَ عَمَلُهُ وَهُوَ مِنَ الْإِيمَانِ..»[1].

ولأن الإنسان كائن اجتماعي؛ فهو دائماً في حالة احتكاك وتعامل وتلاقح فكري مع الآخرين، لا سيما في عصرنا الحديث، حيث يتم تناقل الآراء والأفكار بسرعة خاطفة، وحيث يتضاعف عدد نسخ الجرائد والمجلات كل يوم، وحيث انتشار الفضائيات بسرعة هائلة، ولذلك أصبح الإنسان مجبراً على مواجهة الرؤى المتفاوتة.

والآن؛ ماهو موقف الإنسان في العصر الحاضر؟.

إن القرآن الكريم لم يغلق الباب على سماع أفكار الآخرين، بل العكس هو الصحيح، إذ شجع الناس على البحث والتطلع والاطلاع على الأفكار، ليميز المرء بواسطة العلم وبأداة المنطق وقاعدة التقوى، الحق عن الباطل، فيكون قادراً على الإجابة ورد الشبهات فينجي المضلَّلين من مستنقع الهلاك. يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[2].

وقد أكد الله سبحانه وتعالى في سورة المؤمنون الصفات الأساسية للمؤمنين، وأعلن ضرورة إعراضهم عن اللغو والحديث الباطل. فالإنسان إذا أراد بلوغ مرحلة الإيمان، عليه أن يحرز مقدماتها الخاصة بها، وليعلم أنه مادام منشغلاً

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٦-١٢٥.
(٢) سورة الزمر، آية: ١٧-١٨.

باللهو واللعب، فلن يصل إلى الإيمان الواقعي أبداً.

فاليوم؛ وحيث توسعت دائرة المذياع والتلفاز ومراكز السينما، نجد -وللأسف- من يصرف ساعات متوالية من عمره الثمين والمفيد في عمل الباطل، أو نجد أن الشباب على استعداد لمشاهدة مباراة رياضية بين فريقين، فيضيعون ساعات وساعات من وقتهم الثمين، ولكنهم يتملّصون عن الاستماع لحديث عن تهذيب النفس بداعي التعب وغير ذلك.

فهناك بعض الشباب من يعرف ويحفظ -بشكل تام- أسماء لاعبي فرق كرة القدم الأجنبية مثلاً، ولكنهم يجهلون أبسط المسائل والقضايا الضرورية في الدين، وهم رغم ذلك، يدعون أن الإسلام عاجز عن الإجابة على ما يطرحونه من أسئلة وشبهات!!.

من هم المفلحون؟

ويبين الله تبارك وتعالى في سورة الفرقان خصائص ومميزات الناجين والمفلحين، فيقول، وقوله الحق: ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾[1].

فطبقاً لهذا التوجيه الرباني، ليس للإنسان أن يترك العنان لنفسه لتجره وراءها أينما ولّت، بل إن الأمر المفروض عليه هو السير في طريق تزكية النفس، فيلاحظ -في هذا الطريق- بعين مفتوحة وأذن واعية جميع المخاطر، ويحاسب نفسه في كل لحظة وساعة ويوم، كما يلزمه التفكير في عواقب الأمور قبل الإقدام على أي عمل، فيتأكد من خيره وشره وربحه وخسرانه، فلا يستمع لأي حديث كان،ولا يحضر أي مجلس كان، ولا يفرط بربح الآخرة العظيم من أجل الحصول على منافع الدنيا الوقتية.

إن للأصدقاء والرفاق دوراً مهماً جداً في مسألة تزكية النفس والسلوك الأخلاقي، ومن هنا كان على الإنسان ألا يقيم علاقة مع أي كان.. فصديق السوء يسوق صاحبه إلى الضياع والهاوية، بينما الصديق الصالح يوصله إلى جادة الخير والصلاح.

(١) سورة الفرقان، آية: ٧٢.

سوء الخلق؛ أصل الذنوب

هناك مسألة ينبغي أن لا تغيب عن أذهاننا عندما نبحث عن تزكية النفس، وهي أن وجود وترسب سوء الخلق في قلب الإنسان يجعل من مصارعة الذنوب أمراً صعباً ويكاد يكون محالاً، وأن السعي وراء ذلك ليس إلا سعياً وراء سراب.

فالخلق السيء يمثل أرضية خصبة لنمو واستفحال أنواع الذنوب والأعمال الشريرة. ومن الطبيعي أنه ما لم تقلع جذور الذنوب فلا ينبغي للمجاهد لنفسه أن يتوقع النجاح في هذه المسيرة الخطيرة والطويلة.

ومثال ذلك؛ أن وجود رذيلة التكبر والغرور في ذات الإنسان من شأنه طرد الكثير من خصال الخير؛ مثل التواضع والتسليم للحق واحترام الآخرين والعشرات من الصفات الفاضلة الأخرى.

ومع وجود الصفات الرذيلة، لن تكون التوبة ذات فائدة تذكر، لأن الإنسان لن يتوفق -أساساً- للتوبة الحقيقية، وإن هو حصل عليها، فإنه سيقع عرضة لتأثيرات وضغوط الخصال الرذيلة، حيث ستجره إلى ارتكاب الذنوب مرة أخرى.

وهنا ينبغي القول بأن كل خلق سيّئ عبارة عن مزرعة واسعة مهيأة لنمو الذنوب، وإذا أراد الإنسان أن يمنع تزايد النباتات الضارة في أرضية نفسه فعليه أن يقلع الجذور لا أن يقصقص الأوراق والأغصان.

إن الأحكام والمعارف الإسلامية عموماً لها جذور ضاربة في عمق الأخلاق الإنسانية، وتشريع كل واحدة من تلك الأحكام له هدفه الخاص في تنمية وترسيخ السجايا الطيبة لدى الإنسان.

فالبشرية؛ بعقلها القاصر وعلمها القليل عاجزة عن فهم واستيعاب جميع الأهداف والحِكَم التي تقف وراء العبادات والمعارف. وقد وردت الإشارة إلى فلسفة العبادات وفروع الدين في الكثير من الآيات المحكمة أكثر من غيرها من الآيات القرآنية

الشريفة، مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[١].

ومن أجل فهم المزيد من آثار وفوائد العبادات -وهو أمر ضروري- يجب توخي الدقة اللازمة لدى قراءة الآيات المحكمة الخاصة بالتشريع العام.

فما يفهم ويستفاد من الآيات القرآنية وروايات المعصومين عليهم السلام أن للعبادات بعدين؛ ظاهرياً وباطنياً. فالأخلاق الحميدة والفاضلة تمثل روح ومعنى العبادة، ومن دون الأخلاق الفاضلة ستكون ممارسة العبادة أشبه بالقيام بعملية تزويق خربة من الخرائب، أو لنقل: إنها تشبه عملية تعليق الستائر الثمينة جداً على نافذة بيت خرب أو مدمر، وهي العملية التي لا يقوم بها إنسان عاقل، لأنها جهد ضائع وغير ذي فائدة.

الأخلاق الاجتماعية ثمرة الأخلاق الفردية

إن بحث الأخلاق الاجتماعية له من الأهمية ما للأخلاق الفردية، حيث إن بناء صرح الأخلاق الاجتماعية الفاضلة ذو صلة وثيقة بسلامة وصلاح الأخلاق الفردية، إذ الأفراد هم الذين يشكلون البناء الاجتماعي.

فتسامي الأخلاق الفردية ونموها في مجتمع يسير ضمن إطار الأخلاق الإلهية المتعالية، يعد أمراً يسيراً، على العكس تماماً من ذلك المجتمع الذي تعج بيوته وشوارعه ومدارسه وجامعاته ومؤسساته بنيران الذنوب والموبقات، حيث لا ضمان لأن يبقى جيل الشباب في مأمن من تلك النيران والشهوات غير المنضبطة.. وفي مثل هكذا حال؛ يتهاوى المجتمع باتجاه وادي الضياع والدمار في كل يوم،حتى يصل مرحلة الانحطاط والتشرذم المطلق في نهاية المطاف.

بين الإيمان والعمل

كما أنه لا تأثير للعمل بدون إيمان واعتقاد راسخ وعميق في نمو الإنسان، كذلك يظل الإيمان المجرد عن العمل بالواجبات والوظائف الدينية عاجزاً عن

(١) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

إيصال الإنسان إلى مرحلة الكمال.

إن كل عضوٍ من أعضاء الإنسان مكلف بأداء واجب معين والقيام بوظيفة خاصة به، ومن الظلم ألاّ يستخدم الإنسان أعضاء بدنه لأداء الواجبات والتكاليف.

فالإنسان بمثابة القائد الذي يجب أن يراقب -وبدقة بالغة- أعضاء بدنه باعتبارها جنوداً في عملية تزكية النفس، وعليها أداء وظائفها بصورة تامة، فإذا ما بدا تقصير أو قصور ما، فإن مسؤولية الهزيمة وتحمل عواقبها تقع على عاتق هذا الإنسان الذي لا يدرك أهمية وخطورة واجباته.

وهنا؛ لابد من التذكير بأن شرط قبول الله لعبودية العبد يكمن في قيام الإنسان بكل أعماله العبادية وتكاليفه الشرعية، وأن يقبل الدين كله كوحدة واحدة. فالدين مجموعة متكاملة من التكاليف والواجبات والحقوق نزلت عن طريق القرآن الكريم وبيّنها النبي الأكرم ﷺ والأئمة المعصومون عليهم السلام.

فالعمل ببعض الأحكام والامتناع عن أداء البعض الآخر لا يكفي لتحقق الهدف من نزول الشريعة، لأن من البداهة بمكان أن الوصول للهدف بوسيلة ناقصة غير ممكن. فالله الحكيم أنزل علينا بعلمه وحكمته مجموعة الدين، واعتبرها عامل السعادة الأوحد. وواضح جداً أن ما يصدر من الله الحكيم هو عين الحق والخير، وهو الذي تمثل إرادته المصلحة الحقيقية للناس.

وظائف البصر

وعن وظائف البصر يقول الإمام الصادق عليه السلام في الحديث المشار إليه في ما سبق: «**وَفَرَضَ عَلَى الْبَصَرِ أَنْ لَا يَنْظُرَ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّـهُ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُعْرِضَ عَمَّا نَهَى اللَّـهُ عَنْهُ مِمَّا لَا يَحِلُّ لَهُ، وَهُوَ عَمَلُهُ، وَهُوَ مِنَ الْإِيمَانِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى عَوْرَاتِهِمْ وَأَنْ يَنْظُرَ الْمَرْءُ إِلَى فَرْجِ أَخِيهِ وَيَحْفَظَ فَرْجَهُ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ، وَقَالَ: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ**

أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ مِنْ أَنْ تَنْظُرَ إِحْدَاهُنَّ إِلَى فَرْجِ أُخْتِهَا وَتَحْفَظَ فَرْجَهَا مِنْ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهَا. وَقَالَ عليه السلام: **كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ مِنْ حِفْظِ الْفَرْجِ فَهُوَ مِنَ الزِّنَا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةَ فَإِنَّهَا مِنَ النَّظَرِ ثُمَّ نَظَمَ مَا فَرَضَ عَلَى الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ وَاللِّسَانِ فِي آيَةٍ أُخْرَى فَقَالَ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ يَعْنِي بِالْجُلُودِ الْفُرُوجَ وَالْأَفْخَاذَ، وَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾، فَهَذَا مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى الْعَيْنَيْنِ مِنْ غَضِّ الْبَصَرِ وَهُوَ عَمَلُهُمَا وَهُوَ مِنَ الْإِيمَانِ..»**[1].

والعين -رغم صغر حجمها الظاهري- فهي من الأعضاء والجوارح ذات الأهمية القصوى في سلوك الإنسان، ولذلك على الإنسان أن يلتزم بحدود التصرف بهذه الجارحة وكيفية الاستفادة منها.

ونلاحظ في هذه الرواية أن وظائف العين هي باختصار:

١- أن لا ينظر إلى ما حرَّم الله بشكل عام.
٢- أن يعرض عما نهى الله عنه إن وقعت عينه عليه، فلا يواصل النظر إلى شيء من المنهيّات.
٣- أن يغض عن النظر -بشكل خاص- إلى عورات الآخرين -رجالاً ونساءً- وأن يحفظ عورته من نظر الآخرين.
٤- وبشكل عام فإن الإنسان يتحمل كامل المسؤولية عن عينيه وعن نظراتهما بشكل عام كما هو مسؤول عن سمعه وفؤاده.

فرائض اليد

وحول فرائض اليدين يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«وَفَرَضَ عَلَى الْيَدَيْنِ أَنْ لَا يُبْطَشَ بِهِمَا إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَأَنْ يُبْطَشَ بِهِمَا إِلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَفَرَضَ عَلَيْهِمَا مِنَ الصَّدَقَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالطَّهُورِ لِلصَّلَوَاتِ فَقَالَ**

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٦.

تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾، وَقَالَ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، فَهَذَا مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى الْيَدَيْنِ لِأَنَّ الضَّرْبَ مِنْ عِلَاجِهِمَا»[١].

إن السيطرة النابعة من الورع والعفة على اليد لها أهمية كبرى، في مقابل ما نلاحظه في كثير من الأفراد الذين يفقدون السيطرة على أنفسهم، حيث يقومون بأعمال الخير في نفس الوقت الذي يرتكبون فيه المساوىء والذنوب، مما يساهم في ضياع أعمالهم الخيرة.. فالخاضع لله عز وجل يجب أن يمتنع عن استخدام اليد في أعمال شريرة، كالسرقة والخيانة وأن يستخدمها فيما أمر الله به.

وفي عبارة من الرواية السالفة قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «وَفَرَضَ عَلَيْهِمَا مِنَ الصَّدَقَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ»، فالإنسان يقدم الصدقة بيده، وكذلك صلة الرحم التي تعني تقديم شيء إلى ذوي رحمه وأقربائه.

«وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ» وكذلك شأن اليد، حيث يجاهد بها قوى الشر والضلال.

«وَالطَّهُورِ لِلصَّلَوَاتِ» فالمؤمن حينما يتوضأ لصلاته فإنما يستخدم يده لهذا الدور، حيث يغسل يده ووجهه، ثم يمسح رأسه وقدميه بيديه.

بلى؛ إن من حق اليد على الإنسان ألا يمدها إلى المحرمات الإلهية. فهو لا بد أن يتذكر دائماً بأن هذه اليد التي يمدها ويستخدمها في هذا العمل أو ذاك ستشهد على صاحبها فيما بعد؛ بل إن الآباء الذين يستخدمون أيديهم للضرب في عملية تربية الأبناء دون ما يبرر ذلك، عليهم أن يعلموا بأنهم في يوم القيامة سيؤاخذون أشد المؤاخذة، كما عليهم أن يعلموا بأن أولادهم بمثابة الأمانة في أيديهم.

ومن غرائب الأمور أن الصحافة العربية طالعتنا بأن طفلاً من الأطفال في إحدى

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ١٢٦.

المدن العربية كسر -خلال لعبه- زجاجة من زجاج بيته، فما كان من أبيه إلا أن عاقبه بالضرب والجلد الشديدين على يده، الأمر الذي أدى إلى جرحها جرحاً عميقاً ثم إصابتها بالتهابات حادة، مما اضطر الأطباء إلى قطع أصابع كفه. وفي هذه الحالة المأساوية جاء الأب لعيادة ابنه في المستشفى، وحينما رآه الابن قال له: يا أب! لقد تأدبت ولن أكسر زجاجة بعد الآن أبداً. فأعد إليّ أصابعي!! الأمر الذي جعل الأب يندم على فعلته أي ندم، ويُصاب بألم نفسي قد لا يتخلص منه طوال حياته.

إن الإنسان العاقل الذي يعي عواقب الأمور ينبغي أن يسلك سلوكاً معقولاً وواعياً حتى لا يصاب بمثل هذه النتائج السيئة والعواقب المهينة.

فرائض الرجل

أما ما يخص الرجل؛ فيبين الإمام جعفر الصادق عليه السلام الجوانب الممنوعة والمحرمة على الرجل كما يبين الواجبات والفرائض، فيقول عليه السلام: «**وَفَرَضَ عَلَى الرِّجْلَيْنِ أَنْ لَا يُمْشَى بِهِمَا إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ وَفَرَضَ عَلَيْهِمَا الْمَشْيَ إِلَى مَا يَرْضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾، وَقَالَ: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾. وَقَالَ فِيمَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ عَلَى أَنْفُسِهَا وَعَلَى أَرْبَابِهَا مِنْ تَضْيِيعِهَا لِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَفَرَضَهُ عَلَيْهَا: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. فَهَذَا أَيْضاً مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى الْيَدَيْنِ وَعَلَى الرِّجْلَيْنِ وَهُوَ عَمَلُهَا وَهُوَ مِنَ الْإِيمَانِ**»(١).

فالمكان الذي يقصده الإنسان لا بد أن يكون مشروعاً ومسموحاً به من وجهة النظر الشرعية. فعليه أن يعرف ما إذا كان المكان المقصود مجلساً للغيبة أو التهمة، أو أنه مجلس ينتهي إلى تأييد الطاغوت. وعلى الإنسان المؤمن أن يكون دقيقاً في تقييمه للمجالس التي يرتادها، فقد تكون هناك مجالس تقام للذكر والدعاء في ظاهر الأمر، ولكن حقيقتها مضادة للشرع كلياً، والإنسان هو المسؤول أن يمنع رجليه من

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٦.

المشي إلى شيء من معاصي الله.

ثم يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام بعد ذلك: «**وَفَرَضَ عَلَيْهِمَا الْمَشْيَ إِلَى مَا يَرْضَى اللَّـهُ عَزَّ وَجَلّ**»[1]. كالمسجد وأي مركز ديني أو اجتماعي مفيد ومشروع.

وهناك روايات كثيرة حول ثواب المشي إلى المسجد أو المشي في قضاء حوائج المؤمنين وخدمة الناس.

ثم إن القرآن يؤكد على أن مشي الإنسان ينبغي أن يكون بشكل أخلاقي، ليس فيه تكبر ولا تبختر، يقول الله عز وجل: ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا**﴾.

فليس صحيحاً أن يمشي الإنسان في الطرقات وهو يتفجر كبرياءً وأنانية وخيلاء، وبذلك يحتقر الآخرين ويستصغرهم.

والآية الكريمة تنهى الإنسان عن أن يمشي مَرَحاً، والإنسان المرح هو الذي يعيش حياة اللامسؤولية وما يتبعها من ظواهر كالفراغ واللهو واللعب والتكبر على الآخرين، ولكن على هذا الإنسان المتكبر أن يعلم بأنه لن يستطيع أن يقهر الطبيعة فيشق الأرض ويخرقها، كما لا يستطيع أن يبلغ عظمة الجبال.

إذن فإن من حق الرِجْل على صاحبها ألاّ يجرها إلى حيث الحرام، إذ عليه أن يتذكر وبصورة دائمة أن هذه الرجل هي التي ستعبر به الصراط في يوم القيامة، فلا ينبغي أن تذهب هاتان القدمان إليالأماكن الممنوعة، فتزلّ أو ترتجف في مواقف القيامة.

وعلى الإنسان الصالح أن يعمل على تزكية نفسه حتى تكون كل أعضائه بدرجة عالية من الطهر والنزاهة، وإذا كانت الطاقة الاستيعابية للإنسان تبحث عن الطهارة والسمو، فإن السنة الشريفة وكلمات الأئمة المعصومين عليهم السلام تهديه إلى الصواب وتنقذه من نار جهنم ليكون من أصحاب الجنة.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٦.

مفهوم (المشي) في القرآن

وبمناسبة الحديث عن المشي يجدر بنا أن نتساءل عن مدلول هذه الكلمة في القرآن الحكيم، لنقرأ معاً قول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[3].

من هذه الآيات الكريمة نستلهم أن مفهوم المشي في القرآن قد لا يكون مجرد الخطوة تلو الخطوة، وإنما هو سلوك وسيرة الإنسان في الحياة، حيث المطلوب من الإنسان أن يأخذ الاعتدال منهجاً وخطة لحركته في الحياة، فلا يميل يساراً أو يميناً بين حين وآخر، بل يقصد الحق؛ والحق فقط في اختياراته وسيرته عموماً.

هناك من الناس من هم عصبيو المزاج، فيريدون لرغباتهم وتطلعاتهم النفاذ بالقوة والصراخ، وهذا الأسلوب من الخطأ بمكان، لأن الله عز وجل طالبنا باتخاذ (الهون) الذي هو الاعتدال أسلوباً لحياتنا.

وعبارة: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ قد تعني ضرورة أن يسلك الإنسان في الحياة طريق الاعتدال ونهجاً وسطياً، فالإنسان بشكل عام ينبغي أن يكون معتدلاً ومتوازناً في حياته.

نعم إن من الطبيعي أن يستخدم المرء التصلّب والمواجهة كوسيلة استثنائية في بعض الحالات، مثل ردع أهل المعاصي الذين لا يمتثلون لأمر أو نصيحة ويبغون في الأرض الفساد، ولكن الخط العام للحياة يجب أن يكون الاعتدال والمداراة.

والمطلوب من المؤمن أن يخفض صوته حين التكلم، فلا يسمح لصوته بالارتفاع والاندفاع فيسبب الإزعاج والأذى للآخرين، لأنه إذا آذاهم، شهدت عليه

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٧.

(٢) سورة لقمان، آية: ١٩.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٦٣.

جوارحه في يوم ما.

إن المعصية التي يرتكبها الإنسان إنما تنبع من إرادته هو، وهذه الإرادة تتجلى في روحه، وتؤثر على أعصابه التي تترك وقعها هي الأخرى على سائر أعضاء بدنه، وهو لدى اقترافه الموبقة، يتسبب في عذاب جميع هذه الحلقات، ويكون وضعه أشبه بذلك القائد العسكري الذي يوعز إلى جنوده -على اختلاف رتبهم- بالإغارة على مدينة، وحينما ينفذ الجنود هذا الأمر يكونون مسؤولين جميعاً عن هذه الإغارة، لأنهم اشتركوا كلهم في هذه العملية الجنائية. كذلك هو بدن الإنسان وحركته الخاضعان لإرادته، حيث يحترق الإنسان بنار جهنم صاغراً في يوم القيامة، لأنه شريك كامل في ارتكاب الذنوب.. وبين هذا وذاك؛ فإن الروح -القائد- هي صاحبة الدور الأصلي والأهم في هذه العملية.

يقول تبارك وتعالى: **﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[١].

لقد تم اختراع وسائل خاصة للكشف عن الجرائم في العصر الراهن، حتى يمكن بواسطة هذه الوسائل تصوير تفاصيل الجريمة ما لم تمضِ أربع وعشرون ساعة على وقوعها.

وحينما نقوم بعمل ما في هذه الدنيا، فإن جميع الجدران التي تضمنا ستشهد علينا في يوم الحساب.. ومن هنا شرع استحباب أداء صلاة النوافل في أماكن متعددة وليس في مكان واحد، لكي تشهد جميع هذه الأماكن للمصلي في يوم القيامة.

إن الأمواج الصوتية الناتجة عن كلامنا، موجودة في الفضاء، حسب ما يقول العلماء الذين يتطلعون إلى التمكن من جمع وتوليف هذه الأمواج حتى تكون قابلة للسمع والفهم، فإذا كان البشر -الذين لا يعلمون شيئاً- قادرين على إنجاز ذلك، فقد كان ذلك على الله يسيراً.

---

(١) سورة يس، آية: ٦٥.

فخلية واحدة في الإنسان -رغم حجمها المتصاغر- قادرة على استيعاب ما تحويه مكتبة بحجم مكتبة الكونغرس الأميركي -وهي أكبر مكتبة في العالم- من المعلومات.

فالخلية الأولى تحوي جميع المعلومات الخاصة بالإنسان كله؛ بل هي تحوي وتختزل المعلومات المرتبطة بمن سيولد من هذا الإنسان. وكذلك جميع العيوب والنقائص التي ستظهر في أولاده وأحفاده فيما بعد مختزلة في هذه الخلية المتناهية في الضآلة. فكل المعلومات الخاصة بلون الشعر ولون العين ولون البشرة وهيئة الوجه وطول وعرض البدن، وكثير من المسائل والمشاكل الخاصة بالبدن.. كلذلك محفوظة في الخلية والنطفة.. وهذا ليس بالكلام البسيط، فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾[١]. فكتاب الله سبحانه وتعالى حافظ، وكل شيءٍ مجموع فيه.

كذلك صحيفة أعمال الإنسان لها الخاصية نفسها، حيث تضبط فيها القضايا الصغيرة والكبيرة المتعلقة بصاحبها، حتى أن الإنسان حينما يُعطى صحيفة أعماله في الآخرة لن يكون بوسعه إلا القول: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٢].

فالحوادث والوقائع الصغيرة التي لا يحسب لها الإنسان حساباً، هي الأخرى ستسجل عليه وسيراها ماثلة نصب عينيه كما يقول تعالى اسمه: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾.

هل رأيتم كيف يعرض التلفاز أو السينما المشاهد واللقطات، ورغم كونها مشاهد مباشرة في بعض الأحيان، إلا أنها لا تعدو كونها تقريراً مصوراً، ولكن الأعمال هي التي ستظهر بواقعها في يوم القيامة مع حضور فاعلها والقائم بها..

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ

---

(١) سورة ق، آية: ٤.

(٢) سورة الكهف، آية: ٤٩.

نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[١] فصحيفة الإنسان وأعماله ستغلق ثم تفتح ويبدأ كل شيءٍ من جديد.

فالله سبحانه وتعالى هو الذي يسجّل ويضبط أعمال الإنسان، ويوم القيامة سيكون اليوم الذي تُسمع فيه الأصوات من جديد، وتُشاهد فيه الأعمال التي ضبطت في دار الدنيا.. وستنطق اليد والرجل، كما ستشهدان على ما قامتا به من أعمال وحركات.

إن الإنسان حينما يرتكب ذنباً ما، يحاول تبرير ما قام به، فيبحث عن الأعذار أو يسعى إلى إقناع الآخرين بأنه كان مجبراً على ارتكاب موبقة الغيبة أو التهمة مثلاً.

فالإنسان له طبيعة البحث عن الأعذار بعد ارتكاب الذنوب، في حين أن الله يؤكد: **﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾**[٢]؛ أي أن الإنسان المجرم لن يطالبه الله بالأعذار، لأن صحيفة أعماله قد أغلقت تماماً، وهي ناطقة بما فيها، ولن يكون أمامه في يوم القيامة البحث عما يبرر له ذنوبه.

فرائض الوجه

ثم يضيف الإمام جعفر الصادق عليه السلام قائلاً: «**وَفَرَضَ عَلَى الْوَجْهِ السُّجُودَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**[٣] **فَهَذِهِ فَرِيضَةٌ جَامِعَةٌ عَلَى الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾**[٤]»[٥].

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠٤.

(٢) سورة القصص، آية: ٧٨.

(٣) سورة الحج، آية: ٧٧.

(٤) سورة الجن، آية: ١٨.

(٥) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٧.

فوجه الإنسان مطالب بواجبات هو الآخر، ومن جملتها واجب السجود، كما جاء في الآية ٧٧ من سورة الحج التي تلاها الإمام الصادق عليه السلام في هذا الحديث.

فهذه الآية الشريفة تشير إلى مجموعة من الفرائض التي فرضها الله على الإنسان وعلى أعضاء بدنه وجوارحه، مثل الإيمان والركوع والسجود والعبادة والقيام بأفعال الخير عموماً.

وقد فسر الإمام جعفر الصادق عليه السلام كلمة ﴿**الْمَسَاجِدَ**﴾ التي وردت في الآية: ١٨ من سورة الجن بأنها المواضع البدنية الساجدة، إذ قال: «**فَهَذِهِ فَرِيضَةٌ جَامِعَةٌ عَلَى الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ**».

ثم يضيف الإمام الصادق عليه السلام في نهاية الحديث الشريف: «**فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ حَافِظاً لِجَوَارِحِهِ مُوفِياً كُلَّ جَارِحَةٍ مِنْ جَوَارِحِهِ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهَا لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُسْتَكْمِلًا لِإِيمَانِهِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَنْ خَانَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَوْ تَعَدَّى مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا لَقِيَ اللَّهَ نَاقِصَ الْإِيمَانِ**»[1].

ثم يختم الإمام عليه السلام كلامه محدِّداً من يدخل الجنة ومن يدخل النار قائلاً: «**وَبِتَمَامِ الْإِيمَانِ دَخَلَ الْمُؤْمِنُونَ الْجَنَّةَ وَبِالنُّقْصَانِ دَخَلَ الْمُفَرِّطُونَ النَّارَ**».

مسؤولية البصر

في العديد من الآيات الكريمة في القرآن الحكيم يأمر الله تعالى الإنسان بضبط عينيه عن اللهاث وراء الحرام، وهذا هو بالتحديد مسؤولية العين ووظيفتها، وهي القسم المرتبط بإيمان العين، حيث على الإنسان أن لا يترك العنان لعينيه تجولان حيث يشاء دون أية حدود، بل عليه أن يغض بصره عن غير محارمه، وهذا الأمر لا يعني وجوب إغماض عينيه حينما يمشي في الأزقة والشوارع والأسواق، فهذا أمر غير ممكن، وعند مراجعة الأحاديث الشريفة في هذا المجال نلاحظ أنها

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٧.

لا تأمرنا بإطباق عيوننا حينما نسير بين الناس، وهذا يدل على أن التعاليم الدينية واقعية وليست مثالية.

إن تأكيد التعاليم الدينية هو على غض البصر وليس إغماضه، وهذا هو الأسلوب المعتدل والواقعي للابتعاد عن المعصية، فعندما يشاهد الإنسان -وبشكل لا إرادي- منظراً غير مسموح به،وعندما تقع عينه على مشهد شهواني محرم عليه أن يكتفي بالنظرة الأولى اللاإرادية، وأن لا يكرر النظر في الحرام، بل يغض بصره عن ذلك، فالنظر سهم من سهام الشيطان.

ومن الرواية المفصَّلة التي تلوناها في الصفحات السابقة عن الإمام الصادق عليه السلام حول وظائف الأعضاء والجوارح نستلهم هذه البصيرة: أن الخطوة الأولى على طريق الورع والتقوى هو كفّ النفس عن اللهاث وراء الأهواء والشهوات، واجتناب المنهيات، والتورع عن المحرمات.

وفيما يرتبط بمسؤولية العين ووظيفتها فإن الإشارة الأولى التي نواجهها في الآيات والروايات تدور حول ما ينبغي إجتناب النظر إليه، ولكن ليس هذا كل ما في الأمر، بل هناك من الموارد ما تحث التعاليم الدينية على النظر إليها، كالنظر لوجه العالم، والنظر في الآفاق والأنفس نظرة متفكرة، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**النَّظَرُ إِلَى الْعَالِمِ عِبَادَةٌ، وَالنَّظَرُ إِلَى الإِمَامِ الْمُقْسِطِ عِبَادَةٌ، وَالنَّظَرُ إِلَى الْوَالِدَيْنِ بِرَأْفَةٍ وَرَحْمَةٍ عِبَادَةٌ، وَالنَّظَرُ إِلَى الأَخِ تَوَدُّهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَةٌ**»(١).

والوصية بغض البصر جاءت في موضعين:

الأول: فيما يخص المحارم.

والثاني: فيما يخص الفرج.

فما جاءت به الآيات القرآنية في قضية حفظ الفرج، يعطي معنيين متفاوتين؛

---

(١) بحار الأنوار، ج٧١، ص٧٣.

ففي موارد كالذي جاء في سورة (المؤمنون)، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[١]، فالمراد هنا هو الحفظ والردع عن الزنا، وليس مجرد النظر.

أما في سورة (النور) المباركة، حيث قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾[٢]، فقد جاء الأمر حول حفظ الرجال والنساء عوراتهم وسترها عن نظر الآخرين، وألا ينظروا هم إلى عورات غيرهم.

كيفية حفظ الفرج

إن المقصود من حفظ الفرج الوارد في سورة (المؤمنون) هو الحفظ على جميع الصُّعد.. وهو أشمل وأعم من اللمس والزنا وجميع أنواع الممارسات الشهوانية المحرمة الأخرى، إلا أن الآية تستثني من هذا النهي مورداً مهما، حيث تقول: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[٣]. وهذا الاستثناء له قيمته العلمية في الاستدلال الفقهي، فاستناداً لإطلاق هذه الآية أستنتج أن مشاهدة الأفلام الخليعة غير جائزة، لأنها نوع من إثارة الشهوة الحرام، وهذه الإثارة والتهييج يتنافيان مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾[٤].

وهنا ينبغي أن نشير إلى أن المراد من (الفرج) ليس العورة وحدها، بل يمكن القول: إن المراد هو كل ما يرتبط بالأمور الجنسية، أي ما يشمل البدن والأعضاء، والممارسات والأفعال.

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٦-٥.

(٢) سورة النور، آية: ٣٠-٣١.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٦.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ٥.

فكل إثارة للشهوة وإرضائها عن الطريق الشرعي (أي الزوج والزوجة) هو حلال وجائز. أما إذا كانت إثارة الشهورة وإرضاؤها خارج الإطار المشروع الذي حددته الآية، فذلك منهي عنه ومحرم. وفي هذا المجال ليس هناك أي اختلاف بين الرجل والمرأة.

ثم يقول القرآن الكريم بعد ذلك: ﴿**فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ**﴾[1]؛ بمعنى أن من تجاوز هذا الحد الشرعي والمقبول -الذي لا يلام عليه أحد- فإنه يكون في عداد الفاسقين.

وليس خافياً أن المقصود من الفسق هو الخروج عن الحد الشرعي.

واعتماداً على هذه الآية المباركة يمكن الخروج بنتيجة؛ هي: أن جميع الموارد التي حكم فيها بحرمة النظر، فإن اللمس وأي نوع من أنواع الاتصال محرم أيضاً فيها. وفي واقع الأمر؛ فإن أي استمتاع جنسي -بكل ما في العبارة من معنى- لايجوز إلا بين رجل وامرأة يرتبطان معاً بعقد شرعي صحيح، أو بين رجل وامرأة استرقها حسب أحكام الشريعة وكانت أَمَةً له.

حدود النظرة الشهوانية

وهنا نقطة أخرى لابد من الإشارة إليها، وهي أن حرمة النظرة الشهوانية حالة عامة، حتى أن الإنسان يحرم عليه النظر بشهوة إلى الحيوان أو التمثال الخالي عن الروح، وقد أفتى الفقهاء بشكل عام بهذا التحريم.

ويتضح من الآية المباركة الواردة في سورة (المؤمنون) أن الإنسان يُلام على الاستمتاع الشهواني بشكل عام، باستثناء ما ذكرته الآية من الزواج والاسترقاق. فالأصل -على هذاالأساس- هو التحريم، أما الحلية؛ فهي بحاجة إلى دليل، تماماً كما هو الأصل في حرمة الدماء وسفكها، إذ الأصل فيها هو الحرمة.

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٧.

شهادة السمع والأبصار والجلود

وفي حديث الإمام الصادق عليه السلام الذي تلوناه فيما سبق جاء: «**ثُمَّ نَظَمَ مَا فَرَضَ عَلَى الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ وَاللِّسَانِ فِي آيَةٍ أُخْرَى فَقَالَ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ يَعْنِي بِالْجُلُودِ الْفُرُوجَ وَالْأَفْخَاذَ، وَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ فَهَذَا مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى الْعَيْنَيْنِ مِنْ غَضِّ الْبَصَرِ وَهُوَ عَمَلُهُمَا وَهُوَ مِنَ الْإِيمَانِ**»[1].

إنكم لدى ارتكابكم للذنوب في الحياة الدنيا تتوخون خلوة، إذ لا تحبون أن يراكم أحد من الناس، ولكنكم لا تستطيعون بحال من الأحوال أن تنفصلوا عن أعضاء بدنكم، فأنتم عاجزون عن أن تضعوا أيديكم -مثلاً- في غرفة وأنتم تذنبون في غرفة أخرى حتى لا تشهد عليكم، أو أن تحبسوا عيونكم في مكان لتذهبوا إلى مكان آخر لممارسة الذنب!!.

والملاحظ في آيات القرآن الكريم أن كلمة ﴿السَّمْعَ﴾ لا تأتي إلا بصيغة المفرد، ولكن مفردة ﴿الْبَصَرَ﴾ جاءت في الأغلب بصيغة الجمع[2]، ولتبيين سر هذا التفاوت يمكن أن يشار إلى أن باستطاعة المرء أن ينظر إلى مئة رجل في آن واحد، ولكنه عاجز عن أن يسمع مئة كلمة في الآن نفسه.

ويمكن أن يكون السبب أيضاً هو أن السمع أقرب إلى عالم التجريد، بينما البصر أقرب إلى عالم الواقع والمادة.

أما فيما يخص اصطلاح (الجلود) في الآية السابقة، فيمكن القول: إن الجلد عضو حساس بصورة خاصة، فهو أقرب ما يكون إلى الاتصال بعالم المحسوسات والماديات، ولذا فإن الروايات الواردة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام بهذا الشأن،

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ١٢٦.

(٢) تكررت كلمة ﴿السَّمْعَ﴾ في القرآن ٢٢ مرة وكلها بصيغة المفرد، ولم تأت الكلمة جمعاً ولا مرة واحدة، بينما مفردة ﴿الْبَصَرَ﴾ جاءت ١٠ مرات بصيغة المفرد، و٣٨ مرة بصيغة الجمع.

تشير إلى أن المراد من الجلود في الآية هو الشهوات، نظراً لأن جلد الإنسان هو الذي يتمتع باللذة الجنسية قبل كل عضو آخر، وهو الذي يتألم كذلك،فإذا أصيبت يدك بوخز من رأس السكين مثلاً شعرت بالألم الشديد، لأن الأعصاب الناقلة للألم تقع مباشرة تحت الجدار السطحي للجلد، ولكنه لا وجود لمثل هذه الأعصاب في الطبقات الداخلية للبدن، فإذا نفذ جسم حاد إلى عمق الجسد، فإنه لن يحس بألم غير الذي شعر به باديء الأمر.

من هنا؛ توعّد الله، وهو القادر المتعالي، الذين سيحترقون بنار جهنم أن يستبدلهم جلوداً جديدة كلما نضجت واحترقت جلودهم، لكي يتألموا في عذاب شديد متواصل، وبذلك صرحت الآية القرآنية الكريمة: ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**﴾[1].

ثم تسوق الرواية آية أخرى من كتاب الله لتستشهد بها على مسؤولية السمع والبصر والقلب، وهي الآية ٣٦ من سورة الإسراء، حيث يقول الله عز وجل: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾.

إن الإنسان بطبيعته الأولية يصعب عليه أن يفكر ويتدبر ويبحث بشكل مستقل، فهو يرغب في اتباع وتتبع أي صوت يعلو.. ولكن الله سبحانه وتعالى ينهاه عن ذلك ويقول له: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾[2].

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٦.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

4

من مكارم الأخلاق

كان أسلوب المرحوم الشيخ الحر العاملي لدى تدوينه كتابه الشهير (وسائل الشيعة) أنه ضم إلى كل باب فقهي وضعه، بحثاً أخلاقياً شيّقاً؛ ومثال ذلك أنه وضع إلى جانب باب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أحاديث وروايات حول فعل المعروف، وإلى جانب كتاب (الجهاد) وضع أبواباً خاصة بجهاد النفس، وفي باب (القراءة في الصلاة)، وضع أبواب الذكر وقراءة القرآن، وفي باب (الحج) دَوَّن وصايا أهل البيت عليهم السلام الخاصة بآداب السفر والمعاشرة وغير ذلك.

ولقد أشرنا كثيراً إلى أن خلفية الأحكام الشرعية إنما هي الحِكَمَ الإلهية، ولذلك؛ كان من الجدير أن تذكر الحكمة إلى جانب التطرق إلى كل حكم.

فأنت إذا أمرت طفلاً من أطفالك ليأتيك بقدح من الماء، وبينت له حالة العطش التي تعانيها، كان ذلك سبباً ودافعاً لأن يهتم الطفل كل الاهتمام بدرء العطش عنك. فهو إن لم يكن الماء في متناوله -لسبب من الأسباب- أتاك بما يرفع عنك العطش من أنواع العصائر مثلاً أو بعض الفواكه.

ولكنك إذا اكتفيت بإعلامه برغبتك في الماء لمجرد الوضوء، فإنه لن يأتيك باللبن أو عصير الفاكهة الباردين، بل إنه سيجلب لك التراب من أجل التيمم إذا

عجز عن العثور على الماء.

وعلى هذا الأساس؛ كان التصريح بالحكمة كلما ذُكِر حُكم معين في التعاليم الدينية وفي روايات المعصومين عليهم السلام. علماً؛ أن الحُكم قد يرد في رواية؛ في حين أن الحكمة قد ترد في رواية أخرى. ولهذا؛ فإنه يجدر تتبع الروايات الشريفة، ووضع بعضها إلى جانب بعض، لغرض الوصول إلى النتيجة المطلوبة.

وعموماً؛ يجب الأخذ بعين الاعتبار أهمية ملاحظة روايات وأحاديث الأحكام الفقهية، إلى جانب الروايات التي تتضمن الحكمة والمفهوم الأخلاقي لها، وعلينا أن نعرف دائماً هذه الحقيقة الأساسية،وهي أن التعامل مع روايات المعصومين عليهم السلام تنبع من مصدر واحد.

ملازمة الصفات الحميدة

في الباب الرابع من أبواب جهاد النفس في كتاب (وسائل الشيعة) يستعرض المؤلف مجموعة من الروايات حول استحباب ملازمة الصفات الحميدة، وتذكر هذه الروايات مجموعة من الصفات الأخلاقية المختلفة، وغير المرتبطة مع بعضها في الظاهر، وهذا دليل على أن جميع تلك الصفات ترتبط بكيان واحد؛ هو: الإنسان.

فقد تتكرس في كيان الإنسان -والعياذ بالله- حالة من الرذيلة وسوء الظن والأنانية، فتراه لذلك يتصف في جميع أبعاد حياته بصفات رذيلة، مثل الكذب والغدر والسرقة وغيرها.

وفي مقابل ذلك؛ قد تتجلى في كيانه حالة من السكينة والطمأنينة والرضى بما قسم الله له، ولذلك فهو يتصف بسائر الصفات الطيبة والإيجابية.

فمن يتخذ صفة الصدق شعاراً ومنهجاً لسلوكه، كان من المحتمل جداً أن يكون على درجة عالية من الوفاء أيضاً. أما الإنسان الخائن؛ فمن الممكن جداً أن يكون فرداً كذاباً.

إذن، فإن الصفات الرذيلة -كما الصفات الفاضلة- لا تتجلى في سلوك ومسيرة الإنسان بشكل انفرادي ومنفصل، بل تتجلى على شكل مجموعات مترابطة.

وعلى ذلك؛ فإن الصفات الرذيلة أو الحميدة لم تذكر بشكل مستقل في آيات الذكر الحكيم، وإنما استعمل سياق الجمع بين الصفات المتعددة، ولا بأس أن يراجع القارئ بداية سور (البقرة) و(المؤمنون) وخاتمة سورة (الفرقان) المباركة ليلاحظ هذه الحقيقة.

مكارم الأخلاق العشر

ومن الأحاديث التي تتحدث عن الصفات الحميدة.

قال أبو عبد الله، الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إِنَّ اللَّـهَ خَصَّ رَسُولَهُ! بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فَامْتَحِنُوا أَنْفُسَكُمْ فَإِنْ كَانَتْ فِيكُمْ فَاحْمَدُوا اللَّـهَ وَارْغَبُوا إِلَيْهِ فِي الزِّيَادَةِ مِنْهَا فَذَكَرَهَا عَشَرَةً الْيَقِينَ وَالْقَنَاعَةَ وَالصَّبْرَ وَالشُّكْرَ وَالْحِلْمَ وَحُسْنَ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءَ وَالْغَيْرَةَ وَالشَّجَاعَةَ وَالْمُرُوءَةَ**»[١].

إن البحث في كل مكرمة من هذه المكارم الأخلاقية العشر بحاجة إلى تأليف كتاب، أو إلقاء محاضرات طوال، ولكن لتلخيص ذلك، يمكن أن يقال: إن اليقين هو وصول الإنسان إلى حالة الاطمئنان الروحي والاستقرار النفسي، وطرد الاضطراب والتردد والشك عن كيانه ووجوده. فالإنسان المجرّد عن اليقين لا يتمتع بحياة مستقرة، حيث يصيبه الاضطراب وكأنه مصاب بمرض عصبي، فلا يقرّ له قرار. هكذا يعبِّر عنهم القرآن الكريم: ﴿**وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ**﴾[٢].

وثاني الصفات هي: صفة القناعة. فحينما يصل المرء إلى مرحلة اليقين،

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٨.
(٢) سورة التوبة، آية: ٤٥.

وتكون نفسه مطمئنة، تستغني روحه، ويحس في عمق كيانه بالاستغناء عن الآخرين، والاكتفاء بما آتاه الله من النعم. وحينذاك يشعر بدفء الإيمان يغمر قلبه.

بلى؛ إن من كانت نفسه مطمئنة، هانت عليه المصاعب، وتمكن من مقاومتها.

في الأيام الغابرة، حيث لم تكن الأجهزة الحديثة متوفرة، كان المؤمن في بعض البلاد الباردة يستيقظ فجراً للصلاة، ولكي يتوضأ أو يغتسل كان عليه أن يكسر طبقة الثلج المتجمدة فوق حوض الماء في الدار بسبب شدة البرد، ثم يستفيد من ذلك الماء المثلَّج في جوٍ شديد البرودة، ربما كانت درجة الحرارة فيه تهبط إلى أكثر من ٢٠ درجة مئوية تحت الصفر. فكيف كان يفعل ذلك؟ لابد أنه كان يتمتع بدفء الإيمان وحرارة اليقين تغمران كل كيانه ووجوده.

ومن جهة أخرى فإن الإنسان المتمتع باليقين يرى نفسه في غنىً عن التوسل بالوسائل المادية لفرض شخصيته في المجتمع، بينما المنهمكون ليل نهار لمضاعفة أرصدتهم في البنوك، واللاهثون طوال سنوات حياتهم لتطوير بيوتهم حسب آخر صيحات الفن المعماري، واستبدال سياراتهم بأحدث الطرازات المتوفرة في السوق، والمتكالبون -بشتى الأساليب- لنيل السمعة والشهرة. كل أولئك عليهم أن يعرفوا أن نفوسهم بحاجة ماسة لإصلاح جذري، وأن منهجيتهم في الحياة تفتقر بشدة لإعادة نظر أساسية.

وفي مقابل ذلك؛ فإن من لا يعتني بالدنيا، وليس مهماً لديه أن يعرفه الناس أولا يعرفونه، ولا تمثل له الإمكانات المادية والرفاهية المتزايدة شغلاً شاغلاً لذهنه، فهو يتمتع بصلابة الشخصية، وسلامة المنهج.

قصة نابليون

كان (نابليون بونابرت)، القائد التاريخي المعروف، ذا شخصية عجيبة تدعو إلى التأمل. فهذا الإنسان كان من أيام صباه ذا طموح عالٍ، واستطاع أن يكون

جنرالاً بسعيه الحثيث ونشاطه الدؤوب، ثم إنه كان يهدف إلى تسلم مقاليد فرنسا برمتها. وحينما تسنى له ذلك، استهدف السيطرة على أوروبا برمتها، ثم إنه سيطر على هذه القارة بالفعل وقسمها إلى قطع صغيرة وضمها إلى فرنسا. وبعد ذلك وصل إلى الشرق الأوسط، واحتل مصر وشيّد امبراطوريته العظيمة وسيطر على مقدرات العالم.

وفي نهاية المطاف، قام البريطانيون بسلبه مناطق سيطرته شيئاً فشيئاً، حتى وصل به الأمر إلى طرده من السلطة ونفيه إلى جزيرة في المحيط الأطلسي. وكانت الحكومة الفرنسية قد كلفت أحد ضباطها بحراسته ومراقبته حتى أيام شيخوخته.

وإذ كان منفياً في تلك الجزيرة، كان يطل من غرفته في اليوم الرابع عشر من شهر يوليو من كل عام، حيث العيد الوطني الفرنسي، ليشاهد الاستعراض العسكري والاحتفال الوطني العام، الذي كان يحضره كبار شخصيات الجزيرة بمن فيهم حاكمها العسكري.

قال له الضابط الفرنسي المكلف بمراقبته الشديدة ذات يوم: سيدي! إن مكانك يجب أن يكون بين تلك الشخصيات التي تحتفل بالعيد الوطني لفرنسا وتشرف على هذا الاستعراض العسكري الكبير، وليس أن تقبع في هذه الغرفة، فتشاهد الاستعراض من بعد!

فأجابه (نابليون) بكل غطرسة: أينما أكون وأجلس، فإن ذلك المكان هو مكان العظماء!. إن مثل هذا الكلام يدل على أنه كان لا يزال يوجد عقل الإمبراطور في جمجمة (نابليون بونابرت)، وقلب الحاكم في قفصه الصدري!

في بعض الأحيان؛ يغمر الإنسان شعورٌ داخلي، يحس من خلاله بالعظمة، وهذا الأمر ينتهي بالإنسان إلى القناعة ويجعله يتمتع بالصبر، ذلك لأن الإحساس بالعظمة يدفع به إلى استصغار أكبر المشاكل واحتقارها، بل لعله ينظر إلى تلكم المشاكل على أن انشغاله بها واهتمامه لها يضعف من مكانته، ويذل شخصيته؛ فهو

على هذا الأساس يصبر ويتحمل المشاكل، ويتوجه بالشكر إلى ربه الذي منحه القناعة والصبر.

وإذ ذاك؛ تحل في كيانه صفة الحلم، فيتحمل إزعاجات وإيذاء الآخرين له، دون أن يفكر بالانتقام الذي هو من شأن ضعيفي النفوس وعديمي البصيرة.

المليارات. والبخل

ومن المكارم الأخلاقية التي عدَّها الإمام الصادق عليه السلام، هو: «**السَّخَاْء**» فالمؤمن يبذل وينفق مما آتاه الله، ولا يبخل ولا يقبض يديه. وكانت هذه الصفة من أبرز صفات رسول الله صلى الله عليه وآله، بينما عبدة المال، وأذلّة الذهب والفضة يبخلون حتى عن إنفاق فلس واحد.

كان أحد الأشخاص من كبار أغنياء الكويت، وربما كان من أوائل الأشخاص الذين امتلكوا طائرة خاصة بهم في الدول الخليجية، وذات يوم قال لي هذا الشخص مباشرةً: إنني عاجز عن جرد أموالي وثروتي وعدّها!.

لقد كان هذا الشخص على قدر كبير من الثراء، بحيث كان يقرض الدول والحكومات. إن هذا الرجل كان يكرر دائماً على مسامعي هذه الجملة المقتطعة من أحد الأحاديث المروية عن رسول الله، حيث كان يقول: «**الْقَنَاعَةُ كَنْزٌ لَا يَفْنَى**»[1].

وقد كان ينقل لي قصصاً مفيدة جداً، ومن جملتها هذه القصة الأكثر فائدة بالنسبة لي.

سألني: هل تعرف الثري الأميركي فلان؟!، إنه من أغنى أغنياء العالم، ويمتلك شركات نفطية دولية كبرى، وحينما مات تناقلت الصحافة العالمية نبأ وفاته بكل اهتمام.

(١) مستدرك الوسائل، ج١٥، ص٢٢٦.

وفي إحدى المرات قام بدعوة كبار أثرياء العالم، وكنت أنا (الثري الكويتي) موجوداً في أميركا آنذاك، فدعاني إلى بيته لتناول وجبة عشاء مع جملة المدعوين.

وبعد العشاء قال له أحد الأثرياء: أريد أن اتصل هاتفياً!.

فأرشده إلى الباب الخارجي، وأشار إلى هاتف عمومي، ولأنه كان لا يحمل معه قطعة نقدية معدنية، فإنه جهد للحصول عليها من هذا وذاك حتى تم له ذلك، وبعد أن اتصل وعاد إلى بيت مضيفه،سأله: إنني متعجب من طبيعة بيتك الذي يفتقر إلى جهاز الهاتف!. فأجابه صاحب الدعوة: ولكن بيتي فيه جهاز الهاتف!.

فقال له: إذن؛ لم أشرت عليّ في استعمال الهاتف العمومي في الشارع؟.

فقال: لأن المكالمة الهاتفية ثلاثة سنتات؟!.

فقال له منذهلاً: إنني أرى في هذه القاعة من التحفيات ما تعادل قيمتها حوالي ثلاثمئة مليون دولار، وأنت تتحدث عن ثلاثة سنتات.

فأجابه على الفور: إن هذه الثلاثة سنتات وأمثالها هي التي جمعت لي هذه الثروة العظيمة.

انظروا إلى روح البخل والخسة حينما تستولي على الإنسان، حيث لا تنفصل عنه حتى وهو في أوج ثرائه وقدرته.

السخاء والكرم

إن السخاء والكرم من جملة الصفات والسجايا الحسنة ومن أبرز مكارم الأخلاق. وقد كان الناس في الأيام السالفة على قدر أعلى من السخاء والكرم والإنفاق، إلا أنهم في الزمن الراهن يبررون البخل بشتى التبريرات والأعذار، كالغلاء والأزمات الاقتصادية، رغم أنها ليست أعذاراً مقبولة وموجهة.

لقد كان الناس في السابق وحينما يطهون طعاماً في البيت، كانوا يفكرون

بإكرام الجار قبل كل شيء، وأن يقدموا له صحناً من طعامهم قبل أن يتناولوه هم.

فلماذا تبخرت روح الكرم هذه من بيننا؟!.

حينما نتوجه بنقد الحالة الاجتماعية وأن الناس أصبحوا لا يفكرون -في الغالب- إلا في مصالحهم وأنفسهم، فإن هناك من يجيب بأن المشاكل والأزمات الاقتصادية لا تسمح للإنسان بالتفكير بالآخرين. ولكن هل المشاكل الاقتصادية تبرر حقاً البخل وعدم الإنفاق؟ أم أن النفوس تغيّرت، وأن روح التكافل والتعاون والإيثار قد انحسرت من أوساط مجتمعاتنا؟.

إن التظاهر بالعوز والفاقة وقلة ذات اليد والتحدث بالسلبيات الاقتصادية بصورة دائمة ينتهي إلى أن يسد الله سبحانه وتعالى أبواب رحمته، ويقطع نزول نعمائه.

المكارم الأخلاقية الأخرى

من المكارم الأخلاقية العشر التي أشارت إليها الرواية هي الغيرة، وهي عبارة عن عدم استعداد الإنسان للتنازل عن شرفه، وما يرتبط بهذا الشرف.

والشجاعة من جملة المكارم الأخلاقية، ولها جذورها الضاربة في عمق إرادة وروح الإنسان. والمروءة والفتوّة أيضاً تنساق في هذا المسير، وتكون من جملة مميزات الإنسان الطيبة.

إن الإنسان الحائز على مكارم الأخلاق، له نفس تطيعه، وهذا الأمر بحد ذاته يدفعه إلى عدم التغافل أحياناً عن أبسط القضايا التي تصادفه، بينما -في أحيان أخرى- قد يتنازل عن أكبر وأهم الأشياء والامتيازات.

فلا أحد يستطيع اغتصابه فلساً واحداً بالقهر والقوة، ولكنه في ذات الوقت ينفق الملايين من دنانيره حينما يأتي دور الكرم والجود والعطاء.

إننا يجب أن نبذل كل جهودنا، لنزرع ونخلق هذه الخصال والصفات الحميدة والخصائص الطيبة في أعماق ذواتنا. فلابد أن نسعى كل السعي من أجل الحصول على أشياء ومكاسب تبقى لنا، وتحفظ شخصياتنا.

فإذا كان منتهى آمالك الحصول على سيارة جديدة جيدة، فاعلم أن ضيق نظرك هذا قد دفع بك إلى هدر طاقتك وتضييع وقتك على شيءٍ سوف لا يدوم لك ولا تدوم له، بل سينتقل لورثتك، في حين كان يلزمك أن تجعل هدفك الأول الحصول على ما يدوم لك وتستفيد منه شخصياً لآخرتك.

فعندما نصل إلى نهاية المطاف من حياتنا وتنتهي لحظات عمرنا سيجردوننا من كل ثياب الدنيا وزخارفها الفانية، ولا يبقى معنا شيء سوى لباس التقوى، وهو خير لباس حسب تعبير القرآن الحكيم: ﴿**يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾[١].

عليك بمحاسن الأخلاق

يقول الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**قَالَ رَسُولُ اللهِ! لِعَلِيٍّ عليه السلام: يَا عَلِيُّ؛ أُوصِيكَ فِي نَفْسِكَ بِخِصَالٍ فَاحْفَظْهَا... ثُمَّ قَالَ** صلى الله عليه وآله: **اللهُمَّ أَعِنْهُ**»[٢].

فأن يدعو رسول الله صلى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام عندما يوصيه بوصاياه بأن يعينه الله، فذاك ما يشير إلى أن الاتصاف بمكارم الأخلاق أمر صعب وبحاجة إلى الاستعانة بالله والتوكل عليه. وتضيف الرواية: «**أَمَّا الْأُولَى فَالصِّدْقُ لَا يَخْرُجَنَّ مِنْ فِيكَ كَذِبَةٌ أَبَداً**»[٣].

فرغم أن الصدق في الكلام يظهر على لسان الإنسان، إلا أنه يعكس مجموعة

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٦.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٩.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٩.

الصفات الحسنة التي يتحلى بها. فالإنسان الذي يمتنع عن ممارسة الظلم، ويتمتع بخصلة الإنصاف والوفاء والحب، فإنه يكون صادقاً أبداً. والإنسان الذي يمتنع عن الظلم إنما هو في غنى عن رذيلة الكذب، وحينما لا يمد يده إلى أموال الآخرين، فليس هناك ما يدفعه إلى قول الكذب. وكذلك إذا كان ممن لا ينقض العهد، وكان ممن يلتزم بالكلمة والعقد دائماً، فهو -إذن- لا يعرف معنىً للكذب.

وبكلمة؛ إن الكذب بمثابة المعبر لمن يريد ارتكاب الظلم، والتستر على الرذيلة، والتنصل عن الوفاء بالوعود والعهود.

اجتناب الخيانة

ويشير الإمام الباقر عليه السلام في حديثه عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلى وجوب الاجتناب عن الخيانة، فيقول: «**وَالثَّانِيَةُ الْوَرَعُ لَا تَجْتَرِئَنَّ عَلَى خِيَانَةٍ أَبَداً**»[1].

فالمؤمن لا يجوز له أن يرتكب خيانة بحق من حقوق الله، أو حقوق نفسه، أو حقوق الآخرين، كما لا يصح له أن يتهرّب من مسؤولية حفظ الأمانة الملقاة على عاتقه.

وقال صلى الله عليه وآله: «**وَالثَّالِثَةُ الْخَوْفُ مِنَ اللَّـهِ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»[2]. إن الخوف من الله سبحانه وتعالى ينبع من حالة تذكّر الله عز وجل دائماً. فإذا كان الإنسان يذكر الله عز وجل بشكل متواصل، لابد وأن تتملكه حالات من الخوف والخشية.

ومن كان يعتبر الله سبحانه وتعالى شاهداً وناظراً على أقواله وأفعاله، سيقارن بين لطف وكرم وعظمة الله من جهة، وبين حقارته وقصوره أو تقصيره من جهة أخرى، ولذلك فهو يلوم نفسه بصورة دائمة، وسيسكب دموع الحسرة على ما فرّط في جنب الله عز وجل.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٩-١٤٠.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٠.

ويضيف رسول الله ﷺ: «**وَالرَّابِعَةُ كَثْرَةُ الْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُبْنَى لَكَ بِكُلِّ دَمْعَةٍ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ وَالْخَامِسَةُ بَذْلُ مَالِكَ وَدَمِكَ دُونَ دِينِكَ**»[١].

يجب أن يصل المرء حالةً ترفع عن عقله وناظريه كل الحجب، حتى يكون مستعداً للتضحية بماله ونفسه من أجل دين الله. ثم يقول رسول الله ﷺ: «**وَالسَّادِسَةُ الْأَخْذُ بِسُنَّتِي فِي صَلَاتِي وَصِيَامِي وَصَدَقَتِي**». وفي الخطوة التالية، عليه الوفاء لسنة رسول الله ﷺ وعهده، وأن يواصل الخطى بعزم وإصرار على هذا المسير.

إن الصلاة اليومية التي نؤديها باعتبارها فرضاً واجباً، تحوي مستحبات كثيرة، وقد جاء في كتاب (الألفية والنفلية) للشهيد الأول محمد بن مكي العاملي رضوان الله عليه ألفان من المستحبات الخاصة بالصلاة. ولا شك أن النبي الأكرم ﷺ كان يؤدي هذه المستحبات على أحسن وجه.

وفي سائر فرائض الشريعة المقدسة يمكن ملاحظة الكثير الكثير من المستحبات الخاصة بكل فرض.

وقد كان جدي لأمي المرحوم آية الله العظمى الميرزا مهدي الشيرازي؛ رجلاً مميزاً جداً، وقد كنت على عهده صغير السن، وكان في طريق ذهابه إلى المسجد يتصدق على الفقراء الذين يطلبون منه المساعدة، بل كان في ذلك دقيق الملاحظة، حيث كان يتعمد أن تكون يد الفقير هي العليا أثناء أخذه للصدقة، ذلك لأنه روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَا تَقَعُ صَدَقَةُ الْمُؤْمِنِ فِي يَدِ السَّائِلِ حَتَّى تَقَعَ فِي يَدِ اللَّهِ. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾**»[٢].

فإذا لم تبذل الجهود للالتزام بسنن النبي الأكرم؛ فإن هذه السنن ستذهب طي النسيان شيئاً فشيئاً، وقد أوصى رسول الله ﷺ أخاه أمير المؤمنين عليه السلام أن يعمل ويحفظ سننه المباركة في الصلاة والصيام والصدقة.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٠.

(٢) وسائل الشيعة، ج٦، ص٣٠٣.

بعد ذلك قال رسول الله ﷺ: **«أَمَّا الصَّلَاةُ فَالْخَمْسُونَ رَكْعَةً»**[١].

هناك اختلاف وتفاوت بين الروايات الواردة في عدد ركعات الصلوات اليومية، سواء الواجبة منها أم المستحبة، فبعض الروايات تعتبرها خمسين ركعة، وبعضها الآخر تعدها إحدى وخمسين ركعة. فالروايات التي تعتبرها إحدى وخمسين ركعة تضيف إليها ركعتي الجلوس اللتين تؤديان بعد صلاة العشاء، والمعروفة بصلاة (الوتيرة). ولعل الوجه في إطلاق اسم (الوتيرة) على هذه الصلاة، هو أنها تحل محل صلاة (الوتر) الواردة في نافلة الليل؛ بمعنى أن الإنسان الذي لم يستطع أداء صلاة (الوتر) بسبب النوم -مثلاً- فإن له أن يؤدي صلاة (الوتيرة) بعد فريضة العشاء. ويضيف النبي ﷺ قائلاً: **«وَأَمَّا الصَّوْمُ فَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ فِي كُلِّ شَهْرٍ: خَمِيسٌ فِي أَوَّلِهِ وَأَرْبِعَاءُ فِي وَسَطِهِ وَخَمِيسٌ فِي آخِرِهِ»**[٢].

فصوم ثلاثة أيام من كل شهر هو سنّة رسول الله ﷺ، ليُحسب كل يومٍ منها بعشرة أيام، وهذه الثلاثة أيام لها من الثواب ما لشهر كامل.

ومع إضافة صوم شهر رمضان المبارك يكون المؤمن قد حاز ثواب صيام السنة كلها. وهذه الأيام الثلاثة عبارة عن؛ أول خميس، وآخر خميس، من كل شهر، مع إضافة يوم الأربعاء الواقع في وسط الشهر.

ويقول النبي الأكرم ﷺ أيضاً: **«وَأَمَّا الصَّدَقَةُ فَجُهْدَكَ حَتَّى يُقَالَ أَسْرَفْتَ وَلَمْ تُسْرِفْ»**[٣]. فتصدق ما استطعت، حتى يتصور الناس أنك أسرفت في الإنفاق والتصدّق، ولكن عليك أن لا تسرف في ذلك. نقرأ في القرآن الكريم: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾**[٤]. ثم قال رسول الله ﷺ:

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٩-١٤٠.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٩-١٤٠.
(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٩-١٤٠.
(٤) سورة الفرقان، آية: ٦٧.

«وَعَلَيْكَ بِصَلَاةِ اللَّيْلِ وَعَلَيْكَ بِصَلَاةِ اللَّيْلِ وَعَلَيْكَ بِصَلَاةِ اللَّيْلِ»(١).

أداء المستحبات ينبغي أن يكون على قدر المكنة والاستطاعة، فالمستحب عمل موسع يمكن للفرد الإتيان به حسب قدرته البدنية، ورغبته القلبية. فإذا كان بمستطاعه أن يسبغ الوضوء وينوي صلاة ركعتين، فيقرأ في كل ركعة سورة الحمد، وبعدها سورة طويلة ومفصلة، ويأتي بالركوع والتسبيحات المطولة، فليفعل ذلك. أما إذا لم يكن بوسعه ذلك، فله أن يأتي بركعتين سريعتين بلا سورة بعد فاتحة الكتاب.

ولو لم يتوفر لديه الوقت لأداء ذلك أيضاً، فليتوضأ ويتجه إلى القبلة ويكبّر فقط، ثم ينصرف. وفي طريقه له أن يقرأ ماشياً ويومئ لركوعه وسجوده. وعلى هذا المنوال يصلي في السيارة أو الطيارة جالساً على النحو الممكن دون إحداث خللٍ ما في أدائه للمستحبات.

وأنا شخصياً، أقترح على الإخوة المؤمنين فيما يخص أداء صلاة الليل، فمن لم يحالفه الحظ في الإتيان بهذه الصلاة الجليلة في وقتها المعيّن، أن لا يتركها بشكل كامل، بل عليه أن يرسم -لأدائها- برنامجاً خاصاً، فيصليها في أي وقت شاء من الليل بنية صلاة الليل.

إذن، فأداء كل عمل مستحبٍ منوط بالاستعداد الروحي والحالة النفسية والفرصة المتاحة للمؤمن، وينبغي للإنسان أن يؤدي شيئاً من هذه المستحبات بأية صورة كانت، لكي ينمي في نفسه الميل والرغبة تدريجياً نحو المزيد منها.

تلاوة القرآن

ثم أضاف ﷺ: **«وَعَلَيْكَ بِصَلَاةِ الزَّوَالِ وَعَلَيْكَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»**(٢). وما أسعد المؤمن أن يكون حافظاً للقرآن، لأنه سيكون قادراً في جميع

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٩-١٤٠.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٣٩-١٤٠.

الأحوال والأوقات أن يقرأ كتاب الله المجيد. ويقول ﷺ: «**وَعَلَيْكَ بِرَفْعِ يَدَيْكَ فِي الصَّلَاةِ وَتَقْلِيبِهِمَا**»(١).

من الجيد أن يدعى في قنوت الصلاة بالدعاء القرآني التالي: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾(٢). وقبل التلفظ بكلمة ﴿**حَسَنَةً**﴾ للداعي أن يرفع كفيه نحو السماء، ولدى الوصول إلى عبارة ﴿**وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ أن يوجّه الكفين إلى الأرض. ويضيف النبي الأكرم ﷺ: «**عَلَيْكَ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ**»(٣).

فالذين لا يولون المسائل والتعاليم الصحية فيما يرتبط بسلامة الفم أي اهتمام ويعانون لذلك من تقرّحات ونزف الدم في اللثة، عليهم أن يهتموا بالسواك وتنظيف أفواههم بصورة متواصلة. ويقول ﷺ أيضاً: «**عَلَيْكَ بِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ فَارْكَبْهَا عَلَيْكَ بِمَسَاوِئِ الْأَخْلَاقِ فَاجْتَنِبْهَا فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَلَا تَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَكَ**»(٤).

فمحاسن الأخلاق قد تختلف من منطقة لأخرى، وعلى الإنسان حينما يدخل منطقة جديدة أن يلتزم بمحاسن الأخلاق عند أبناء تلك المنطقة.

فأن نقوم إجلالاً للشخص القادم، يعتبر أمراً مطلوباً، بل ومستحسناً في بعض البلاد الإسلامية، ولكن هذا العمل نفسه قد يكون أمراً مستقبحاً في بلاد أخرى. وعلى ذلك؛ ينبغي الانتباه إلى هذه المفارقة جيداً.

يجب -حسب تعبير المعصومين عليهم السلام- أن نبحث دائماً عن «**بِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ**» فنتمسك بها، وعن «**مَسَاوِئِ الْأَخْلَاقِ**» فنتجنبها.

فهناك بعض الأخلاقيات والآداب والتقاليد تتبدل وتتغير بتغير الزمان،

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٠.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٠١.
(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٠.
(٤) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٠.

ولا شك أن بعض الأمور تُعتبر اليوم مطلوبة ومقبولة، بينما لم تكن كذلك فيما مضى من الأزمان والحقب. ومن الممكن استنباط هذا الأمر من الآية القرآنية الشريفة القائلة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾(١).

فهذه (الزينة) المصرح بها في الآية تمثل قضية عامة وشاملة، وهي تتغيَّر وتتبدل حسب تغيّر الآداب والتقاليد الخاصة بكل جماعة أو شعب. وهذه الكلمة لا تشمل مجرد اللباس والعطر والمظهر، فمن المحتمل -مثلاً- أن يتخذ بعض الناس في بلد معين مناديل معهم إلى المسجد، وفي هذه الحالة ينبغي التقيد بهذه الطريقة وهذا التقليد. وهكذا.

مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة

جاء في حديث شريف عن رسول الله ﷺ يخاطب فيه الإمام علي عليه السلام قائلاً: «**يَا عَلِيُّ ثَلَاثٌ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَتَحْلُمَ عَمَّنْ جَهِلَ عَلَيْكَ**»(٢).

إن مسامحة الآخرين والعفو عن أخطائهم، لا يصدر إلا عن العظماء والكبار؛ الذين لا يجعلون أكبر همهم تسديد طعنات الانتقام لمن أخطأ بحقهم حتى يعزلوهم عن المجتمع. ووجود هذه الروح لدى الإنسان تدفعه إلى عدم الرد بالمثل على من قطع رحمه، وإلى أن يهتم بتحكيم وتكريس جذور الألفة والمحبة بينه وبين الآخرين، سواء كانوا من الأقرباء أو غيرهم.

فإذا تعرض للإساءة من أحدهم، اتخذ الحلم والصبر شعاراً ونبراساً.

ولكي تتحوَّل القيم التي ذكرتها الروايات والأحاديث الشريفة برنامجاً عملياً قابلاً للتنفيذ، لابد من طي مسيرة شاقّة وطويلة.

صحيح أن العفو والصفح من جملة قيمنا ومبادئنا الأصيلة، ولكن ينبغي في

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٣١.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٠.

بعض الأحيان عدم اللجوء إلى العفو، لأنه قد يحمل الإنسان الخاطىء على التجرؤ والتمادي في الخطأ. من هنا لا بد أن نشير إلى أن للقيم حالة وشكلاً هرمياً، ولهذا الهرم قاعدة أساسية تُستنبط وتتفرع منها المصاديق التطبيقية الكثيرة.

إن قاعدة هذه القيم وأساسها؛ هو ما يقربنا إلى الله سبحانه وتعالى وإلى عبادته وطاعته. وهناك إشكال أساسي في البحوث الحقوقية والقانونية، يتمثل في تحديد المعيار الذي لم يوضح في الأنظمة الوضعية في عصرنا الراهن. فالقوانين جميعها شرعت على أساس القيم، ولكن هذه القيم نفسها لم تستند إلى قاعدة محددة.

فحينما نسأل حقوقياً إنجليزياً أو أميركياً أو بلجيكياً: على أي أساس تعتبرون الظلم أمراً قبيحاً؟!.

ولدى الجواب فإن هؤلاء الحقوقيين الوضعيين لهم بحوثهم ومنطلقاتهم المتفاوته. فالبعض منهم يعتبرون العقل أساساً وقاعدةً للقيم، وهناك من يعتبر الوجدان أساساً لها ومنطلقاً.

أما في منطلقنا؛ فنعتبر التوحيد وعبودية الله أساس القيم، فلأننا سلمنا بوجود الله ووحدانيته، فقد أقيمت سائر الأصول الأخرى على أساس هذا التسليم. وفي الواقع، فإن الاعتقاد بالله الواحد هو بمثابة خيط المسبحة الذي يجمع مختلف الأمور إلى بعضها، ويمنع دون وقوع الصراع والتناحر بين القيم.

ومن دون وجود القاعدة الأساسية، فإن القيم المختلفة كالعدالة، والحرية، والأمن، تواجه حالة من التضارب والصراع، وفي هذه الحالة سيصبح من المحال الوصول إلى معيار واحد.

وهذا الموضوع قد نوقش في جميع الكتب الخاصة بفلسفة الحقوق، ولكننا بسبب الإيمان بالله سبحانه وتعالى فإننا في غنىً عن هذه الأبحاث.

وفي الوقت الحاضر -مثلاً- أصبح موضوع الحرية في البلاد الإسلامية

ومستوى ما يمكن منحه للناس موضوعاً ساخناً. فإلى أي مستوى يحق لنا تحديد الحرية العامة؟ بل وما هي حدود الحرية التي لا تتعارض وسائر القيم الأخرى؟.

يبدو أن المعايير -في هذا الإطار- مختلطة ومتضاربة. فهناك من ينطلقون من منطلقات خاصة فيصرون على منح العقل كامل السيادة في بلورة هذا الموضوع، في حين أن العقل ما دام خاضعاً لسلطة النفس، فإنه عقل خامل متأثر. وقد قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ**»[١].

وقال عليه السلام: «**كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ**»[٢].

وقال عليه السلام وهو يتحدث عن الإنسان المنبهر بالدنيا: «**قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ**»[٣]. ولدى الحديث عن أهل الدنيا يقول عليه السلام: «**قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا**»[٤].

إذن، فلا يمكن الاعتماد على العقل وحده في تحديد سلم الأولويات في القيم، لأن العقل مهدّد بالتأثر بالشهوات والوقوع في فخ الأنانيات والذاتيات مما يفقد العقل قدرته الحقيقية على تشخيص الأمور بشكل مستقل ومن دون التأثر بالروح السلبية.

بين العقل والوحي

أما الأوروبيون فلأنهم عزلوا الدين عن ساحة الحياة السياسية، فإنهم واجهوا الكثير من المشاكل، كما تشاهدون. وبشكل مبدئي فليس من الصحيح أن نستغني بالعقل وحده عن كافة النعم التي أنعم الله بها علينا، إذ لو لم يكن العقل مؤيداً من قبل الوحي، ولم يستمد الطاقة منه، لكان العقل قوةً خامدةً غير فاعلة. ومن هذا المنطلق فإن القرآن الكريم يؤكد على دور الأنبياء والرسل:فيقول عز من قائل:

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٢١٩.
(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٢١١.
(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١٠٩
(٤) نهج البلاغة، كتاب رقم: ٣١، وصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لإبنه الإمام الحسن عليه السلام.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1].

فتزكية الإنسان، وتعليمه الكتاب والحكمة، إنما تعتمد على الرسل ورسالاتهم، وليس على العقل المنفصل عن الوحي. فالعقل بمثابة الوقود الذي يبعث الدفء والطاقة في الإنسان شرط أن تصله نار تؤجّجه.

وأنا شخصياً لم أعثر -رغم بحثي الطويل والعميق- على مورد قرآني أو روائي أو فقهي واحد يعطي للعقل البعيد عن الشرع أهميةً أو قيمة تذكر.

وأظن أن لا أحد يستطيع العثور على مصداق واحد لهذه الجملة المعروفة في علم أصول الفقه والقائلة: «كُلُّ ما حَكَمَ بِهِ الْعَقْلُ حَكَمَ بِهِ الشَّرْعُ».

ولهذا؛ فقد تمت الإشارة الصريحة في الآية السالفة الذكر إلى أن الناس كانوا قبل بعثة الأنبياء والرسل في ضلال وانحراف وضياع مبين، ولكن الله عز وجل بلطفه قد أيقظ عقولهم النائمة الخاملة.

ولو كان للعقل دور مستقل عن الشرع في تفسير القيم والمفاهيم، لكان الأوروبيون -مع تطورهم التقني المشهود- قد وصلوا حالة من الاستقرار والانسجام الروحي والنفسي، ولم تكن أمورهم المعنوية والأخلاقية تتجه إلى التدهور المستمر، وحياتهم إلى الخلل والخواء، في حين أن الأمر ليس كذلك.

كنت مسافراً ذات مرة إلى إحدى الدول الأجنبية، وحينما ارتقينا مصعد إحدى ناطحات السحاب التي كانت تتألف من مئة وعشرين طابقاً، حيث وصلنا إلى الطبقة المئة بسرعة قصوى، ولشدة سرعة حركة المصعد كادت آذاننا تصاب بالصمم، وقد كانت الطوابق العشرون العليا من البناية تقطن فوق السحاب.

ولكن هذه البناية العملاقة، وبالرغم من كل ما حوته من تقدم علمي وتطور

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٤.

معماري، لم تكن إلا مصداقاً لبيت غير آمن قائم على جرف هارٍ، كما يقول القرآن الكريم: ﴿**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[1].

على الأقل لا ينبغي لنا الشك بهذا البعد من القضية؛ وهو أن ارتفاع هذا النوع من الأبنية إنما يتم على حساب سعادة الناس وتمتعهم بالحياة، حيث لا تكون النتيجة سوى الضياع والمأساة. إن القوى المتغطرسة في العالم تلقي أفتك القنابل على رؤوس الشعوب البريئة التي تذهب ضحية الطغيان والجبروت ولا يكلف رئيس أكبر دولة في العالم نفسه عناء الاهتمام بهذا الأمر أو متابعة وملاحقة هذه الجرائم.

إن العقل الذي يسير في طريق دمار البشرية، هو ذلك العقل الخامد الذي لم تتم تزكيته بواسطة الوحي.

وفي الوقت الحاضر هناك من المواد المتفجرة في عالم اليوم ما تستطيع إبادة البشرية لعشرات المرات، وهذا الأمر بحد ذاته يحكي نوع الاستفادة غير المنطقية من العقل، كما يحكي ضياع مفهوم «**رَأْسُ الْحِكْمَةِ..**» التي هي مخافةُ اللَّه عزَّ وجلَّ.

ولو انقطع العقل عن الارتباط بالوحي، فلن يبقى للأفعال الخيرة التي يقوم الناس بها أي تأثير على سعادتهم.

وتلك قصة وتجربة مسجد ضرار تشير إلى أن مجرد بناء المساجد أو الاهتمام بظواهر الأعمال غير كافٍ أبداً، بل ينبغي أن تكون بواطن الأعمال صالحةً.

مكارم الأخلاق العشر

جاء في كتاب (الخصال) عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «**الْمَكَارِمُ عَشْرٌ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ فِيكَ فَلْتَكُنْ، فَإِنَّهَا تَكُونُ فِي الرَّجُلِ، وَلَا تَكُونُ فِي**

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٠٩.

وَلَدِهِ، وَتَكُونُ فِي وَلَدِهِ، وَلَا تَكُونُ فِي أَبِيهِ، وَتَكُونُ فِي الْعَبْدِ، وَلَا تَكُونُ فِي الْحُرِّ»[١].

فكل شخص عليه أن يتكىء ويعتمد على مواهبه الشخصية في طريق التحلي بالمكارم الأخلاقية الطيبة. فالإنسان لا يُثاب بأفعال الخير الصادرة من أبيه أو ولده، كما لا يُعاقب على ما ارتكبه الآخرون من سيئات، بل أعمال الإنسان نفسه وأخلاقه الشخصية هي التي تشيِّع الإنسان بعد موته وتدخل معه القبر.

فحينما تحمل الجنازة لغرض التشييع باتجاه المقبرة، فإنه يجب أن لا تظن بأن الناس المشاركين في مراسم التشييع وحمل الجثمان، هم وحدهم الحاضرون، بل إن الملائكة أيضاً تشارك في هذا الأمر. فملائكة الرحمة وملائكة العذاب يحضرون هذه المراسم، وهم بانتظار تحديد مصير هذا الإنسان المحمول على الأكتاف إذا كان من أصحاب اليمين أو أصحاب الشمال. بل إن روح الشخص المتوفى تشارك في تشييع جسده أيضاً، وكذلك تشترك في هذه المراسم أعماله الصالحة أو الطالحة التي مارسها طيلة أيام حياته.

بلى؛ إن من الممكن أن يكون الإنسان المتوفى صاحب بيتٍ جميل أو سيارة فارهة، أو لعله كان يحظى باحترام من الناس جميعاً، ولكنه سيجبر في نهاية المطاف على ترك كل الإمكانات، وأن يبقى مع قرينه الوحيد، وهو عمله.

إن الإنسان لا يسمح لنفسه بأن يرتدي ثيابه النظيفة والجميلة حينما يكون بدنه متسخاً وملَّوثاً. وعلى هذا؛ فإذا كان الإنسان يولي نظافة بدنه الأهمية اللازمة، ولكنه لا يعي ضرورة تطهير روحه وتزكية نفسه، فإنه سيكون هدفاً للّوم والتقريع دون شك. ثم يضيف عليه السلام مبيّناً مكارم الأخلاق العشرة: **«صِدْقُ النَّاسِ وَصِدْقُ اللِّسَانِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَإِقْرَاءُ الضَّيْفِ وَإِطْعَامُ السَّائِلِ وَالْمُكَافَأَةُ عَلَى الصَّنَائِعِ وَالتَّذَمُّمُ لِلْجَارِ، وَالتَّذَمُّمُ لِلصَّاحِبِ وَرَأْسُهُنَّ الْحَيَاءُ»**[٢].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤١-١٤٠.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٠-١٤١.

إن من القضايا التي يجب على الإنسان الاهتمام بها، هي الصدق والاستقامة في مواطن الشدة، والعزم على التحدي في مواجهة المشاكل، وإذا ائتمن كان بصدد حفظ وتحمل مسؤولية الأمانة وردها،وكذلك صلة الرحم يجب أن تكون موضع اهتمام بالغ في حياة الإنسان المؤمن، ولا شك أن هذه الخصلة لا تتمثل في الإنفاق المالي فحسب، فتارة تأخذ صلة الأرحام شكلاً عاطفياً يتوقعه الآخرون أكثر من المساعدة المالية.

والإنسان ينبغي أن يكون مضيافاً ومحباً للضيف، ولا يكون المرء كذلك إلا إذا كان يتمتع بدرجة عالية من روح الإيثار وحب الآخرين.

ثم على الإنسان أن يطعم الجوعى والمساكين، لأن من ميزات الإنسان كمخلوق كريم أنه يهتم بالآخرين ولا يحصر تفكيره في نفسه فقط، وإذا ما قدم الآخرون خدمة وصنيعة للإنسان فإن الأخلاق الفاضلة تفرض عليه رد الجميل ومكافأة من يقدمون له أية خدمة.

أهمية الصدق

كما ينبغي أن يتعود لسان الإنسان المؤمن على الصدق، وأن لا يلهج بالكذب.

جاء في سيرة آية الله العظمى السيد حسين القمي ﺗﺘﺘﺘ الذي كان من الفقهاء العظام والمجاهدين في التأريخ الشيعي الحديث، أنه حينما كان يُسأل عن الوقت والساعة، كان يجيب بصورة دقيقة جداً، ليمنع لسانه عن ممارسة الكذب حتى ولو كان يبدو بسيطاً عديم الضرر.

وهذا الاحتياط في الإجابة حتى فيما يخص الوقت مثلاً، حيث يتسامح معظم الناس في تحديد الوقت لبعضهم البعض، يشير إلى وجود روح عظيمة لدى الإنسان المؤمن.

ومن مكارم الأخلاق «**التَّذَمُّمُ لِلْجَارِ، وَالتَّذَمُّمُ لِلصَّاحِبِ**»؛ أي أن يكون

الإنسان ملاذاً يلجأ إليه الجيران والأصدقاء في الحالات العصبية، وفي أوقات الشدة. ثم يفترض في الإنسان المؤمن أن يكون من أهل الحياء، فيحترم الآخرين ويعتبر لهم حرمةً وحدوداً لا يتجاوزها بحال من الأحوال.

فبين الحياء والصدق هناك علاقة خاصة، فإذا قصدك إنسان، واعتمد عليك، وأعلن لك أنه يقبل قولك، فليس من الصحيح أن تخون هذا الاعتماد، وتواجهه بالكذب والتزوير.

ولا يقصد من هذا إلا إيجاد دافعٍ لملازمة الصدق من جانبنا. وهذا يشير إلى وجود جذور ضاربة للصدق في أرض الحياء الطيبة.

5

حقيقة الإسلام

روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام؛ أنه قال: «**لَأَنْسُبَنَّ الْإِسْلَامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْهُ أَحَدٌ قَبْلِي، وَلَا يَنْسُبُهُ أَحَدٌ بَعْدِي، إِلَّا بِمِثْلِ ذَلِكَ: إِنَّ الْإِسْلَامَ؛ هُوَ: التَّسْلِيمُ، وَالتَّسْلِيمَ، هُوَ الْيَقِينُ، وَالْيَقِينَ هُوَ التَّصْدِيقُ، وَالتَّصْدِيقَ هُوَ الْإِقْرَارُ، وَالْإِقْرَارَ هُوَ الْعَمَلُ، وَالْعَمَلَ هُوَ الْأَدَاءُ. إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَمْ يَأْخُذْ دِينَهُ عَنْ رَأْيِهِ، وَلَكِنْ أَتَاهُ مِنْ رَبِّهِ فَأَخَذَ بِهِ**»[1].

كيف يكون الإنسان مسلماً؟.

تقول الرواية: بـ«**التَّسْلِيم**»، فالتسليم لأوامر الله، والرضوخ المطلق لمناهجه في الحياة هو الإسلام، ولكن التسليم لا يتحقق إلا إذا كان الإنسان على يقين من معتقداته؛ على يقين بحاكمية الله المطلقة في الكون، وبسيادته اللامحدودة في التكوين والتشريع.

ولكن كيف يعرف الإنسان أنه على يقين؟.

يعرف ذلك من خلال تصديقه لكل ما نزل إليه من الله عز وجل عبر كتبه ورسالاته، فالذي يجادل في الله وفي تعاليمه لا يكون مصدِّقاً، وبالتالي لا يتمتع باليقين.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤٠-١٤١.

وإذا كان التصديق أمراً قلبياً ووجدانياً فإن الإقرار والإعلان عنه على الملأ ضروري لتأكيده، ولكن لا يعني ذلك مجرد الإقرار باللسان، بل الإقرار العملي. فالعمل هو الأساس والمعيار في مدى صدق الإنسان فيما يعلنه.

أما المرحلة الأخيرة لتأكيد إسلام الإنسان هو «**الْأَدَاءُ**» كما تشير الرواية، والأداء يعني إعطاء العمل حقه، والقيام به بشكل كامل وصحيح.

فهناك بعض الناس يؤدون أعمالهم بصورة ناقصة، فحينما يلتحقون بصفوف صلاة الجمعة مثلاً، تراهم لا يلتحقون بها منذ بدايتها، بل يتكاسلون حتى تتم الخطبتان، ويكبر الإمام تكبيرة الإحرام،بل وحتى يقرأ السورتين، فيلتحقون بالصلاة والإمام في الركوع. أو أنهم لا يحضرون المجالس الثقافية والدينية إلا حينما يوشك الخطيب على الانتهاء. إن المطلوب أن يؤدي الإنسان ما ينوي تنفيذه من أعمال بتأنٍ واهتمام.

ثم إن المؤمن لا يتعامل مع دينه وما يفترض له من سلوك شرعي حسب رأيه الشخصي أو ما يمليه عليه هواه. فهو لا يجعل دينه عرضةً للمد والجزر المصلحيين أو العاطفيين، وقد جاء في الرواية السالفة عن الإمام علي عليه السلام، أنه قال: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَمْ يَأْخُذْ دِينَهُ عَنْ رَأْيِهِ وَلَكِنْ أَتَاهُ مِنْ رَبِّهِ فَأَخَذَ بِهِ**»[1].

الإسلام.. والحياء

ثم نقرأ في حديث نبوي شريف رواه الإمام الصادق عليه السلام عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**الْإِسْلَامُ عُرْيَانٌ فَلِبَاسُهُ الْحَيَاءُ وَزِينَتُهُ الْوَفَاءُ**[2]**، وَمُرُوءَتُهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَعِمَادُهُ الْوَرَعُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ أَسَاسٌ، وَأَسَاسُ الْإِسْلَامِ حُبُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ**»[3].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤١.

(٢) وفي رواية أخرى: «وَزِينَتُهُ الْوَقَارُ».

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤١.

هناك من الناس من يعتقد بأنه قد أتقن الإسلام وأحرز الإيمان بمجرد التفوه بكلمة التوحيد، وإعلان الشهادتين، في حين أن هذه الشهادة وهذا التفوه لا يمثل سوى المرحلة الأولى في مسير طويل شاق لتحقيق الإسلام.

وطبقاً للحديث المذكور، فإن من اللازم أن يُكسى بدن الإسلام العاري، ولعل اللباس الأنسب في هذا الخصوص، والذي ذكره القرآن الكريم، هو التقوى، حيث شبهت باللباس إذ قال تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾(١).

والرواية السابقة، أشارت إلى أن الحياء هو لباس الإسلام، لأن الحياء يحفظ الإنسان والإسلام مما يعرض لهما، كما يحد ويمنع من إعلان بعض الرغبات والميول السيئة الكامنة في طيات النفس.

فتارةً يرغب الفرد بالتحدث بالكلام الفاحش، ولكن الحياء يمنعه، وفي هذه الحالة يجب أن يشكر الله سبحانه وتعالى على وجود هذه الصفة الرادعة كل الشكر.

ثم بعد ذلك جاء الحديث عن زينة الإسلام، فما هي زينة الإسلام؟، وماذا يجب أن نفعل ليكون إسلامنا ذا مظهر لائق وجيد وجذاب؟.

قال رسول الله ﷺ: «**وَزِينَتُهُ الْوَفَاءُ**».

لماذا؟، لأن الفرد الوفي للناس يكون محبوباً بينهم.

وفي نسخة أخرى لهذه الرواية، نقل عن النبي ﷺ أنه قال: «**وَزِينَتُهُ الْوَقَارُ**» ولا يخفى أن للوقار دور كبير في أن لا يأخذ سلوكنا طابع الاعتداء والظلم، كما أنه مرحلة من مراحل الحياة المتطورة والمتمدنة.

وفي هذا الإطار ينقل أن المرحوم الميرزا الشيرازي الكبير رحمه الله كان إنساناً ذا وقار عظيم، حتى أنه كان في جلسته الخاصة بينه وبين نفسه متطبعاً بالوقار والهيبة.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٦.

وفي أحد أيام كهولته دخل عليه بعض أصحابه، فرآه جالساً وقد جمع ركبتيه باحترام، فسأله: لماذا تحمّل نفسك هذا العناء، فهل هناك من أحد يجلس معك في الغرفة حتى تضطر إلى إبداء هذا الوقار والاحترام؟.

فأجابه الميرزا الشيرازي قائلاً: أو لستُ أنا شخصاً؟!.

لقد سبق الأئمة عليهم السلام الناس جميعاً بالاتصاف بصفات الخير.. فلم يكونوا ليمدوا بأرجلهم -مثلاً- أمام جلسائهم أبداً، وكذلك لم يكونوا من المرحين في الأرض مطلقاً.. حينما تتعاظم الروح وتكبر، فإن المرء يتصرف وفق ما تقتضيه عظمة روحه. أما الشخص الحقير، فلا تصدر منه إلا التصرفات التافهة، وإن تعمد التظاهر بالشموخ وتقمص الشخصية الوقورة، فسلوكه يبقى سلوك إنسان تافه!!.

ثم يتحدث النبي صلى الله عليه وآله عن موضوع المروءة التي هي عبارة عن اتصاف الإنسان بصفات الرجولة والفتوة والمضادة للؤم والسخف، فيقول: «**وَمُرُوءَتُهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ**»(١). فالواقع يشير إلى أن الإكثار من العمل الصالح يضاعف من نسبة الرجولة لدى الإنسان.

عمود خيمة الدين

من الخصال التي يقوم عليها الدين -حسب ما يشير إليه الحديث المذكور- هو الورع الذي يمثل عمود خيمة الدين، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**وَعِمَادُهُ الْوَرَعُ**»(٢). هناك قاعدة مشابهة في مجال المواد الغذائية؛ فبعض المواد الغذائية تحتوي البروتين والفيتامين والقيمة الغذائية المهمة، في حين أن بعض الأغذية لا دور لها إلا ملء المعدة وسد الجوع، ومن الطبيعي أن يكون للغذاء الحاوي للفيتامينات قيمة وأولوية .

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤١.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤١.

فمن بين خصائص الخصال الخيرة، هناك ما اعتبر عموداً للدين، وهو الورع والتقوى، فالإنسان العاري عن الورع يعاني ضعف الروح، وينتهي إلى المهالك قطعاً.

ويمكن القول: إن الفرق بين التقوى والورع هو: أن الورع يأتي دوره في موارد اجتناب المعاصي فقط، بينما التقوى تشمل حالة الامتناع عن ارتكاب الذنوب، والإقبال على ممارسة الأعمال الصالحة.

أساس الإسلام

إن الذي يمثل أساس الإسلام -طبقاً لهذه الرواية التي نحن بصدد الحديث عن أبعادها-، هو حب أهل البيت عليهم السلام، حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**وَلِكُلِّ شَيْءٍ أَسَاسٌ وَأَسَاسُ الْإِسْلَامِ حُبُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ**»[١].

ونقرأ في حديث آخر يرويه الإمام الجواد عليه السلام عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله في وصف خصائص الدين، حيث شبهه بالنور، قائلاً: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْإِسْلَامَ فَجَعَلَ لَهُ عَرْصَةً وَجَعَلَ لَهُ نُوراً وَجَعَلَ لَهُ حِصْناً وَجَعَلَ لَهُ نَاصِراً فَأَمَّا عَرْصَتُهُ فَالْقُرْآنُ وَأَمَّا نُورُهُ فَالْحِكْمَةُ وَأَمَّا حِصْنُهُ فَالْمَعْرُوفُ وَأَمَّا أَنْصَارُهُ فَأَنَا وَأَهْلُ بَيْتِي وَشِيعَتُنَا**»[٢].

إن الاستفادة من الماديات في بحث القضايا المعنوية ليس لاعتبار الماديات أساساً، بل هي لمجرد تقريب الفكرة أو المقولة إلى الأذهان.

فتارة يشبه الإسلام بشخص، ويتوقع أن يكون له لباس وزينة ووقار وأمثال ذلك، وفي تارة أخرى يشبه بأرض جرداء جافة، ينبغي أن تحرث وتزرع وتسقى.

وفي الرواية المذكورة عن رسول الله صلى الله عليه وآله اعتبر القرآن الكريم أساساً لجميع المبادئ والقيم الأخلاقية النزيهة والإلهية، إذ قال: «**فَأَمَّا عَرْصَتُهُ فَالْقُرْآنُ وَأَمَّا نُورُهُ**

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤١.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤١-١٤٢.

فَالْحِكْمَةُ». ولبلوغ أصل أي شيء ينبغي الرجوع إلى المختصين به، حتى لا يواجه الإنسان بجواب خاطىء. فالإنسان المزوَّد بالمعايير والقيم باستطاعته تقييم الأشياء بصورة دقيقة، وإعادة كل مسألة إلى جذرها، وإذا حاز الإنسان على هذه القدرة، نال الحكمة والبصيرة.

وللوصول إلى الحكمة؛ لابد من تحمل المشاق، حيث ينبغي أن يكون الذهن في حالة من التدريب الدائم؛ بمعنى إطالة النظر والتفكير والإمعان والعثور على سر العلاقة بين المسائل والنفوذ إلى عمقها وكنهها..

إن ذاكرة الإنسان الشاب تمتاز بالحدة والقوة غالباً، وكلما تقدم به العمر قويت قابليته على ربط القضايا والأفكار ببعضها ثم الاستنتاج. ومن هنا؛ نلاحظ أن كبار السنّ يمتازون بأصالة الرأي وثباته بصورة أكبر وأشمل.

فكبار السن قد يجهلون مبادىء وقواعد الوصول إلى النتائج أحياناً، إلا أن أذهانهم تعمل بشكل تلقائي في مجال التوصل إلى النتائج المطلوبة في الغالب، وحينما تسأل أحدهم عن الدليل، فإنه لا يستطيع سرد الدليل المطلوب، ولكنه يشعر شعوراً يمكن أن نطلق عليه اسم الشعور الغريزي بأن إقامة علاقة صداقة أو شراكة عمل مع الشخص الفلاني -مثلاً- غير محمودة العواقب، أو ليست محققة للمصلحة.

المعروف حصن الدين

ثم يضيف رسول الله ﷺ القول: «وَأَمَّا حِصْنُهُ فَالْمَعْرُوفُ»[1].

تعلمون أن الأرض أو البناء بحاجة إلى جدار وسور يحفظانه من دخول من لا ينبغي، والدين أيضاً ليس في غنىً عن هذه الحاجة، ولكن لماذا أصبح المعروف حصناً للدين والقيم السماوية؟!.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٤١-١٤٢.

وللإجابة عن ذلك، يمكن القول: كلما ساعد الإنسان الناس، كلما حظي بمزيد احترامهم له وامتناعهم عن كيل الأذى له.

ثم تشير الرواية الكريمة إلى أن ناصري دين الله سبحانه وتعالى هم النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وأتباعهم، حيث قال رسول الله ﷺ: «**وَأَمَّا أَنْصَارُهُ فَأَنَا وَأَهْلُ بَيْتِي وَشِيعَتُنَا**».

من هنا يجب على شيعة النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، أن يكونوا حصناً منيعاً للدين. فإذا أحسوا أن الدين أصبح عرضة لهجوم الأشرار، واحتملوا تحقيق الانتصار عليهم، هبوا للدفاع عنه، بعد أن وفروا في أنفسهم الاستعداد النفسي والروحي لذلك. إن التحدي والمواجهة في مثل هذه المواطن لا يُعتبر نقطة ضعف في الإنسان، بل هي قمة الفضيلة ومن مكارم الأخلاق.

6

المؤمن بين الخوف والرجاء

في اللحظات الحساسة في الحياة، إذا كان الإنسان يعي أن أقوى قوة يمكن الاعتماد عليها والتوسل بها، هي الله عز وجل، فإنه يستطيع تجاوز المشاكل بكل سهولة.

يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**أَيُّمَا عَبْدٍ أَقْبَلَ قِبَلَ مَا يُحِبُّ اللَّـهُ عَزَّ وَجَلَّ أَقْبَلَ اللَّـهُ قِبَلَ مَا يُحِبُّ وَمَنِ اعْتَصَمَ بِاللهِ عَصَمَهُ اللَّـهُ وَمَنْ أَقْبَلَ اللَّـهُ قِبَلَهُ وَعَصَمَهُ لَمْ يُبَالِ لَوْ سَقَطَتِ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ كَانَتْ نَازِلَةٌ نَزَلَتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَشَمِلَتْهُمْ بَلِيَّةٌ كَانَ فِي حِزْبِ اللَّـهِ بِالتَّقْوَى مِنْ كُلِّ بَلِيَّةٍ أَ لَيْسَ اللَّـهُ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾**[1]»[2].

فالإنسان المؤمن ينبغي أن يكون على يقين بأن البلاء إذا نزل على جميع سكان الأرض، فإن الله سبحانه وتعالى سيصونه وإخوانه المؤمنين ويحفظهم، لأن الله قد وعد المتقين محلاً آمناً، وهذا الأمان هو لهم في الدنيا والآخرة.

ولابد أنكم سمعتم نبأ سقوط طائرة أو اصطدام حافلة أو غرق سفينة من

---

(١) سورة الدخان، آية: ٥١.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٦٥.

جهة، ونجاة راكب واحد دون سائر الركاب من جهة أخرى.

وهذا ما يشير إلى إمكانية أن يكون المرء في صلب الواقعة، فينجو منها دون الآخرين، مهما كانت خطورة هذه الواقعة. فإذا أصلحنا علاقتنا بالله العزيز الحكيم، سخر الله لنا الدنيا بأسرها وجعلها رهينة إرادتنا وطوع أيدينا.

والاعتصام بالله تعالى، الذي أشارت إليه الرواية، هو عبارة عن حالة معنوية يرتقي إليها الإنسان بحيث لا يرجو ولا يطلب شيئاً إلا من الله وحده لا شريك له.

فعلى الإنسان أن يبلغ مستوىً عالياً من صفاء القلب، وهجر اللؤم والأنانية، حتى تتوفر فيه إمكانية الاعتصام بحبل الله المتين. فالإنسان النقي القلب، وإن كان مذنباً، إلا أنه يبقى قادراً على كسب رضا خالقه، ولكنه إذا كان مذنباً ولئيماً ومتكبراً في نفس الوقت، فإن العاقبة السيئة ستكون بانتظاره. فهو إذا عمل عملاً صالحاً،واعتمد على عمله هذا من دون الله تعالى وفضله ورحمته وكرمه، فإنه لن يصل إلى خير أبداً.

وعن مدى تأثير الاعتصام بالله عز وجل في حياة الإنسان نقرأ في حديث مروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**أَوْحَى اللَّـهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى دَاوُدَ: مَا اعْتَصَمَ بِي عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي دُونَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِي عَرَفْتُ ذَلِكَ مِنْ نِيَّتِهِ ثُمَّ يَكِيدُهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ إِلَّا جَعَلْتُ لَهُ الْمَخْرَجَ مِنْ بَيْنِهِنَّ وَمَا اعْتَصَمَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِي عَرَفْتُ ذَلِكَ مِنْ نِيَّتِهِ إِلَّا قَطَعْتُ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ مِنْ يَدَيْهِ وَأَسَخْتُ الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهِ وَلَمْ أُبَالِ بِأَيِّ وَادٍ يَهْلِكُ**»[١].

بين الخوف والرجاء

تحت عنوان (وجوب الجمع بين الخوف والرجاء) يذكر الشيخ الحر العاملي رحمه الله مجموعة من الأحاديث الشريفة، ولكن قبل أن نتلو بعض هذه

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٦٥.

الأحاديث لابدأن نشير باقتضاب إلى طبيعة العناوين التي يختارها صاحب موسوعة (**وسائل الشيعة**) لفصول وأبواب هذا الكتاب الجليل.

الملاحظ أن المؤلف رحمه الله يستخدم في عناوين فصول جهاد النفس كلمات: الاستحباب والوجوب، مثلاً: حول الصبر يقول: (استحباب الصبر في جميع الأمور)، وحول اتباع العقل يقول:(وجوب اتباع العقل).

فماذا يعني الاستحباب والوجوب هنا؟.

لاشك؛ ليس المقصود هو الاستحباب والوجوب بالمعنى الإصطلاحي الفقهي، إذ أننا نلاحظ أن الصبر قد يكون واجباً أحياناً، كما هو الحال عند نزول مصيبة، أو في مواجهة المعصية، أو في القتال والجهاد في سبيل الله. وفي مسألة اتباع العقل، قد يحكم العقل بضرر شيء للإنسان وضرورة اجتنابه ولكن لا يكون الضرر إلى حد الحرمة، فلا يكون هنا اتباع العقل واجباً بالمعنى الفقهي.. وهكذا.

إذن فالمراد بالاستحباب والوجوب في مثل هذه العناوين ليس المعنى الاصطلاحي المتداول في الفقه، بل إن المطلوب هو بيان مدى أهمية القيمة التي تعرضها الروايات في موضوع معين، خاصة تلك الروايات التي هي بصدد بيان القيم الكلية بشكل عام وليس بشكل تطبيقي ومصداقي.

من هنا، فإن عنوان (وجوب الجمع بين الخوف والرجاء) لا يعني الوجوب الاصطلاحي الفقهي. فإذا كان الإنسان يرجو أن يغفر الله له ذنوبه إذا ما سهر الليل وقضاه بالصلاة والعبادة والإستغفار، وكان يخاف -في الوقت ذاته- أن يخطفه الموت إذا نام ليله وتبقى ذنوبه دون غفران، فإنه لا يجب عليه شرعاً أن يظل طوال الليل ساهراً متعبِّداً، بل هذه الحالة هي قيمة مطلوبة ينبغي للإنسان إذا رغب أن يتجه لتطبيقها في حياته. وحول موضوع الخوف والرجاء نقرأ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام فيما يخص وصية لقمان الحكيم عليه السلام لابنه: «**كَانَ فِيهَا الْأَعَاجِيبُ وَكَانَ أَعْجَبَ مَا كَانَ فِيهَا أَنْ قَالَ لِابْنِهِ: خَفِ اللَّـهَ خِيفَةً لَوْ جِئْتَهُ بِبِرِّ الثَّقَلَيْنِ لَعَذَّبَكَ**

وَارْجُ اللَّـهَ رَجَاءً لَوْ جِئْتَهُ بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَرَحِمَكَ»[١].

على الإنسان أن يخاف ربه بشكل يهتز له إذا راجع صحيفة ذنوبه، من فرط استيلاء الخوف عليه؛ وأن يأمل حسن العاقبة ويرجو رحمة ربه إذا نظر إلى رحمة الله عز وجل ولطفه بعباده.

ويصادف أن يوسوس الشيطان في نفسي حينما أقوم لدعاء ربي وعرض حاجتي عليه، حيث يجعلني أشكك في مدى صلاحيتي لدعاء ربي ومناجاته والطلب منه. وفي هذه الأثناء يقع نظري على شجرة في مقابلي وقد حملت ما حملت من الثمار، فأعود لنفسي قائلاً: إن الله تعالى الذي تكرم على هذه الشجرة بكل هذه النعم، فلماذا لا يتكرم عليّ أنا أيضاً؟ فإذا قمت بإحصاء النعم الإلهية التي تتمتع بها هذه الشجرة، وجدتها تفوق آلاف النعم، فكل ورقة من أوراقها تحمل الأنواع من اللطافة والروعة والفن.. وكل خلية من خلاياها تعتبر شجرة لوحدها، وهي قابلة للنمو واستيعاب النعم الجديدة، فإذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا أقنط من رحمة الله تبارك وتعالى؟!.

الحدّ بين الخوف والرجاء

ثم يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: **«كَانَ أَبِي يَقُولُ: لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نُورَانِ: نُورُ خِيفَةٍ وَنُورُ رَجَاءٍ لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا وَلَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا»**[٢].

وأنا أعتقد بأن هذه العبارة ينبغي أن تكون منهجاً لحياة المؤمنين، فإذا استطاع الإنسان أن يوازن في نفسه حقيقتي الخوف والرجاء، فإنه يكون قد خطا خطوة رئيسية في طريق السمو والنقاء.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٦٩.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٦٩.

ويجب على الخطباء أن لا يحملوا الناس على اليأس خلال خطبهم ومجالسهم، وفي مقابل ذلك، يجب أن لا يتحدثوا إلى الناس عن الجنة بشكل يملأ نفوسهم غروراً.

وأتذكر ذات مرة أن أحد الخطباء قال في خطابه متحدثاً إلى الحاضرين: إنكم الآن في الجنة، ويجب أن تعلموا بأن الجنة من نصيبكم قطعاً!.

ولكن للأسف؛ لم يضف هذا الخطيب إلى كلامه هذه العبارة: انتبهوا لئلا تطردوا من الجنة ببعض أعمالكم!.

وبين أيدينا رواية عن حمزة بن حمران، حيث سمع الإمام الصادق عليه السلام يقول: «-إِنَّ مِمَّا حُفِظَ مِنْ خُطَبِ- رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ: **أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ لَكُمْ مَعَالِمَ فَانْتَهُوا إِلَى مَعَالِمِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى نِهَايَتِكُمْ، أَلَا إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَعْمَلُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ، بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا اللَّـهُ صَانِعٌ فِيهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي مَا اللَّـهُ قَاضٍ فِيهِ، فَلْيَأْخُذِ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ وَفِي الشَّبِيبَةِ قَبْلَ الْكِبَرِ وَفِي الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَمَاتِ، فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ مُسْتَعْتَبٍ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ دَارٍ إِلَّا الْجَنَّةَ أَوِ النَّارَ**»[1].

إن الروايات المشابهة لهذه الرواية التي ينقلها الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله من شأنها إيجاد تحول روحي عميق لدى الإنسان. فعلى الإنسان أن يستغل كل لحظات عمره، وأن يتزوّد منها لآخرته، فالشباب ينتهي، والصحة تضمحل، والحياة بشكل عام تصير إلى الفناء والموت، وعلى المؤمن أن يكون -دائماً- بين خوفين: فهو لا يدري -من جهة- هل ما سلكه من طريق حتى الآن،هو الطريق الصحيح والمطلوب أم لا؟. وهل تقبَّل الله أعماله وحسناته السالفة أم لا؟. وهو -من جهة أخرى- لايعرف كم سيعيش، وماذا سوف يعمل في مستقبل أيامه، وهل سيحضى برضى الله عز وجل أم سيبوء بسخطه؟.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٧١-١٧٢.

وهناك رواية أخرى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام يقول فيها: «**الْمُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ: ذَنْبٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا صَنَعَ اللَّـهُ فِيهِ وَعُمُرٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي مَا يَكْتَسِبُ فِيهِ مِنَ الْمَهَالِكِ فَلَا يُصْبِحُ إِلَّا خَائِفاً وَلَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْخَوْفُ**»[1].

وهذا الخوف والخشية له آفاق مباركة ميمونة تؤدي إلى إصلاح النفس وتربيتها. فالنفس البشرية تمتاز بحالة طغيان وتجبّر بشكل طبيعي، فإذا لم تتأدب هذه النفس، ينبغي أن تضبط بالخوف، وإن لم يكن ذلك، فإنها ستخرج من عنانها، وستسقط في الهاوية.

البكاء من خشية الله

ويتجلى خوف المؤمن حينما يذرف دموعه من خشية الله، ومن خوف المصير. وفيما يخص البكاء من خشية الله، روى الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله -في حديث المناهي-، أنه قال: «**وَمَنْ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّـهِ كَانَ لَهُ بِكُلِّ قَطْرَةٍ قَطَرَتْ مِنْ دُمُوعِهِ قَصْرٌ فِي الْجَنَّةِ مُكَلَّلٌ بِالدُّرِّ وَالْجَوْهَرِ فِيهِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[2].

ومن قبيل هذه الروايات يستفاد ضرورة أن تكون عين الإنسان عيناً باكية، وإن لم يكن ذلك، فليتباك وليتظاهر بالبكاء من خشية الله. إن من مؤشرات قساوة القلب هو جفاف دمعة الإنسان!.

وزن الدموع

وحول دور البكاء والدموع التي تُذرف من خشية الله تعالى، يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَلَهُ كَيْلٌ وَوَزْنٌ إِلَّا الدُّمُوعَ فَإِنَّ الْقَطْرَةَ تُطْفِئُ بِحَاراً مِنْ نَارٍ فَإِذَا اغْرَوْرَقَتِ الْعَيْنُ بِمَائِهَا لَمْ يَرْهَقْ وَجْهَهُ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ فَإِذَا فَاضَتْ**

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٧٢.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٧٥.

حَرَّمَهَا اللَّـهُ عَلَى النَّارِ وَلَوْ أَنَّ بَاكِياً بَكَى فِي أُمَّةٍ لَرُحِمُوا»(١).

فقد يمكن تشبيه قطرة الدمع بشكل من الأشكال، بالقنبلة الذرية ذات المظهر الهادئ الصامت، ولكنها إذا ألقيت على مدينة من المدن، حولت كل شيءٍ فيها إلى رماد في أقل من ثانية واحدة.

وتارة يوصي الطبيب مريضه بتناول أقراصٍ صغيرة للغاية، مما يثير تعجب المريض تجاه قدرة هذه الأقراص رغم حجمها الصغير.

والقضية هي القضية على الصعيد المعنوي، فالله سبحانه وتعالى قد خصّ قطرات الدمع التي يهملها الإنسان التائب المنكسر القلب في منتصف الليل، بأن جعلها وسيلة مؤثرة جداً في إطفاء نيران العذاب الأخروي، ولدرء العذاب الإلهي عن وجهه.

فالله عز وجل قد يرحم أمة بأسرها من أجل قطرة دمع تسيل من عين الإنسان الخائف منه.

وإزاء ذلك، لا يصح أبداً التفريط بفرصة البكاء وإيكال الاستفادة منها إلى يوم غدٍ أو بعده، فإن لم نقدم على غسل ذنوبنا وغفلاتنا، فقد لا تسنح الفرصة لنا مرة أخرى طيلة أعمارنا، والعياذ بالله .

ثقافة التبرير

وغالباً ما يهتم الإنسان بالبحث عن الأعذار والتبريرات قبل أو بعد ارتكابه للذنب، ولكن هذه الأعذار والتبريرات لا تجديه نفعاً في الآخرة.

وإنه لمن المستحب والمطلوب للإنسان أن يُخضع نفسه للّوم والمساءَلة بصورة مدروسة ومتواصلة، وأن يمتنع عن مدح نفسه والإعجاب بها.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٧٨.

إننا نجد بعض الناس يعانون عقدة النقص والحقارة، فتراهم يسعون دوماً إلى أن يكونوا محط المدح والثناء، وهذه الأماني لها مصاديق وأشكال متعددة ومتنوعة؛ ينبغي للإنسان تجنبها، لينفتح على عالم آخر ملؤه الحقيقة والرغبة في التكامل والسعي من أجله.

وفي مقابل ذلك؛ نجد في بعض البلاد الإسلامية، أن الشخص حينما يريد أن يتحدث عن نفسه بعبارة (أنا) يستعيذ بالله قبل ذلك، وهذه ثقافة ذات معنىً طيب وجديرة بالاهتمام، كما تشير إلى ضرورة الحذر من العجب والأنانية.

فنحن قد نذهب مرة واحدة لأداء فريضة الحج، ولكننا نشير إلى ذلك مرات ومرات في أحاديثنا متفاخرين.

فهذه الأساليب في التفكير أو الحوار تقلل من شأن العبادة وأجرها دون أدنى شك. روى الحسن بن الجهم أنه سمع أبا الحسن الإمام الرضا عليه السلام يقول: «**إِنَّ رَجُلًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ عَبَدَ اللَّـهَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ قَرَّبَ قُرْبَاناً فَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ فَقَالَ لِنَفْسِهِ: مَا أُتِيتُ إِلَّا مِنْكِ وَمَا الذَّنْبُ إِلَّا لَكِ قَالَ فَأَوْحَى اللَّـهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: ذَمُّكَ لِنَفْسِكَ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَتِكَ أَرْبَعِينَ سَنَةً**»[١].

نستنتج من ذلك أن الصلاة التي تتسبب في وجود حالة الفخر والعجب لدى المصلي، عديمة القيمة، ولن تكون سبباً في تساميه وعروجه، إذ الصلاة يجب أن تضاعف من نسبة الخضوع والخشوع لدى العبد، حيث تنتقل به إلى مرحلة من إذلال النفس تجاه خالقها.

فالصلاة الحقيقية هي الصلاة التي تكشف للإنسان فقره تجاه ربه الغني الحميد، كما تبيّن له عجزه، دون أن تخدعه -أو ينخدع بها- أو تشعره بالغنا والترفع والتكبر.

كلنا نعرف أن القيام المتصل بالركوع ركن من أركان الصلاة، لماذا؟.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٨٣.

لأنه جزءٌ من الركوع، فالركوع يجب أن يبدأ من القيام، فليس المهم أن يكون الإنسان منحنياً في الصلاة بأي شكل من الأشكال، بل المهم أن ينحني خضوعاً لله بعد أن كان قائماً.

فمن كان خلقياً محدودباً ومنحنياً -مثلاً- لا يُقال له أنه راكع، إن الركوع هو: أنه رغم قدرتي على الوقوف منتصباً، فإنني أنحني تذليلاً للنفس أمام الله عز وجل.

وهذا الأمر يصدق على حالة السجود أيضاً، ترى لماذا كان للسجود قيمة معنوية خاصة؟.

إن السجود هو هجر لحالة القعود، وتعفير الجبين بالأرض خضوعاً لله تعالى وتعبيراً عن الطاعة له. ومن أجل أن تكتمل معاني السجود، فإن الروايات تقول باستحباب هبوط المصلي بيديه إلى الأرض قبل ركبتيه، كما ينبغي أن يسجد الإنسان على الأرض والتراب، وأن تلامس جميع مساجده الأرض والتراب تعبيراً عن الخضوع الكامل لله عز وجل.

إن الالتزام بهذه التعاليم والتوجيهات يؤدي إلى تكامل الصلاة وكمالها، حتى تكون عامل تأثير مباشر في تهذيب النفس بصورة أكبر.

تأديب النفس

إن بعض الأشياء تفقد قيمتها إذا تعرضت للكسر، كالزجاج والأواني الخزفية. ولكن هناك أشياءً على العكس تماماً، حيث تتضاعف قيمتها إذا تكسرت كالجوز، حيث ينبغي تكسير قشره حتيتصل إلى لبه المفيد، وكذلك الكثير من الفواكه حيث يجب التخلص من قشورها حتى يُنتفع بها.

أما النفس البشرية؛ فهي من النوع الثاني، فإن لم تتعرض للانكسار والتذليل لن تتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، فقد لا تؤثر أربعون سنة من العبادة في تأديب النفس والوصول بها إلى حالة الإنكسار، ولذلك، فإن الإنسان لا يصل إلى الكمال،

ولكنه قد يبلغ القمة فجأةً، وذلك حين يذم نفسه ويلومها وتتكون لديه حالة الانكسار في لحظة واحدة.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**يَا أَسْرَى الرَّغْبَةِ!؛ أَقْصِرُوا فَإِنَّ الْمُعَرِّجَ عَلَى الدُّنْيَا مَا لَا يَرُوعُهُ مِنْهَا إِلَّا صَرِيفُ أَنْيَابِ الْحَدَثَانِ أَيُّهَا النَّاسُ تَوَلَّوْا مِنْ أَنْفُسِكُمْ تَأْدِيبَهَا وَاعْدِلُوا بِهَا عَنْ ضَرَاوَةِ عَادَاتِهَا**»[1].

فهو عليه السلام ينصح الذين أسرتهم الدنيا فطمعوا بها بأن يقطعوا آمالهم منها ورغباتهم فيها، فمن عطف مسيرته في الحياة باتجاه التكالب على الدنيا، لن يكون نصيبه غير المشاكل والأزمات المادية والروحية.

طاعة الله سبيل الإيمان

إن واحداً من محاور البحث الخاص بجهاد النفس هو طاعة الله سبحانه وتعالى، وقد جاء في رواية نقلها محمد بن مسلم، عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، أنه قال: «**لَا تَذْهَبْ بِكُمُ الْمَذَاهِبُ فَوَ اللَّـهِ مَا شِيعَتُنَا إِلَّا مَنْ أَطَاعَ اللَّـهَ عَزَّ وَجَلَّ**»[2].

ثم إن الإمام الباقر عليه السلام يروي عن جده سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم قوله الشريف: «**إِنَّهُ لَا يُدْرَكُ مَا عِنْدَ اللَّـهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ**»[3].

وعن جابر، عن أبي جعفر،الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: «**قَالَ لِي: يَا جَابِرُ؛ أَيَكْتَفِي مَنْ يَنْتَحِلُ التَّشَيُّعَ أَنْ يَقُولَ بِحُبِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ؟، فَوَ اللَّـهِ مَا شِيعَتُنَا إِلَّا مَنِ اتَّقَى اللَّـهَ وَأَطَاعَهُ..**»[4].

ففي العهدين الأموي والعباسي كان الاضطراب والرعب قد وصلا حداً

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٨٣.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٨٤.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٨٤.

(٤) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٨٤.

لا يتجرأ فيه شيعة أهل البيت عليهم السلام على الإعلان عن عقائدهم وآرائهم في كثير من الحالات، ولذلك؛ فإن الأئمة المعصومين: قد وضعوا لأتباعهم وأنصارهم آيات وعلائم يُعرفون بها.

ويضيف الإمام محمد الباقر عليه السلام قائلاً: **«وَ مَا كَانُوا يُعْرَفُونَ يَا جَابِرُ إِلَّا بِالتَّوَاضُعِ وَالتَّخَشُّعِ وَالْأَمَانَةِ وَكَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّـهِ وَالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَالْبِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ وَالتَّعَاهُدِ لِلْجِيرَانِ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَأَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْغَارِمِينَ وَالْأَيْتَامِ وَصِدْقِ الْحَدِيثِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَكَفِّ الْأَلْسُنِ عَنِ النَّاسِ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ وَكَانُوا أُمَنَاءَ عَشَائِرِهِمْ فِي الْأَشْيَاءِ** (إِلَى أَنْ قَالَ) **أَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ أَتْقَاهُمْ وَأَعْمَلُهُمْ بِطَاعَتِهِ»**[1].

فالإنسان الشيعي -إضافة إلى تقواه وطاعته لله، وتواضعه وخشوعه وأمانته، وذكره الكثير لله تعالى، والتزامه بالعبادات والبر بالوالدين والإنفاق على الفقراء والمساكين- بالإضافة إلى ذلك كله فهو صادق في حديثه، فلا يكذب، بل ولا ينقل كذبة الآخرين، لأن ذلك هو الكذب بعينه. كما لا ينبغي له أن يبدي رأياً لا علم له بموضوعه، فتلك كذبة أخرى أيضاً!.

هناك البعض من الناس لا يبدو أنهم كذابون، ولكنهم يؤيدون الكذابين والمذاهب الكاذبة، وهذه خصلة مذمومة جداً.

إن قلب المؤمن يغمره الحق أبداً، وهو إذا انتهج الصدق في حياته فلأن الصدق يعني تطابق الحديث مع الواقع، وهذا هو معنى الحق.

إن الشيعي رجل الحق، وصديقه، وبصير به. والشيعي أيضاً أنيس القرآن وجليسه ومتبع له، ويقرأ آياته بشكل صحيح غير مغلوط. وعلى هذا الأساس؛ فإن المؤمن لا ينبغي له ترك قراءة القرآن، بل عليه أن يقرأ ما لا يقل عن خمسين آية قرآنية يومياً، وقد وردت في ذلك أحاديث وروايات عديدة، منها قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ فِي لَيْلَةٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَرَأَ خَمْسِينَ آيَةً**

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٨٤.

كُتِبَ مِنَ الذَّاكِرِينَ..»[١].

وقال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في وصيته لابنه محمد ابن الحنفية: «.. **وَعَلَيْكَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ وَلُزُومِ فَرَائِضِهِ وَشَرَائِعِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَالتَّهَجُّدِ بِهِ وَتِلَاوَتِهِ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ فَإِنَّهُ عَهْدٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى خَلْقِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَنْظُرَ كُلَّ يَوْمٍ فِي عَهْدِهِ وَلَوْ خَمْسِينَ آيَةً..**»[٢].

وتعرفون أن حب الشيء يختلف اختلافاً جماً عن تكلف الشيء أو الاضطرار إليه. ثم إن الشيعي الواقعي ليس بذيء اللسان، ولا يتتبع عيوب الآخرين، وهو حريص كل الحرص على أن يذيع محاسن الآخرين وإيجابياتهم في المجالس العامة، دون السيئات والفواحش.

فحكاية الإيجابيات ونشرها في الأوساط بمثابة نشر العطور والرياحين، أما إشاعة الفواحش والسيئات، فهي تلويث للجو الاجتماعي، ومن الطبيعي أن يكون نشر العطر في الأجواء وترطيبها خيراً من التلويث.

إن الإسلام يعارض اتصاف المؤمن بصفة الذباب، حيث يبحث عن الجروح والقروح والعيوب والأقذار، بل الشيعي هو من يتصف بصفة النحل الذي ينتج العسل للناس، فيفيدهم، ويشفي مرضاهم.

وكما تقول الرواية الآنفة الذكر في تبيين خصائص الشيعة؛ يلزم الشيعي أن يكون فرداً أميناً، يأتمنه الناس على ممتلكاتهم وأسرارهم؛ فتارة تجد بين أفراد عشيرة تتكون من ألف شخص، خمسةً أوستةً من الشيعة يتصفون بأنهم أمناء العشيرة.

ثم تؤكد الرواية على أن: «**أَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَتْقَاهُمْ وَأَعْمَلُهُمْ بِطَاعَتِهِ**». فإذا كانت (التقوى) و(العمل بطاعة الله)، هما قيمتان أساسيتان للتفاضل

(١) معاني الأخبار، ص١٤٧.
(٢) من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٦٢٨.

في المجتمع الإسلامي، فإن الأهم من ذلك هو التسابق في هذا المجال والسعي لكي يكون كل مؤمن أتقى من الآخرين وأكثرهم عملاً بطاعة الله عز وجل.

ثم إن الإمام محمد الباقر عليه السلام يقسم بالله تعالى في هذه الرواية خلال حديثه مع جابر، فيقول: «**يَا جَابِرُ وَاللهِ مَا نَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا بِالطَّاعَةِ**»(١)، مما يثير التساؤل عن سبب تأكيد الإمام حديثه بالقسم المقدس؟.

ولعل الجواب هو أن الإمام عليه السلام يريد رسم خط خاص لسلوك الشيعة، ويفرض عليهم عدم تجاوزه وتخطيه، فلا يظنوا أنهم سيكونون من أهل الجنة بمجرد قطرة دمع تُسكب، أو بلقلقة ألسنتهم بكلمات. فالإنسان المؤمن يجب أن يكفّ عن خداع نفسه، وها هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، يقول في إحدى خطبه: «**هَيْهَاتَ! لَا يُخْدَعُ اللَّـهُ عَنْ جَنَّتِهِ وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ**»(٢).

وعندما يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**يَا جَابِرُ وَاللهِ مَا نَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا بِالطَّاعَةِ**»، نعرف أن أئمتنا العظام لم يصلوا إلى درجاتهم الرفيعة إلا بطاعة الله سبحانه وتعالى.

إن الوصول إلى مقام القرب من الله والابتعاد عن نار جهنم رهينان بإطاعة الله تعالى، ولا يقبل في إطار هذا الأمر غير الطاعة لله أبداً.

بلى؛ إن الديانة المسيحية قد ابتدعت طرقاً مضحكة لنيل السعادة الأبدية، ومن جملة ذلك، بدعة شراء الجنة من القساوسة.

ويبدو أن القضية بدأت حينما تعرضت الدولة آنذاك إلى عجز مالي شديد، فرأى المستشارون السياسيون والاقتصاديون -بعد كثير من البحث والمداولة- ومع الأخذ بعين الاعتبار حالة الناس وروح التدين المتكرسة فيهم، أن يعمد رجال الكنيسة إلى استغلال الحس الديني لدى الناس وإفراغ جيوبهم، بدلاً من أن يمدوا

(١) وسائل الشيعة،ج١١، ص١٨٤-١٨٥.
(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١٢٩.

لهم يد العون والمساعدة. وبهذا الشكل حرضوا الناس المذنبين والراغبين بالتوبة على أن يشتروا صكوك الجنة والغفران مقابل مبالغ مالية، قد يكون بعضها طائلاً.

فاشترى أشخاص لم يقوموا بأي عمل صالح في حياتهم صكوك الجنة مقابل مبلغ من المال.

بينما الإسلام يرفض استغلال الروح الدينية لدى الناس بهذا الشكل البشع، بل لا يصح أن يداهن الناس على دينهم، بل يعلّمنا الإسلام أن ما نقوم به من أعمال صالحة، إنما هو بتوفيق الله عز وجل وتسديده.

ثم يقول الإمام محمد الباقر عليه السلام: **«وَمَا مَعَنَا بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ وَلَا عَلَى اللَّهِ لِأَحَدٍ مِنْ حُجَّةٍ مَنْ كَانَ لِلَّهِ مُطِيعاً فَهُوَ لَنَا وَلِيٌّ وَمَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِياً فَهُوَ لَنَا عَدُوٌّ وَمَا تُنَالُ وَلَايَتُنَا إِلَّا بِالْعَمَلِ وَالْوَرَعِ»**(١).

إن شيعة علي عليه السلام، ينبغي عليهم أن يكونوا أكثر اهتماماً من غيرهم بتزكية الذات، حتى يكونوا زيناً لأئمتهم، يقول الإمام الصادق عليه السلام مخاطباً أحد أنصاره: **«يَا شَقْرَانِيُّ؛ إِنَّ الْحَسَنَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ حَسَنٌ، وَإِنَّهُ مِنْكَ أَحْسَنُ لِمَكَانِكَ مِنَّا. وَإِنَّ الْقَبِيحَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ قَبِيحٌ، وَإِنَّهُ مِنْكَ أَقْبَحُ..»**(٢).

ومن أجل بلوغ المنزلة الرفيعة للمؤمن الحقيقي، ينبغي تعريض الجسم والروح إلى أنواع المصاعب في مسيرة الطاعة لله، والكف عن المعاصي، والصبر عليهما؛ وقد قالت السيدة الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام في وصفها لأمير المؤمنين عليه السلام: أنه كان **«مَكْدُوداً فِي ذَاتِ اللَّهِ..»**(٣).

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٨٤-١٨٥.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣٤٩.

(٣) بحار الأنوار، ج٢٩، ص٢٢٣.

7

الورع والتقوى نهج الإيمان

روي عن أبي جعفر، الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «**كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَقُولُ: لَا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ تَقْوَى، وَكَيْفَ يَقِلُّ مَا يُتَقَبَّلُ؟**»[1].

فمن الممكن أن يقضي أحدهم الليل إلى الصباح في إقامة الصلاة، ولكن ركعتين منها فقط قد يصليهما بإقبال وتقوى، تكونان الوحيدتين اللتين تلقيان الرضى والقبول من الله سبحانه وتعالى، وقد قال ربنا عز وجل: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾[2]. ولاشك في أن الورع أفضل من العبادة الصورية، فقد يبذل المرء جهداً عبادياً كبيراً، ولكنه في الوقت نفسه لا يمتنع عن ممارسة الكذب والغيبة ومعونة الظالمين، وفي مثل هذه الحالة لن يكون مصير عبادته الصورية غير الإحباط.

تصوروا أن مريضاً يقصد الطبيب، ويتناول مختلف أنواع الأدوية، ولكنه لا يمتنع من جانب آخر عن تناول الأغذية الضارة بصحته، أو يفرط في تناولها، فليس من المتوقع له الشفاء أبداً.

إن الورع وهو الامتناع عن المعاصي والذنوب يكون في بعض الأحيان

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٩٠.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٧.

أعلى درجة من القيام بأعمال الخير، حتى أن الشيطان ليغوي الإنسان، بأن يقول له: بإزاء ما قمت به من الأعمال الصالحة، فإنك مجاز بارتكاب عمل سيء واحد على الأقل!.

في حين لا يصح لك أن تظن بأن إعمارك المسجد الحرام يبرر لك قيامك بعمل الحرام من جانب آخر. روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**أَمَرَ اللَّهُ إِبْلِيسَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ** عليه السلام**، فَقَالَ: يَا رَبِّ وَعِزَّتِكَ إِنْ أَعْفَيْتَنِي مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ لَأَعْبُدَنَّكَ عِبَادَةً مَا عَبَدَكَ أَحَدٌ قَطُّ مِثْلَهَا. قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أُطَاعَ مِنْ حَيْثُ أُرِيدُ**»(١).

وقد جاء في التاريخ أن الحجاج بن يوسف الثقفي الذي تلطخت يداه بدماء آلاف الأبرياء.. قد عمّر كثيراً من أراضي العراق وأحيا المزارع والبساتين، وكان يطعم الفقراء كل يوم، كما كان له باع في مجال الأدب والخطابة فكان يلقي خطباً رنّانة حول التقوى، ولكن جميع هذه الإنجازات والقابليات لا تصلح أن تكون غطاءً لأعماله الإجرامية السيئة الصيت التي سلبت أعماله الصالحة قيمتها ومحتواها.

ولعل جميع مجرمي التاريخ وطغاته قد قاموا بأعمال صالحة كثيرة، ولكنها لم تجبر سلوكهم الفرعوني الطاغي.

إن من واجب الإنسان أن ينفذ ما أمره به الله جل جلاله، وأن يطبق ذلك على نفسه، لا أن يخترع لنفسه ديناً انتقائياً حسب أهوائه ومصالحه. وإن جميع أعمال الخير المجردة عن الإخلاص لله سبحانه، والأهداف الإنسانية النبيلة، لن تعود بالخير على صاحبها، ولن تأخذ لنفسها صبغة الخلود.

قال أحد الكتّاب: لقد ألفت ثمانية كتب في حقل الأدعية والزيارات، وقد طبعتها بأفخر الطبعات، ولكنها جميعاً لم تكن محط إقبال القراء أبداً، وذلك لأن قصد القربة والإخلاص إلى الله تعالى لم تكن في حسباني، بل كانت نيتي الحصول

(١) بحار الأنوار، ج٦٠، ص٢٥٠.

على الشهرة. بينما كتاب (مفاتيح الجنان) للمرحوم الشيخ عباس القمي ﷺ، ظل خالداً، لأن هدفه كان كسب رضى الخالق تعالى، دون الاسم والمظهر.

وروي عن مفضل بن عمر أنه قال: «كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَذَكَرْنَا الْأَعْمَالَ فَقُلْتُ أَنَا: مَا أَضْعَفَ عَمَلِي. فَقَالَ: **مَهْ! اسْتَغْفِرِ اللَّـهَ.** ثُمَّ قَالَ لِي: **إِنَّ قَلِيلَ الْعَمَلِ مَعَ التَّقْوَى خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ بِلَا تَقْوَى.** قُلْتُ: كَيْفَ يَكُونُ كَثِيرٌ بِلَا تَقْوَى؟.

قَالَ عليه السلام: **نَعَمْ؛ مِثْلُ الرَّجُلِ يُطْعِمُ طَعَامَهُ، وَيَرْفُقُ جِيرَانَهُ، وَيُوَطِّئُ رَحْلَهُ، فَإِذَا ارْتَفَعَ لَهُ الْبَابُ مِنَ الْحَرَامِ دَخَلَ فِيهِ، فَهَذَا الْعَمَلُ بِلَا تَقْوَى، وَيَكُونُ الْآخَرُ لَيْسَ عِنْدَهُ. فَإِذَا ارْتَفَعَ لَهُ الْبَابُ مِنَ الْحَرَامِ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ**»[١].

فالمؤمن هو من يؤدي فرائضه وأعماله على أتم الوجوه وحسب ما أمره الله تعالى، وينتهي عما نهاه الله عنه، وإذا واجه الحرام امتنع من ارتكابه ولا يخضع دينه لرغبته وهواه. وإذا وجدنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله يربط -في روايات عديدة ومختلفة- بين رضى الله ورضا ابنته الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، وبين غضب الله وغضبها.. كما هو في قوله صلى الله عليه وآله: «**إِنَّ اللَّهَ لَيَغْضَبُ لِغَضَبِ فَاطِمَةَ، وَيَرْضَى لِرِضَاهَا**»[٢].

فلأن حياة فاطمة الزهراء عليها السلام كانت تدور حول محور الحق، ولم تبتغ في حياتها غير رضى الله تعالى. وإذا وجدنا أن بعض الأحاديث الشريفة تشير إلى أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هو ميزان الأعمال، والميزان الذي يتميز به الحق عن الباطل كقول النبي صلى الله عليه وآله: «**عَلِيٌّ مَعَ الْحَقِّ، وَالْحَقُّ مَعَهُ، لَا يَفْتَرِقَانِ حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**»[٣]. فلأن حياة الإمام علي عليه السلام كانت مع الحق دائماً وأبداً..

إن الوصول إلى هذه المرتبة من الإخلاص والتجرد لله تعالى أمر في غاية الصعوبة، ويتطلب توفيق الله وعونه حتى يستطيع الإنسان تحقيق هذا الهدف الرفيع.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٩٠.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٣، ص١٩.
(٣) الخصال، ج٢، ص٤٩٦.

التقوى نبراس الكرامة

يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**الْحَسَبُ الْفِعَالُ وَالشَّرَفُ الْمَالُ وَالْكَرَمُ التَّقْوَى**»[١].

فإذا رغب الإنسان في أن يكون وجيهاً ومحترماً على المستوى الاجتماعي، فعليه أن يقوم بالأعمال الصالحة؛ وإذا أراد أن يكون ذا شرفٍ ومحط اهتمام الآخرين، فيجب أن يهتم باكتفائه الذاتي من الناحية المالية؛ وإذا أراد أن يكون مكرماً، فليتخذ من التقوى شعاراً ونبراساً وسبيلاً.

فمن كان بصدد نيل الكرامة والخير، عليه أن يولي التقوى الأهمية الأولى والقصوى، إذ أن الله تعالى قال في كتابه الكريم: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[٢].

فإذا ركب الإنسان سيارة قوية جداً، ولكنها كانت تفتقر إلى الكوابح، فلا شك أنه سيتعرض للخطر الجدي، وسرعان ما يسقط في الهاوية. وهذه السيارة القوية نفسها، إذا قادها سائق متمرس مع سلامة أجهزتها، وسار بها ضمن الطريق الصحيح، وبطريقة جيدة ومناسبة، كان لك أن تتصور مستوى تحسس الأمان فيها، ووصولها إلى الغاية المرجوّة بكل راحة بال.

والذنوب تماماً هي كتلك السيارة التي تفتقر للكوابح السليمة تؤدي بصاحبها إلى مصير أسود. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام شارحاً تصوره للذنوب وما يمكن أن تتركه من تأثيرات سلبية جارفة على الإنسان: «**أَلَا وَإِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ**»[٣].

فكلما استمر الإنسان في عملية السقوط إلى الهاوية وهو يمتطي خيل الخطايا والذنوب، كلما تضاعفت سرعته الجامحة.

أما الأعمال والممارسات الصالحة، فيصفها سيد المتقين الإمام علي عليه السلام

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٩١.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٩١.

بالقول: «**أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ**».

إن الشاب الذي ينظر إلى المرأة المتبرجة، يستطيع في بادىء الأمر إغماض عينيه، وفي هذه المرحلة تكون السيطرة على النظر عملية سهلة، ولكنه إن تجرأ وأقحم نفسه في النظر، ولم يحذر، ولم يغلق أجفانه، فسيتعرض إلى الخطر بنسبة عشرة في المئة. ولكنه إذا تنبه إلى نفسه، وكان بصدد الحذر من الشهوة الحرام، استطاع الإفلات من التورط في مستنقع الذنب بما يحفظ من قوىً رحمانية في داخله. وإذ استمر في النظر الحرام، كانت السيطرة أمراً صعباً وضعفت مقاومته بنسبة عشرين في المئة، إلا أنه لا يزال يؤمّل في نفسه خيراً، إذ هناك فرصة للعودة إلى العفة، فإن لم يقرر العودة، فإن الأمر سيصل به إلى التساقط السريع، حيث لن يكون ثم مجال للسيطرة وتجنب السقوط، فخيل الخطايا تسرع به إلى الهاوية، وتقوده إلى مصير أسود.

ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في رواية أخرى: «**اتَّقِ اللَّـهَ بَعْضَ التُّقَى وَإِنْ قَلَّ وَاجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّـهِ سِتْراً وَإِنْ رَقَّ**»[١].

فليس صحيحاً أن يتصرف الإنسان في حياته بطريقة تخرق كل الحجب والأستار بينه وبين الله سبحانه وتعالى، ففي بعض الأحيان يكون الخوف أو الحياء القليل من الله عز وجل سبباً لنجاة الإنسان من العذاب، وطريقاً إلى استحقاقه جنان الخلد.

الورع جوهر العبادة

روي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قوله: «**إِنَّ أَشَدَّ الْعِبَادَةِ الْوَرَعُ**»[٢].

إن ذنوب الإنسان تنقسم إلى قسمين:

الأول: الذنوب التي قد تلوث بها الإنسان لتوّه، وهي تشبه نزلة البرد البسيطة التي تصيبه بشكل مؤقت.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٩١.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص١٩١.

الثاني: الذنوب المتجذرة في روح الإنسان ووجوده؛ كما السرطان الذي يستفحل شيئاً فشيئاً .

وهذا النوع الثاني من الذنوب يمتاز بالحدة والخطورة البالغة. فالطفل الذي يعتاد الكذب منذ صغره، ولا يجد الاهتمام المطلوب من قبل والديه وذويه، فإن خطيئة الكذب ستعجن بلحمه ودمه،وحينما يدخل سوق العمل، سيجد نفسه عاجزاً عن ممارسة الصدق والإنصاف والرحمة لدى سعيه لصعود سلم الثروة والجاه الدنيوي.

ولا بأس هنا أن أذكر لكم -مثلاً- بهذا الخصوص؛ في أيام طفولتنا، كان والدي رحمه الله يجمع سجاد بيتنا مرة في كل عام، لغرض تنظيفها على سطح المنزل، وكان يعطي كل واحد منا عصاً كبيرة، لنضرب بها السجاد ونزيح عنه الغبار. وبعد أن نكيل ضرباتنا المتلاحقة إلى السجاد، كنا نعلن له بأن مهمتنا قد انتهت. فيعود علينا بالقول: ليس بعد، فلا تزال ذرات التراب عالقة بين خيوط السجاد، وهي موجودة فيه منذ حياكته، حيث لا تخرج من بين الخيوط بالسهولة التي تتصورونها، فلابد من تكرار الضرب ومضاعفة الضغط على السجاد.

أما استفادتي من هذا المثل فهي: أن هناك ذنوباً تشبه إلى حد كبير ذرات الغبار المختفية بين خيوط السجاد، فهي تنفذ إلى عمق أعماق الإنسان، إلى حد يجهل كونها ذنوباً. ولكننا حينما نقرأ ونتدبر آيات القرآن الكريم وروايات النبي وأهل بيته عليهم السلام ونعرض أنفسنا عليها، نستطيع إذ ذاك اعتبارها ذنوباً خطيرة، ولابد من مجابهتها وطردها من أعماق وجودنا.

الورع حصن الروح

والورع -كما نقرأ في روايات أهل البيت عليهم السلام- يشبه سور المنزل، أو الأسلاك الشائكة المحيطة بمعسكر الجند، أو حصن المدينة.

وقد قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام وهو يبين الصفات التي تميِّز أصحابه

عن سائر أبناء المجتمع: «**إِنَّمَا أَصْحَابِي مَنِ اشْتَدَّ وَرَعُهُ وَعَمِلَ لِخَالِقِهِ وَرَجَا ثَوَابَهُ هَؤُلَاءِ أَصْحَابِي**»[١].

ولعلكم صادفتم بعض الناس ممن يحذرون الأمراض حذراً ملفتاً للنظر، فتراهم يفرون من المصابين بنزلة البرد مثلاً إذا التقوهم، فهم يهتمون بالصحة الفردية أيما اهتمام، إذ يغسلون أيديهم دائماً،ويحافظون على نظافة ملابسهم كل المحافظة. كذلك يجب أن يتمتع الإنسان بروح الحذر والاحتياط والورع في القضايا المعنوية والدينية. فلا يصح للإنسان المؤمن أن يهتم بكمية العمل فقط، بل عليه أن يركز على النوعية وعلى الشمول، وعليأخذ الحيطة والحذر في مواجهة الأمور المشتبهة، وهذا هو جزء مهم من الورع.

وقد نقل عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قوله: «**قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ابْنَ آدَمَ اجْتَنِبْ مَا حَرَّمْتُ عَلَيْكَ تَكُنْ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ**»[٢].

ولقد عد المرحوم العلامة المجلسي رحمه الله في كتابه (بحار الأنوار) المحرمات سبعمئة محرم. وطبعاً فإن كل واحد من هذه المحرمات له فروعه وتفاصيله. فتارة لا يصل المرء إلى الحرام إلا بوسيلة محرمة أيضاً، وعليه؛ يكون عدد المحرمات أكبر بكثير مما ذكره المرحوم المجلسي.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن (الورع) يُستخدم في مجال اجتناب المحرمات والذنوب، بينما (التقوى) تشمل جانبي: اجتناب المحرمات والعمل بالصالحات.

المؤمن إنسان نموذجي

وقد جهد الأئمة المعصومون عليهم السلام كل الجهد في أن لا يكتفي المؤمنون بالتشيع الظاهري لهم، بل أوجبوا عليهم السعي باتجاه تفعيل وتطبيق كل مبادئ

(١) وسائل الشيعة،ج١١، ص١٩٣.

(٢) وسائل الشيعة،ج١١، ص١٩٣.

وتعاليم الدين الحنيف، ليكونوا بذلك زيناً لأهل البيت عليهم السلام.

وقد جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام مخاطباً أحد أصحابه: «**عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّـهِ، وَالْوَرَعِ وَالِاجْتِهَادِ، وَصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَكُونُوا دُعَاةً إِلَى أَنْفُسِكُمْ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِكُمْ، وَكُونُوا زَيْناً، وَلَا تَكُونُوا شَيْناً، وَعَلَيْكُمْ بِطُولِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَطَالَ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ هَتَفَ إِبْلِيسُ مِنْ خَلْفِهِ وَقَالَ: يَا وَيْلَهُ أَطَاعَ وَعَصَيْتُ، وَسَجَدَ وَأَبَيْتُ**»[1].

وقد أصبح الشيعة ملزمين في كل العصور أن يحولوا أنفسهم إلى نموذج لنظافة وطهارة الروح، وأن يكونوا زَيناً للدين ولأهل البيت عليهم السلام، وليس عاراً عليهم ووبالاً.

قال الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «**كَثِيراً مَا كُنْتُ أَسْمَعُ أَبِي يَقُولُ: لَيْسَ مِنْ شِيعَتِنَا مَنْ لَا تَتَحَدَّثُ الْمُخَدَّرَاتُ بِوَرَعِهِ فِي خُدُورِهِنَّ وَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَائِنَا مَنْ هُوَ فِي قَرْيَةٍ فِيهَا عَشَرَةُ آلَافِ رَجُلٍ فِيهِمْ خَلْقُ اللَّـهِ أَوْرَعُ مِنْهُ**»[2].

---

(١) وسائل الشيعة،ج ١١، ص١٩٣-١٩٤.

(٢) وسائل الشيعة،ج١١، ص١٩٤-١٩٥.

8

العفة أفضل العبادة

ومن الخصال التي يجب أن نعمل على توفيرها في حياتنا العملية هي العفة. فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**مَا مِنْ عِبَادَةٍ أَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ عِفَّةِ بَطْنٍ وَفَرْجٍ**»[١].

وعن أبي بصير قال: «قَالَ رَجُلٌ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: إِنِّي ضَعِيفُ الْعَمَلِ قَلِيلُ الصِّيَامِ وَلَكِنِّي أَرْجُو أَنْ لَا آكُلَ إِلَّا حَلَالًا.

قَالَ عليه السلام: فَقَالَ: **لَهُ أَيُّ الِاجْتِهَادِ أَفْضَلُ مِنْ عِفَّةِ بَطْنٍ وَفَرْجٍ؟**»[٢].

إن الحد الفاصل بين الرزق الحلال وأكل الحرام كالحد الفاصل بين الطهارة والنجاسة. فتارة تجد شخصين يعملان معاً ويتشابهان إلى حد كبير في طبيعة كسبهما، ولكن الحقيقة هي أن أحدهما يأكل حلالاً، والآخر يلعق بالحرام! لذلك ينبغي على المؤمن أن يتحرى الدقة في مكاسبه وأن يكون عفيفاً يتجنب الحرام في رزقه وأكله.

المحافظة على شخصية الأولاد

إن العفة هي: أن يحترم الإنسان شخصيته، فلا يعمد إلى تلويثها بالذنوب

(١) وسائل الشيعة،ج١١، ص١٩٧.
(٢) وسائل الشيعة،ج١١، ص١٩٨.

وحقائر الأمور التي لا قيمة لها.

فإذا كان أبناء المجتمع -رجالاً ونساءً- يحترمون شخصياتهم، ويريدون الكرامة لأنفسهم، فإنه لن يسقط أحد في حضيض الذنوب والمعاصي.

وإذا كانت التعاليم الدينية توصي الآباء والأمهات بأن يحفظوا لأولادهم شخصياتهم، وأن يرعوا حرمتهم، فذلك لأن توجيه الإهانة لهم وتحطيم شخصياتهم، يدفعهم في نهاية المطاف إلى ارتكاب الحماقات والمفاسد بأنواعها.

فإذا حفظنا حرمة وشخصية الأولاد، فإنهم سيحترمون بدورهم أنفسهم بصورة تدريجية، بل وإنهم سيبذلون قصارى جهودهم للمحافظة على كرامتهم حتى في خلواتهم، وسوف يراعون الأدب والأصول الأخلاقية الحميدة حتى في طريقة قعودهم وقيامهم وملبسهم وتسليتهم وكل شيءٍ لديهم؛ أي أن الأساس في حياتهم سيكون الصواب، اللهم إلا ما يقعون فيه من أخطاء سهوية بسيطة لا مفر منها.

وتأكيداً على بعض مصاديق العفة، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ ضَمِنَ لِي اثْنَتَيْنِ ضَمِنْتُ لَهُ عَلَى اللَّـهِ الْجَنَّةَ، مَنْ ضَمِنَ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، ضَمِنْتُ لَهُ عَلَى اللَّـهِ الْجَنَّةَ**»(١). يعني: لسانه، وفرجه.

وترى كيف أن النبي الأكرم ﷺ يراعي جانب الحياء حتى في مثل حديثه هذا، وكيف يستفيد من ألفاظ عفيفة لا تخدش الحياء.

ويقول رسول الإسلام ﷺ في خطبة له: «**وَمَنْ قَدَرَ عَلَى امْرَأَةٍ أَوْ جَارِيَةٍ حَرَاماً فَتَرَكَهَا مَخَافَةَ اللَّـهِ حَرَّمَ اللَّـهُ عَلَيْهِ النَّارَ وَآمَنَهُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ فَإِنْ أَصَابَهَا حَرَاماً حَرَّمَ اللَّـهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَأَدْخَلَهُ النَّارَ**»(٢).

---

(١) وسائل الشيعة،ج١١، ص١٩٩.

(٢) وسائل الشيعة،ج١١، ص١٩٩.

معرفة الحلال والحرام

إن الأمر المهم في إطار الامتناع عن الحرام هو معرفة الحلال والحرام والحدود الدقيقة بينهما، والتوسل بالحرام في اكتساب الرزق لا يعني حصد الفوائد المادية أكثر مما يحصده الإنسان عن طريق الحلال، فقد روي عن أبي جعفر الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «**قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: أَلَا إِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَا تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا اللَّـهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ وَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ شَيْءٍ مِنَ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّـهِ فَإِنَّ اللَّـهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَسَّمَ الْأَرْزَاقَ بَيْنَ خَلْقِهِ حَلَالًا وَلَمْ يُقَسِّمْهَا حَرَاماً فَمَنِ اتَّقَى اللَّـهَ وَصَبَرَ أَتَاهُ اللَّـهُ بِرِزْقِهِ مِنْ حِلِّهِ وَمَنْ هَتَكَ حِجَابَ السَّتْرِ وَعَجَّلَ فَأَخَذَهُ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ قُصَّ بِهِ مِنْ رِزْقِهِ الْحَلَالِ وَحُوسِبَ عَلَيْهِ**»(١).

وفي هذا الإطار روي أنه دخل علي عليه السلام المسجد، وقال لرجل: أمسك عليّ بغلتي، فخلع لجامها، وذهب به. فخرج علي عليه السلام بعد ما قضى صلاته، وبيده درهمان ليدفعهما إليه مكافأة له، فوجد البغلة عُطلا، فدفع إلى أحد غلمانه الدرهمين ليشتري بهما لجاماً، فصادف الغلام اللجام المسروق في السوق؛ قد باعه الرجل بدرهمين، فأخذه بالدرهمين وعاد إلى مولاه. فقال علي عليه السلام: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَحْرِمُ نَفْسَهُ الرِّزْقَ الْحَلَالَ بِتَرْكِ الصَّبْرِ، وَلَا يَزْدَادُ عَلَى مَا قُدِّرَ لَهُ**»(٢).

إذن، فعلى المؤمن أن يعفّ عن الحرام، ويبتعد عن المزالق التي تؤدي به إلى السقوط في ارتكاب المحرمات. فقد روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام في حديث له: «**كُلُّ عَيْنٍ بَاكِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَيْرَ ثَلَاثٍ: عَيْنٍ سَهِرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ، وَعَيْنٍ فَاضَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّـهِ، وَعَيْنٍ غُضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ**»(٣).

---

(١) وسائل الشيعة، ج٥، ص١٤٨.

(٢) نهج البلاغة (الثاني)، حكمة رقم: ٣٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠٠.

وعندما يواجه الإنسان عملاً أو موقفاً مشتبهاً، لا يدري هل هو حرام أم حلال، عليه أن يتذكر الله تعالى ويتدبر الأمر فإن وجد ذلك طاعة عمل بها، وإن وجده معصية تركها. يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**مِنْ أَشَدِّ مَا فَرَضَ اللَّـهُ عَلَى خَلْقِهِ ذِكْرُ اللَّـهِ كَثِيراً (ثُمَّ قَالَ) لَا أَعْنِي سُبْحَانَ اللَّـهِ وَالْحَمْدُ لِلَّـهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَإِنْ كَانَ مِنْهُ وَلَكِنْ ذِكْرَ اللَّـهِ عِنْدَ مَا أَحَلَّ وَحَرَّمَ فَإِنْ كَانَ طَاعَةً عَمِلَ بِهَا وَإِنْ كَانَ مَعْصِيَةً تَرَكَهَا**»[1].

إن بعض المحرمات الشرعية، كالغيبة والزنا والكذب والظلم، لها أحكام خاصة وحقيقة واضحة، ولكن البعض الآخر ليس كذلك، فكان لابد للإنسان المؤمن أن يسعى دائماً إلى تعلّمها .

فحينما يستلقي الإنسان في فراشه عليه أن يتأمل ويقول: إلهي، أنت الذي جعلت النوم لي حلالاً وقلت متكرماً: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا**﴾[2]، ولكنني أنام ناوياً الاستيقاظ لأداء صلاة الصبح.

من هنا؛ فإن للنوم واليقظة أحكامهما، وعلينا أن نجعل كل حالاتنا تصطبغ بالصبغة الإلهية. وهكذا هي حالة الأكل والشرب وسائر الأعمال والأمور الدنيوية التي من الممكن وصلها بالحقائق والرؤى المعنوية. وإذا كانت كذلك، أصبح الإنسان ذاكراً لله.

وإذا تعلّم الإنسان الحلال والحرام، عرف تفاصيل الواجبات والمحرمات، فإن عملية الإلتزام بأحكام الله تكون له سهلة وميسورة، ولأن البعض من الناس لا يهتم بهذه الجوانب، فإننا نراهم قد يضحّون ببعض الواجبات أو يرتكبون المحرمات من أجل العمل ببعض المستحبات، -فمثلاً- زيارة المراقد المقدسة أمر مستحب، بينما الالتزام بالحجاب الشرعي للمرأة أمر واجب، فلا يجوز أن تضحي

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠٠-٢٠١.
(٢) سورة الفرقان، آية: ٤٧.

المرأة المؤمنة بهذا الواجب من أجل المستحب، ولذلك فإننا نشاهد في الأماكن المقدسة عبارة يوصي فيها خدمة تلك الأماكن الزائرات بأن الزيارة مستحبة، ولكن الالتزام بالحجاب الشرعي واجب. وهم -عبر هذه النصيحة الواعية- يريدون الإشارة إلى خطورة التضحية بالواجبات من أجل المستحبات.

ومثل ذلك، هناك من الرجال من يعانون الأزمات في بيوتهم مع زوجاتهم، فلا يؤدو لهن نفقاتهن وهو أمر واجب عليهم، وفي مقابل ذلك تراهم ينفقون بعض أموالهم في المجالات المستحبة.

صفقة رابحة

واجتناب المحرمات هي -في حقيقة الأمر- صفقة رابحة مع الله تعالى، إذ أن الله سبحانه يجازي كل من اجتنب حراماً طاعة لربه، يجازيه بما يرضيه يوم القيامة.

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ مَعْصِيَةً لِلَّـهِ مَخَافَةَ اللَّـهِ تبارَكَ وَتَعالَى أَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ**»[١]. وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في رسالة إلى عدة من أصحابه: «**وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَشْرَهَ أَنْفُسُكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَرَّمَ اللَّـهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ مَنِ انْتَهَكَ مَا حَرَّمَ اللَّـهُ عَلَيْهِ، هَاهُنَا فِي الدُّنْيَا حَالَ اللَّـهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا، وَلَذَّتِهَا وَكَرَامَتِهَا الْقَائِمَةِ الدَّائِمَةِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ أَبَدَ الْآبِدِينَ.. (إِلَى أَنْ قَالَ) وَإِيَّاكُمْ وَالْإِصْرَارَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا حَرَّمَ اللَّـهُ فِي الْقُرْآنِ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، وَقَدْ قَالَ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**[٢]»[٣].

ولقد ترى بعض الناس يعمل على تحليل المحرمات الإلهية، وحسب ما يقال: يحاولون ممارسة الحيل الشرعية، فتارةً يجتنبون ظواهر الذنوب، ولكنهم يمارسون حقيقة الخطيئة، ولذلك؛ فإن الإمام جعفر الصادق عليه السلام يحذر أصحابه من عملية الغش هذه.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠١.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٥.
(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠١.

ثمن الجنة

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ مُخْلِصاً دَخَلَ الْجَنَّةَ وَإِخْلَاصُهُ أَنْ يَحْجُزَهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ عَمَّا حَرَّمَ اللَّـهُ**»[١].

وواضح أنه ليس المقصود أن من يتلفظ ويكرر عبارة «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ**» بلسانه يدخل الجنة، إذ لو كان الأمر كذلك، فإن جهاز التسجيل أو الحاسوب أسرع من الإنسان في تكرارها.

إن الأمر المهم في هذه العبارة المقدسة، هو أن تخلق في الإنسان قوة تمنعه عن ارتكاب المحارم، فإذا كان يؤمن حقيقة بأنه لا إلا الله، فعليه أن يلتزم عملياً في حياته بكل ما أنزل الله من تعاليم وأحكام.

وقد جاء في حديث شريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «**مَنْ أَطَاعَ اللَّـهَ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّـهَ، وَإِنْ قَلَّتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ وَتِلَاوَتُهُ لِلْقُرْآنِ، وَمَنْ عَصَى اللَّـهَ فَقَدْ نَسِيَ اللَّـهَ، وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ وَتِلَاوَتُهُ لِلْقُرْآنِ**»[٢].

فقد يخدع الإنسان نفسه فيتظاهر بالعبادات الظاهرية كالإكثار من الصلوات والصيام المستحبة وتلاوة القرآن ولكنه لا يطيع الله في حلاله وحرامه، وفرائضه ونواهيه؛ فيظلم الناس، ويأكل المال الحرام، ويهمل تربية الأبناء، ولا يعين الضعفاء، وما شاكل ذلك. إن المهم في الدين هو الالتزام الكامل والحقيقي بكل الأحكام والتعاليم الإلهية بالإضافة إلى المظاهر والعبادات المستحبة.

روى أبو بصير عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «**مِنْ أَشَدِّ مَا عَمِلَ الْعِبَادُ إِنْصَافُ الْمَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ وَمُوَاسَاةُ الْمَرْءِ أَخَاهُ وَذِكْرُ اللَّـهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.**

قَالَ الرَّاوِيْ: قُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللَّـهُ، وَمَا وَجْهُ ذِكْرِ اللَّـهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ؟.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠٣.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠٣.

قَالَ عليه السلام: يَذْكُرُ اللَّـهَ عِنْدَ الْمَعْصِيَةِ يَهُمُّ بِهَا فَيَحُولُ ذِكْرُ اللَّـهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[1]»[2].

يشير الحديث الشريف إلى ثلاثة أمور مهمة ينبغي أن تكون في حياة المؤمن:

١- الإنصاف من نفسه؛ فإذا ارتكب خطأً بحق الآخرين عليه أن يعترف بذلك ويرى نفسه المقصِّر، ويعتذر لهم ويجبر الخسائر التي قد نجمت عن تصرفه الخاطئ.

٢- مواساة الإخوان، وذلك بالوقوف إلى جانبهم في الشدائد والمشاكل، وتقديم العون لمن يحتاج المساعدة. فالمؤمن لا يمكن أن يهتم بذاته فقط ويهمل الآخرين مهما كانوا يعانون من مشاكل.

٣- ذكر الله على كل حال؛ فإذا واجه معصية، تذكر الله واجتنب الحرام طاعة للّه تعالى.

وكنموذج على قضية المواساة مع الاخوان أذكر لكم هذه القصة الغريبة.

لقد سمعت مرةً أن تاجراً من التجار تعرض لخسارة مالية كبيرة جداً، إلى حدٍ تراكمت الديون الثقيلة عليه، وحينما وجد دائنوه عجزه عن تسديد ديونهم، شكوه إلى القضاء، فسيق إلى السجن،وجراء ما تعرض له من آلام روحية وهبوط في حالته المعنوية، وافاه الأجل سجيناً. والعجب كل العجب أن أحداً من أهله أو أصدقائه لم يبد استعداداً لتسلّم جثمانه وتشييعه ودفنه!.

لقد تأثرت تأثراً بالغاً حينما سمعت بهذا النبأ، وقلت في نفسي: قديماً كان التجار -إذا ما تعرض زميل لهم لخسارة مالية كبيرة- يجتمعون فيما بينهم ليتعرفوا على سبب هذه الخسارة، ثم يجمعون له مالاً، ليحلّ به مشكلته، ويعود إلى عمله،

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٠١.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠٤.

ويدبر شؤونه التجارية والمعيشية، ثم يمنحونه الفرصة الكافية لإرجاع المال لهم مرة أخرى، حتى لا يساق إلى السجن، ويفتضح أمره، فتسبب له الانتكاسة المالية والفضيحة حالة روحية لا يحسد عليها، أو يموت في السجن كمداً، ثم لا يتسلم ذووه جنازته، أو لا يشترك قريب أو غريب في مراسم التشييع والدفن.

إن الدين الإسلامي لا يرضى منا أن نمارس عباداتنا الفردية في بيوتنا، بينما تصدر منا هذه الممارسات الاجتماعية المخزية.

ونتيجة هذه الممارسات ونظائرها هي: غلاء الأسعار، وانقطاع المطر، وهجوم الآفات الزراعية على المحاصيل، وانتشار الأمراض وما شاكل.

ينبغي أن نعرف أن الله عز وجل لم يخلق الدنيا ليتعذب فيها الإنسان، ويتعرض للضغوط. فإذا رأيتم مجتمعكم محاصراً بأنواع البلايا الدنيوية والسماوية، فتأكدوا بأن السبب هو أن الناس ابتعدوا عن تعاليم رب العالمين، فكانت النتيجة السقوط في المشاكل والأزمات.

لقد سألت أحد الأطباء عن النوعية الغالبة من المرضى الذين يراجعونهم، فقال: إن أغلب من يراجعنا هم المصابون بالأمراض الروحية والنفسية.

فإذا كانت ثقافتنا قائمة على أساس التعاليم التي حوتها روايات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، فإن أول ثمرة لذلك هو حصول الاستقرار النفسي والروحي لدى الناس. وطبقاً للإحصاءات التي تمت في العالم أجمع، تبين أن علماء الدين، على مختلف انتماءاتهم الدينية، يعمرون أكثر من سائر الناس بصورة عامة، ولعل سبب ذلك، هو انعدام أو ندرة الاضطراب فيهم، لما تتركه التعاليم الدينية في أنفسهم من اطمئنان.

وليس ضرورياً أن تكون المواساة مع الإخوان مالية واقتصادية، فقد يعجز المرء في بعض الأحيان عن إسداء المساعدة المالية أو المادية للآخرين، ولكنه قد يجد في لسانه القدرة على تقديم المشورة النزيهة، أو النصيحة الطيبة لهم، أو

تسليتهم وتخفيف المصائب عنهم، وهذا بحد ذاته يعتبر نوعاً من أنواع الصدقة في سبيل الله تعالى. وقد قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعُوهُمْ بِأَخْلَاقِكُمْ**».[1]

أداء الفرائض

اجتناب المحرمات يشكل وجهاً واحداً من التزام الإنسان بالدين، أما الوجه الآخر فهو أداء الفرائض والعمل بما أوجب الله على الإنسان يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «**مَنْ عَمِلَ بِمَا افْتَرَضَ اللَّـهُ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ**»[2].

وفرائض الله على قسمين:

١- **الواجبات العينية**؛ وهي الفرائض التي يجب على كل إنسان من أن يأتي بها، كالكثير من العبادات (الصلاة، الصوم، الحج في حالة الاستطاعة).

٢- **الواجبات الكفائية**؛ وهي الفرائض التي يجب أن تؤدى بمقدار الكفاية، وهي واجبة على الجميع، فإذا قام بالواجب من فيه الكفاية سقط عن الآخرين. ومثال ذلك: تعلم العلوم والصناعات من أجل خدمة المجتمع، فإذا كان المجتمع يفتقر إلى الأطباء مثلاً كان الواجب عليه تفريغ بعض أبنائه لتعلم الطب وسد هذا الفراغ، وهكذا في سائر المجالات المشابهة.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام «فِي قَوْلِ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا**﴾ قَالَ: **اصْبِرُوا عَلَى الْفَرَائِضِ، وَصَابِرُوا عَلَى الْمَصَائِبِ، وَرَابِطُوا عَلَى الْأَئِمَّةِ**..»[3].

وأبرز أنواع الصبر، هو الصبر على الفرائض، إذ هي مهمة شاقة، ويجب على الإنسان تحمل عنائها، فالله تبارك وتعالى يحب أن يرى عبده وهو يبذل خالص جهده في أعمال الخير والصالحات.

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٩٤.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠٥.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠٥.

ينبغي أن يسعى الإنسان لأن يضاعف قواه الخيّرة، فلا يكلّ سريعاً ولا يتعب، بل يواصل مسيرته الصالحة بلا كلل وملل.

ويروي زيد ابن الإمام السجاد عليه السلام عن أبيه، فيقول: كان أبي حينما يفرغ من صلاة الليل والتهجد في كل ليلة، يتجه إلى فراشه لينام هنيئة بعد طلوع الشمس، ولكنه حينما كان يريد القيام من مصلاّه والذهاب إلى الفراش لم تكن تحمله ركبتاه، بل كان يمشي على يديه ورجليه من شدة الإرهاق والتعب.

أي أنه كان يسخر كل طاقته لخضوعه وصلاته إلى ربه، ولم يكن عليه السلام ليبخل بشيءٍ من قوته على تهجده وقيامه لخالقه الكبير المتعالي.

المرابطة

أما (المرابطة) التي ورد ذكرها في حديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام «**وَرَابِطُوا عَلَى الْأَئِمَّةِ**»، فهي في أحد معانيها الوقوف والمقاومة والثبات على حدود البلاد الإسلامية،والانتظار والترقب لأوامر القيادة الشرعية. فالحراس الذين يحافظون على الثغور طيلة الليل إلى الصباح ليمنعوا الأعداء من مباغتة البلاد، يقومون بواجب المرابطة، فتارة يمتطون جيادهم ليدافعوا عن المسلمين وديارهم، وتارة يطلعون قيادتهم على أنباء تحركات الأعداء ليتخذوا القرار المناسب.

وهناك معنىً آخر للرباط والمرابطة التي ذكرها الإمام الصادق عليه السلام في حديثه، وهو إنتظار وترقب أمر الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وقد ورد في بعض الروايات أن الأئمة كانوا يوصون أصحابهم ويؤكدون عليهم بأن يعدّوا سيوفهم ويستعدوا لتلقي الأوامر بالنهضة ضد أعداء الله، وهذا هو المعنى الثاني للمرابطة.

لا تضيِّعوا الفرائض

إذن، ينبغي للمؤمن أن يبذل كل جهده، لأداء فرائضه الإلهية بدقة بالغة، ففي بعض الأحيان نجد أشخاصاً يصلون صلاتهم ناقصة، أو بعجلة متناهية، وهذا ليس

أمراً حسناً؛ بل إننا نرى أن صلوات الجماعة هنا وهناك أخذت طابع العجلة غير المطلوبة.

ينقل أن أحد المؤمنين سافر إلى إحدى المدن الإسلامية، وحينما دخل سوقها المركزي الكبير، وجد أن التجار يثنون على أحد العلماء، فأظهر هذا الرجل المسافر رغبته في رؤية العالم المشار إليه، فقيل له أنه يصلي في المسجد الفلاني، وحينما ذهب إلى المسجد، وجده خالياً من المصلين إلا العالم محط الثناء، فاقتدى به في الصلاة، ولما هوى إلى الركوع كرر تسبيحه سبعين مرة، وعند ذاك اكتشف السر في عدم ائتمام الناس بهذا العالم، رغم جميع الفضائل التي يمتاز بها.

وعلى أية حال؛ فإن الأمر المطلوب إحرازه لدى الصلاة هو الاعتدال، فلا تؤدّى الصلاة خاطفة، ولا تتعمد فيها الإطالة إلى حد الملل.

وتتميماً للبحث عن فرائض الله نقرأ معاً قول أمير المؤمنين عليه السلام: **«إِنَّ اللَّـهَ فَرَضَ عَلَيْكُمْ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا وَحَدَّ لَكُمْ حُدُوداً فَلَا تَعْتَدُوهَا وَنَهاكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ وَلَمْ يَدَعْهَا نِسْيَاناً فَلَا تَتَكَلَّفُوهَا»**[1].

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠٦.

9

الصبر في حياة المؤمن

إن الصبر أمر مستحب ومطلوب في جميع الأمور؛ وكلما كانت تجربة الإنسان في الحياة أكبر، كلما كان صبره وتحمله أكبر.

يقال أن طفلاً أعطي حبة فاكهة من الفواكه ليغرسها، فغاب لفترة مديدة، وحينما بحثوا عنه، وجدوه جالساً عند حبته التي غرسها ينتظر اخضرارها! بينما الإنسان الكبير، ذو التجارب الحياتية الكثيرة، يعرف أن عليه أن يصبر فترة طويلة حتى تستقر البذرة وتخضر ثم تصبح شجرة مورقة مثمرة بعد فترة مناسبة من الزمن.

وهكذا على الإنسان -وبالذات المؤمن- أن يواجه المشاكل والمصاعب والهموم في الحياة بمزيد الصبر والتحمّل.

جاء في وصية الإمام علي عليه السلام لابنه محمد ابن الحنفية، أنه قال: «**أَلْقِ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ عَوِّدْ نَفْسَكَ الصَّبْرَ فَنِعْمَ الْخُلُقُ الصَّبْرُ وَاحْمِلْهَا عَلَى مَا أَصَابَكَ مِنْ أَهْوَالِ الدُّنْيَا وَهُمُومِهَا**»[1].

ونقرأ في حديث مطوّل للإمام الصادق عليه السلام مخاطباً حفص بن غياث بالقول: «**يَا حَفْصُ إِنَّ مَنْ صَبَرَ صَبَرَ قَلِيلًا وَإِنَّ مَنْ جَزِعَ جَزِعَ قَلِيلًا**.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠٨.

ثُمَّ قَالَ: عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ وَالرِّفْقِ، فَقَالَ: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾[1]، وَقَالَ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[2].

فَصَبَرَ حَتَّى نَالُوهُ بِالْعَظَائِمِ وَرَمَوْهُ بِهَا فَضَاقَ صَدْرُهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾[3].

ثُمَّ كَذَّبُوهُ وَرَمَوْهُ فَحَزِنَ لِذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾[4]، فَأَلْزَمَ النَّبِيُّ ﷺ نَفْسَهُ الصَّبْرَ فَتَعَدَّوْا فَذَكَرُوا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَكَذَّبُوهُ فَقَالَ قَدْ صَبَرْتُ فِي نَفْسِي وَأَهْلِي وَعِرْضِي وَلَا صَبْرَ لِي عَلَى ذِكْرِ إِلَهِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾[5]، فَصَبَرَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ثُمَّ بُشِّرَ فِي عِتْرَتِهِ بِالْأَئِمَّةِ عليهم السلام وَوُصِفُوا بِالصَّبْرِ فَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[6].

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، فَشَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ لَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[7]. فَقَالَ: إِنَّهُ بُشْرَى وَانْتِقَامٌ فَأَبَاحَ اللَّهُ لَهُ قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ

(١) سورة المزمل، آية: ١١-١٠.
(٢) سورة فصلت، آية: ٣٤-٣٥.
(٣) سورة الحجر، آية: ٩٧-٩٨.
(٤) سورة الأنعام، آية: ٣٣-٣٤.
(٥) سورة طه، آية: ١٣٠.
(٦) سورة السجدة، آية: ٢٤.
(٧) سورة الأعراف، آية: ١٣٧.

وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[١]. فَقَتَلَهُمُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَحِبَّائِهِ وَجَعَلَ لَهُ ثَوَابَ صَبْرِهِ مَعَ مَا ادَّخَرَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ فَمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُقِرَّ اللَّهُ لَهُ عَيْنَهُ فِي أَعْدَائِهِ مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ»[٢].

وقد أوصي النبي الأكرم ﷺ في القرآن المجيد بأن يصبر على تكذيب المكذبين وأن يدع المخالفين والمعاندين لشأنهم، إذ أن حسابهم مع الله تعالى: **﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾**[٣].

الله يدبر الأمور

على الإنسان أن يتحلى بالصبر بإزاء التطورات السلبية في الحياة وما يواجهه -سواء على الصعيد الفردي أو على الصعيد الاجتماعي- من مشاكل قد يخلقها الظالمون والأنظمة الطاغوتية ومن أشبه. فلا يجوز للإنسان أن ينصب من نفسه ناقداً لله عز وجل، فلا يكن ممن يحاولون دوماً تعيين الوظائف لربهم، إذ يعترضون على طول عمر هذا أو ذاك الطاغوت مثلاً، ولماذا لا يرسل الله عذابه على الظالمين؟ ولماذا لا يُسقط الأنظمة الجائرة؟ وما شاكل.. في حين يجب أن يعلم الإنسان بأن للدنيا رباً يدبر أمورها ويعلم بمصلحتها، فإذا أخّر عذاب الآخرين ولم يعاقب الماديين والأنانيين بعجل،فمن المؤكد أن لذلك حكمته وفتنته وبلاءه.

ونحن إذا كنا نتدخل في شؤون الآخرين عن طريق الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، فإنما لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أمرنا بذلك، وإلا فإننا كنا سنحجم عن ذلك أيضاً.

وبالطبع فإن الاعتراض على سيئات البشر في محاولة لتغييرها لا يتنافى مع الصبر. وأنا شخصياً لي اعتراضي -مثلاً- على طريقة إذاعة الأخبار في وسائل

(١) سورة التوبة، آية: ٥.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠٧.

(٣) سورة المزمل، آية: ١١-١٠.

الإعلام، إذ غالباً ما تتقدم أنباء القتل والمجازر والحروب صدر النشرات الخبرية، مما يضعف عزائم الناس، بينما كان من الضروري إذاعة الأنباء الإيجابية والباعثة على بث روح السعادة إلى الناس.

فبدلاً من الأخبار المروعة والمزعجة، تستطيع أجهزة الإعلام العالمية أن تصدّر نشراتها اليومية أنباء الاكتشافات العلمية، كنبأ اكتشاف المتخصصين لقاحاً ضد مرض السكر الذي يعاني منه عشرات الملايين في العالم اليوم.. فإعلان مثل هذا الخبر ليس بالأمر الهيّن أبداً.

ولكن ينبغي أن لا نذهب أنفسنا حسرات على مستقبل العالم، لأن للعالم ربه الذي يعرف كيف يديره أكثر منا.. فلا يلزمنا أن نتحرق لشيءٍ لا يرتبط بنا ولا يدخل ضمن مجموعة واجباتنا ولسنا مسؤولين عنه.

الصبر على لوم الآخرين

إذا قويت روح الصبر والحلم وتكرست في أعماق الفرد المؤمن، أصبح محصناً ضد لوم الآخرين. وقد رأينا كيف أن أنبياء الله ورسله عليهم السلام الذين بعثوا لإنقاذ البشرية من براثن الشيطان والطاغوت، قدتعرضوا للوم الشديد، وقذفوا بتهم الجنون والسحر وغير ذلك، وقد قال تعالى بهذا الصدد: **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾**[1].

فالله سبحانه وتعالى يزود نبيه صلى الله عليه وآله بالطاقة، ويقول له: إذا شعرت بالضعف فسبح ربك، لكي تتضاعف قوتك مقابل كيد الكفار والملحدين.

ومن هذا الخطاب الرباني نستلهم أن جملة «**سُبْحَانَ اللَّهِ**» لها من التأثير الكبير في نوع العلاقة بين الإنسان والإنسان، كما كان لها التأثير الواضح في تحديد نوع العلاقة بين الإنسان وربه.

---

(١) سورة الحجر، آية: ٩٧-٩٨.

وقد قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام -في الرواية الآنفة-: «**فَأَلْزَمَ النَّبِيُّ** صلى الله عليه وآله **نَفْسَهُ الصَّبْرَ**»، وذلك ليتمكن من مواجهة عواصف الفتن والافتراءات.

درجات الصبر

ولقد تناولت هذه الرواية الشريفة المفصلة مجموعة قيّمة من القضايا والتعاليم المهمة الجديرة بالتأمل، وهي تشير إلى أن للصبر درجات ومراحل.

فقد يصبر المرء تجاه مشكلة، ولكنه قد يعجز عن تحمل مشكلة أخرى؛ فهو لعله يصبر على جوع بطنه، ولكنه يفشل في تحمل جوع ابنه. ولكن الإمام جعفر الصادق عليه السلام يؤكد أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد صبر بادئ بدء على سوء أخلاق أهل الجاهلية، حيث أمره الله بالصبر على تقوّلاتهم، ثم أمره بأن يهجرهم، مؤكداً له أن الله هو الذي سيحاسبهم.

ثم إن قريشاً اتهمت النبي صلى الله عليه وآله بالجنون وكونه شاعراً، فأمره الله مرة أخرى بالتسبيح والسجود، للتخلص من ضيق الصدر.

وبعد ذلك أخبر الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله بأن هذه الجماعة الكافرة لا تعاديه كشخص، بقدر ما تعادي رب العالمين وتجادل بآياته، كما أعلمه بضرورة أن لا يعتقد بأن هذه الشقاوة قضية جديدة، بل إن جميع الأنبياء عليهم السلام قد تعرضوا لأذى أعدائهم ومع ذلك صبروا حتى أتاهم نصر الله تعالى.

وفي الخطوة اللاحقة بدأ الكافرون بمهاجمة مقدسات الرسول صلى الله عليه وآله، فأعلن لهم أنه لا صبر له تجاه هذا التمادي، فدعاه الله تعالى إلى الصبر مرة أخرى.

وتعلمون أن درجة حساسية الإنسان تتضاعف كلما تضاعفت درجة علمه ومعرفته.

وطبعاً؛ فإن معرفة النبي صلى الله عليه وآله بالله سبحانه وتعالى تتفاوت إلى درجة لا توصف إذا قورنت بمستوى معرفتنا بربنا. فقد كان أولياء الرحمن تهتز أرواحهم

لسماع اسم الله تعالى، وطبيعي أن يتأثر النبي ﷺ كل التأثر لدى سماعه ومواجهته لاستهزاء أحد الجاهليين بأقدس المقدسات.

إن التعذيب النفسي لأولياء الله لا يقل عن التعذيب الجسدي أبداً، بل قد يزداد عليه إيلاماً.

يُحكى عن أحد المجاهدين الأبطال من الذين تعرضوا لتعذيب الجلاوزة في ظل النظام الطاغوتي السابق في العراق، أن هؤلاء المجرمين كانوا يتعمدون تمزيق صفحات القرآن الكريم على مرأى السجناء المؤمنين، إمعاناً في إيذائهم. وقد قال أحد السجناء ممن سنحت لهم فرصة الخلاص من السجن: إن جميع المصائب والآلام التي كنا نتعرض لها كان بالإمكان تحملها سوى إهانة المقدسات.

وقد التقيت ذات مرة بأحد المؤمنين الذي كان معتقلاً أيضاً في سجون طاغية العراق، وقد ثقبت رجله بالمثقب الكهربائي، فكان مما قاله لي: في إحدى المرات جمعوا جميع السجناء، ثم جاؤوا بفتاة عارية تماماً، وأجبرونا على تشكيل حلقة والدوران حولها، وكان من ضمن السجناء أبو هذه الفتاة نفسها، وكان الموقف أليماً ومحرجاً ومروعاً بالنسبة للجميع، وبالأخص لهذا الأب المظلوم الى درجة تفوق الوصف والتصور، وحينما وقف الأب أمام ابنته، قالت له: إن شرفي يتجسد في أنني أقوم بهذا العمل في سبيل الله تعالى، فاصبر ولا تجزع!!.

وحينما سمعت بهذه المصائب تذكرت السيدة الصديقة زينب بنت الإمام علي عليه السلام، حيث سيقت مع سائر أسارى البيت النبوي الكريم ترافقهم رؤوس الشهداء عبر أربعين منزلاً حتى الشام على جمال بلا جهاز..

تعلمون أن من المتعارف بيننا هو إخفاء الوسائل والأغراض الشخصية للأب المتوفّى عن عيون أولاده، لكي لا تتجدد آلامهم وتحترق قلوبهم لفراقه، فما بالكم وقد كان أهل البيت عليهم السلام المصابون قد سيقوا مع رؤوس القتلى المعلقة على الرماح من كربلاء إلى الشام!.

فعلى امتداد الطريق كان الأطفال والنساء المكلومات وفي مقدمتهم الإمام السجاد عليه السلام مجبرين على النظر إلى وجوه القتلة والمجرمين كالشمر اللعين، وهم يتضاحكون فرحين، وهذا ما يمثل منتهى التعذيب النفسي والروحي.

ومع كل ذلك، لم ينفذ صبر السيدة الصديقة زينب عليها السلام، إذ قاومت أشد المقاومة، وأبتْ كل الإباء. والأعجب من ذلك أنها وصفت واقعة الطف وفقدها لإخوتها وأبنائها وسائر ذويها وملحمة الأسر الفظيعة، وصفت ذلك بالقول الصادق: «**مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً**»[1]، لأن كل ما يراه المؤمن في سبيل الله فهو جميل.

وكلما طالعت الشخصية العظيمة للسيدة زينب الكبرى عليها السلام وبحثت، كلما ازددت حيرة وتعجباً، لأن تصل امرأة إلى هذه الدرجة السامية من الصبر والتحمل.

وهذا كله جدير بالاعتبار وتعلم التجارب، ويشير إلى أن المؤمن -رجلاً كان أو امرأة- عليه أن يسير على صراط الله المستقيم بثبات وصلابة، فلا ينهزم لأدنى ملامة، أو يستوحش لقلة السائرين في طريق الإيمان.

ولنا في أئمة أهل البيت عليهم السلام أسوة حسنة، حيث كانوا مثال الصبر في كل فصول حياتهم.

فهذا الإمام جعفر الصادق عليه السلام صبر على ضنك المعيشة حتى اكتفى بتناول الخبز والخل فقط خلال عام كامل، ليجمع شيئاً من المال ويقصد به بيت الله الحرام. أما في زمن الإمام موسى الكاظم عليه السلام،فقد كانت مجموعة من العوائل الهاشمية لا تملك أكثر من ثوب واحد يتبادله أفرادها من أجل الصلاة!.

إن الله تعالى وعد نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أن يجعل من ذريته أئمة يمتازون بالصبر الخارق، فقال عز وجل: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾[2].

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٥، ص١١٥.

(٢) سورة السجدة، آية: ٢٤.

ومن هذه الآية الشريفة يفهم أن للصبر درجة سامية رفيعة، بحيث يذكره الله إلى جانب اليقين، ومثل هذا الصبر وصفه رسول الله ﷺ بقوله: «**الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ**»[1]. وفي مقابل هذا الصبر، وعد الله أنبياءه وأولياءه بوعده الحق، حيث قال: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**﴾[2].

وبعد أن طوى النبي المصطفى ﷺ المراحل المختلفة للصبر، وبعد أن توضحت له طبيعة الدرجات العالية التي وعد الله الصابرين، أجاز الله لنبيه التهيؤ للحرب، وكان خوضها بالنسبة له نصراً بعد نصر.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن الصبر يصبح ذا قيمة حينما يكون الإنسان مختاراً غير مجبر عليه، على النقيض من أولئك الذين يصبرون رغماً عنهم.

يقال أن أحدهم سقط في البئر، فقال له صاحبه: أصبر حتى آتيك بحبل لإنقاذك!. فاعترضه قائلاً: وما عساني أن أفعل إن لم أصبر، وهل لي مكان آخر أذهب إليه سوى قعر البئر؟!.

إذن؛ فالصبر له قيمته إذا كان المرء تام الاختيار، شاكراً لله، منفذاً لتكاليفه الشرعية.

الصبر والاستقامة تحت وطأة القيود

نقل: إن جماعة من أحفاد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ومن أحفاد بنت الإمام الحسين عليه السلام اعتقلوا من قبل جلاوزة المنصور الدوانيقي العباسي، وكانت هيئة السجن هيئة عجيبة، إذ كان أشبه شيءٍ بالحفرة الكبيرة المسقّفة بإحكام، وكان السجانون يرمون لهم بفتات الطعام من كوّة صغيرة جداً .

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠٧.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٣٧.

ومن بين السجناء كان شبل صغير يدعى علياً، وكان أصغرهم سناً.

فقال له رفاقه ذات يوم: إنك صغير السن، وقدمك صغيرة أيضاً، وباستطاعتك أن تخلصها من القيود إذا ما بذلت جهداً قليلاً.

فقال لهم: كلا؛ فإنني أرجح أن أموت بهذه الصورة حتى يراني الله عز وجل، ويرى ما أنزله الظالمون بي من البلاء.

وبعد أيام قليلة توفي أحد رفاقه في السجناء، فأخبروا الحراس بأن أحدهم قد مات. فقالوا لهم: لتموتوا كلكم... وامتنعوا عن إخراج جثة السجين المتوفى!.

كان علي الصغير يقرأ القرآن بصورة متواصلة، وإذ كان الظلام دامساً يلف السجن وأطرافه كلها، فإن السجناء كانوا يعرفون مواقيت الصلاة من قراءة علي للقرآن الكريم، فكان يقرأ عدة أجزاء، ثم يناديهم أن قد حان وقت صلاة الصبح، ثم يتلو عدة أجزاء أخرى محددة ويقول لهم: قد حان وقت صلاة الظهر، وهكذا.

لقد كان أولاد عمه وأقاربه المقربون والمجاورون له يطلبون إليه دائماً أن يدعو لهم، وفي بعض الأحيان كانوا يسألون الدعاء إلى الله ليخلصهم من السجن والبلاء. فكان يقول لهم: لم يبق إلا القليل! إن بإمكاني الدعاء لنجاتكم، ولكن عليكم أن تعلموا بأن الله عز وجل قد أعدّ للمنصور الدوانيقي، وهو الذي زجنا في هذا السجن المظلم، مكاناً خاصاً في جهنم،ولن يحشر فيه ما لم نبق نحن على هذه الحالة!.

أما نحن؛ فقد أعد الله لنا مقعد عنده في الجنة، ولن نتبوأه حتى نصبر ونقاوم ونستشهد، فهل تريدون -بعد هذا التوضيح- أن أدعو لكم للخلاص من هذا السجن الرهيب؟!. فأجابه الجميع وبصوت واحد: كلا؛ إنما نريد أن نستشهد في سبيل الله تعالى!!.

وهكذا، صبروا وقاوموا حتى استشهدوا، ودفنوا على حالتهم التي ماتوا فيها.

عن الصبر أيضاً

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَا يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ وَإِنْ طَالَ بِهِ الزَّمَانُ**»[١].

وقال عليه السلام: «**مَنْ لَمْ يُنْجِهِ الصَّبْرُ أَهْلَكَهُ الْجَزَعُ**»[٢].

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عن أبيه عليه السلام قال: قال الفضل بن عباس (في حديث): قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ بِالصَّبْرِ مَعَ الْيَقِينِ فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَاصْبِرْ، فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْراً كَثِيراً، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾**[٣]»[٤].

ومنذ أن وضعنا أقدامنا في الحياة الدنيا، عرفنا تدريجياً لزوم الصبر على المشاكل والأزمات لمواصلة الحياة. فلنطلب إلى الله تعالى أن يمنحنا القدرة على الصبر إزاء المصائب الواردة علينا.

إن مثل الصبر مثل سائر الخصال الإنسانية الحميدة، إذ يجب أن نعوِّد أنفسنا عليها، حيث لا عادة أجمل من الصبر وأنفع، كما صرحت بذلك الروايات المأثورة عن النبي وأهل بيته عليهم السلام.

إن الإنسان إذا كان يتمتع بروح الصبر، بامكانه أن يخلق الملاحم، رغم ما قد يكون عليه من إمكانات محدودة أو ظروف حرجة.

وطالما رأينا أن الصبر والحلم والتحمل من شأنه الحدّ من معدلات الخسائر والأضرار، لاسيما وأن القلق والاضطراب يضاعف حجم الضرر ويؤكد المصيبة في كثير من الأحيان. وقد جاء في القرآن الكريم: **﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ**

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠٩.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠٩.
(٣) سورة الشرح، آية: ٥-٦.
(٤) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٠٩.

قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(١).

نستفيد من هذه الآية المباركة؛ أن الإنسان إذا صبر على ما ينزل به من المصائب وواجهها ببرودة أعصاب، وقال: ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، غشّاه الله تعالى برحمته؛ بمعنى أنه سيمنع عنه المصيبة الثانية.

وقد استعاذ أئمتنا المعصومون عليهم السلام في أدعيتهم الشريفة من «تَوَاتِرِ الأَحْزَانِ» التي نعبر عنها بالمصائب المتتالية.

كما وعدت الآية الشريفة الآنفة الذكر الذين لا يجزعون ولا يفزعون من المصائب التي تنالهم، وأعلنوا أنهم عبيد لله تعالى، وأنهم إليه راجعون؛ وعدتهم بتحصينهم دون تعرضهم لمصائب أخرى،قد تكون أكبر وأعظم من المصيبة الأولى.

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٦-١٥٧.

10

المؤمن حليم

قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**لَا يَكُونُ الرَّجُلُ عَابِداً حَتَّى يَكُونَ حَلِيماً**»(١).

فالبعض من الناس يمارسون العبادة من الليل إلى الصباح، حتى يأخذ التعب منهم كل مأخذ، ولكنهم حينما يتعاملون مع أفراد أسرهم، تراهم يغضبون لأبسط الأمور، بل وتراهم يهملون وظائفهم وواجباتهم، فلا يصلون أرحامهم، ويعرضون أسرهم للفقر والتخلف، ويسلكون مع الناس سلوكاً غير لائق. فيا ترى هل هذه هي ثمرة العبادة؟!. ثم يقول عليه السلام: «**وَإِنَّ الرَّجُلَ كَانَ إِذَا تَعَبَّدَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يُعَدَّ عَابِداً حَتَّى يَصْمُتَ قَبْلَ ذَلِكَ عَشْرَ سِنِينَ**»(٢).

فهذه الطريقة كانت من أجل تربية النفس وتهذيبها، حتى تمارس الحلم دون الغضب، والتعقل دون الانفعال غير المحمود.

أما الإمام علي بن الحسين عليه السلام، فيقول: «**إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي الرَّجُلُ أَنْ يُدْرِكَهُ حِلْمُهُ عِنْدَ غَضَبِهِ**»(٣).

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٠.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٠.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٠.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْحَيِيَّ الْحَلِيمَ الْعَفِيفَ الْمُتَعَفِّفَ**»[1].

والمقصود من كلمة «**الْحَيِيَّ**» هو الإنسان صاحب الحياء والمعروف به.

وفي اللغة، تعطي الصفة المشبّهة المستعملة على وزن (فعيل)، معنى الاستمرار الزماني. فكلمة (رحمن) تدل على الكثرة المكانية، أو كمية الرحم، بينما كلمة (رحيم) فهي تشير إلى كثرة الرحم الزمانية.

والصفة الأخرى التي يحبها الله سبحانه وتعالى هي: أن يكون الإنسان حليماً.

في حين أن الصفة الثالثة المطلوبة هي: أن يكون الإنسان عفيفاً. والمقصود من العفة، هو أن يجعل المرء لنفسه شخصية وشأناً، فلا يقدم على أي عمل دون تفكير مسبق والتزام بمعايير خاصة.

فإذا قرر أحد طلاب العلوم الدينية مثلاً الخوض في عمل تجاري، فاختار عملاً يرتبط بالثقافة كطبع ونشر الكتب، فلا شك أن ذلك سيكون مناسباً لشأنه ومنزلته ومظهره، ولكنه إذا دخل سوق السمسرة والمتاجرة بالعقارات. فذلك لا يناسب شأنه. وكذلك على صعيد المسائل المعنوية، يجب على الإنسان أن يسمو بنفسه، فلا يصدر منه عمل قبيح.

وقد قلنا: (قبيح)، ولم نقل: (ذنب)، لأن الامتناع عن ارتكاب الذنب يدخل في إطار الورع، بينما الارتداع عن القبيح الذي هو دون الذنب، ينضوي تحت عنوان العفة.

أما فيما يتعلق بالتعفف الذي ذكره رسول الله ﷺ باعتباره الصفة الرابعة التي يحبها الله سبحانه وتعالى، فينبغي القول: إن عفة الإنسان قد تشارف على الانتهاء في بعض الأحيان والحالات، فينبغي أن يحمل الإنسان نفسه إذ ذاك على العفة، وهذه الحالة هي ما يطلق عليها بالتعفف.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٠.

ومعنى التخلق بالأخلاق الإلهية هو أن يحمل المرء نفسه على الاتصاف بصفة أخلاقية حميدة.

ومن ذلك ما ذكر، أنه «بَعَثَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام غُلَاماً لَهُ فِي حَاجَةٍ فَأَبْطَأَ فَخَرَجَ عَلَى أَثَرِهِ لَمَّا أَبْطَأَهُ، فَوَجَدَهُ نَائِماً، فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ يُرَوِّحُهُ حَتَّى انْتَبَهَ. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: **يَا فُلَانُ؛ وَاللَّهِ مَا ذَلِكَ لَكَ، تَنَامُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، لَكَ اللَّيْلُ وَلَنَا مِنْكَ النَّهَارُ**»[1].

حلم الإمام الباقر عليه السلام

جاء رجل نصراني إلى الإمام محمد الباقر عليه السلام يقصد إيذاءه وتجريحه ببذيء الكلام، «قَالَ لَهُ نَصْرَانِيٌّ: أَنْتَ بَقَرٌ. قَالَ عليه السلام: **لَا؛ أَنَا بَاقِرٌ**. قَالَ: أَنْتَ ابْنُ الطَّبَّاخَةِ. قَالَ عليه السلام: **ذَاكَ حِرْفَتُهَا**. قَالَ: أَنْتَ ابْنُ السَّوْدَاءِ الزِّنْجِيَّةِ الْبَذِيَّةِ. قَالَ عليه السلام: **إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ**. قَالَ: فَأَسْلَمَ النَّصْرَانِيُّ»[2].

إن للحلم خاصية تجعل أعدى الأعداء أقرب الأصدقاء، فإن لم تجعله كذلك، دفعته إلى الموت غيضاً وكمداً.

طريقة لوثر كينغ الإعلامية

كان مارتن لوثر كينغ من الشخصيات التاريخية التي غيرت في الحركة المسيحية، وقد عانى في مسيرته أنواع الألم والعذاب، فيما اعتقل الكثير من رفاقه، ثم قضي عليه بعد أن تعرض للسجن بدوره.

لقد كان هذا الرجل يحارب فكرة الثالوث (الآلهة الثلاث) لدى الكنيسة، وكان يدعو إلى توحيد الخالق، وفي الحاضر يعتقد المسيحيون البروتستانت بوحدة الله تعالى، ويقال إن القانون الأميركي يفرض على رئيس الولايات المتحدة أن

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٢٨٩.

يكون بروتستانتياً، في حين أن الكاثوليك يعتقدون بالثالوث.

وطبعاً؛ فإن لعقيدة الوحدانية هذه جذورها في نفوذ الإسلام إلى أوروبا، كما نفذت إلى الهند ووضعت فرقة السيخ مقابل الهندوس. لقد كان من الصفات المميزة للوثر كنغ أنه كان في الإطار الإعلامي يظهر من نفسه الحلم والتحمل.

ويقال في هذا المجال: إن أتباع المذهب الكاثوليكي كانوا يسخّرون النساء سيئات الصيت والسمعة لإثارة الفوضى في المؤتمرات والاجتماعات التي كان لوثر كينغ يعقدها هنا وهناك، وإشاعة جوٍ من الاستهزاء والسخرية، وكثيراً ما كان يحدث أن يخطب هذا الزعيم الموحِّد بالناس ويدعوهم إلىالتوحيد، فتقوم له إحدى تلكم النساء لتشوش عليه وتفشل حديثه، كحركة إعلامية.

وكان ذات مرة منهمكاً في خطابه، فاستهزأت به إحدى المستأجرات. فتوجه إليها لوثركينغ قائلاً: حتى أنتِ -أيتها المرأة السيئة- يحبك الله!.

فأثّرت هذه الجملة في عمق المرأة أيما تأثير، بشكل جعلها تطوي صفحات حياتها السابقة لتنخرط في سلك الراهبات!.

وهذه القصة تدل على أن الناس يخضعون غالباً للحلم والسجايا الأخلاقية الحميدة.

دعوة أخلاقية

ولو أن رسول الله ﷺ أراد أن يُخضع الجزيرة العربية عن طريق الحرب والقوة فقط، لما تمكن من ذلك، نظراً لأن أهل هذه الأرض كانوا مقاتلين، حتى أنهم كانوا يعيبون على أحدهم أن يموت على فراشه أو يدفن في بيته، كما كان عزهم وشرفهم أن يُقتل الواحد منهم في ساحة المعركة وفي موقع بعيد عن موطنه. لذا فقد وصف أحد الشعراء قبر أخيه، وكان يدعى حرباً بالقول: ولَيسَ قُربَ قَبرِ حَربٍ قَبرُ.

أي أن موقع قبر أخيه حرب بعيد جداً، بسبب أنه قد هزم كل أعدائه بعد أن توغل في أعماقهم، ثم قُتل في منطقة بعيدة جداً قد لا يكون أحد وصل إليها، فلا يوجد قبر بالقرب منه.

ومع مثل هذا النوع من التفكير والسلوك، لا تصح المواجهة العنيفة ونشر الدين الجديد بالقوة فقط، ولذلك فقد جعل النبي الأكرم محمد ﷺ الأخلاق الحسنة والسيرة الطيبة والحلم والعفو وجه دعوته الأخرى.

وقد أشار القرآن المجيد إلى هذا المعنى قائلاً: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[1]، وكذلك في قوله: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[2].

وفي وقتنا الحاضر، ينبغي أن نعي ضرورة دور الأخلاق الفاضلة، فنرقى بسلوكنا وقولنا وثقافتنا وهدفنا.

فعالم الدين المتواضع إذا كان يتمتع بالسجايا الأخلاقية الطيبة، فإنه يستطيع الإقامة في إحدى القرى، ثم كسب جميع سكانها إليه وإقناعهم بما يقول في مدة سنتين، وجعلهم من أصحابه المؤمنين.

وقد قيل إن أحد المستشرقين سافر إلى إيران قبل حدوث الثورة الإسلامية، وحينما عاد إلى بلاده كتب كتاباً ضمن فيه آراءه ونظراته تجاه ما سمع وما رأى، وكان من جملة ما ذكر في الكتاب:

في إيران تعيش شريحة اجتماعية دينية تسمى بشريحة الطلاب؛ أي طلاب الحوزة العلمية، تتمتع بنفوذ اجتماعي وروحي كبير، مع أن أفرادها غير مسلحين بسلاح خاص، اللهم إلا سبحة يحملونها بين أصابعهم، وكأن لهذه السبحة تأثيراً سحرياً على قلوب كافة الناس!.

---

(١) سورة القلم، آية: ٤.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

والواقع هو أن سلاح طلبة العلوم الدينية هو أحاديثهم ومحبتهم ورغبتهم في إصلاح الناس.

إن على المجتمع الإسلامي وقادته أن لا يغتروا بما يحرزونه من تقدم وانتصار في الحياة السياسية والاجتماعية، كما عليهم أن لا يشعروا بالهزيمة والإنكسار إذا ما واجهوا بعض الانتكاسات، وفي كل الحالات ينبغي أن تكون الأخلاق الحميدة والحلم منهج التصرف مع الآخرين.

فقد عفا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن جميع أعدائه بعد انتصاره في معركة الجمل، وهو في قمة اقتداره. وقد أراد بذلك أن يحفظ لأتباعه تفوقهم المعنوي، ويحفظ لهم إحساسهم بالرفعة والرجولة على مرالدهور، ويعطي لكل ذلك قيمته الأخلاقية والتاريخية الطيبة.

على القيادات الدينية، إذا ما اختارهم الناس قادة وحكاماً لهم أن لا يتصرفوا بشكل يعكس لغير المؤمنين تصوراً فضاً عن الدين، بحيث ينظرون إلى التيارات الدينية بعين الغضب والنفرة.

فلا يكفي أن يكف الناس عن ارتكاب الذنوب خوفاً من القوى الدينية في المجتمع، إذ لا قيمة لذلك، كما أن هذه الحالة لا تدوم، بل على القوى والتيارات الدينية أن تحول دون استفحال النظرة السلبية والمخيفة تجاهها.

إن القوى والتيارات الدينية المعتدلة -وبسبب ما حققته من انتصارات هنا وهناك- أصبحت اليوم تحت المجهر، فالمجتمعات تراقب تصرفاتها، وعلى كل المنتمين لهذه التيارات أن يظهروا أعلى درجات الأخلاق والتسامح والحلم في التعامل مع الناس؛ بل ينبغي أن تكون القيادات الدينية والمنتمون للتيارات الإسلامية الأصيلة رمزاً للصبر في المجتمع، بشكل يدفع الناس إلى اللجوء إليهم فيما يخص أسرارهم ومشاكلهم. فإذا ساور الشك أحد الأشخاص بالله عز وجل، فلا تصح مواجهته مواجهة سلبية عنيفة، واتهامه بالإلحاد والخروج عن الدين.

فإذا كان علماء الدين والقيادات الدينية لا يطيقون تحمل مثل هذه الأمور، فمن هو القادر على ذلك إذن؟!.

الرفق في الأمور

قال النبي ﷺ: **«الرِّفْقُ يُمْنٌ، وَالْخُرْقُ شُؤْمٌ»**[1].

فإذا قام المرء بعمل ما، بكل رفق ولطف وهدوء، كان هذا العمل قريناً بالبركة والتوفيق. ولكنه إذا أنجزه بترهلٍ واضطراب وخُرق دون محاسبة دقيقة، فلا شك أنه سيعود عليه بالشر والشؤم.

والمثال المناسب في هذا الخصوص، هو مفتاحك الذي تفتح به باب دارك، فإذا كنت هادئاً متزناً لدى قيامك بعملية الفتح، وفّقت إلى إنجازه. أما إذا اضطربت واستخدمت القوة في فتح القفل الذي قد يعاني من بعض الصعوبات، فإنه قد لا يفتح، فضلاً عن احتمال كسر المفتاح في قفل الباب الذي سيحتاج إلى عملية شاقة لإصلاحه.

كذلك الأمر بالنسبة للتعامل مع الناس، إذ بإمكانك إثارة الناس وتأليبهم عليك بعدة كلمات غير متّزنة، كما تستطيع جذبهم أو إخضاعهم إليك بعدة كلمات لطيفة وقليل من اللياقة والرفق أيضاً.

وخير مثال للتلطف ما ذكره ربنا عز وجل من قصة أصحاب الكهف بالقول: **﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾**[2].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٣.

(٢) سورة الكهف، آية: ١٩-٢٠.

فإذا أردت القيام بعمل ما، فعليك أن تدرس أبعاده وتأثيراته. **وأول شيءٍ؛** هو أن تعرف هل من الصالح القيام بهذا العمل، أم لا؟. **وثاني شيءٍ؛** دراسة الوقت المناسب لإنجازه. **والثالث؛** إذ أحرزت الأصلين المتقدمين، أن تفكر في طريقة الإنجاز، وأسلوب العمل.

إن تطبيق هذه المقدمات والمراحل في العمل تشكل جانباً مهماً من الرفق في الأمور الذي تؤكد عليه الأحاديث الشريفة.

وإن واحداً من أسماء الله تعالى هو (الرفيق)، وقد جاء في الحديث، عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، أنه قال: «**إِنَّ اللَّـهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ**»[1]. والمقصود بالرفيق هنا، هو مَن يقوم بأعماله برفق وتؤدة ودقة، وليس العنف والتسرّع.

وروي أيضاً عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، أنه قال: «**مَنْ قُسِمَ لَهُ الرِّفْقُ قُسِمَ لَهُ الْإِيمَانُ**»[2]. وقال عليه السلام أيضاً: «**إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قُفْلاً وَقُفْلُ الْإِيمَانِ الرِّفْقُ**»[3].

الرفق في العائلة

إذا كان أصل الرفق والمداراة حاكماً على أجواء العوائل، كان التوفيق من نصيبهم. وقد قال لي أحد أصدقائي: كنت لأولادي أباً في بداية حياتي العائلية، ثم صرت رفيقاً وصديقاً لهم، فأنا ألعب معهم، واستشيرهم في بعض الأمور الخاصة، وقد انعدم التفاوت السني بيننا نهائياً.

فإذا لم تكن لدى الإنسان حالة التكبر، ولم يعر الفارق السني والجنس والعنصر أهمية تذكر، صار من السهل عليه أن يدخل على الآخرين من باب الود

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٣.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٣.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٣.

والصداقة والرفق. وقد أكد رسول الله ﷺ على ضرورة أن يتصابى الوالد لأولاده الصغار، ليزيح الفواصل بينه وبينهم.

يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**أَيُّمَا أَهْلِ بَيْتٍ أُعْطُوا حَظَّهُمْ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ، وَالرِّفْقُ فِي تَقْدِيرِ الْمَعِيشَةِ خَيْرٌ مِنَ السَّعَةِ فِي الْمَالِ، وَالرِّفْقُ لَا يَعْجِزُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَالتَّبْذِيرُ لَا يَبْقَى مَعَهُ شَيْءٌ. إِنَّ اللَّـهَ عَزَّ وَجَلَّ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ**»[١].

إن الكثير من الناس يعرفون كيف يعملون ويتاجرون ويكسبون المال، ولكنهم يجهلون أصول إنفاق هذا المال، فهم يفتقرون إلى التدبير والتقدير والرفق في التصرف بالمال، فتراهم يسرفون في الإنفاق، فيضيعون ما ربحوه خلال عام كامل في ساعة واحدة.

إن حقيقة الرفق، هي العثور على أسلوب التغلب على المهام الكبيرة.

وفي بعض الأوقات يواجه الإنسان جبلاً شاهقاً، يبدو لأول وهلة أنه لا طريق لارتقائه، وأنا بنفسي طالما جربت صعود الجبال، وكنت لا أرى في بادئ الأمر طريقاً لصعود بعض الجبال، ولكنني بقليل من الرفق والمداراة والتأمل، أتمكن من الصعود والتفوق.

إن هناك من يعتقد بأن من الممكن شراء كل شيءٍ أو الحصول على كل شيءٍ بالمال، في حين أن الأمر ليس كذلك، بل طريق الوصول إلى الأهداف النبيلة في الحياة هو التوسل بالتخطيط والبرمجة مما يُعبر عنه في الأحاديث بالرفق.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٣.

11

التواضع.. خلق المؤمن

قد يظن البعض خطلاً أنهم غير معنيين بالتواضع ما داموا يفتقرون إلى المال أو القوة أو العلم، نظراً إلى أن الأغنياء أو الأقوياء أو العلماء هم الذين ينبغي لهم أن يتواضعوا، دون غيرهم. ولكن الأمر ليس كذلك بالطبع، إذ أن كل إنسان، وفي أي موقع اجتماعي كان، ينبغي عليه أن يوفر في شخصيته سمة التواضع.

وقد جاء في حديث مأثور عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: **«فِيمَا أَوْحَى اللَّـهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى دَاوُدَ عليه السلام: يَا دَاوُدُ؛ كَمَا أَنَّ أَقْرَبَ النَّاسِ مِنَ اللَّـهِ الْمُتَوَاضِعُونَ، كَذَلِكَ أَبْعَدُ النَّاسِ مِنَ اللَّـهِ الْمُتَكَبِّرُونَ»**[1].

إن حالة الطغيان والتكبر موجودة في نفس كل إنسان، وعلى كل واحد منا أن يسعى لاقتلاع جذور هذه الحالة من نفسه. والرواية التالية المروية عن الإمام الصادق عليه السلام تشير بوضوح إلى هذه الحقيقة.

يقول عبد الله بن الفضل الهاشمي: قلت لأبي عبد الله الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «لِأَيِّ عِلَّةٍ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَرْوَاحَ فِي الْأَبْدَانِ بَعْدَ كَوْنِهَا فِي مَلَكُوتِهِ الْأَعْلَى فِي أَرْفَعِ مَحَلٍّ؟.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٦.

فَقَالَ عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، عَلِمَ أَنَّ الْأَرْوَاحَ فِي شَرَفِهَا وَعُلُوِّهَا، مَتَى مَا تُرِكَتْ عَلَى حَالِهَا نَزَعَ أَكْثَرُهَا إِلَى دَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ دُونَهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَجَعَلَهَا بِقُدْرَتِهِ فِي الْأَبْدَانِ الَّتِي قَدَّرَ لَهَا فِي ابْتِدَاءِ التَّقْدِيرِ، نَظَراً لَهَا وَرَحْمَةً بِهَا، وَأَحْوَجَ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ، وَعَلَّقَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَرَفَعَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَرَفَعَ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، وَكَفَى بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَاتَّخَذَ عَلَيْهِمْ حُجَجَهُ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، يَأْمُرُونَ بِتَعَاطِي الْعُبُودِيَّةِ، وَالتَّوَاضُعِ لِمَعْبُودِهِمْ بِالْأَنْوَاعِ الَّتِي تَعَبَّدَهُمْ بِهَا، وَنَصَبَ لَهُمْ عُقُوبَاتٍ فِي الْعَاجِلِ، وَعُقُوبَاتٍ فِي الْآجِلِ، وَمَثُوبَاتٍ فِي الْعَاجِلِ، وَمَثُوبَاتٍ فِي الْآجِلِ، لِيُرَغِّبَهُمْ بِذَلِكَ فِي الْخَيْرِ، وَيُزَهِّدَهُمْ فِي الشَّرِّ، وَلِيُذِلَّهُمْ بِطَلَبِ الْمَعَاشِ وَالْمَكَاسِبِ، فَيَعْلَمُوا بِذَلِكَ أَنَّهُمْ بِهَا مَرْبُوبُونَ، وَعِبَادٌ مَخْلُوقُونَ، وَيُقْبِلُوا عَلَى عِبَادَتِهِ، فَيَسْتَحِقُّوا بِذَلِكَ نَعِيمَ الْأَبَدِ، وَجَنَّةَ الْخُلْدِ، وَيَأْمَنُوا مِنَ النُّزُوعِ إِلَى مَا لَيْسَ لَهُمْ بِحَقٍّ...»[1].

إذن، فإن الإنسان إذا أحس بالاستغناء فإنه يتجه للطغيان والتكبر على الآخرين. قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[2].

وإننا إذ نجد فرعون يطغى ويقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، فإن جذور هذه الدعوة موجودة في نفس كل إنسان، إلا أنه لا يجد الجميع مجالاً لإظهارها، أو أنهم يكبحون جماح ذواتهم فيتواضعون لله تعالى.

وإذا كانت المشاكل والصعاب في حياة الإنسان تفيده في التعرف على نقاط ضعفه ومن ثم إبعاده عن الطغيان والتكبر، فإنها نعمة إلهية يجب أن يشكر الإنسان ربه عليها. فالكبر إذن حالة نفسية موجودة مع الإنسان، ولذلك عليه أن يكافحها ويقضي على جذورها في نفسه حتى يتخلص من تبعاته السلبية والمدمِّرة.

وقد كان النبي صلى الله عليه وآله حينما يكشف للمسلمين عن جانب من جوانب

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٨، ص١٣٣.

(٢) سورة العلق، آية: ٦-٧.

شخصيته الشريفة، ومكانته المقدسة، مما يستدعي نوعاً من المدح، كان يضيف إلى كلامه جملة: «**وَلَا فَخْرَ**»(١)، أي إنني لا أقصد التفاخر بما قلت.

ونقرأ في الأحاديث الشريفة أن سفينة نوح حينما أنهت مهمتها المرسومة لها من قبل الباري عز وجل، أوحى الله تبارك وتعالى إلى الجبال أنه يريد من إحداها أن تستقبل السفينة وتحتضنها بأمن وسلام.

فأظهر كل جبل من جبال الأرض فضائله وتفوقه على غيره، معلناً بأنه الأجدر باستقبال النبي نوح عليه السلام وسفينته وركابها.

ولكن جبلاً واحداً، وهو جبل (الجودي) الكائن في العراق، أظهر من نفسه التواضع بشكل حقيقي، ولم يتكبر ولم يشمخ. لذلك فإن حكمة الله سبحانه وتعالى وإرادته فاجأت الجميع، بأن دفعت بالسفينة إلى الاصطدام بجبل الجودي والرسوّ عليه دون سواه من الجبال المتفاخرة..

يقول الإمام الكاظم عليه السلام: «**فَأَوْحَى اللَّـهُ إِلَى الْجِبَالِ أَنِّي وَاضِعٌ سَفِينَةَ نُوحٍ عَبْدِي عَلَى جَبَلٍ مِنْكُنَّ فَتَطَاوَلَتْ وَشَمَخَتْ وَتَوَاضَعَ الْجُودِيُّ وَهُوَ جَبَلٌ عِنْدَكُمْ فَضَرَبَتِ السَّفِينَةُ بِجُؤْجُؤِهَا الْجَبَلَ**»(٢).

إذن؛ فإن من طبيعة التواضع أن يرتفع بالإنسان ويسمو به، بينما التكبر والغطرسة تضرب به في أوحال الذلة والسقوط.

وروي عن محمد بن مسلم، أنه قال: «سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَذْكُرُ أَنَّهُ: أَتَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله مَلَكٌ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّـهَ يُخَيِّرُكَ أَنْ تَكُونَ عَبْداً رَسُولاً مُتَوَاضِعاً،

---

(١) قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليهما السلام: «جَاءَ نَفَرٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ أَنْتَ الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّكَ الَّذِي يُوحَى إِلَيْكَ، كَمَا أُوحِيَ إِلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ. فَسَكَتَ النَّبِيُّ سَاعَةً ثُمَّ، قَالَ صلى الله عليه وآله: **نَعَمْ؛ أَنَا سَيِّدُ وُلْدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ...**». بحار الأنوار، ج٩، ص٢٩٤.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٦.

أَوْ مَلَكاً رَسُولًا. قَالَ: فَنَظَرَ إِلَى جَبْرَئِيلَ، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ أَنْ تَوَاضَعْ. فَقَالَ ﷺ: **عَبْداً مُتَوَاضِعاً رَسُولًا**. فَقَالَ الرَّسُولُ (الملك): مَعَ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُكَ مِمَّا عِنْدَ رَبِّكَ شَيْئاً -قَالَ- وَمَعَهُ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الْأَرْضِ»(١).

لقد قام أحد المستشرقين المسيحيين بتأليف كتاب، انتخب فيه مئة شخصية تاريخية من بين عشرة آلاف اسم ظهر حتى القرن العشرين، كان لها أكبر الأثر على المسيرة البشرية، ثم إنه وضع اسم النبي الأكرم محمد ﷺ في المرتبة الأولى في كتابه المشار إليه.

فوجه بعض المؤرخين انتقاداتهم لهذا المستشرق على طريقة انتخابه الأسماء وترتيبها، إذ كان -حسب رأيهم- من الشخصيات من له تأثير بالغ، كالنبي عيسى عليه السلام والاسكندر. وفي معرض الإجابة على ذلك قال: لقد تسلم نبي الإسلام زمام الحكم في زمنه، وأخضع كثيراً من المناطق لسلطته، وكان له التأثير الأكبر على مصير العالم أجمع. لماذا؟.

لأن محمداً ﷺ اختار أن يكون عبداً متواضعاً رسولاً، والتواضع هو الذي رفعه ليكون أكبر شخصية مؤثرة عبر التاريخ كله.

معيار التواضع

من الجدير بمكان أن نضع معياراً خاصاً للتواضع، نستفيد منه في سلوكنا تجاه الآخرين. فأنت حينما تدخل مجلساً من المجالس، فإنك قد تحب أن يقوم لك الناس ويفسحوا في المجلس. وعلى هذا؛ يكون من اللائق أن تقوم للآخرين بدورك.

ولهذا أصبح واحداً من معايير التواضع أن تحب لغيرك ما تحب لنفسك، وأن تقدم لهم ما تحب أن يقدموه لك. وفي هذا المجال روي عن الإمام الرضا عليه السلام

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٦.

أنه قال: «**التَّوَاضُعُ أَنْ تُعْطِيَ النَّاسَ مَا تُحِبُّ أَنْ تُعْطَاهُ**»[١]. وأيضاً أن تمتنع عن القيام بالعمل الذي تكره أن تتعرض له، بل وأن تذهب أبعد من ذلك، حيث ينبغي أن تسعى إلى درء السيئة بالحسنة، فإذا لم يحيّك أحدهم، فعليك أن تحييه، وأن تصل من يقطعك. وقد وصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأنهم: ﴿**يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**﴾[٢].

فيلزم الامتناع عن الحقد والضغينة والرد بالمثل والعصبيات القبلية والحزبية.. فليس من المناسب أن يكون القلب صندوقاً للخرافات والوساوس الشيطانية، لأنه من المفترض أن يكون وعاءً طاهراً لذكر الله ومعرفته سبحانه وتعالى.

وفي حديث آخر يقول الإمام الرضا عليه السلام: «**التَّوَاضُعُ دَرَجَاتٌ، مِنْهَا: أَنْ يَعْرِفَ الْمَرْءُ قَدْرَ نَفْسِهِ، فَيُنْزِلَهَا مَنْزِلَتَهَا بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، لَا يُحِبُّ أَنْ يَأْتِيَ إِلَى أَحَدٍ إِلَّا مِثْلَ مَا يُؤْتَى إِلَيْهِ، إِنْ رَأَى سَيِّئَةً دَرَأَهَا بِالْحَسَنَةِ، كَاظِمُ الْغَيْظِ، عَافٍ عَنِ النَّاسِ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**»[٣].

صعوبة بناء الذات

وإذا استطاع أحد الأشخاص أن يقلع جذور التكبر من أعماق نفسه، فإنه لا شك سيصبح في عداد أولياء الله تعالى. ولكن إنجاز هذه العملية يعد أمراً شاقاً جداً، وهناك الكثير من الناس الذين نتصور أنهم قد بنوا ذواتهم، لا يزالون بعيدين عن الوصول إلى درجة القمع التام لرذيلة التكبر في أنفسهم.

رُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي نَصْرٍ، قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ الرِّضَا عليه السلام فَأَمْسَيْتُ عِنْدَهُ، قَالَ فَقُلْتُ: أَنْصَرِفُ؟. فَقَالَ لِي عليه السلام: **لَا تَنْصَرِفْ فَقَدْ أَمْسَيْتَ**. قَالَ: فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ. قَالَ فَقَالَ لِجَارِيَتِهِ عليه السلام: **هَاتِي مُضَرَّبَتِي، وَوِسَادَتِي فَافْرُشِي لِأَحْمَدَ فِي ذَلِكِ الْبَيْتِ**.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٦.

(٢) سورة القصص، آية: ٥٤.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٧.

قَالَ: فَلَمَّا صِرْتُ فِي الْبَيْتِ دَخَلَنِي شَيْءٌ، فَجَعَلَ يَخْطُرُ بِبَالِي مَنْ مِثْلِي فِي بَيْتِ وَلِيِّ اللَّهِ وَعَلَى مِهَادِهِ، فَنَادَانِي عليه السلام: **يَا أَحْمَدُ إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَادَ صَعْصَعَةَ بْنَ صُوحَانَ، فَقَالَ: يَا صَعْصَعَةَ بْنَ صُوحَانَ، لَا تَجْعَلْ عِيَادَتِي إِيَّاكَ فَخْراً عَلَى قَوْمِكَ وَتَوَاضَعْ لِلَّهِ يَرْفَعْكَ**»[1].

إن الكثير من الناس يتفاخر بما يقوم به من عبادة، على الرغم من بساطتها، وهذا ما يعد نقصاً كبيراً، إذ أن واحداً من أسباب عدم تقبل الصلاة هو أن الإنسان ينوي التفاخر بها بين الناس.

معيار الأخلاق

إن معالجة القضايا الأخلاقية، تضع بين أيدينا معايير أخلاقية جديرة بالاهتمام، ففي كثير من الموارد نظن أننا على درجة من التواضع، ولكننا إذا عرّضنا أنفسنا للامتحان، وجدنا أننا لا نزال متكبرين. وهنا ينبغي أن نهتم بالمعايير التي تضعها الروايات الشريفة المتعلقة بهذا الشأن، حتى نمتحن أنفسنا ونختبرها اختباراً دقيقاً.

ولكن المشكلة التي قد نواجهها في التعامل مع الروايات هي: تطور اللغة. فمما لاشك فيه أن اللّغة من الأمور المتغيرة والمتطورة مع تطور مجريات الحياة، ومنذ زمن نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وحتى عصرنا الحاضر يكون قد انقضى أكثر من ألف وأربعمئة عام، وفي هذه المدة المديدة تطورت اللغة العربية، ووردت عليها كلمات ومفردات جديدة، وأضيف على قواميسها مصطلحات حديثة.

وها نحن قد فصلتنا مسافة كبيرة مع الكلمات التي كانت رائجة في زمن أهل البيت عليهم السلام. ومن هنا؛ فإن الكثير من الناس رغم أنهم عرب ويتحدثون اللغة العربية، قد لا يدركون معاني بعض الكلمات التي كانت سائدة آنذاك، وإذا هم

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٠، ص٢٩٣.

فهموا منها شيئاً، فإنه قد لا يصادف ما كان يفهمه المعاصرون للأئمة عليهم السلام.

أما نحن؛ فإذا أردنا استيعاب المفاهيم التي كان يقصدها الأئمة عليهم السلام، فما علينا إلا الاهتمام بالمطالعة والتعلم، لنتلقى الإشارات ورموز الكلمات وظلالها، وهذا الأسلوب هو الذي يتبعه المجتهدون ومراجع الدين.

حدّ التواضع

كان متعارفاً أن يعمد الأصحاب وحواريو أهل البيت عليهم السلام إلى الاستفسار منهم عما يخص حدود وتعاريف الخصال الأخلاقية الحميدة.

ومثال ذلك؛ أن الحسن بن الجهم قال: «سَأَلْتُ الرِّضَا عليه السلام فَقُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ مَا حَدُّ التَّوَكُّلِ؟. فَقَالَ لِي عليه السلام: **أَنْ لا تَخَافَ مَعَ اللَّـهِ أَحَداً**. قَالَ قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَمَا حَدُّ التَّوَاضُعِ؟. فَقَالَ عليه السلام: **أَنْ تُعْطِيَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ مَا تُحِبُّ أَنْ يُعْطُوكَ مِثْلَهُ**. قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ أَشْتَهِي أَنْ أَعْلَمَ كَيْفَ أَنَا عِنْدَكَ. فَقَالَ عليه السلام: **انْظُرْ كَيْفَ أَنَا عِنْدَكَ**»(١). هذه الرواية تعطينا معيار التواضع كما أشرنا من ذي قبل.

وكان النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم مثال التواضع، بحيث لم يكن يسعى حين يدخل مجلساً من المجالس أن يتصدره، بل كان يجلس أينما سنحت له الفرصة والمجال، كما أنه كان يسلم على كل من يصادفه في الطريق، ولم يكن مهماً بالنسبة له عمر أو مستوى من يلاقيه. ويوصينا الإمام الصادق عليه السلام بعدد من مظاهر وعلامات التواضع، حيث يقول: «**مِنَ التَّوَاضُعِ أَنْ تَرْضَى بِالْمَجْلِسِ دُونَ الْمَجْلِسِ، وَأَنْ تُسَلِّمَ عَلَى مَنْ تَلْقَى، وَأَنْ تَتْرُكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كُنْتَ مُحِقّاً، وَأَنْ لا تُحِبَّ أَنْ تُحْمَدَ عَلَى التَّقْوَى**»(٢).

فمن الصفات الأخلاقية الحميدة والخصال الطيبة التي تدل على تواضع

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٧.
(٢) الكافي، ج٢، ص١٢١.

المؤمن، تركه الجدال مع إخوانه في الدين، وإن كان محقاً. وهنا ينبغي له أن يخلق في نفسه القدرة والسيطرة على ذاته، فيختار السكوت أو يمتنع عن مواصلة البحث في حالة تورطه في الجدل العقيم والنزاع الأناني.

الدين.. ليس سُلّماً للشهرة

من صفات المؤمن الأخرى التي أشارت إليها الرواية السابقة، هي أنه لا ينتظر أن يمتدحه الناس وأن يكون محط تقديرهم وإكرامهم بسبب تقواه.

فقد يتوقع المرء أن يكال له المدح والثناء، بداعي الثروة التي يتمتع بها، وليس هذا بالأمر الغريب على الصعيد الدنيوي، ولكن الأمر على الصعيد المعنوي والأخروي لن يكون صحيحاً أبداً.

قصدني أحد طلاب العلوم الدينية يوماً وقال: أطلب منك أن تنصحني.

فقلت له: اجهد أن لا تخلط مسائل دينك برغباتك الدنيوية، فإذا كنت تقصد التكسب، فاعلم أن هناك من المشاغل والمهن الكثيرة في الحياة، ولكنك إذا أردت الذهاب إلى المسجد، فلا يكن الباعث لك دنيوياً، ولا تحول المسجد إلى مكان للتكسب والتعيش والربح!، وإذا كنت تعمل في حقل التأليف، فلا تحاول أن تتوصل إلى الشهرة والمعيشة عن طريق التأليف الديني والفقهي.

ولعل من المناسب جداً أننا إذا كنا ممن يبني المساجد -مثلاً- أن نسعى ولو مرة واحدة لبناء مسجد في مكان لا يعرفنا فيه أحد، حتى لا ننتظر تقديم آيات الشكر والثناء لنا.

وإذا كنا من أهل الخطابة والمنبر؛ فلنرقَ المنبر مع عدم تبييت النية للانتفاع المالي أو تحقيق الشهرة وأشباه ذلك. فإذا قررت -أيها الخطيب- ارتقاء المنبر، فاذهب إلى مكان بعيد لا تُعرف فيه، أو إليمسجد رواده من الفقراء، اذهب واخطب لوجه الله تعالى دون سواه، لتتمكن من كسب قلوب الحاضرين، دون نية مادية.

وأنا شخصياً أعرف طبيباً يتمتع بوضع مالي جيد، ومن طريقته أنه يقصد المناطق النائية المحرومة ليعالج المرضى فيها دون مقابل، بالإضافة إلى حمله الأدوية إليها.

وعلى أية حال، يجب أن لا ننسى أبداً أننا نعبد رباً وصف في الأحاديث والروايات الشريفة بأنه (ناقد بصير) ولا يمكن التمويه عليه بالأعمال المزيَّفة، فهو يكشف العمل المزيَّف عن الخالص بكل سهولة. فطوبى لمن أخلص النية لله في أعماله.

التواضع عند تجدُّد النعمة

إن كل نعمة تعطى للإنسان، لها تبعات ومردودات سلبية، ووظيفة المرء إذ ذاك أن يصون نفسه عن هذه التبعات السلبية بواسطة التوكل على الله سبحانه وتعالى، والشكر على النعمة، والتواضع،والتحلي بسائر الأخلاق الفاضلة.

فإذا رأيتم في يوم من الأيام عدم وجود مشكلة مالية، أو سلامة مطلقة في أبدانكم أو طبيعة أمنكم، فما عليكم إلا أن تستشعروا القلق، لأن إقبال النعم وتواليها على الإنسان يمكن أن تكون مقدمة لطغيانه، وقد دمر الكثير من الأمم اطمئنانها إلى النعم التي تواترت عليها، واغترارها وطغيانها بما رأت من إمكانات متوافرة عندها.

ونقرأ في قصة النبي سليمان عليه السلام أن هذا النبي الجليل قد شعر لدى اقتداره وسلطته على القوى الطبيعية أنه قد أوتي ملكاً عظيماً، وفي تلك اللحظة سمع من النمل -باعتباره كان يعرف منطق الحيوانات- أنّ هذا الحيوان الصغير يعترف بملكه وسلطانه، وأنه يخافه بالفعل، وقد نقل القرآن الكريم على لسان النمل: **﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾**[1].

---

(١) سورة النمل، آية: ١٨.

وهنا؛ ربما قال النبي سليمان عليه السلام في نفسه: إن هذا الملك العظيم الذي أوتيته، قد يكون سبباً للكثيرين للسقوط في أوحال الكفر والطغيان والغفلة عن الله، ولهذا فقد دعا ربه أن يوفقه لشكر النعمة، والعمل الصالح وأن يدخله سبحانه وتعالى في عباده الصالحين: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

وهذا الخضوع والتوسل من جانب النبي سليمان عليه السلام كان بسبب خطورة النعمة، ولذلك فقد طلب من ربه التوفيق لتقديم الشكر له حتى ينجو من الابتلاء والفتنة.

وفي مشهد آخر نجد أن النبي سليمان عليه السلام كان يعد العدة ويجيِّش الجيش العظيم لغرض الجهاد في سبيل الله تعالى، وعند استعراض فرق الجياد غفل لحظة عن ذكر الله، ولكنه سرعان ما عاد إلى ذكره: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[2].

وعلى هذا الأساس؛ يجب على الإنسان دائماً أن يوطِّد العلاقة مع ربه المتعالي، وأن يطلب إليه أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين أبداً، وأن يكون دعاؤه دائماً: إلهي؛ أنعم عليَّ نعمةً لا تجرني إلى الطغيان والعصيان.

إن كثيراً من الكفار والمنافقين عادةً ما يخسرون أنفسهم حينما يرون أنهم غارقون في الإمكانات والرفاهية، وقد سمّى القرآن هذه الحالة استدراجاً من الله سبحانه وتعالى، حيث ينشغل الإنسان بالأمور الدنيوية التافهة في غفلة وجهالة وغيبوبة عقل، وفي لحظات السكر بالدنيا وزخارفها يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر. يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

فعندما يرتكب الإنسان معصية ما، فقد لا تزول عنه النعم،بل تتضاعف لديه،

---

(١) سورة النمل، آية: ١٩.

(٢) سورة ص، آية: ٣٢-٣٣.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٨٢.

وحينئذٍ عليه ألاّ يغفل وأن يحذر ويتوجس خيفة ولا يفرح بما أوتي.

إن الروايات الشريفة تؤكد على أن المؤمن إذا ارتكب موبقة، فإنه سرعان ما يُعاقَب عليها، الأمر الذي يؤدي إلى يقظته من نوم الغفلة، والانتباه إلى ضرورة تعديل مسيرته في الحياة. وقد قال الله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾**(١).

وقد روي عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾**، قَالَ عليه السلام: **هُوَ الْعَبْدُ يَهُمُّ بِالذَّنْبِ ثُمَّ يَتَذَكَّرُ فَيُمْسِكُ.** فَذَلِكَ قَوْلُهُ: **﴿تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾**»(٢).

العلاقة بين الخالق والمخلوق

روي عن أبي عبد الله عليه السلام: «فِي حَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، مَعَ النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ، أَنَّ النَّجَاشِيَّ قَالَ: إِنَّا نَجِدُ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى عِيسَى عليه السلام أَنَّ مِنْ حَقِّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يُحْدِثُوا لِلَّهِ تَوَاضُعاً عِنْدَ مَا يُحْدِثُ لَهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ.

فَلَمَّا بَلَغَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله قَالَ لِأَصْحَابِهِ: **إِنَّ الصَّدَقَةَ تَزِيدُ صَاحِبَهَا كَثْرَةً، فَتَصَدَّقُوا يَرْحَمْكُمُ اللَّهُ، وَإِنَّ التَّوَاضُعَ يَزِيدُ صَاحِبَهُ رِفْعَةً، فَتَوَاضَعُوا يَرْفَعْكُمُ اللَّهُ، وَإِنَّ الْعَفْوَ يَزِيدُ صَاحِبَهُ عِزّاً، فَاعْفُوا يُعِزَّكُمُ اللَّهُ**»(٣).

فكأن هناك علاقة متبادلة بين الإنسان وربه الكبير المتعالي، فالله ينعم على الإنسان بنعمة، والعبد يقابلها بالشكر والامتنان، ويضاعف الله عليه النعمة، والعبد يضيف إلى شكره شكراً جديداً، ويتفضل الله على العبد بنعمة المال والثروة، والعبد ينفق المال في سبيل الله، ثم الله يضاعف له ثروته وهكذا.. لذا نجد أن

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٠١.
(٢) بحار الأنوار، ج٦، ص٤٠.
(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٨.

رسول الله ﷺ قال لأصحابه في الرواية السابقة: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ تَزِيدُ صَاحِبَهَا كَثْرَةً فَتَصَدَّقُوا يَرْحَمْكُمُ اللّـهُ**».

وروي عن علي بن سويد السَّائِيِّ، عن أبي الحسن موسى الكاظم عليه السلام قال: قُلْتُ لَهُ: «أَوْصِنِي. فَقَالَ عليه السلام: **آمُرُكَ بِتَقْوَى اللهِ**. ثُمَّ سَكَتَ، فَشَكَوْتُ إِلَيْهِ قِلَّةَ ذَاتِ يَدِي وَقُلْتُ: وَاللهِ لَقَدْ عَرِيتُ حَتَّى بَلَغَ مِنْ عُرْيِي، أَنَّ أَبَا فُلَانٍ نَزَعَ ثَوْبَيْنِ كَانَا عَلَيْهِ فَكَسَانِيهِمَا. فَقَالَ عليه السلام: **صُمْ وَتَصَدَّقْ**. فَقُلْتُ: أَتَصَدَّقُ مِمَّا وَصَلَنِي بِهِ إِخْوَانِي وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا ؟!. قَالَ عليه السلام: **تَصَدَّقْ بِمَا رَزَقَكَ اللّـهُ، وَلَوْ آثَرْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[1].

ويقول رسول الله ﷺ -كما قرأنا في الرواية السابقة-: «**وَإِنَّ التَّوَاضُعَ يَزِيدُ صَاحِبَهُ رِفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يَرْفَعْكُمُ اللّـهُ**».

ونحن نلاحظ أن الرسول ﷺ نفسه طبق هذا المبدأ في حياته، فقد كان فتح مكة أكبر انتصار حققه المسلمون في عهد النبي ﷺ، بل وإلى عصرنا الحاضر، وأثناء الفتح شوهد النبي ﷺ يدخل مكة راكباً على ناقته، حانياً ظهره وكأنه ساجد، ليصور للناس حقيقة خضوع وتواضع الفاتح أمام الله عز وجل، وهذا الخضوع والتواضع هو الذي رفع من شأن النبي ﷺ عبر التاريخ.

تواضع العالِم والمتعلِّم

ينبغي التواضع للعالم، كما ينبغي التواضع للمتعلم، لأن جوهر العلم يبعث على التواضع.

يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَتَزَيَّنُوا مَعَهُ بِالْحِلْمِ وَالْوَقَارِ وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَهُ الْعِلْمَ وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ طَلَبْتُمْ مِنْهُ الْعِلْمَ وَلَا تَكُونُوا عُلَمَاءَ جَبَّارِينَ فَيَذْهَبَ بَاطِلُكُمْ بِحَقِّكُمْ**»[2].

---

(١) وسائل الشيعة، ج٦، ص٣٠١.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٩.

وجاء في الحديث: «قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام لِلْحَوَارِيِّينَ: **لِي إِلَيْكُمْ حَاجَةٌ اقْضُوهَا لِي**. فَقَالُوا: قُضِيَتْ حَاجَتُكَ يَا رُوحَ اللهِ. فَقَامَ فَغَسَلَ أَقْدَامَهُمْ**!**. فَقَالُوا: كُنَّا أَحَقَّ بِهَذَا مِنْكَ. فَقَالَ عليه السلام: **إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْخِدْمَةِ الْعَالِمُ، إِنَّمَا تَوَاضَعْتُ هَكَذَا لِكَيْمَا تَتَوَاضَعُوا بَعْدِي فِي النَّاسِ كَتَوَاضُعِي لَكُمْ**.

ثُمَّ قَالَ عِيسَى عليه السلام: **بِالتَّوَاضُعِ تُعْمَرُ الْحِكْمَةُ لَا بِالتَّكَبُّرِ، وَكَذَلِكَ فِي السَّهْلِ يَنْبُتُ الزَّرْعُ، لَا فِي الْجَبَلِ**»[1].

التواضع في المأكل والمشرب

إن الإنسان القانع الذي يرضى في مأكله ومشربه بما يسد رمقه دون تبذير وحرص وإسراف، يتمتع بأفضل عيشة وأهدئها، بينما الإنسان الحريص الطامع الذي يصب كل اهتمامه في الحياة علياالاستزادة من الطعام والشراب، لايهنأ بحياته ويعود كل ليلة إلى بيته مرهقاً، فضلاً عن عدم رضى الله تعالى عنه. وعادةً لا يصل الإنسان الحريص والطامع إلى ما يصبو إليه، رغم جهده وتكالبه، في حين أن الإنسان القانع يتمتع بالراحة في الدنيا والآخرة لأنه يمتلك أكبر رأسمال، وهو القلب المطمئن والسكينة الداخلية؛ فهو قد يقطن في خربة من الخرائب، ولكنه يبقى بشوشاً، يشعر بالراحة النفسية، بينما الذين يبدو عليهم الرفاه يبقون في حسرة وعذاب، حتى وإن عاشوا في أكبر القصور.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قانعاً في حياته، يرضى بأزهد الطعام والشراب، وكان في سلوكه هذا يضرب لنا أروع الأمثلة. فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**أَفْطَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله عَشِيَّةَ خَمِيسٍ فِي مَسْجِدِ قُبَا فَقَالَ: هَلْ مِنْ شَرَابٍ؟**.

فَأَتَاهُ أَوْسُ بْنُ خَوَلِيٍّ الْأَنْصَارِيُّ، بِعُسٍّ مَخِيضٍ بِعَسَلٍ، فَلَمَّا وَضَعَهُ عَلَى فِيهِ نَحَّاهُ**!**. ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وآله: **شَرَابَانِ يُكْتَفَى بِأَحَدِهِمَا مِنْ صَاحِبِهِ، لَا أَشْرَبُهُ وَلَا أُحَرِّمُهُ، وَلَكِنْ**

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٩.

أَتَوَاضَعُ لِلَّـهِ، فَإِنَّهُ مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّـهِ رَفَعَهُ اللَّـهُ، وَمَنْ تَكَبَّرَ خَفَضَهُ اللَّـهُ، وَمَنِ اقْتَصَدَ فِي مَعِيشَتِهِ رَزَقَهُ اللَّـهُ، وَمَنْ بَذَّرَ حَرَمَهُ اللَّـهُ، وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ أَحَبَّهُ اللَّـهُ»[١].

وهكذا فإن رسول الله ﷺ يعتبر القناعة في المأكل والمشرب تواضعاً لله، ومن يتواضع لله، فإن الله يرفعه. وعلى العكس من ذلك فإن من يتكبر لا بد أن يخفضه الله، لأن الكبرياء لله وحده عز وجل.

ثم يشير الرسول الأعظم ﷺ إلى أصلٍ حياتيٍّ هام، وهو ضرورة التدبير والاقتصاد في المعيشة. فالله سبحانه يرزق المقتصد، بينما المبذِّر لا يحصد سوى الحرمان.

وقد رأيتُ في بعض البلاد أن الناس لا يقدمون على تصرّف مالي في حياتهم اليومية دون محاسبة وإمعان نظر مسبق، فكل منهم أو معظمهم لديه جهاز حاسوب، حيث يدون في ذاكرة الحاسوب تفاصيل حساباته (من المداخيل والنفقات)، وحينما يقترح عليه بأن يشتري قطعة أثاث لبيته -مثلاً-، تراه يراجع حاسوبه الخاص ليرى ما إذا كانت ميزانيته وحساباته تسمح له بشراء ذلك دون إلحاق ضرر بضرورات حياته أم لا. وهذا السلوك أمر حسن جداً، وهو تطبيق عملي للتدبير والاقتصاد في المعيشة.

ثم بعد إسداء النصيحة لنا بشأن أمر دنيوي، ينتقل بنا رسول الله ﷺ ليذكِّرنا بالموت والآخرة، حتى لا ننسى مصيرنا عندما نتحدث عن الدنيا، فيقول: «**وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ أَحَبَّهُ اللَّـهُ**»، وفي رواية أخرى: «**أَظَلَّهُ اللَّـهُ فِي جَنَّتِهِ**»[٢].

الإسراف في الضيافة

وهنا نتوقف قليلاً عند جملة «**وَمَنْ بَذَّرَ حَرَمَهُ اللَّـهُ**» التي وردت في الحديث الشريف، حيث نلاحظ الإسراف والتبذير في حياة بعض الجماعات والشعوب

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٩-٢٢٠.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢١٩-٢٢٠.

دون أن يعرفوا أن هذا السلوك الخاطئ يؤدي بهم في نهاية المطاف إلى الحرمان.

لقد رأيتُ بنفسي في بعض البلاد الثرية كيف تمد الموائد التي لا يتناول منها إلا عشرة بالمئة، ثم بعد انتهاء الضيافة يتم جمع الطعام ليرمى في صناديق القمامة.

وعندما اعترضت على هذا التصرف غير اللائق وقلت: إن هذا العمل مصداق صارخ للإسراف، لأن طعاماً كثيراً لم يؤكل بعد، فلماذا يُهمل بهذه الطريقة؟.

فأجابني صاحب الدار: لا حيلة لنا في ذلك، فالطعام المتبقي سيفسد لا محالة!.

فقلت: أوليس لديكم من الثلاجات ما تضعون فيها هذا الطعام؟.

فقال لي: إن ثلاجاتنا لا تسع لحفظ كل هذا الطعام المتبقي.

فسألت: ألا تستطيعون أن تطعموا الفقير به؟. فأجابني: لا يوجد فقراء بالقرب منا!.

وبعد مدة، وجدت أن هذا البلد قد ابتلي بالنقص في النعم ومواجهة الصعاب الاقتصادية إلى حدٍ عمد فيه المسؤولون إلى تقنين توزيع المواد الغذائية لشحتها.

من المؤسف أن كثيراً منا يتعمد التظاهر والرياء لدى تناولنا للطعام، سواء على الصعيد الكمي أو الكيفي.

إن الإسراف في تناول الطعام له تبعات سلبية كثيرة، حتى أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**لَا صِحَّةَ مَعَ النَّهَمِ**»[1].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**كُلُّ دَاءٍ مِنَ التُّخَمَةِ، مَا خَلَا الْحُمَّى فَإِنَّهَا تَرِدُ وُرُوداً**»[2].

ونجد القاعدة نفسها سارية فيما يخص المسائل الجنسية، حيث هناك من

(١) مستدرك الوسائل، ج١٦، ص٢٢٣.
(٢) بحار الأنوار، ج٦٣، ص٣٣٦.

يُسرف فيها ويخرج عن حد الاعتدال، إذ أن الحاجة الجنسية لدى الإنسان يتم إشباعها بالطريقة الطبيعية التي أودعها الله في الرجل والمرأة عن طريق الزواج. وعلى أكثر تقدير، فإن الرجل له أن يصل إلى حد الإشباع الجنسي الكامل عن طريق تعدد الزوجات، ولكن بعض الناس يسرفون في ذلك، فيسلكون طرقاً غير مشروعة، كالزنا والشذوذ الجنسي ومقاربة الحيوانات، ليرضوا غرائزهم الجنسية، بعيداً عن النظام الطبيعي لها.

ومثل هؤلاء الناس لا شك يعانون أمراضاً نفسية، وهم إذا ما عادوا إلى ذواتهم، وجدوا أن غرائزهم غنية عن الإشباع غير الطبيعي، وأن حاجتهم هذه إنما هي حاجة كاذبة.

القناعة والتواضع

وهنا نتساءل: لماذا تم إطلاق عبارة «التواضع في المأكل» تعبيراً عن القناعة؟.

الجواب: إن التكبر يدفع بالإنسان إلى الشره والإسراف في تناول الطعام كماً أو كيفاً، في حين أن بدنه لا يحتاج إلى كل ذلك.

وهكذا نجد أن الانحرافات الروحية كالطمع والحرص والتنافس في الماديات كم لها من التأثير السلبي على الصعيد الاجتماعي، فإذا كانت روح الإنسان سالمة، إتجه إلى الاعتدال في المأكل والمنام وسائر الممارسات المادية، وبالتالي ستعود الفائدة على الفرد والمجتمع.

12

المؤمن.. لا يظلم

يُعتبر الظلم من أقبح الذنوب التي قد يرتكبها الإنسان، خاصة إذا كان الظلم بحق الناس، والإسلام يؤكد على حفظ الحقوق والحُرمات، وعدم تجاوز الحدود المرسومة في العلاقات بين الناس. يقول رسول الله ﷺ: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّهُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[١].

وروي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَظْلِمُ مَظْلَمَةً إِلَّا أَخَذَهُ اللَّـهُ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّـهِ فَإِذَا تَابَ غَفَرَ لَهُ**»[٢].

والظلم بحق الآخرين من الذنوب التي لا يكفي الاستغفار للتخلص من تبعاتها، إذ أن على الظالم أن يقوم بإصلاح كل آثارها الخارجية في حياة من وقع عليه الظلم، وردّ حقوقه إليه، أما إذا كان عاجزاً عن ذلك فعليه -على أقل التقادير- أن يستغفر له.

إذ من الطبيعي أن بعض الظلم يتم بصورة لا يستطيع بها الظالم الوصول إلى المظلوم، ليعيد له حقه، وفي مثل هذه الحالة يُيسِّر الله سبحانه وتعالى طرقاً أخرى للظالم التائب، للتخلص من جريرته.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٣٨.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٣٨.

فقد روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «**الظُّلْمُ ثَلَاثَةٌ: ظُلْمٌ يَغْفِرُهُ اللَّـهُ، وَظُلْمٌ لَا يَغْفِرُهُ اللَّـهُ، وَظُلْمٌ لَا يَدَعُهُ اللَّـهُ. فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ فَالشِّرْكُ. وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يَغْفِرُهُ، فَظُلْمُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّـهِ. وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَدَعُهُ، فَالْمُدَايَنَةُ بَيْنَ الْعِبَادِ**»(١).

إن الظلم الذي لا يُغتَفَر هو الشرك بالله عز وجل. والمقصود من الشرك هنا، هو الشرك الواضح والجلي؛ أي الشرك في العبادة.

أما النوع الآخر من الظلم، فهو الواقع بين الإنسان وربه، وهذا النوع من الممكن أن يعالجه الإنسان بالتوبة، فيرفعه الله عنه.

والمقصود من كلمة «**يَغْفِرُهُ**» الواردة في الرواية أعلاه، ليس أن يكون الله عز وجل مجبراً على الغفران، بل إن المغفرة تنضوي تحت مشيئة الله في الرحمة والصفح. فلا شك أن تارك الصلاة مثلاً إن أصرَّ على ظلمه، ولم يستغفر ربه، ولم يعد إلى ممارسة هذه العبادة، فهو جدير بالعقوبة. ولكن؛ لعل الله يغفر له إن تاب وعاد.

والنوع الثالث من الظلم، فهو الظلم الواقع بين الإنسان ونظيره الإنسان، وعدم قضاء الديون -بأنواعها- المتعلقة بالذمم، فهذا النوع يرتبط ارتباطاً مباشراً برضى الإنسان المظلوم وصفحه عن ظالمه.

وجاء في رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**مَا يَأْخُذُ الْمَظْلُومُ مِنْ دِينِ الظَّالِمِ أَكْثَرُ مِمَّا يَأْخُذُ الظَّالِمُ مِنْ دُنْيَا الْمَظْلُومِ**»(٢).

والواقع هو أن ما يُقرِّب الناس إلى المجتمع المدني الصالح ويحقق الاستقرار والأمن فيه، هو الالتزام بالأخلاق الحميدة والمعتقدات والقيم السليمة من قبل الناس أنفسهم، وإلا فإن مجرد وجود القوانين -على افتراض سلامتها ووجهتها الإنسانية- غير كافٍ لمنع الناس عن ممارسة الظلم. فهذا العالم الغربي فيه من

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٤٢.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٤٢.

القوانين ما يفوق قوانين حكوماتنا كثرةً ومرونة، كما لديه الإمكانات التنفيذية الكفيلة بتطبيق تلك القوانين، ولكننا نرى الظلم مستفحلاً للغاية في البلدان الغربية، وذلك بسبب انعدام القيم الأخلاقية السليمة.

وقال شيخ من النخع للإمام الباقر عليه السلام: «إِنِّي لَمْ أَزَلْ وَالِياً مُنْذُ زَمَنِ الْحَجَّاجِ إِلَى يَوْمِي هَذَا فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟. قَالَ: فَسَكَتَ ثُمَّ أَعَدْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ عليه السلام: **لَا؛ حَتَّى تُؤَدِّيَ إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**»(١).

وجاء في رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ مَالِ أَخِيهِ ظُلْماً وَلَمْ يَرُدَّهُ إِلَيْهِ أَكَلَ جَذْوَةً مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢).

ويبدو أن الإنسان المجرم سيواجه نوعين من العذاب في يوم القيامة:

الأول: العذاب الذي يقابل جريمة مخالفة القانون الإلهي.

والثاني: نفس العمل -الذنب- الذي يتحوّل في يوم القيامة إلى نار ووبال عليه. وقد عبَّر القرآن المجيد عن النوعين من العذاب فقال تارةً: ﴿**سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾(٣)، وهذا يعني أن نفس العمل يتحول إلى جزاء وعقاب، وقال تارةً أخرى: ﴿**فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾(٤)، أي يعذبهم بسبب ما كانوا يعملون من ذنوب.

إن جميع الموبقات التي يمارسها الإنسان في الحياة الدنيا سيراها في جهنم على هيئة الأفاعي والعقارب والحيوانات الضارية التي تكيل له الأذى والعذاب طيلة مكوثه في نار جهنم.

وفي حديث آخر؛ روى الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٤٢.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٤٢.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٨٠.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٠٨.

قوله: «**مَنْ ظَلَمَ أَحَداً وَفَاتَهُ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللّـهَ لَهُ فَإِنَّهُ كَفَّارَةٌ لَهُ**»(١).

ومثال ذلك؛ أن الناس أثناء قيادتهم للسيارات طيلة اليوم يظلمون بعضهم بعضاً، فقد يصادرون حق غيرهم في التقدم، ثم إنهم يفترقون بعد لحظات، فلا يستطيع الظالم اللحاق بالمظلوم ليعتذر إليه. ولمثل هذا المورد جُعِل الاستغفار للمظلوم، ليكون كفارة عن ظلم الظالم.

وطبقاً للروايات الواردة عن النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، فإن الإنسان يُحاسب يوم القيامة حتى عن أرش الخدش، كتعبير عن صغائر المظالم التي لا يحسب لها المرء حساباً فيما يصدر عنه من سلوك.

ولكن للأسف؛ نرى تفشي ظاهرة التجاوز والاعتداء المتبادل بين الناس في مجتمعاتنا.. وقد كان أحد الأصدقاء يشكو سلوك طفله المشين ويقول: أصبح سلوك ولدي عدائياً، وهو يتفوه بالألفاظ الركيكة البذيئة، ولا أدري أين وكيف تعلم ذلك، وحينما سألت زوجتي عن ذلك، قالت: إنما تعلم ذلك منك أنت قبل غيرك.

فتعجبت لجوابها، وسألت: وكيف ذاك؟. قالت: إن ولدنا كثيراً ما يجلس إلى جانبك حينما تقود السيارة، ويسمع جيداً كيف تتوجه بالسباب وبذيء الكلام إلى من يتقدمك بسيارته، ومن الطبيعي أن يتعلم ويتعود على ما يرى منك من سلوك شائن.

وتبعاً لذلك فإن جميع هذه النماذج ستكتب في قائمة أعمالنا وبكل دقة، والجدير بالذكر أن كثيراً من الذنوب التي تُرتكب في الدنيا تذهب في طي النسيان بالنسبة لنا، ولذلك فإننا نغفل عن واجب الاستغفار منها، فتراها تتجمع شيئاً فشيئاً حتى تكبر في كتاب أعمالنا الذي قد تصبح صفحاته ذات يوم قاتمة السواد، والعياذ بالله. إن صغائر الذنوب التي يستحقرها أصحابها تتحول إلى كبائر.

قال الإمام الكاظم عليه السلام: «.. **وَلَا تَسْتَقِلُّوا قَلِيلَ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ قَلِيلَ الذُّنُوبِ**

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٤٣٣.

يَجْتَمِعُ حَتَّى يَكُونَ كَثِيراً»[١]. وقال الإمام علي عليه السلام: «**لا تَسْتَصْغِرُوا قَلِيلَ الآثَامِ، فَإِنَّ الصَّغِيرَ يُحْصَى، وَيَرْجِعُ إِلَى الْكَبِيرِ**»[٢].

وروى الإمام محمد الباقر عليه السلام، عن النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، أنه قال: «**مَنِ اقْتَطَعَ مَالَ مُؤْمِنٍ غَصْباً بِغَيْرِ حَقِّهِ، لَمْ يَزَلِ اللَّهُ مُعْرِضاً عَنْهُ، مَاقِتاً لِأَعْمَالِهِ الَّتِي يَعْمَلُهَا مِنَ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ، لَا يُثْبِتُهَا فِي حَسَنَاتِهِ حَتَّى يَتُوبَ، وَيَرُدَّ الْمَالَ الَّذِي أَخَذَهُ إِلَى صَاحِبِهِ**»[٣].

مَنْ أَضَلَّ الناس

ومن أبرز مصاديق الظلم هو إضلال الناس وتحريفهم عن جادة الصواب، وتوبة مَنْ أضلّ الناس هو أن يجمع الذين أضلهم، ويعيدهم إلى طريق الخير والصلاح، وليس مجرد الدعاء والبكاء وإعلان التوبة.

وحين يتطرق القرآن الكريم إلى موضوع التوبة، فإنه يلحقه بالإصلاح، باعتباره يجسد التوبة العملية عن سوء العمل الذي ارتكبه الإنسان من قبل. قال الله تعالى: ﴿**فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[٤].

أما عن إضلال الناس وكيفية التوبة عن هذا الظلم، نقرأ الحديث المأثور عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، حيث قال:

«كَانَ رَجُلٌ فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ، طَلَبَ الدُّنْيَا مِنْ حَلَالٍ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا، وَطَلَبَهَا مِنْ حَرَامٍ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا، فَأَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَقَالَ لَهُ: **أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ تُكْثِرُ بِهِ دُنْيَاكَ وَتُكْثِرُ بِهِ تَبَعَكَ؟**.

فَقَالَ: بَلَى. قَالَ: **تَبْتَدِعُ دِيناً وَتَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ**.

---

(١) الكافي، ج٢، ص٢٨٧.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٠، ص٣٥١.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٤٣.

(٤) سورة المائدة، آية: ٣٩.

فَفَعَلَ فَاسْتَجَابَ لَهُ النَّاسُ وَأَطَاعُوهُ، فَأَصَابَ مِنَ الدُّنْيَا. ثُمَّ إِنَّهُ فَكَّرَ فَقَالَ: مَا صَنَعْتُ ابْتَدَعْتُ دِيناً، وَدَعَوْتُ النَّاسَ إِلَيْهِ، مَا أَرَى لِي مِنْ تَوْبَةٍ، إِلَّا أَنْ آتِيَ مَنْ دَعَوْتُهُ إِلَيْهِ فَأَرُدَّهُ عَنْهُ. فَجَعَلَ يَأْتِي أَصْحَابَهُ الَّذِينَ أَجَابُوهُ فَيَقُولُ: إِنَّ الَّذِي دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ بَاطِلٌ وَإِنَّمَا ابْتَدَعْتُهُ. فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: كَذَبْتَ!، هُوَ الْحَقُّ وَلَكِنَّكَ شَكَكْتَ فِي دِينِكَ، فَرَجَعْتَ عَنْهُ. قَالَ: فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عَمَدَ إِلَى سِلْسِلَةٍ فَوَتَدَ لَهَا وَتِداً، ثُمَّ جَعَلَهَا فِي عُنُقِهِ، وَقَالَ: لَا أَحُلُّهَا حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ.

فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، قُلْ لِفُلَانٍ: وَعِزَّتِي لَوْ دَعَوْتَنِي حَتَّى تَنْقَطِعَ أَوْصَالُكَ مَا اسْتَجَبْتُ لَكَ حَتَّى تَرُدَّ مَنْ مَاتَ عَلَى مَا دَعَوْتَهُ إِلَيْهِ فَيَرْجِعَ عَنْهُ»[1].

فهذا الرجل لم يوفق إلى نيل الدنيا عن طريق الحلال؛ لا بمعنى أنه لم يحصل على رزقه الطبيعي عن طريق الحلال، فالرزق الكافي يضمنه الله للإنسان، إنما الحرص والطمع وطلب المزيد هو الذي قد لا يتحقق عن طريق الحلال.

ومهما يكن؛ فإن الرجل قد شعر بأن مساعيه الحثيثة إلى نيل المزيد من حطام الدنيا لن يلبيها الرزق الحلال، فقرر أن ينال ذلك عن طريق الظلم والتعدي، ولكنه لم يجد في نفسه الجرأة على ذلك أيضاً،وهنا وسوس له الشيطان الذي كان يرقبه ويتبعه، حيث رأى فيه لقمة سائغة لتحقيق مآربه ونواياه الشريرة، فأوحى له أن يبتدع ديناً جديداً يحصل من خلاله على ما يريد من حطام الدنيا.

وهكذا ابتدع الرجل ديناً جديداً للوصول إلى زخارف الدنيا، فاتبعه بعض الناس بعد أن خرجوا عن دينهم، وبعد مدة من الزمن على وقوع هذه الحادثة، عاد الرجل إلى وعيه وقرر التوبة،ولكنه كان يعرف بأن إعلان التوبة وحده لن يكون كافياً لنيل مغفرة الله تعالى، وأن عليه إعادة الذين خدعهم إلى الصراط المستقيم.

إلا أن مساعيه في إعادة الناس إلى الهدى باءت بالفشل، حيث لم يستجب أتباعه إلى موقفه الجديد. وحينما رآى ذلك منهم، عمد إلى سلسلة وقيد بها يديه ورجليه

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٤٤-٣٤٣.

وثبتهما إلى الأرض وقال: سأبقى على هذه الحالة حتى يغفر الله لي ويقبل توبتي!.

فأوحى الله تعالى إلى أحد أنبيائه أن يقول للرجل: لو دعوتني حتى تتقطع أوصالك ما استجبت لك، حتى ترد من مات على ما دعوته إليه فيرجع عنه!.

إن هذه الرواية تشير إلى أن التبليغ للدين، والإرشاد إلى الحق ليسا بالأمر الهين أو القول الهزل، بل إنها مسؤولية عظيمة للغاية، وليس عبثاً أن كانت أيدي الفقهاء العظام ترتجف هلعاً وقلقاً لدى تحريرهم بعض الفتاوى، فيضطرون إلى استخدام مفردات فقهية مثل كلمة: (الأحوط)، و(الأظهر) لأنهم كانوا يخافون من أن لا تكون آراؤهم صائبة.

وإنني أعرف أحد طلبة العلوم الدينية قد عاقب نفسه بكفارة، رغم أنه لم يصدر الفتوى، وإنما بيّن مسألة شرعية للناس فقط، ولكنه تنبه فيما بعد إلى أنه لم ينقل إليهم الحكم الشرعي الصحيح، ولذلك ألزم نفسه بصيام ستين يوماً، ولأنه كان عاجزاً عن القيام بذلك فقد أطعم ستين مسكيناً.

إننا يجب أن نسعى إلى المحافظة على دين الله نزيهاً سالماً، فنعرضه على الناس بصورة صحيحة وواقعية، حتى وإن كان أتباعه قليلي العدد، أو لم يقع موقع الرضى من قبل البعض.

فإذا كان عشرة أشخاص يلتزمون الديانة الحقة في الدنيا، فذلك أفضل من وجود مئتي مليون شخص يدينون بالدين الناقص والمنحرف.

حرمة الخنوع للظلم

ومن جملة الذنوب والخطايا التي عالجتها الروايات الشريفة -وقد لا يعتبرها البعض نوعاً من أنواع المعاصي- هي: الرضى بالظلم، والاستسلام له.

وهذه القضية من الممكن بحثها مع الأخذ بنظر الاعتبار أن الظَلَمة أشخاص طاغون ويتمتعون بالإمكانات المادية الكبرى، ومن الطبيعي أن يطمع قلب الإنسان

في أن يرضى عنه الأشخاص الأقوياء. وبناءً على هذا الطمع وهذه الرغبة الدفينة، تراه يعتذر لجرائم الظالمين ويبرر أخطاءَهم الشنيعة. في حين كان عليه أن يعرف بأن الخطيئة هي عمل غير صالح، أنّى كان مصدرها، وأيٌّ كان فاعلها. فإذا قام شخص معروف بالفقه والعدالة مثلاً بشرب المسكر، والعياذ بالله، فإن هذا العمل لا يجعل حرام الله حلالاً، وإنما الذي شرب الخمر يتغيّر وضعه ويسقط من القمة إلى الحضيض. وقد قال الإمام علي عليه السلام: «.. **إِنَّ دِينَ اللَّهِ لَا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ، بَلْ بِآيَةِ الْحَقِّ، وَاعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ**»(١).

فلا تختارنَّ أشخاصاً معينين، فتؤيدهم مسبقاً ودونما حجة ودليل، لأنك سترى نفسك مجبراً على التلاعب بالحق في كل حين، وفقاً لتغير سلوك من كنت قد أيّدتهم ورضيتهم مسبقاً.

إذن، فإن تبرير الظلم والسكوت عنه والرضى به أمور لا تتفق مع روح الإسلام. قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**الْعَامِلُ بِالظُّلْمِ وَالْمُعِينُ لَهُ وَالرَّاضِي بِهِ شُرَكَاءُ ثَلَاثَتُهُمْ**»(٢).

فالخياط -مثلاً- الذي يخيط ملابس الجنود الذين يشنون الحرب ضد المظلومين يُعتبر معيناً للظلم ومساهماً فيه ومعاقباً عليه.

أما عامة الناس الذين لا يشاركون في الظلم عمليًّا، ولكنهم يقبلون به، فهم بدورهم دخلاء وشركاء في حركة الظلم. ونقرأ في زيارة عاشوراء الشريفة: «... **وَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً سَمِعَتْ بِذَلِكَ فَرَضِيَتْ بِهِ**»(٣). وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**مَنْ أَعَانَ ظَالِماً عَلَى مَظْلُومٍ لَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَلَيْهِ سَاخِطاً حَتَّى يَنْزِعَ عَنْ مَعُونَتِهِ**»(٤).

---

(١) بحار الأنوار، ج٦، ص١٧٨.
(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٤٤.
(٣) مفاتيح الجنان، زيارة عاشوراء.
(٤) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٤٥.

13

تدبر عواقب الأعمال

على الإنسان أن يكون ثاقب النظر، متفكراً في العواقب، فلا يرى الأمور في لحظاتها القائمة فقط، دون النظر إلى المستقبل الذي ستؤول إليه.

يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إِنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّـهِ أَوْصِنِي. فَقَالَ صلى الله عليه وآله لَهُ: **فَهَلْ أَنْتَ مُسْتَوْصٍ إِنْ أَنَا أَوْصَيْتُكَ؟**.

حَتَّى قَالَ صلى الله عليه وآله لَهُ ذَلِكَ ثَلَاثاً، وَفِي كُلِّهَا يَقُولُ الرَّجُلُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: **فَإِنِّي أُوصِيكَ إِذَا أَنْتَ هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ، فَإِنْ يَكُ رُشْداً فَامْضِهِ، وَإِنْ يَكُ غَيّاً فَانْتَهِ عَنْهُ**»(١).

إن مصطلح التدبر مشتق من (الدُبْر) الذي يعني منتهى الشيء وما وراءه.

فإذا أردت الدخول في طريق لا تعرفه، فيفترض بك أن تستعلم عن النهاية التي يُؤدي إليه هذا الطريق، وحينما تريد تسجيل ابنك في مدرسة من المدارس، فعليك أن تسأل المتخرجين منها، ما إذا كانت قد وقعت لديهم موقع الرضى والقبول، من حيث التعليم والجو التربوي العام، وغير ذلك.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٢٣.

ويظن البعض أن المهم هو اتخاذ القرار ثم الإسراع في تطبيقه دون تروٍّ أو تفكير في النتائج المترتبة على ذلك. في حين أن هذه الطريقة عديمة الجدوى، باعتبار أن الاقتصار على التوجه العملي دون التدبر في عواقب الأمور غير ذي فائدة، إذ قد تؤدي هذه الطريقة في الحياة إلى نتائج عكسية، فتضرّ بدل أن تنفع.

ولا شك أن هذا النوع من التفكير والسلوك خاطئ من أساسه، ومصيره الفشل؛ بل على الإنسان أن يتدبر في عواقب الأمور في كل عمل يريد أن يقوم به، ويحسب كل الحسابات حتى تأتي النتائج مرضية وسليمة.

قيل إن بعض الناس جاؤوا إلى المرحوم الميرزا الشيرازي رحمه الله، وكان المرجع الديني للطائفة الشيعية في عهده، ليطلبوا منه تعيين أحد الأشخاص -وكانوا يعرفونه- وكيلاً له في منطقتهم، فتباطأ الميرزا، مما حدا بهم إلى معاودة الكرّة عليه، الأمر الذي اضطره إلى النزول عند طلبهم.

وبعد مدة من الزمن، اتضح أن الرجل الوكيل بدأ يسيء استغلال منصبه الديني، فاقترح أهل المنطقة على الميرزا الشيرازي رحمه الله هذه المرة عزله، وهم الذين أصروا من قبل على تعيينه، ولكن الميرزا رفض طلبهم بصورة قاطعة، مما يشير إلى وعي المرحوم الشيرازي رحمه الله، وطبيعته الإيجابية في التفكير بعواقب الأمور التي كانت خافية على الناس.

وحينما سئل عن السبب في إصراره على قرار عدم عزل الوكيل، قال لهم: كان هذا الشخص - قبل أن أجعله وكيلاً- يحظى بالاحترام والتقدير والكرامة بين الناس الذين كانوا يلتفون حوله، وحينما وكّلته، ازداد احترامه وقربه، ولكنني إذا عزلته، فسيصاب بنكسة روحية واجتماعية كبيرة، ولست على استعداد أبداً لإلحاق كل هذه الخسارة به. وقد أوصى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ابنه محمد ابن الحنفية رضي الله عنه قائلاً: «**مَنِ اسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الْآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ الْخَطَإِ**»[1].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٢٣.

قد نرى عشرة أشخاص جلسوا إلى بعضهم، يتشاورون فيما بينهم حول مسألة معينة، وكل واحد منهم يبدي رأيه في الموضوع، ومن الطبيعي أن يضم رأي كل واحد منهم الخطأ والصواب، وحينما يتم الأشخاص العشرة بيان آرائهم، يكون من السهل على الإنسان اللبيب جمع هذه الآراء، واستخلاص الآراء الصائبة من بينها، ليصل إلى النتيجة المطلوبة التي قد لا تحوي إلا أقل نسبة من الخطأ.

وقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: «.. **أَعْلَمُ النَّاسِ مَنْ جَمَعَ عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ، وَأَشْجَعُ النَّاسِ مَنْ غَلَبَ هَوَاهُ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ قِيمَةً أَكْثَرُهُمْ عِلْماً، وَأَقَلُّ النَّاسِ قِيمَةً أَقَلُّهُمْ عِلْماً**»(١).

قيل أن أحد الأشخاص حصل على مبلغ كبير من المال، فذهب إلى الصحراء، ليبحث عن مكان يخفيه فيه عن أعين الناس، فوجد شجرة، رأى من المناسب أن يدفن المبلغ تحتها، لتكون له علامة على مكان المال.

ثم إنه عاد إلى منطقته وبيته، وبعد مدة احتاج إلى المبلغ المشار إليه، فقصد الصحراء ليبحث عن شجرته وكنزه، ولكنه مهما بحث لم يجد للشجرة أثراً، فعلم هناك أن مبلغه قد ضاع منه إلى الأبد، فتأسف لذلك كل الأسف.

وحيث لم يعلم ما ينبغي له أن يصنع، عاد إلى بيته، وحينما أحست زوجته بضجر وكآبة الزوج، أدركت أن مشكلة كبيرة قد حلت به.

وحينما قص الرجل عليها القصة، قالت له: لا ينبغي لك أن تستسلم بهذه الصورة، بل عليك أن تستفيد من ذكائك وتسأل الناس عن مصير الشجرة، لتكتشف حقيقة الأمر.

فذهب الرجل إلى السوق، فرأى ثلاثة أشخاص يتحادثون فيما بينهم، فتوجه إليهم قائلاً: لقد حلت بي مشكلة، وأود أن أطرحها عليكم، فلعلكم تعينوني على

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص١١٣.

حلها، ثم قص عليهم تفاصيل القصة،فقال له أحدهم: أعتقد أن الشخص الذي قلع الشجرة كان بحاجة ماسة إلى جذورها، ولا شك أنه لم يكن يحتاج إلى أوراقها، وإلا لم يضطر إلى قلعها من الجذور.

ثم قال الرجل الثاني: عادةً ما تستخدم جذور الشجرة الفلانية لمعالجة الأمراض.

بينما قال الثالث: ينبغي أن نسأل أطباء المدينة عما إذا كان أحدهم قد راجعه مريض من المرضى يحتاج تحضير الدواء له من جذور هذه الشجرة.

فجمع الرجل صاحب المال الضائع آراء الرجال الثلاثة، وأضاف إليها بحثاً جدياً، فانتهى إلى العثور على ضالته.

وسواء كانت هذه الحكاية حقيقية أم أسطورة، فإنها تدل على أن الاستفادة من معلومات وتجارب الآخرين تعين الإنسان على حل مشاكله.

ثم يضيف الإمام علي عليه السلام في وصيته لولده محمد ابن الحنفية رضي الله عنه قائلاً: **«وَمَنْ تَوَرَّطَ فِي الْأُمُورِ غَيْرَ نَاظِرٍ فِي الْعَوَاقِبِ، فَقَدْ تَعَرَّضَ لِمُفْظِعَاتِ النَّوَائِبِ، وَالتَّدْبِيرُ قَبْلَ الْعَمَلِ يُؤْمِنُكَ مِنَ النَّدَمِ، وَالْعَاقِلُ مَنْ وَعَظَهُ التَّجَارِبُ، وَفِي التَّجَارِبِ عِلْمٌ مُسْتَأْنَفٌ، وَفِي تَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ»**[1].

إن بعض الناس لهم طبيعة متحجرة وفكر مغلق، فيكتفون بما تعلموه من الأبوين والأجداد في الصغر، وهذا ما يعد خطأً مبيناً، إذ الأصح هو أن يعرض الإنسان نفسه -كل يوم- إلى التجارب والأحداث المستجدة والعلم المتطور.

ثم يتعرض الحديث إلى قضية الامتحان الذي يكشف عن معدن المرء وجوهره، وهذا الامتحان يتحقق من خلال تقلّب الأحوال؛ أي حينما تتطور حياة الإنسان إلى الأحسن أو إلى الأسوأ، حينذاك يمكن اكتشاف حقيقته وسجاياه

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٢٣.

وجوانب شخصيته المختلفة.

ولعلكم قد رأيتم البعض حين يتمتع بسلامة بدنية وصحة جسمية يمتاز بأخلاق طبيعية وطيبة، ولكنه حينما يصاب بمرض ما، تظهر على سلوكه حالات عصبية، أو يتفوه بالكلمات الركيكة والنابية،الأمر الذي يكشف عن شخصيته الحقيقية. إذن وكما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَمَنْ أَمْسَكَ لِسَانَهُ أَمِنَهُ قَوْمُهُ، وَنَالَ حَاجَتَهُ، وَفِي تَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ**»[1]. فميزة الامتحان والابتلاء أنه يفتح الصندوق المغلق لشخصية الإنسان، فيتميز الخبيث من الطيب.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ، وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ**»[2]. ولذلك؛ فإن اللسان السليط يدمر صاحبه قبل أي عامل تدمير آخر.

مع التجارب، ندفع قليلاً من الثمن

إذا كان الإنسان مستمعاً جيداً، ومتعظاً بتجارب الآخرين، وشاعراً بالحاجة الدائمة إلى التعلم، فإنه لا شك سيدفع ثمناً قليلاً للحصول على رأسمال الحياة وجوهرها. ولكن الإنسان الذي لا يعتبر بما يمر عليه من التجارب، سيضطر إلى البدء في كل شيء من الصفر، وسيرغم على دفع الثمن أضعافاً مضاعفة.

وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: «**لَيْسَ لِحَاقِنٍ رَأْيٌ وَلَا لِمَلُولٍ صَدِيقٌ، وَلَا لِحَسُودٍ غِنًى، وَلَيْسَ بِحَازِمٍ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي الْعَوَاقِبِ، وَالنَّظَرُ فِي الْعَوَاقِبِ تَلْقِيحٌ لِلْقُلُوبِ**»[3]. فهناك بعض النّاس يعانون من مشاكل مع أنفسهم، فهم لا يستثمرون عقولهم وأفكارهم بطريقة سليمة، كما لا يستطيعون بناء علاقة رصينة مع الآخرين. وإذا ما كانوا مصابين بداء الحسد فإنهم لا ينالون الغنى أبداً،

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢٨٦.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٤٠.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٢٤.

كما سيكونون عرضة للوقوع في مطبات الحياة، لأنهم لا يتدبرون عواقب الأمور. في حين أن التدبر والتفكر والتعقل لمجريات الحياة يستوجب تلقيح القلوب.

ترى هل شاهدتم بدقة عملية تلقيح الأشجار لتكثير ومضاعفة ثمارها؟. فالنخلة مثلاً إذا لقحت بصورة علمية صحيحة، كانت ثمرتها جيدة ومرغوبة.

وللعقل الحالة ذاتها، فحتى أفضل العقول يحتاج إلى التلاقح مع العقول الأخرى والاستفادة من تجاربها.

لكيلا يضل الطريق

روي عن أبي جعفر، الإمام محمد الباقر عليه السلام، أنه قال: «أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله فَقَالَ: عَلِّمْنِي يَا رَسُولَ اللَّـهِ. قَالَ صلى الله عليه وآله: **عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، فَإِنَّهُ الْغِنَى الْحَاضِرُ**. قَالَ: زِدْنِي يَا رَسُولَ اللَّـهِ. قَالَ صلى الله عليه وآله: **إِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ**. قَالَ: زِدْنِي يَا رَسُولَ اللَّـهِ. قَالَ صلى الله عليه وآله: **إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ، فَإِنْ يَكُ خَيْراً وَرُشْداً فَاتَّبِعْهُ، وَإِنْ يَكُ غَيّاً فَاجْتَنِبْهُ**»[1].

والواقع هو أن الإنسان إذا غض الطرف عما في أيدي الناس، فإنه سوف ينظر إلى نفسه، وإلى ما يملك. ولا شك أنه سيجد نفسه غنياً بإمكاناته وقابلياته، ولكنه إذا استبد به الطمع فيما في أيدي الناس فإنه سيشعر بالفقر، وإن كان يملك المليارات، وبالتالي سيكون عرضة دائمة للعذاب الروحي.

ولكيلا يضل الطريق، عليه أن يتدبر عواقب كل أمر يريد أن يفعله، فإن كان يتجه صوب الخير والرشاد.. فما عليه إلا أن يتبعه، وإن كان يتجه صوب التيه والضلال.. فما عليه إلا أن يجتنبه.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٢٤.

14

طوبى لذوي الأخلاق الحميدة

روي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام، أنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ فِي آخِرِ خُطْبَتِهِ: **طُوبَى لِمَنْ طَابَ خُلُقُهُ، وَطَهُرَتْ سَجِيَّتُهُ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَحَسُنَتْ عَلَانِيَتُهُ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ، وَأَنْصَفَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ**»[1].

الحديث الشريف يشيد بمن كان طيّب الأخلاق، وطاهر السجايا والصفات، لاتشوبه أية قذارة سلوكية، وبمن كان صالح السريرة والباطن وحسن العلانية والظاهر.

ولنتوقف لحظة عند عبارة: «**وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ**».

إن الإنسان في حالة اليقظة قد يتمتع بالتقوى التي تمنعه عن المحرمات، ولكنه في عالم الرؤيا والأحلام لا يمتنع عن الحرام، وفي ذلك إشارة إلى أن التقوى لم تكتمل لديه بعد، إذ أن على الإنسان أن يزكي نفسه ويرتقي بها إلى درجة رفيعة من التقوى بحيث يتملكه الخوف من اقتراف الحرام حتى في عالم الأحلام. وهذا قد يكون أحد معاني صلاح السريرة.

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٢٥.

أما قوله ﷺ: «وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ..»؛ فهو بمثابة التمهيد إلى الوصول لأفضل حياة وأشرفها. فالبعض يتصور أن الحياة الفضلى تتمثل في امتلاكه بيتاً كبيراً، وآخر موضة من السيارات، وأن تكون زوجته رائعة الجمال.. ورغم أن هذه الأشياء تعتبر من جملة مميزات الحياة المادية، ولكنها لا ينبغي أن تستغرق كل اهتمام الإنسان وطاقته المادية والمعنوية ومنتهى جهده.

شراء أرض في الجنة!

أتذكر أيام الشباب، حيث مرّت على العراق ظروف أدت إلى هبوط شديد في أسعار الأراضي، فقلنا للمرحوم والدنا: لماذا لا تشتري لنا قطعة أرض ما دامت قيمة الأراضي قد أصبحت بخسة الثمن إلى هذه الدرجة؟.

فقال لنا: لا بأس عليكم، أجمعوا ما لديكم من مال لأشتري لكم أرضاً.

فجمعنا ما استطعنا جمعه، وانتظرنا الأرض التي سيشتريها لنا والدنا، وبعد عدة أشهر، لم يصل إلى أسماعنا خبر عن تلك الأرض، فاستعلمنا من المرحوم والدنا الخبر.

فقال: لقد اشتريت لكم أرضاً. فقلنا: فلماذا -إذن- لا نرى لها أثراً عياناً؟. فأجاب: لقد اشتريتها في الجنة.

وعلمنا فيما بعد أنه قام بإنفاق جميع المال على الفقراء والمحتاجين.

وأنا لا أدري هل أن تلك الأرض لا تزال باقية حتى الآن، أم أن أعمالنا غير الصالحة قد أتت عليها؟!.

وبمناسبة الحديث عن الجنة يجدر بنا أن نشير إلى أن الحصول على نعيم الجنة يستوجب التعب والمشقة الشديدة، إذ لا يمكن أن يتم ذلك بسهولة أبداً.

فَقد رُوِيَ عَنْ بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَزْدِيِّ، قَالَ: «سَأَلَ أَبُو بَصِيرٍ الصَّادِقَ عليه السلام،

وَأَنَا جَالِسٌ عِنْدَهُ عَنِ الْحُورِ الْعِينِ؟ فَقَالَ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، أَخَلْقٌ مِنْ خَلْقِ الدُّنْيَا، أَوْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ الْجَنَّةِ؟!. فَقَالَ عليه السلام لَهُ: **مَا أَنْتَ وَذَاكَ، عَلَيْكَ بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ آخِرَ مَا أَوْصَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَحَثَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ..**»[١].

فإذا كنتَ تريد نعيم الآخرة فإن ذلك لا يحصل بمجرد التمني ووصف النعم، بل بالعمل والجد والإجتهاد، ومن ذلك الاهتمام بالصلاة.

وَرُوِيَ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام، اسْتَقْبَلَهُ مَوْلًى لَهُ، فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ، وَعَلَيْهِ جُبَّةُ خَزٍّ، وَمِطْرَفُ[٢] خَزٍّ، وَعِمَامَةُ خَزٍّ، وَهُوَ مُتَغَلِّفٌ بِالْغَالِيَةِ[٣]. فَقَالَ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ، عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ.. إِلَى أَيْنَ قَالَ؛ فَقَالَ: **إِلَى مَسْجِدِ جَدِّي رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَخْطُبُ الْحُورَ الْعِينَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[٤].

الأمل في الإصلاح

على الإنسان المؤمن أن لا يغفل في حياته عن الاهتمام بمسألة إصلاح النفس، كما عليه أن يعرف بأن الفرصة لإصلاح النفس سانحة في كل وقت. وقد قال لي ذات مرة أحد الأشخاص ممن تجاوزوا سنّ الخمسين: بعد كل السنين التي من الله بها عليَّ، فإني أرى أن الحياة لم تنته بعد، وأن عمري لم يصل إلى نهايته، وهذا بحد ذاته ما يبعث على الأمل في مواصلة إصلاح نفسي.

وأضاف: وعلى هذا الأساس لا يجوز لي أن أسمح لليأس بالتغلغل في داخلي، بل عليَّ أن أفكر وأخطط لكي أعيش بقية عمري على ضوء برنامج دقيق وصحيح، لأستطيع بذلك إصلاح ما لم أتمكن من إصلاحه حتى الآن. ولحسن

---

(١) بحار الأنوار، ج٨١، ص٢٣٦.

(٢) المطرف: (كمكرم) رداء من خز مربع ذي أعلام والجمع مطارف (القاموس).

(٣) الغالية: طيب معروف (القاموس).

(٤) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٥٩.

الحظ، فقد دخلت معترك الحياة بهذا التصور والعزم الأمر الذي أحدث ولا يزال التغييرات الجذرية المستمرة في حياتي.

بلى؛ إنه لا يصح للمرء أن يشعر بأنه قد وصل إلى طريق مسدود، فهو حتى وإن بلغ مرحلة الشيخوخة ،باستطاعته خلق المعجزات وإنجاز أضخم الأعمال.

فما دام الإنسان يتنفّس عليه أن يبذل الجهود، وأن يستهدف التقدم إلى أفق أسمى، وأن يعمل على سد النقص الحاصل في إطار تنفيذ العمل الصالح وإصلاح الذات.

نجم الهداية

إن الإنسان الذي يريد الانطلاق في الحياة لا بد له من معيار وخطة عمل يعتمد عليهما في الحركة نحو الهدف. تماماً كما السفينة التي تمخر في البحار، حيث تتزود ببوصلة تحدد لها الجهة والمسير، وما لم تكن هذه الوسيلة، يضطر القبطان إلى الامتناع عن إصدار أوامر الحركة والانطلاق؛ ومثل هذه الوسيلة تمتلكها الطائرة أيضاً.

وهكذا الإنسان الذي يفترض له أن يعيش سبعين عاماً في هذه الدنيا المتلاطمة الأمواج، لابد له من وسيلة تمهد له وصوله لغايته المرجوة.

فينبغي له البحث عن نجم الهداية الذي يستطيع من خلاله العثور على الصراط القويم. أما الأئمة المعصومون عليهم السلام؛ فلهم في هذا المجال كلمات وأدلة ممتازة تهدي الإنسان وتأخذ بيده، وواحدة من هذه الأدلة ما جاء بخصوص ضرورة أن يكون للإنسان معيار أخلاقي يمهد له الحياة الطيبة التي يشترك فيها مع الآخرين؛ وهذا المعيار هو: أن يحب للناس ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها.

ومن الأمور التي تعيق حركة الإنسان في الاتجاه الصحيح هو: اختلاط الهوى والعقل في داخل الإنسان، فالشيطان يسعى إلى مزج العقل بالهوى، ليضيِّع فرصة

الهداية والاهتداء على ابن آدم، بل قد يحدث أن يتحرك الإنسان في حياته من وحي هواه معتقداً أنه يهتدي بهدى العقل، فيحتل الهوى مكانة العقل في نفس الإنسان.

وعلى كل واحد منا أن يسعى للفصل بين الهوى والعقل، ويميز الواحد منهما عن الآخر. وهذا بالطبع مهمة صعبة جداً.

ولابد أن نعرف أن الفارق بين المؤمن والمنافق ليس في أن المؤمن لا يمد يده باتجاه الذنوب والمنافق يغرق في ارتكاب الذنوب، بل التفاوت يكمن في أن المؤمن حينما يسقط في المعصية، سرعان ما يلوم نفسه ويوبخها، ولكن المنافق ينهمك في البحث عن المعاذير لتبرير ما يرتكب من ذنب، وعملية البحث عن العذر والتبرير تعتبر أسوأ بكثير من الذنب نفسه.

فالتبرير والتغطية على الذنوب والأخطاء يتسببان في انعدام الرغبة في الاستغفار، كما يمهد للإصرار على تكرار الموبقات، فيكون كل ذنب من الذنوب مقدمة لذنب آخر، وهكذا فإن اختيار التبرير كمعيار للإنسان المنافق في حياته يُعدُّ انحرافاً كبيراً يؤدي به إلى الهاوية.

وحول المعيار الصحيح روي أنه جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: «يَا رَسُولَ اللَّـهِ عَلِّمْنِي عَمَلًا أَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ. فَقَالَ ﷺ: **مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَأْتِهِ إِلَيْهِمْ، وَمَا كَرِهْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَلَا تَأْتِهِ إِلَيْهِمْ**»[1].

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: «أَوْحَى اللَّـهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى آدَمَ عليه السلام: **أَنِّي سَأَجْمَعُ لَكَ الْكَلَامَ فِي أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ**. قَالَ عليه السلام: يَا رَبِّ وَمَا هُنَّ؟. قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: **وَاحِدَةٌ لِي وَوَاحِدَةٌ لَكَ، وَوَاحِدَةٌ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَوَاحِدَةٌ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ النَّاسِ**. قَالَ عليه السلام: يَا رَبِّ بَيِّنْهُنَّ لِي حَتَّى أَعْلَمَهُنَّ.

قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: **أَمَّا الَّتِي لِي فَتَعْبُدُنِي؛ لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً، وَأَمَّا الَّتِي لَكَ؛ فَأَجْزِيكَ**

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٢٨.

بِعَمَلِكَ، أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ، وَأَمَّا الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَعَلَيْكَ الدُّعَاءُ وَعَلَيَّ الإِجَابَةُ، وَأَمَّا الَّتِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَتَرْضَى لِلنَّاسِ مَا تَرْضَى لِنَفْسِكَ، وَتَكْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ»(١).

ونحن إذا تمكنا من استخدام هذا المعيار في حياتنا، والذي حدده الله عز وجل لآدم عليه السلام للتعامل مع الناس، نكون قد وجدنا وحددنا نجم هداية عظيم لسلوكنا المادي وحركتنا المعنوية في الحياة.

ابحث عن عيوبك.. لا عيوب الآخرين

من الخصال المهمة للمؤمن هو أنه ينشغل بعيوبه عن عيوب الناس، فلا يتتبع عيوب الآخرين، بل يمعن النظر دائماً في حياته وسلوكه ومسيرته حتى يكتشف ما بها من عيوب فيعمل على إصلاحها، ذلك أنَّ من انشغل بعيوب الآخرين غفل عن عيوب نفسه، وبالتالي لم يعمل على إصلاحها.

جاء في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «..**طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ خَوْفُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ خَوْفِ النَّاسِ طُوبَى لِمَنْ مَنَعَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِخْوَانِهِ..**»(٢).

لقد صنع النحاتون في اليونان القديمة تمثالاً عظيماً يصور رجلاً، تثير الدهشة عيونه التي تُفتح باتجاه نفسه، فلا تنظر إلا إلى التمثال، ويبدو أنهم كانوا يريدون أن يصوروا للمتفرجين بأن الإنسان يجب أن ينشغل بعيوب نفسه، ويمتنع عن تتبع عيوب الناس والبحث عن مثالبهم.

وفي رواية أخرى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أن الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله قال: «**ثَلَاثُ خِصَالٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ، أَوْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ، كَانَ فِي ظِلِّ عَرْشِ**

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٢٨.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٢٩.

اللَّـهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، رَجُلٌ أَعْطَى النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ مَا هُوَ سَائِلُهُمْ، وَرَجُلٌ لَمْ يُقَدِّمْ رِجْلًا وَلَمْ يُؤَخِّرْ رِجْلًا حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِلَّـهِ رِضًى، وَرَجُلٌ لَمْ يَعِبْ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ بِعَيْبٍ حَتَّى يَنْفِيَ ذَلِكَ الْعَيْبَ عَنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفِي مِنْهَا عَيْباً إِلَّا بَدَا لَهُ عَيْبٌ. وَكَفَى بِالْمَرْءِ شُغُلًا بِنَفْسِهِ عَنِ النَّاسِ»[١].

فالمنشغل بعيوب نفسه عن عيوب الناس أحد الثلاثة الذين يكونون في يوم القيامة تحت ظل العرش، ذلك اليوم الذي يقول الله عنه في كتابه المجيد: ﴿**تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾[٢].

ولعلكم تعلمون بأن وجه الإنسان من أكثر أعضاء البدن حساسية، لا سيما إذا تعرض للهيب النار، وفي يوم القيامة يُعرض الوجه إلى النار عنوةً، وعلى أشد ما يكون التعريض والتماس إلى نارٍ أعدها الجبار لغضبه، حيث لا يمكن بأي شكل من الأشكال مقارنتها بنيران الحياة الدنيا.

وطبقاً للرواية المشار إليها، سيستظل ثلاثة رجال بظل عرش الله في يوم القيامة، حيث يقضون ذلك اليوم في راحة وأمن من أهوال الحساب الذي يتعرض له غيرهم:

* رجل يحترم الناس ويرعى حقوقهم كما يتوقع هو من الناس أن يحترموه ويراعوا حقوقه. فإذا كان يكره أن يغتابه أحد أو يذكره بسوء فهو أيضاً لا يغتاب أحداً، وإذا كان يريد الكرامة لنفسه فلا بدَّ أن يوفرها لغيره أيضاً.

* ورجل لا يخطو خطوة حتى يتأكد من أنها ستكون محط رضى الله تعالى، ولا يكون الرجل كذلك حتى يتبع عقله ويفضِّله على هواه.

فقد قال الإمام علي عليه السلام: «**مَنْ قَدَّمَ عَقْلَهُ عَلَى هَوَاهُ حَسُنَتْ مَسَاعِيهِ**»[٣].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٢٩.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ١٠٤.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة رقم: ٤٣١.

* ورجل لم يتتبع عيوب الناس حتى يطهِّر نفسه من كل العيوب، ولأن الإنسان لا يخلو أبداً من عيب، فهو دائم الانشغال بعيوبه عن عيوب الناس.

الله يتجلى في القرآن

إن مصدر المعايير الأخلاقية التي ينبغي أن يتخذها الإنسان كبوصلة يهتدي بها في الحياة، ويسلك بها الطرق الصحيحة، ويتجنب بواسطتها المهالك؛ إن مصدر هذه المعايير هو الله الخالق العالم البصير، الذي يحيط علماً بما يُصلح الإنسان ويفسده. وإذا كان الله لا يوحي لكل واحدٍ منا مباشرة بهذه المعايير، فإنه يتجلى لنا في كتابه الكريم.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**لَقَدْ تَجَلَّى اللَّهُ لِخَلْقِهِ فِي كَلَامِهِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُبْصِرُونَ**»(١).

وهنا ينبغي إمعان النظر في هذه الرواية الكريمة، لا سيما وأن كثيراً من الناس تراهم يقرؤون آيات القرآن المجيد، ولكنهم لا يبصرون حقيقة تجلي الله لهم.

ولتوضيح معنى هذه الرواية أقول: إن العلاقة بين سائر الكتب وبين مؤلفيها قد تنقطع تماماً بالموت، وحتى فيما يخص أمهات الكتب مثل موسوعة (وسائل الشيعة) للمرحوم الشيخ الحر العاملي قدس سره مثلاً، إذ ليس من علاقة بينه وبين كتابه في الوقت الحاضر، لأن الموت قد فصل بين الطرفين.

ولكن القضية تختلف كليًّا بالنسبة إلى القرآن الكريم، فهو وحيٌ إلهيٌ دائم ومستمر على طول الزمان. فالعلاقة وثيقة بين هذا الكتاب الكريم وبين الله المنان سبحانه وتعالى، لأن الله حيٌ لا يموت،ولأن القرآن طريٌّ وجديدٌ أبداً.

وَقد رُوِيَ عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: «**لَوْ مَاتَ مَنْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، لَمَا اسْتَوْحَشْتُ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مَعِي**. وَكَانَ عليه السلام إِذَا قَرَأَ

(١) بحار الأنوار، ج٨٩، ص١٠٧.

﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، يُكَرِّرُهَا حَتَّى كَادَ أَنْ يَمُوتَ»[١].

من هنا ينبغي أن نردد كلمات القرآن مع أنفسنا ما وسعنا، لما لها من دور فعال في إزاحة الحجب والشوائب المادية، ودفع الروح إلى السير باتجاه الله عز وجل، وجذب واكتساب أشعة الرحمة الإلهية الواسعة.

فإذا نوى المرء أن يسير في صراط الله المستقيم، عبر الاستعانة بمعاييره الإيمانية الحقة، فإنه لن يضل الطريق حتى وإن تعطلت واحدة من هذه المعايير.

ولعلكم قد وصل إلى أسماعكم قصة (كاظم الكربلائي) الذي كان يعيش في إحدى ضواحي مدينة أراك الإيرانية، فرغم أنه كان رجلاً أمياً لا يقرأ ولا يكتب، إلا أن الله سبحانه وتعالى أكرمه بأن أراه في أخريات حياته كلمات القرآن على هيئة النور، فكان يميز بينها وبين سائر الكلمات الأخرى.

إن الوصول إلى هذه المدارج العالية لا يتفق أبداً مع انفلات النفس الأمارة بالسوء، فما لم يُكبح جماح هذه النفس، وما لم تهدأ تحت ظل القيم والمعايير الإلهية، فلا دور للعقل في حياة الإنسان أبداً.

ومن اليسير جداً معرفة من لا يريد الاستنارة بنور عقله من أبناء المجتمع، ويصر على التخبّط في المستنقع النتن للنفس الأمارة بالسوء. ومِن هذه الشريحة مَنْ يتتبع عيوب غيره، ويتقن الغيبة وتوجيه التهم، وهو حتى إن لم يتفوه بهذه الموبقات، فإنها لا شك تسبح بصورة مستمرة بين خلايا ذهنه، فتراه -على أقل تقدير- يسيء الظن بإخوانه في الإيمان، ولذلك عليه أن يعلم بأنه سيعجز عن ارتقاء مدارج الكمال والتكامل، ما دام مصراً على هذا النهج في حياته، لأن الاهتمام بعيوب الآخرين يشغله عن متابعة عيوب نفسه.

وقد ورد عن الإمام علي عليه السلام، أنه قال: «الْغِيبَةُ جُهْدُ الْعَاجِزِ»[٢].

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٠٧.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٤٦١.

فهناك من الناس من هو متخم بنقاط الضعف والموبقات، ولكنه يعمد إلى تقصي معايب الناس، ليتهرب من واقعه المليء بالعيوب والسلبيات.

فمن يشغل نفسه ببذيء الكلام صباح مساء، واضحٌ أنه يريد بعمله هذا أن يثير الغبار من حوله حتى لا يرى ما في نفسه من نقص وعيب. إن النفس اللوّامة تدعو مثل هؤلاء الأشخاص -بشكل مستمر- إلى السعي لبناء الذات، وتزكية النفس، وسد النواقص، ومعالجة العيوب، إلا أنهم يعودون فيلقون باللوم على الوالدين، والظروف، والمعلِّم، وربّ العمل، والحكومة، وفي نهاية المطاف: المجتمع.

بينما نلاحظ أن الروايات الشريفة تدعونا إلى الاشتغال بالبحث عن عيوبنا وتحمل مسؤولية العمل من أجل تغييرها.

فإذا كان الإنسان -على سبيل المثال- مستخفّاً بالصلاة، فلا يصح أن يقول: أكثر الناس مستخفّون بالصلاة وأنا واحدٌ منهم.

بل العكس هو الصحيح، فلأن الإنسان قادر على التعامل مع نفسه ومعالجة عيوبه أكثر من الآخرين، فعليه أن يهتم بإصلاح الذات، وتحمل مسؤولياته والعمل بوظائفه وواجباته بغض النظر عما يفعله الآخرون، وما يسلكونه من طريق.

وحول بعض النقاط التي تعين الإنسان في عملية إصلاح الذات، نقرأ جانباً من وصايا رسول الله ﷺ لأبي ذرٍّ الغِفَارِيِّ رضي الله عنه، قَالَ قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي. قَالَ ﷺ: **أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ الْأَمْرِ كُلِّهِ.**

قُلْتُ: زِدْنِي. قَالَ ﷺ: **عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَذِكْرِ اللَّهِ كَثِيراً.**

قُلْتُ: زِدْنِي. قَالَ ﷺ: **عَلَيْكَ بِطُولِ الصَّمْتِ.**

قُلْتُ: زِدْنِي. قَالَ ﷺ: **إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الضَّحِكِ.**

قُلْتُ: زِدْنِي. قَالَ ﷺ: **عَلَيْكَ بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَمُجَالَسَتِهِمْ.**

قُلْتُ: زِدْنِي. قَالَ ﷺ: قُلِ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرّاً.

قُلْتُ: زِدْنِي. قَالَ: لَا تَخَفْ فِي اللَّـهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ.

قُلْتُ: زِدْنِي. قَالَ ﷺ: لِيَحْجُزْكَ عَنِ النَّاسِ مَا تَعْلَمُ مِنْ نَفْسِكَ وَلَا تَجِدُ عَلَيْهِمْ فِيمَا تَأْتِي مِثْلَهُ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: كَفَى بِالْمَرْءِ عَيْباً أَنْ يَكُونَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ يَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ مَا يَجْهَلُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَسْتَحْيِي لَهُمْ مِمَّا هُوَ فِيهِ وَيُؤْذِي جَلِيسَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: يَا أَبَا ذَرٍّ؛ لَا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ وَلَا وَرَعَ كَالْكَفِّ وَلَا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ»[1].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٣٠.

المحتويات